النداء الأخير
للحرية

حبيب عيسى

أوراق السجن

- النداء الأخير للحرية
" أوراق السجن "

❖ تأليف : حبيب عيسى
❖ الطبعة الأولى
❖ تاريخ الإصدار : 2002
❖ عدد النسخ :
❖ التنفيذ الضوئي:
❖ الإخراج الفني: أصدقاء حبيب عيسى
❖ الغلاف: ناصر الغزالي
❖ منشورات أوراب واللجنة العربية لحقوق الإنسان

النداء الأخير للحرية

حبيب عيسى

أوراق السجن

" .. إذا كنت تريد أن تعيش
عليك أن تصنع ثورة.."

هوشي مينه

تقديم النداء الأخير

د. كمال اللبواني

بشكل عفوي تماماً، كربيع دمشق، كان لقاؤنا الأول، في المنتديات... كان يدير منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي، عندما كنت أتداخل معقباً على المحاضرين..

ومرة إثر مرة، كنا نكتشف تقاربنا، ونكتشف أننا نتعاون لذات الأهداف، وبذات الوسائل أيضاً... وهذا لم يكن ينطبق علينا وحدنا، بل هو الصفة العامة للحركة المطلبية الديمقراطية في سورية..

رغم ذلك التقارب التدريجي العفوي، لم أحتكّ بحبيب بشكل جدي حتى عشيّة اعتقالنا، يوم كنا مجتمعين في منزل النائب رياض سيف، الذي كان قد اعتقل في اليوم السابق، وكنا ننظم اجتماعاً تضامنياً، حرصنا أن يحضره ممثلون عن كل المنتديات واللجان والجمعيات المدنية المشاركة في الحراك الديمقراطي، وتحديداً في يوم الجمعة 2001/9/7، في ذلك المساء المتوتر، بعد أن أيقنا أن حملة اعتقالات ستشن علينا، أذكر أنني قلت له: " ما رأيك يا أستاذ حبيب (والكلفة لم تكن قد رُفِعَت بيننا بعد) أن تكون شريكي في السجن؟ "، أجاب ضاحكاً: " موافق "..

وفي اليوم التالي اعتقلنا، أنا وأربعة أصدقاء آخرين من الناشطين، ولم يكن حبيب بيننا، لكنه (وكما علمنا فيما بعد) صار كمن مسّه الشر، خلال ثلاثة أيام لا يهدأ ولا يكلّ، فهو لم يترك وسيلة للتنديد باعتقالنا إلا واستخدمها، كأن ضميره كان يدفعه دون تروٍ لينفّذ اتفاقه معنا.. ولن أنسى ولا يمكن أن أنسى له يوماً، موقفه الأكثر من أخوي، بجانب أسرتي، في تلك الأيام العصيبة، ولا نكرانه التام لذاته وموقفه الشجاع خلف أصدقائه. وربما صرت أتمنى أن يوجد في وطني أكثر من حبيب واحد، دون الانتقاص مما فعله الآخرون.

ولم يطل الوقت حتى وجدناه يدخل غرفتنا في السجن قادماً من زنزانات فرع الأمن، كان يقبّلنا بحرارة لا توصف.. لقد وصل إلينا.. كان فرحاً بذلك لدرجة، كأن الدنيا التي تركها لا تهمه بقدر اهتمامه بلقائنا، وتنفيذه لتعهده. قلنا له: استرح، غيّر ثيابك، استحم.. رفض كل ذلك وقال: " دعوني أنظر إليكم وأتحدث معكم أخيراً.. ".

وخلال شهرين انقضت حتى الآن، والتي لم نخرج فيها من غرفتنا، نحن الأربعة: حبيب وعارف ووليد وأنا، أعتقد أننا تعارفنا جيداً، كنا نطلب منه بصفته محامياً، أن يكتب مرافعته عنا جميعاً، كان يقول: " أنا لا أعترف بهذه المحكمة.. ومع ذلك سأكتب مرافعتي لكن لا لأقدمها للمحكمة، بل للشعب، والرأي العام، ليحكم، هو، بشكل مباشر...".

لذلك باشر في كتابة هذا المخطوط، وعندما شارف على الانتهاء منه، قلت له: " مادام أنك ستعرض قضيتك على الشعب، اجعلني أول الشاهدين عليك.. "، قال : " بشرط أن تكون صادقاً "، قلت: " أقسم أنني لم أكن غير هذا في السابق، ولن أكون فيما سيأتي.. ".

لذلك، فأنا لا أكتب هذه السطور لأعقب على أفكاره، لأنه الأقدر على شرحها، ولأنني لم أقرأ بعد ما كتبه، بل لأضيء لكم بعضاً من جوانب شخصيته، التي قد لا يسهل التعرف عليها من غير المعاشرة اللصيقة، في مثل هذه الظروف القاسية التي نعيش...

في الواقع لم يكن لأحد منا أن يتحمل حجز حريته بسهولة، كما هو الحال مع المثقفين عموماً، كنا نشبه ذلك الشحرور، الذي تمكنت من الإمساك به ذات يوم، وعندما حاولت زجّه في القفص، قاوم بعنفوان عجيب، تطاير معظم ريشه، حتى أدركت أنه سيموت لو لم يُطلق سراحه على الفور.. وبالفعل لا يبدو لي أن هنالك علاقة، من نوع ما، بين عمق الإيمان أو الالتزام، وبين القدرة على تحمل السجون.. فالسلوك داخل السجن يختلف باختلاف الطباع والعادات، وليس باختلاف القناعات ودرجات الإيمان إلى حدّ كبير.. فالسجناء العاديون الذين كنا نراقبهم في الساحة المجاورة، كما يبدو على سلوكهم، أنه اعتيادي أكثر منا، نحن الذين ندّعي أننا دخلنا السجن من أجل قضية عامة وهامة.. أتيت على ذكر هذا قبل أن أقرّ بأن حبيب كان أقلنا ضجراً وانفعالاً، ربما كان ذلك بسبب طفولته القاسية، أو لأسباب أخرى.. ومع ذلك كان عندما يشعر بالانزعاج يهرب إلى النوم، وغالباً ما كان يتظاهر بالنوم.. كان يندسّ تحت بطانياته الكثيرة، ويرقد بصمت مغمضاً عينيه، دون حراك ولا شخير... لذلك أؤكد أنه قد نام كثيراً، أكثر مما ينبغي.. لقد كنا منزعجين، ورغم بحثنا الدائم عن وسائل التكيف مع هذا الأسر، ما نزال حتى يومنا هذا، نحاول، دون جدوى.

لكن هذا لا يعني أن أي واحد منا قد فكر أو يمكنه أن يفكر في تقديم تنازلات، أو أنه نادم، ولا يجب أن يعني كوننا غير سعداء في السجن أننا فقدنا إيماننا وتزعزعت قناعاتنا، أو أن مواقفنا ستتغير.. بل ربما العكس هو المرشّح للحدوث.. على كل حال لم يفاوضنا أحد على ذلك، ولم نُمتحن بشكل جدي، بعد، على هذا الصعيد.

وعلى العكس من حبيب، كنت أجد في الاستفزاز وسيلتي للتكيف، كنت دائم الإثارة للنقاشات والخلافات، وكثيراً ما ألجأ لتغيير مواقفي المتطرفة جداً بشكل جذري في كل مرة لكي أحافظ على حرارة السجال، وكي أتغلّب بواسطته على ذلك الصمت الكئيب الذي كنت أخشى أن يدمّر عقولنا التي تعبنا في إعدادها.. ولم أوفر الأشياء الكبيرة ولا التافهة، كما أنني لم أوفر أحداً، بمن فيهم القضاة وضباط الأمن الذين كنت أتعمّد إسماعهم العبارات اللاذعة التي لم يعتادوا أو يتصوروا أن يسمعوها.. بينما كان عارف ووليد يفضلان تمضية الوقت بالتسلية والأشياء العادية..

وأحد مولدات الخلاف مع حبيب كان الطعام.. فهو يبدأ طبخاته عادة بقلي البصلة بالزيت في المقلاة، كان يفضل أكل الفقراء، وكان هذا الانقسام المذهبي في الطبخ مادة خصبة لبداية جدال حدوده العالم بأسره... لقد كان حبيب يمضغ ببطء شديد، وكان آخر من يغادر الطعام لذلك ترتب عليه أعباء إضافية.. وكثيراً ما كنت أتبادل معه الخطاب بصيغة التأنيث عندما كان على أيّ منا أن يقوم بدور الأنثى (حسب تقسيم العمل في المجتمع الذكوري) لنعوّض عن حرماننا المديد في استعمال صيغة التأنيث المحببة.

كان شديد الهدوء، بذات القدر من العناد، عنيد جداً جداً، وهادئ جداً "في غالب الأحيان"، ومعتدلاً في مواقفه في كل شيء "هكذا الظاهر"، أيضاً كان رقيقاً بشكل غير متوقع، سرعان ما تمتلئ عيناه بالدموع، ليس في المواقف الحزينة، بل في المواقف المعبّرة. ورغم هذه الصفات الحسنة لم يكن يخلو من آثار الديماغوجية "القومية"، ولا يتردد في اقتحام خصوصيات الآخرين "وبشكل فظ" فارضاً عليهم ما يريد، لو وجد مبرره لذلك، أي حين يستغرقون في سكون الحزن.. فقد كان يجبرنا على المشي وعلى الطعام والاستيقاظ وغير ذلك بكل وسائل الإجبار المتاحة لديه..

كانت نقاشاتنا النظرية الكثيرة تكشف لنا حقيقة اختلافنا، لقد كان لكل منا مشربه النظري الخاص والمختلف، ومع ذلك كنا في المواقف العملية متوافقين بشكل مدهش، وهذه الظاهرة تعبّر عن عمق وصدق الحركة الديمقراطية وتنوعها الحيوي، وقد تدلّ أيضاً على إفلاس كل الأسس النظرية التي تربينا عليها، وتكشف عجزها عن التواصل مع متطلبات الواقع الراهن، فكأن المواقف العملية تنبع من قناعات أخرى غير تلك التي حفظناها منذ زمن ونتجادل فيها دوماً.

كان حبيب يفضل الاستماع ثم أخيراً يعطي رأيه بإيجاز وبطريقة لا تترك أي مجال للنقاش بعدها.. كانت آراءه بمثابة أحكام قاطعة، وعبثاً كل محاولة لتثنيه عنها، وغالباً ما كان يقول: "أنا كذلك، قد أكون على خطأ، هذا رأيكم لكنني أحتفظ بقناعاتي".

ورغم محاولاتي العديدة، لم أنجح في زحزحته عن عقيدته القومية قيد أنملة، وأصدقكم القول أنني نشأت على عداء مع هذه الفكرة لسببين: الأول أنه مع بداية تفتّح وعيي، وكنت في سن العاشرة، حدثت هزيمة حزيران النكراء.. لذلك نشأ عندي ازدراء لكل ما له علاقة بالعروبة وبتراثها، وعزّز ذلك الازدراء ورفعه إلى أقصى درجاته سلوك الأنظمة والمنظمات التي تاجرت بالشعارات القومية، حتى أوصلت شعوبها إلى درجات من الذل والانحطاط.. وكذلك أيضاً سلوك الجماعات التي وظّفت التراث والدين، كأسوأ ما يكون التوظيف، في خدمة الانحطاط.

لكن معاشرتي لحبيب بدأت تكسر هذا الجليد بيني وبين تفكير قومي مختلف، لأول مرة، هو وطنيّ وديمقراطي وبذات الوقت قومي، ولأول مرة تحاول الفكرة القومية أن لا تكون أداة مزاودة أو انتهاز أو تسلط واستبداد أو مركّب فاشي وعنصري.

يصعب علي أن أفكر بأنني سأفترق عن حبيب في يوم، لا أدري متى..؟ فهو يقول: "قد يكون غداً.. أو بعد عمر طويل، علينا أن نتأقلم مع كل الاحتمالات". وكان يصيح فينا: "اصمدوا... اصمدوا...".. "شعبكم بخير.. أمتكم بخير.. لذلك ستكونون بخير..".

كتبت ما سبق قبل أن أقرأ المخطوط، لكن بعد أن قرأته وانتهيت، أغلقت الدفتر وبقيت مضطجعاً في السرير، عندما تقدم مني وسلمته له... قال: "ما رأيك؟".. قلت: "أريد أن أنام..". نعم كنت أريد أن أنام طيلة مدة سجني.. أصحو فقط لحظة خروجي. لا أستطيع أن أصف عنف الرغبات التي تتملكني، ولا أن أحيط بها، ولا أدري أي منها سيصمد عندما نصبح خارج السجن، ولا أيها سيتحقق فيما تبقى لنا من العمر..

بعد أن سلمته المخطوط، أحسست برغبة شديدة في الفرح، في الشعر.. كتبت أبياتاً أتخيل فيها ما سيجول بخاطري بعد خروجي.. بعكس ما سبق حيث كنت أكتب من موقعي داخل السجن.. وأنا بالمناسبة ليست لي محاولات شعرية خارج هذه الزنزانة، ولا أدري إن كانت رغبتي في الشعر قد تحركت بعد قراءة هذا المخطوط...

عشنا أياماً لن تُنسى
فشلت فيها كل فنون الصبر
كان الفرح شبه محال
في زمن يتحجر مثل التمثال
ليله طال
حتى أيقنّا
أنه ليل لن يتلوه نهار

ومرّت تلك الأيام
صارت للذكرى
في هذا اليوم
تغير طعم النوم
تتغير رائحة الريح
تأتيني ريح طيبة

تأتيني بشارة

الشمس تناديني
من بين ظلال الأغصان
أفرح
لا أملك إلا أن أفرح
من حقه وطني
من حقه
أن يفرح أحراره

د. كمال اللبواني

تـعـــــارف

1. حقيقة لا أعرف من أين أبدأ هذه المغامرة... ذلك أن للسجون نواميسها الخاصةو التي لا يدركها إلا من يقبع وراء قضبانها... ورغم أنني قرأت الكثير عنها، واستمعت إلى شهادات لا تحصى عن السجون والمعتقلات والأقبية، إلا أن هذه التجربة المعيشة تضيف ما لا يستطيع القلم أن يخطه على الورق... لهذه الظروف فإن التعارف هنا سيكون من طرف واحد، ذلك أنني، وعلى مساحة الصفحات التالية، إلى آخر كلمة سأفرض نفسي عليكم، وسأتحدث ربما بذاتية مفرطة عن (الأنا) رغم أنه العياذ بالله من كلمة (أنا).. لكن الضرورات تبيح المحظورات، كما تقول القاعدة الشرعية.. إنها حالة من حالات النرجسية.. والنرجسية مرض مستوطن في بلادنا، لكنها هنا، إذا ارتبطت بظروف قاهرة زالت مع زوالها، فإنها تكون مجرد حالة مؤقتة تستنفر فيها غدد الجسم كلها لتفرز كل مخزونها من الصادات دفعة واحدة لمواجهة خطر داهم كي يستقوي بذاته المُحاصرة، ذلك أن انهيارها يعني انهياره النهائي، لذلك فإن الإنسان عادة في مثل هذه الظروف لا يكتفي بأن يعطي نفسه حق قدرها وإنما يضخمها قدر المستطاع... وفي المصطلحات الشعبية يُقال (ينفخها)، ويطلقون على من يمارسها مصطلح (منفخة)، ويسوقون على ذلك مثلاً شعبياً (رذيلاً) لا أستطيع أن أخطه على الورق... لكن حتى لو كان ذلك كذلك، فإنني لن أتراجع، لأنني أجد بين ذلك كله وبين الحلم صلة، والسلاح الوحيد المتاح لي الآن للانتصار على وحشة المكان هو الحلم... الحلم بأنك لست وحيداً، الحلم بأنك لست ضعيفاً، الحلم بأنك مهم، ومهم جداً، تنتمي إلى أمة وشعب وأصدقاء وأحبة، كلهم في منتهى الأهمية.. وأنها محنة، وستمضي.. أن تشعر أنك جزء من تيار طويل عريض يقول ما تقول، ويحلم بما تحلم.. هذا هو مصدر القوة الأساسي، ويهون بعد ذلك كل شيء.. قد تقولون، وأنتم على حق في ذلك، ونحن ما علاقتنا بذلك، تفرض نفسك على صفحات هذه الأوراق نقلبها الواحدة تلو الأخرى؟؟ أقول: هذا جزء من الموضوع ستدركون بفطنتكم أن النرجسية ليست لكم.. وما عدا ذلك هو لكم.. بالضبط لكم...قد يكون هذا تبريراً غير مقنع، أو قد يكون مقنعاً... المهم أنها نفسٌ بشرية ملدوغة، مسّها الشر، ففاضت بما تختزن على هذه الأوراق، فتركتها كما هي، بدون تنقيح، وحتى بدون مراجعة، لم أجرؤ أن أفسد عليها هذا التدفق على سجيتها... كنت في الماضي، وحتى القريب، أحذرها، أقسرها أحياناً، أمنعها، أزجرها كي تتعقل بالحكمة والواقعية والموضوعية، أهددها بالسجن... الآن، وقد وقعت الفأس في الرأس كما يقولون، فإنها سادت ومادت على سجيتها، لم أقسرها على قول، ولم أمنعها منه. فلا الحذر عصمني مما أنا فيه، ولا الخوف.. عظيمةٌهي الذات البشرية عندما تعاند، وتتحدى، وتصمد... في الزنزانة، لا عاصم لك للتماسك والصمود إلا أن تطلق العنان لذاتك تحلق مع أحلامك وكوابيسك خارج القضبان، فتستعرض شريط الأحداث من الذاكرة، وتتيح لك فرصة نادرة للمراجعة، لكشف الحساب، من الطفولة المعذبة إلى الرجولة التي اختطفت الشباب وتجاوزته بقسوة إلى أعتاب الشيخوخة الزاحفة...

إنها إذن مجرد أوراق سجين، حيث الليل طويل، والصبح بعيد، وما هو ببعيد... هكذا جاءت الإجابة قوية. لكن لا أعرف من أين؟ المهم أنها جاءت...

2. ثم.. ثم كان يجب أن أختار العنوان.. فكان: "النداء الأخير من أجل الحرية"، لكن اختصاراً وضعته: "النداء الأخير للحرية"، بمعنى أنها ربما تكون الفرصة الأخيرة لأبناء جيلنا. فالحرية التي ننشدها بالفطرة لا تتحقق إلا بالإرادة.. ذلك أنني على ثقة ويقين بأن هذه الأمة العربية العظيمة ستعرف كيف تشقّ طريقها إلى الحرية... نحن كجيل عانى الويلات والأهوال والمهانات، نحلم أن نساهم بحراثة الأرض، وبذر البذور، ونحلم أن نراها تنبت وتنمو.. أما إذا جاءت ساعة الرحيل قبل ذلك، فإنه يكفينا الحلم بأن الحرية قادمة... وأن نسائمها ستنعش روح التربة، والنباتات الصغيرة على قبورنا...

3. ورغم أنني كنت، وعلى مدى سنوات، أمارس هواية كتابة تقديم لمخطوط أعتقد أنه يضيف قيمة ما إلى القارئ العربي، وأعترف الآن أنني كنت أحاول أن أدسّ بتلك المقدمات بعض الرؤى التي لا يطيقها المؤلف أحياناً، ولكن المخطوط كان يطيقها في الأحوال كلها... لكنني، وبعد أن فرغت من قراءة هذه الأوراق، فإنني لم أتردد بكتابة هذا التعارف وحسب، وإنما ترددت بدفع هذه الأوراق للنشر أيضاً، وتساءلت: ترى، هل يمكن لهذه الأوراق أن تضيف قيمة ما إلى المخزون الثقافي والمعرفي للقارئ العربي؟، وعندما أعدت قراءتها خرجت بسؤال أكثر أهمية: ترى، هل سيكون لها وقع إيجابي، أم وقع سلبي؟ وبات السؤال أكثر تحديداً: هل يجب أن تنشر أم لا..؟!

4. أعترف ثانية أنني لم أصل إلى جواب قاطع بسهولة.. ذلك أنني وعلى مدى ليالٍ طويلة كان السؤال يؤرقني، لقد استعدت أو استعادت لي ذاكرتي كل ما قرأته من كتب عن تجارب سجناء الرأي، وكذلك الشهادات الشخصية لبعضهم، إضافة إلى أنني، وبحكم اختصاصي، تعمقت بقراءة نقدية للمرافعات السياسية... وعدت إلى السؤال..!

5. لعل الظروف التي أحاطت بمخطوط هذه المرافعة هي التي ضاعفت من صعوبة القرار، ذلك أن المخطوط لن يضيف شيئاً على صعيد المعاناة، والتعذيب وفنونه، وإنما سيتحدث عن خطوة، صحيح أنها متواضعة، لكنها مهمة تؤذن بأن ظروف السجن السياسي باتت في حدود الاحتمال البشري... لكنني أخشى أن لا تكون هذه الخطوة شاملة، أو أن تكون مؤقتة، وبالتالي، وفي هذه الحالة، سأكون كمن يقدم صورة مضللة، ثم إن ذلك كله يتم التفكير فيه في ظروف العزلة والحصار، وعندما لم يسعفني التاريخ السياسي أو الموقف السياسي، فإنني لجأت إلى الأدب.. فوجدت نفسي بالضبط في موقع (طالع العريفي)، بطل رواية عبد الرحمن منيف (الآن هنا.. شرق المتوسط مرة أخرى)، في حواره الممتع مع (عادل الخالدي) الذي ألحّ عليه أن يكتب تجربة السجن، لقد طرح الحوار ذات الأسئلة التي تشغلني:

" – أغلبنا رأى ، وجميعنا نعرف، لكن الخرس أصابنا، والجبن هدنا، ولذلك لا بدّ من الطفل الذي رأى عري الملك فصرخ.. لا بدّ أن نصرخ، أن نحتجّ... لكن يجب أن نتحرر من أسر الماضي، وأن ننظر إلى المستقبل، أما أن نظل نقتات على الذكريات، وأن نعرض عيوبنا وتشوهاتنا أمام المارة، وكأننا نستجديهم، فإنه لا يليق برجال يحترمون أنفسهم..

– لكن، ما هو الإنسان إذا لم يكن له تاريخ وذاكرة..؟ إنه الوحيد بين المخلوقات الذي يتعلم الكثير من تاريخه معتمداً على ذاكرة يمكن أن يورثها للآخرين، ومن الجنون أن يُدفع ثمن ما هو مدفوع سابقاً... إذا كتبنا عن معاناتنا، عن ذلك الوكر الأسود المشؤوم، فليس لكي نُظهر بطولاتنا، وإنما لكي نساعد الآخرين، ونجنبهم ما عانيناه، فنحن على وشك أن نمضي، وهم سيبقون بعدنا، وهذا ما يدعونا لأن ننبه، لأن نحذر، قبل فوات الأوان.. وأنت تعرف أن الحياة دون حرية، دون كرامة، لا تستحق أن تعاش.. إذا سجلت تجارب البشر بصدق، وعرفت البدايات والنهايات، فلن يجرؤ أي إنسان، نعم، أي إنسان، لأن يكون جلاداً أو سجاناً.. إذ سيعرف ماذا يمكن أن يحل به إذا أسقطه جلاد أو سجان آخر..

– وماذا لو خاف الناس، وتحسبوا، بعد أن يروا هذا الكمّ الهائل من الموت والقيء و الدماء..؟

– يجب أن يروا ذلك، وأن يعرفوه جيداً لكي يعملوا من أجل وقفه، من أجل منعه..

– وهل يستطيع الخائفون..؟

– الخوف أغلب الأحيان لحظة، وينتهي، وبعد ذلك يبدأ الغضب..

– ولكن الخوف يا عادل في أحيان كثيرة يشلّ الناس، يمنعهم من الحركة، وفي أحيان أخرى يبالغون فيما ينتظرهم، وربما ما يريده الجلاد..!

– نخطئ كثيراً يا طالع إذا تخلينا عن آخر الأسلحة التي نملكها، الكلمة، ولا بدّ أن نحسن استعمالها، إذ ربما تكون وسيلتنا الأخيرة، وقد تستطيع أن تفعل ما عجزت عنه الأسلحة الأخرى، ولذلك، فإن المهم أن تكتب، أن تقدم شهادة، أن تقول أي شيء كان السجن، لكي يعرف الناس ماذا ينتظرهم غداً أو بعد غد إذا لم يبادروا ويفعلوا شيئاً..".

6. هكذا عندما تضيق المصطلحات السياسية عن فهم الواقع تفسيراً وتمحيصاً، نتيجة ظروف تميزت بعواصف حادة عصفت بكل شيء.. فإن الأدب قد يغطي هذه المساحة تنقيباً في عمق النفس البشرية عن مدلولات ينطق بها شخوص الروايات والمسرحيات والقصص، وحتى يدندن فيها هذا الموسيقي أو ذاك، أو نعثر عليها في لحن أو رنة صوت دافئ... قد تقولون لكن هناك مشكلة حتى بالذوق العام الذي يتقبل الزعيق والطبل والنطوطة، بديلاً عن اللحن والمعنى والمغنى،

أقول: هذه محنة مؤقتة وستمضي، وهل كنتم تتوقعون أن تمر كل هذه الأهوال والنكسات والانكسارات دون أن تنتج فنونها ورموزها...؟ فعندما حُوصرت الأمة، وسُدَّت المنافذ أمام الارتقاء والتطور في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، بدأ الانحدار والانكفاء في المجالات كافة – ذلك أن الأمور لا تتجزأ – وكلما اعتقدنا أننا هوينا إلى قعر القاع، اكتشفنا قاعاً دونه... لكن لا بدّ أن نتشبث بنقطة ما، لا ننزلق دونها ثم نباشر منها عملية الحبو الممنهج إلى أعلى... أسئلة ومسائل عديدة تثيرها العزلة.. ما يعنيني منها الآن: هل يجب أن أنشر على الناس أفكاراً وأحلاماً هي أقرب ما تكون إلى المذكرات الشخصية، رافقت تجربة اعتقال لا أريد على الإطلاق أن أدّعي فيها أي شكل من أشكال البطولة، بل على العكس أريد أن أعترف أن الظروف التي رافقت اعتقالي كانت أقل سوءاً مما توقعت.. حقيقة أنني كنت أتوقع الأسوأ بكثير، وبما لا يُقاس، وإذا كانت الأمور كذلك، فلماذا أكتب؟ هل سأدعو الناس لدخول السجون (لا سمح الله)..؟ وأنا الذي أحلم بيوم تختفي فيه من بلادنا نهائياً كل أشكال المعتقلات والسجون السياسية، وكافة مظاهر التعسف السياسي.. إنني إذ قررت أن أكتب، فإن أحد أهم الأسباب سيكون تحرير الناس من الخوف ليطلقوا طاقاتهم المكبلة بالخوف والذعر...

7. بعد خلوة وعزلة طالت أكثر مما توقعت، بدأت كفة الكتابة ترجح على كفة الصمت، رغم المحاذير التي ما زالت تطلّ برأسها بين الحين والآخر.. ووجدت نفسي في نهاية المطاف في ذات موقع وموقف (طالع العريفي)، رغم العناد والمبررات التي ساقها لصديقه دفاعاً عن الصمت، فقد وجد نفسه يستسلم لفكرة الكتابة، ثم يسلمها لصاحبه قبل أن يسلم روحه بساعات...

8. لكن ورغم أن القرار بالكتابة بات نهائياً، فإن هناك جملة من الإشكالات لا بدّ من معالجتها أولاً، حرصاً على أن تأتي هذه الكلمات في السياق العام كإضافة لتراكم معرفي وحضاري وإنساني وحقوقي، تساهم مع غيرها في بناء رافعة لتجاوز ظروف استنقعت في واقعنا أكثر مما يحتمل البشر... وبعيداً عن الشكوى والنواح والبكاء على الأطلال، وإذا سمحتم لي فإنني سأشير إلى تلك الإشكالات باختصار شديد، وبحدود ما تسمح به الظروف المحيطة بالمحيط الذي أكتب منه..!

أولاً: سجناء الرأي، الواقع، والمشكلات، والحلول

9. الإشكالية الأولى تتأتى من أن هذه المرافعة موضوع هذا المخطوط تتعرض للحياة في السجن السياسي، يبدو منها كأن حياة السجون باتت بحدود الاحتمال الإنساني، وهذا قد يوحي خطأ بأن كل شيء بات على ما يرام، وأن التجاوزات على إنسانية الإنسان قد اختفت تماماً.. ولهذا فإنني في غاية الحرص على وضع هذه المرافعة في سياقها الحقيقي الواقعي، لا زيادة ولا نقصان، لا تهوين ولا تهويل، مستذكراً كل شهداء الضمير والرأي، وكافة المعذبين والذين تعرضوا للتعسف على مدى سنوات طويلة.. ذلك أنني تابعت شخصياً العديد من الحالات الملحمية والمأساوية لسجناء الرأي في شرق المتوسط وفي جنوبه أيضاً وحتى مضائقه مع المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر وخليج العرب... هذا الوطن الذي نسميه نحن القوميين وطن العرب، ونحلم به عزيزاً كريماً حراً مصوناً صائناً لكرامة أبناءه وحرياتهم الشخصية والعامة، وحيث الطاقات البشرية والإنسانية تتجه إلى الإبداع والإنتاج والعطاء في سياق نهج حضاري تستحقه هذه الأمة تعويضاً عن عسف وظلم وفوضى آن له أن ينتهي، فتتحقق السكينة والطمأنينة في النفوس... وبالتالي فإن ما جاء به الأدب، والشهادات الوثائقية الشفهية منها والمكتوبة، ليس مبالغاً فيه على الإطلاق، بل أن هناك من يعتقد أن أحداً لم يتمكن بعد من الإحاطة بعمق المسألة التي مرّت على أمتنا – والتي نرجو أن تكون قد مرّت فعلاً – وأن عقوداً أخرى قد تمرّ قبل أن يتمكن قلم أديب أو باحث من الإحاطة بعمق ما جرى، وبالرضوض النفسية والجسدية، والشروخ الشخصية والأسرية والاجتماعية التي خلفتها أحداث مريرة في دنيا العرب.. وأعترف هنا أنني سمعت شخصياً في بعض الأحيان، وقرأت في أحيان أخرى عن حالات لا يحتمل العقل البشري وقعها... كنت في أحيان كثيرة أصاب بحالة من الذهول والاستغراب لحجم التوحش الذي يمكن أن ينزلق إليه بعض من يُحسَبون على بني البشر.. كانت بعض الحالات تصيبني بموجات متتالية من القشعريرة والخوف والسخط، تصل أحياناً إلى درجة من الذعر الذي لا يطاق... حتى زوجتي عندما كانت بالصدفة تستمع إلى بعض أطراف هذه الأحاديث، كان يفارقها النوم لأيام، وتسألني باستنكار: هل ستستطيع أن تحتمل ذلك؟! حتى أنني عندما اعتقدت يوماً أنني أمتلك ملكة كتابة الرواية، فإنني فوجئت بأحد شخوص روايتي المفترضة التي لم ترَ النور، يمدّ لي لسانه من بين الأوراق متمرداً منفلتاً من الدور الذي وضعته فيه، قال لي مفسّراً:

" إذا كنت داخل بيتي أتنقل بين النوافذ مرتاباً بكل من يقترب من مجال نافذتي، وإذا سمعت جرس الهاتف فإنني أتكلم بريبة لأنهم في نقطة ما على الخط يتجسسون، فأندفع تارة لأقول أكثر مما ينبغي، أو أهرب من أي كلام حسب إحدى حالتَي التحدي أو الخوف اللتين تتناوبان على التحكم بمشاعري.. وإذا قُرع جرس الباب، فقد جاءوا يعتقلونني، بتّ أخاف من النوم لأنهم يرافقون حتى كوابيسي.. إذا غادرت منزلي ترافقني الريبة بكل من أقابله أو يقترب مني، لقد نفذت شتى صنوف المشاعر تجاه الغير وغدوت أحادي المشاعر، ذلك أن الشعور الوحيد المتبقي لي هو شعور الريبة والخوف.. أرتاب في كل شيء، ومن أي شيء، حتى بتّ أرتاب بأية دعوة حتى على فنجان قهوة، ترى، لماذا، ماذا يقصد؟ حتى لم أعد أسترخي لعبارات الغزل من حبيبة قلبي.. ترى، لماذا تتودد إلي؟ الآن جئت أنت تقحمني في روايتك.. ترى، لماذا؟ لماذا أنا بالذات؟ كل هذه الشخوص التي تعرفها تركتها وتختارني أنا.. تريد أن تورطني وتقوّلني ما يستحق المساءلة.. ما فيه غيري أنا؟ يا أخي حرام عليك يا رجل.. بالله عليك أحرق هذه الأوراق.. بلا رواية بلا زفت.. ارحمني وارحم نفسك...".

ومازال يلاحقني حتى فعلت، ووضعت حداً لتجربتي التي لم تتكرر بعد ذلك..!

إنه الخوف إذن... الخوف الذي اقتحم حياتنا العربية فأفسد كل ما فيها، بالضبط كل ما فيها، هذه الحالة حولتنا إلى قطعان من المرضى، يعانون من انفصام شخصية حاد، داخل ذواتهم، وبينهم وبين الأبناء من الجيل القادم الذين يتابعون بعيونهم البريئة ما يقوله الآباء همساً داخل حجرات نومهم شتماً وتأففاً، ثم يستغربون هذا الكم الهائل من النفاق والصراخ والتأليه للمشتومين سراً.. فتنتابهم حالة من عدم احترام جيلنا، ثم حالة من الذهول، ثم شيئاً فشيئاً يتلبسهم الخوف الذي تلبّس آباءهم من قبل...!!

10. هكذا أعود إلى الحوار بين (العريفي والخالدي) ثم إلى السؤال: هل الكتابة عن المأساة تولّد الخوف..؟ أم أنها تحدّ للخوف..؟ لن أهرب من الجواب هذه المرة.. إنني سأكتب تحدّياًللخوف... يجب أن نقتحم السجون حتى نتحرر من الخوف منها، ولو كسجناء.. يجب أن ننتقل من الشكوى إلى مرحلة تغيير الحال، يجب أن تزول حالة الرعب لنستعيد إنسانيتنا.. لهذا فقد قررت أن أكتب، وقررت أن أوجه النداء الأخير لأبناء جيلي من العرب كي تكون خطواتنا الأخيرة إلى قبورنا خطوات واثقة شجاعة، بعمود فقري منتصب، برأس مرفوع، تاركين للأجيال القادمة بصمة جديدة نعوضهم فيها عما حملته أذهانهم من التشوهات التي رسختها عقود من الخوف والمهانة، من الخيبات والانكسارات والهزائم والتردد والاستسلام...

11. ولأنه من حق جيلنا الذي عانى، وصبر وصابر، أن ينتقل من مرحلة الحديث عن الجراح إلى مرحلة تضميدها، من مرحلة الشكوى من البلوى إلى مرحلة الخلاص والانعتاق، باتجاهاستيعاب الدروس والعبر.. فإن الخطوة الأولى التي يجب أن تعلن بأوضح صورة ممكنة، ودون مواربة، أن التعذيب بات ممنوعاً منعاً باتاً في السجون ومراكز التوقيف الأخرى.. وأن التعسف بلا رقيب بات من الماضي، وأن هناك لوائح وتعليمات تنظيمية تشمل كافة السجون ومراكز التوقيف، وتلزم كافة فروع الضابطة العدلية وأجهزة الأمن، وأن المعتقلات وأقبية فروع الأمن قد أُغلقت، أو أنها ستغلق وفق برنامج زمني معلن، وأن السلطة القضائية ستمارس عملها في ظل استقلالية وشفافية كاملة، وأن كافة فروع الضابطة العدلية وأجهزة الأمن تعمل تحت إشراف القضاء وبإذن مسبق منه، وليس العكس... وأن السلطة التشريعية ستستعيد مضامينها الحقيقية واستقلاليتها، وأن مهماتها لا تقتصر على التصفيق للسلطة التنفيذية وإنما تمارس دورها الفعال في تطوير التشريعات الوضعية والقوانين ابتداءً من الدستور... وأن السلطة التنفيذية ستلتزم حدودها وصلاحياتها وأن الوظيفة العامة ستستعيد هيبتها من خلال مقاييس ثابتة لتكافؤ الفرص، وليس للولاء.. وأن الرأي العام سيراقب ذلك كله ويتابعه من خلال صحافة وإعلام يتمتع بالحرية، ويكشف كل المواقف والوثائق والعقود على كافة الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بشفافية تامة، وذلك إغلاقاً للشائعات والبلبلة عن الصفقات والفساد.. وأن المجتمع سيستعيد المبادرة في إطلاق طاقاته الخلاقة من خلال قوانين وتنظيمات عصرية للجمعيات والمنتديات والأحزاب... كل هذا في سياق منظومة قانونية دقيقة ومتطورة وشاملة...

12. وبما أنني على قناعة تامة بأن ذلك كله يمكن أن يتحقق إذا توفرت الإرادة لتحقيقه، وأنه في حال تحققه لن يكون على حساب أحد، وإنما سيدخل في حساب الجميع، وأن الذين وضعوا أنفسهم فوق القانون عليهم أن يعودوا إلى مواقعهم الطبيعية في ظله، والذين دُفعوا إلى خارج المجال القانوني يصعدون إلى مواقعهم الطبيعية أيضاً... لهذا فإننا تنادينا في منتدانا إلى الكلمة السواء وإلى الحوار المفتوح، وإلى إطلاق الجدل الاجتماعي إلى غايته.. ورغم أن ذلك أوصلنا إلى حيث نحن خلف القضبان، فإن ذلك لم يغير قناعاتنا قيد أنملة، ولم يتملكنا الحقد حتى على سجانينا، فالطريق مازالت مفتوحة إلى الإصلاح والتطور والتطوير والتغيير والعدالة والديمقراطية والمساواة أمام القانون لمن يريد، ومازال الرأي الذي قلناه خارج هذا السجن صالحاً لأن نردده داخله، وهو أن الاعتقالات لن تحل المشكلة، وإنما ستزيدها تعقيداً، ذلك أن حل المشكلات يكون بمواجهتها وتفكيكها وإزالة أسبابها، لا بالهروب منها وتجاهلها.. وأنا هنا أريد أن أؤرخ لنقلة نوعية

يجب إعلانها وتعميمها، كحقوق مكتسبة لكافة المواطنين في بلادنا ترافقت مع اعتقالنا، نعلنها لقطع الطريق على التراجع عنها من جهة، ثم للانطلاق منها باتجاه الأفضل من جهة أخرى...

13. وبما أننا كنا نتعرض على طول الخط، في منتدانا، لانتقادات حادة من إخواننا في حزب البعث العربي الاشتراكي بأننا نركز على السلبيات دائماً ونغفل الإيجابيات، فإننا هنا سنبدأ بالإيجابيات التي رافقت اعتقالنا قبل السلبيات.. والإيجابيات كانت كما يلي:

1- أن التحقيق في فرع تحقيق الأمن السياسي لم يترافق بأي شكل من أشكال التعذيب، وأن أقوالنا سُجلت بأمانة في محاضر التحقيق، وقد أكد لي أصدقائي المعتقلون جميعاً ذلك الموقف.

2 - أن إحالتنا إلى القضاء (محكمة أمن الدولة بغض النظر عن رأينا فيها ومبررات الإحالة) تمت خلال فترة زمنية نموذجية، تراوحت بين 24 و36 ساعة من تاريخ الاعتقال.

3- تمت الإحالة بعد ذلك إلى الجناح السياسي بالسجن المركزي بدمشق، وإن كانت هذه الإحالة تأخرت بالنسبة للبعض، وأعيدوا إلى فرع التحقيق لدى الأمن السياسي لمدة أسبوع، وهذا ما حصل معي أنا بالذات... ولا بدّ من الإشارة أن التعامل معنا في السجن السياسي هو تعامل إيجابي باستثناء سلبيات، سنذكرها في السياق، ناتجة عن تعليمات عليا على الأغلب..!

14. لقد قصدت أن أسجل هذه النقاط الثلاثة، وأن أصفها بالإيجابية، ليس لأنها تصرفات قانونية، فنحن سنثبت بكل الوسائل أن اعتقالنا كان بغفلة من القانون، وليس تطبيقاً لنصوصه، لكنها إيجابية بالقياس إلى الصور المأساوية بالغة السلبية التي احتفظت بها الذاكرة عن ما كان يرافق الاعتقال السياسي، ويقول البعض أن بعضها مازال يُمارس بشكل أو بآخر لدى بعض الفروع الأمنية... لكن هذه الإيجابيات ستفقد كافة صفاتها الإيجابية، ولن يكون لها أي أثر، إلا إذا رافق ذلك ضمانات وقواعد وشروط وضوابط (لوضع حد نهائي للسلبيات الخطيرة التي مازالت مستمرة) ويمكن إبراز أهمها كما يلي:

15 . 1- أن يعمم الالتزام بتلك النقاط الثلاثة على سائر فروع الأجهزة الأمنية في البلاد، وأن تعتبر هذه النقاط من الثوابت يتم ضبطها بتعليمات خطية وواضحة، وأن يُلاحق من الآن وصاعداً، بصفته الشخصية كفرد، وبصفته الاعتبارية كجهاز، كل من يخالف ذلك...

16 . 2- أن يُتخذ قرار معلن وواضح على أعلى مستوى في البلاد يحدد بدقة اختصاص الأجهزة الأمنية المتنوعة وفروعها المتعددة، كل على حدة، وضمن الغاية والجهة التي تتبعها، وفي إطار اللوائح التنظيمية التي تقونن طريقة الأداء لوظائفها، بمعنى أن يتم وضع حدّ، على الفور، لتداخل الاختصاصات والتي يدفع المواطن العربي من حريته وكرامته ثمناً لها... فتختص المخابرات العسكرية حصراً في نطاق القوات المسلحة، وتختص مخابرات القوى الجوية بأمن القوى الجوية حصراً، وتختص مخابرات أمن الدولة بأمن الدولة الخارجي وأمن الدولة الداخلي ضمن لوائح تنظيمية معلنة وحصرية تحدد هذا النشاط وحدوده، ويختص جهاز الأمن السياسي بمتابعة تنفيذ القوانين والأنظمة الناظمة للعمل السياسي والحزبي والنقابي، وتوضع الجمعيات والمنتديات والنشاطات العامة تحت إشراف القضاء، وحبذا لو كان ممكناً – وهو ممكن بالفعل – أن يتم تنظيم هذا الجهاز ضمن أجهزة الضابطة العدلية يمارس اختصاصاته إلى جانب الفروع الأخرى كفروع الأمن الجنائي، وفرع المرور، وإلى آخرهم... وحقيقة الأمر أنه أسعدني غاية السعادة ما أعلمني به أحد الأصدقاء المعتقلين بجانبي، أن الضابط المحقق لدى فرع تحقيق الأمن السياسي قال له بصريح العبارة: "نحن نقوم بدور الضابطة العدلية لا أكثر من ذلك ولا أقل.."، وهذه إيجابية أخرى أضيفها إلى الإيجابيات، لكن القول لا يكفي، ذلك أن للضابطة العدلية لوائح وأنظمة وحدوداً يجب أن تتقيد بها، ابتداءً من لحظة التدخل لدى المواطن، من أول المراقبة، إلى مراقبة الهاتف، والاعتقال، وإلى آخر هذه الإجراءات، حتى للإحالة إلى القضاء المختص... إنني أعرف أن ما أطلبه ليس باليسير، لكنه بالتأكيد ليس بالمستحيل.. وإذا كانت هنالك ظروف بالغة التعقيد أدّت إلى هذا التداخل الخطير بين اختصاص الأجهزة الأمنية، وبالتالي إلى تجاوزات خطيرة، وبما أن هذه الظروف قد زالت، فإن من الهام جداً أن يعود كل إلى مواقعه، وإذا كان من الصعب إعادة كل إلى موقعه لأسباب لا تخفى على أحد.. فإن الخيار الممكن هو وضع برنامج زمني محدد ومعلن وواضح لتحقيق ذلك.

17 . 3- يجب أن نضع حداً فورياً ونهائياً للأساليب المتبعة بخصوص الاعتقال السياسي واقتحام المنازل الآمنة بعد منتصف الليل بدون مذكرة توقيف.. إن هذا ليس اعتداء على المعتقل وحسب، وإنما اعتداء على ذويه وأهل بيته وجيرانه، إنه اعتداء على حرمة المنازل وترويع للآمنين.. وهذا ما يجب أن يتوقف تماماً، يجب وضع لوائح وأنظمة ملزمة تتعلق بمواعيد الاعتقالات، وتحديد الجهات القضائية المختصة بإصدار مذكرة التوقيف... ويجب – وهذا في منتهى الأهمية – أن

يرتدي رجال قوة الاعتقال (الضابطة العدلية) الزي الرسمي المحدد، أو الذي يمكن تحديده خلال تنفيذ الاعتقال، ذلك أنه إذا كانت فترة المراقبة والملاحقة تتطلب أن يتخفى رجال الأمن باللباس المدني، فإن هذه المتطلبات تنتفي بمجرد اتخاذ قرار الاعتقال، وبالتالي فإنه يمكن الاستعانة بأقسام الشرطة المختصة لتنفيذ مذكرات التوقيف، أو يمكن تشكيل قوة مراسم خاصة داخل جهاز الأمن السياسي بزي رسمي وشارات رسمية تقوم حصراً بتنفيذ مذكرات التوقيف وفق الأنظمة والقوانين المرعية، وأن يتم ذلك التوقيف في وضح النهار وخلال الدوام الرسمي...

18. 4- إذا كان لا بدّ من التحقيق مع المعتقل السياسي لدى فرع تحقيق الأمن السياسي قبل إحالته للقضاء، وبما أن هذا التحقيق سيتم دون إكراه، واستناداً إلى بنيان وأدلة محددة، وحتى يتمتع محضر الاستجواب بمصداقية لدى القضاء، فإنني لا أجد مبرراً لذلك بدون حضور محامٍ، ومن حق الموقوف السياسي أن يمتنع عن الكلام إلا بحضور محاميه الذي يمكن استدعاؤه لحضور استجواب موكله..

19 5- بعد التقيد بإحالة المعتقل السياسي إلى القضاء خلال المدة القانونية، فإن دور جهاز الأمن السياسي كضابطة عدلية ينحصر بتنفيذ قرار القضاء، الذي يصبح من لحظة مثول الموقوف أمامه، هو المرجع الوحيد الذي يمتلك السلطة التقديرية وفق القوانين والنصوص النافذة، فهو الذي يقرر إطلاق السراح أو إخلاء السبيل أو المحاكمة طليقاً...

20 . 6- في حال قرر القضاء المحاكمة موجوداً، فإن الموقوف السياسي يجب أن يُحال إلى السجن المدني وتطبق عليه لوائح وأنظمة السجون.. وإذا كان لا بدّ أن يستمر جهاز الأمن السياسي بالقيام بمهمة الضابطة العدلية، ففي هذه الحالة يتم التوقيف حصراً في الجناح التابع للأمن السياسي بالسجن المركزي المدني على أن يلتزم جهاز الأمن السياسي لوائح وأنظمة السجون بحذافيرها، من حيث الزيارات والتنفس خارج الزنزانة، وحق الموقوف السياسي بالصحف والراديو، وأن يكون هذا القسم تحت إشراف مباشر من القضاء.. أقول ذلك لأننا، وبعد مضي شهرين على اعتقالنا وإحالتنا إلى القسم السياسي بسجن دمشق المركزي، ونحن الآن بتاريخ 2001/11/11 محرومون من هذه الحقوق: الزيارة، والتنفس، والراديو...

21. لقد قصدت تماماً الدخول في هذه التفاصيل الإجرائية، لأنه بدون ذلك سيبقى الباب مفتوحاً للتجاوزات، وبالتالي للاعتداءات والمآسي على المعتقلين السياسيين وذويهم... وهذه المطالب هي في الحد الأدنى، الأدنى ليستعيد الناس ذواتهم ويتحرروا من الرعب والخوف.. وهي في غاية التواضع، فنحن لا نطالب بإلغاء السجن السياسي، وإنما نطالب فقط بأن يكون في حدود الاحتمال الإنساني.. فنحن في الوطن العربي، وعلى أعتاب القرن الواحد والعشرين، نحلم فقط أن لا تُقتحم بيوتنا، وغرف نومنا، نحلم أن لا نُختطف إلى جهات مجهولة غير معروفة، نحلم أن تعرف أسرنا من هي الجهة التي اعتقلتنا، وأين وجهتنا، نحلم أن نُسجن بسجون معروفة يُطبق عليها لوائح تلزم السجانين، والمسجونين معاً.. فهل هذا كثير علينا...؟!

22. هذه هي الإشكالية الأولى، التي أرجو أن تكون التوضيحات قد ألقت عليها الضوء، وأزالت كل غموض، وقطعت الطريق على أي سوء فهم...

ثانياً: البناء الهرمي للمرافعة

23. الإشكالية الثانية، تتعلق بالبناء الهرمي والقانوني للمرافعة، موضوع الكتاب، ذلك أن هذه المرافعة تعتبر مغامرة من طراز فريد، ليس على الصعيد القانوني وحسب، وإنما على الصعيد الشخصي أيضاً، ولا أعرف حقيقة كيف سيستقبلها الزملاء الأساتذة المحامون، ورجال القانون.. كما لا أعرف كيف سيستقبلها الأصدقاء والأخوة والأهل... ورغم أن لكل محام بصمته الخاصةفي صياغة المرافعة عن المتهم، أو الظنين، حتى ولو كان هو ذاته موضوعها، والتي تأخذ عنوان (مذكرة دفاع) حتى أن المحامي يأخذ هذه الصفة فيسمى (محامي الدفاع)، وبما أن أركان مذكرة الدفاع تكاد تكون ثابتة من حيث مناقشة أدلة الاتهام وتفنيدها ، ومناقشة التكييف القانوني وكشف الثغرات... إلا أن البناء الهرمي والقانوني لهذه المرافعة، موضوع الكتاب، جاء معكوساً لقلب هذه المعادلة، وبالتالي لا يمكن اعتبارها مذكرة دفاع بأي حال من الأحوال،

وإنما هي بحق مذكرة هجوم على مؤسسة الادعاء (المعلن منها والخفي)، لأنني وجدت نفسي خلال الاستجواب لدى فرع تحقيق الأمن السياسي، ومن ثم لدى النائب العام لمحكمة أمن الدولة إضافة للأدلة التي وجهت بها هنا وهناك، في حيرة من أمري، أواجه السؤال الهام: ترى، لماذا أنا معتقل؟ وما هو السبب الحقيقي وراء اعتقالي..؟ ذلك أن كل ما نسب إليّ، في حال أنه صحيح وثابت، لا يمكن العثور فيه على أي ركن من أركان الجريمة – أي جريمة – وبالتالي فإن مؤسسة الادعاء بشقّيها لا بدّ أنها أخفت السبب الحقيقي الكامن وراء اعتقالي... وكان هذا كافياً لاستفزازي إلى أقصى حد ممكن، ووجدت نفسي أنني لست في موقع الدفاع عن نفسي، لأنني لا أجد جرماً أنفيه.. فقررت – ربما من باب رد الفعل المنعكس الشرطي – أن أنتقل إلى حيث يجب.. إلى الهجوم على مؤسسة الادعاء، علني أستفزها، فتفصح عن السبب الحقيقي للاعتقال، والغاية منه، وبالتالي لا أحرم من حق الدفاع عن النفس. لهذا فقد اتجهت في مرافعتي مباشرة إلى السؤال: لماذا أنا معتقل..؟ اعترفوا.. لن أسمح لكم بالتهرب من الجواب... وكان هذا يتطلب أن أنتقل تلقائياً ليس من موقع الدفاع إلى الهجوم وحسب، وإنما أيضاً من موقع المستجوَب إلى موقع من يستجوب، من موقع الجواب على الأسئلة إلى موقع توجيهها، من موقع مواجهة الأدلة إلى موقع توجيهها وإعلانها.. من موقع مواجهة الادعاء إلى موقع توجيه الادعاء... وهذا كله بغاية واحدة، هي محاصرة مؤسسة الادعاء بشقّيها (الأمني والقضائي) حتى تقرّ وتعترف وتكشف عن السبب الحقيقي الكامن وراء اعتقالي، والغاية منه، وبالتالي فإن دفاعي سيكون تالياً لذلك، ولا يمكن أن يكون إلا كذلك... فمن غير المعقول، ومن غير اللائق بحق قدري، أن يقال أنني اعتقلت ولم أتمكن من الدفاع عن نفسي.. ألا يكفي أنني حُرمت من شرف الدفاع عن الأساتذة الأعزاء: رياض الترك ومأمون الحمصي وحبيب صالح ورياض سيف وكمال اللبواني وفواز تللو وحسن سعدون ووليد البني وعارف دليلة..؟

24. وبما أنني محاصر بزنزانتي، ومؤسسة الادعاء لا تواجهني، واكتفت حتى الآن بعزلي.. وبما أنها لم تواجهني حتى هذه اللحظة بقرار اتهام، أو بقرار ظن.. وبما أنها لا تتقيد بالإجراءات القانونية بدءاً بالاعتقال وحتى قرار العزل، الذي لم أجد له تكييفاً قانونياً، وبما أن الانتقال من الدفاع إلى الهجوم، ومن موقع مواجهة الادعاء إلى توجيه الادعاء يستدعي بالضرورة أن أستحضر كل ما خطر لي من مواقف ونشاطات وآراء ونوايا وأحلام مررت بها على مدى عمري كله، ثم أدفعها بوجه مؤسسة الادعاء.. هم لا يواجهونني بها، أنا سأواجههم بها.. علّهم يعترفون بالسبب الحقيقي الكامن وراء اعتقالي، وما هي الغاية منه... وقد استدعى ذلك أن أسرد الكثير من الحوادث الذاتية التي تتمحور حول شخصي، قولاً وفعلاً وكتابة ونشاطاً... لا أعرف على وجه اليقين إن كانت تستحق النشر على الناس أم لا..؟ بل أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، وإنما تجاوزه إلى مسألة إنسانية ربما يدركها خريجو السجون العربية أكثر من سواهم، وهي أن السجين في لحظات العزلة والحصار والضغط المعنوي الشديد، يبحث عن مرتكزات للصبر والصمود، لا يجدها إلا في تاريخه وعناده وبمن يشاركونه همومه... يستعرضها على شريط الذاكرة ليشعر بالسكينة والرضا... والعربي، العربي، خاصة العربي القومي، القابض على الجمر، لا يعاني فقط من مشكلة العجز والانحسار والحصار، وإنما يواجه يومياً بتحميله مسؤولية كل السلب الذي حصل.. من أول الهزائم إلى آخر الاستبداد... يحملونه مسؤولية أعمال وتقصير لا ينكرها، لكنهم يحملونه مسؤولية ما بدر منه وما بدر من غيره، ويلصقون به ما يُنَسب إليه، وما لا يمكن أن ينتسب هو إليه... ولهذا فإنه محاصر هناك، معزول هنا، ولا خيار له إلا الصمود والتحدي لينعم بالسكينة والرضى... لهذا، كان لا بدّ أن أستدعي كل ما تحفظه الذاكرة من التاريخ الشخصي المُشار إليه، ثم أن أضعه كما هو على الطاولة، بكل ما فيه من عجر وبجر... ثم أريد أن أصرخ بوجه مؤسسة الادعاء بعد ذلك: ضعوا أوراقكم أنتم أيضاً على الطاولة بالمقابل، ثم تعالوا نتحاسب لنرى من يحاسب من..؟ لنرى من يحاكم من..؟ ولماذا.. وكيف..؟

25. هل يكفي هذا لتفسير هذا البناء الهرمي والقانوني لمرافعة لا أعرف كيف سيكون تقييمها في المحصلة النهائية... سأترك ذلك لفطنة القارئ العربي، وأعترف أنني كتبت ما كتبت وعيني عليه، وقلبي معه.. عاشق أنا لشعبي العربي، وأمتي العربية، وما عدا ذلك صدقوني ساقط من حسابي، ومن كل حساب.. فقط أريد أن أضيف مسألتين، أو على الأصح اعترافين:

– الأول: أنني بإرادة واعية، وعن سبق إصرار وتصميم، قررت أن أواجه مصيري واقفاً، منتصب القامة، ورفضت أن أبدو كائناً ضئيلاً في زنزانة، أو في قفص اتهام.. فتماديت بالحديث عن نفسي، وأعطيتها ربما أهمية لا تستحقها، أو قد تستحقها، من يدري... إذا كان قد حصل ذلك، فإن الغاية كانت أنتم.. أردت أن أقول لكم بصريح العبارة أنكم جميعاً في زنازين، جميعاً في أقفاص، مختلفة الأحجام، هذا صحيح، لكنها أقفاص متمثلة بحدود هذه (الدول) المركبة ظلماً وعدواناً واغتصاباً على أرضكم العربية...

- الثاني: أن بعض فقرات هذه المرافعة تبدو وكأنها رسائل إلى من يهمني أمرهم في وطني، إذا كان هذا صحيحاً.. فإن عذري أن هذه المرافعة قد تكون وسيلة الاتصال الوحيدة بهم... وإن كنت حتى هذه اللحظة لا أعرف إن كانت ستصل إليهم وإليكم، أم لا.. فقد تخرج من هذه الزنزانة قبلي، وقد تخرج معي، وقد تبقى معي وأبقى معها، وقد أخرج بدونها.. من يدري..!

ثالثاً: الواقع والأحلام

26. الإشكالية الثالثة، تتمثل بالمسافة بين الواقع والأحلام، ثم بالطريق التي تصل بينهما.. هل هي سالكة، أم سالكة بصعوبة، أم مقطوعة؟ هل هي ممهدة أم وعرة؟ ثم كيف امتلاك الأدوات المناسبة لعبورها؟ وكيف يمكن مواجهة الكمائن التي تصادفنا وراء كل منعطف؟.. أسئلة كبيرة وكثيرة كانت مطروحة خارج السجن، لكنها تعربد بتحدّ صارخ عندما تطبق عليك الجدران ويحيط بك الحديد، وتفتقد حنان الخشب في الأبواب والنوافذ... والإجابة، هنا، في منتهى الأهمية، ذلك أن تقطع السبل بين الواقع والأحلام لا يؤدي إلى الإحباط والهزيمة وحسب، وإنما يقذف بك إلى الوهم والمجهول...

في هذه الحالة، عليك أن تبحث لهذه الأسئلة عن منافذ للتسلل إلى خارج الزنزانة، ثم عليك أن تلاحقها بخيالك للبحث عن إجابات، عن نهايات، عن تتمات، عن تفسيرات، ثم عليك أن تنتظرها، علّها تعود إليك محملة بما تريد... المهم أن لا تتركها تصطدم بالجدران، بالحديد، وترتدّ إليك، فإنها قد تصفعك بأقسى مما تحتمل... هكذا فإن حصان النجاة للسجين خياله، يلقي على ظهره بمتاعه، ويتسلل إلى حيث يرى السماء، ويرنو إلى الأفق، فيحقق هذا التوازن الضروري لاستمرار الحياة بين القيود والحرية...

27. في السجن، ربما تتاح لك فرصة لا تتاح في أي مكان آخر، حتى إذا نأيت بنفسك إلى منفى اختياري... ذلك أن شعورك أن قرار قطع الخلوة والفرار بيدك يفسد كل شيء.. في السجن تكتشف نفسك حيث تتداخل الصلابة بالضعف، والسكينة بالقلق، والكوابيس بالأحلام الوردية، وتفلت الذاكرة من بين يديك، فتستدعي لك ما يشعرك بالزهو والاعتزاز والقوة، والتأثر إلى حد البكاء عنفواناً من مواقف تعتز بها منك أو من آخرين أعزاء على قلبك... ثم فجأة قد تقلب لك ظهر المجن ، وتنفض عليك كل شيء، فتستدعي لك ما يقلق ويضعف، وتنبش من الأعماق،ومن تاريخ الأعزاء على قلبك مواقف الضعف، وربما الزلات الصغيرة أو الكبيرة التي صدرت، أو يمكن أن تصدر عنك أو عن من تحب، فتنكمش في زنزانتك ترتعد فرائصك، ويغادرك الدفء والفرح، ويسكنك الضعف، فتكتشف الهوائم في زنزانتك، وتشعر بالحسد لتلك البعوضة التي تحلق مغادرة الزنزانة من شبك حديدي ضيق، ينفذ منه ضوء خافت، فتنفذ منه إلى حيث لا تستطيع أنت.. وتتساءل: تُرى، هل المطلوب أن أتضاءل مادياً ومعنوياً إلى حجم البعوضة كي أخرج من هذه الزنزانة؟ وهل أنا جاهز لدفع هذا الثمن..؟ وهل إذا فعلتها أكون قد خرجت إلى الحرية، أم أكون قد استنقعت في عبودية دائمة..؟ هنا تكتشف نفسك، فإما أن تتضاءل، وإما أن تنتفض واقفاً معتزاً بنفسك ربما أكثر مما تستحق وتطيق.. لكنك تفعل ذلك، ليس من باب الاستكبار والنرجسية والاستغراق بالذاتية، وإنما إفرازاً لصادات ضرورية دفاعاً عن نفس تتعرض لامتحان خطير... تستصرخك موقفاً مشرفاً فتجيب ملبياً لتخلد إلى السكينة، وتتركك تغفو هانئاً رغم صلابة المصطبة، والرائحة النتنة التي تنبعث من كل مكان في الزنزانة، ورغم الهوائم الزاحفة عليك بأحجام لا تراها العين المجردة في العتمة، لكنك تحس بدبيبها عليك، ومن حولك.. فلا تقاومها تاركاً لها حرية الحركة كما تشاء لأنك تعتقد أنها أحق منك بهذا المكان.. وأنك أنت الذي تعتدي عليها بوجودك. لقد أخبرني الصديق فواز تللو، حيث التقينا بعد ليلتين قضيناها في زنزانتين انفراديتين، بأن جاريه في الزنزانتين المجاورتين له استغلا غياب السجان بعد منتصف الليل ليتحدثا.. وبينما كانا يتناجيان، صرخ أحدهما: ها هو الصرصور قد أتى.. قال له صاحبه: اقتله، امعسه في الحال.. فأجابه الآخر بهدوء: لا، لن أقتله، سأدعه يمضي، علّنا نكسب حسنة أولاده فنخرج من هنا.. ثم تنهد وأضاف بحسرة: تُرى، ماذا يفعل أولادي الآن..؟..

28. وبما أن هذه الفقرة عن الواقع والأحلام، فإنني هروباً من الواقع، على ما يبدو، استرسلت وراء الأحلام، أو ربما الأوهام، وخرجت عن الموضوع.. لكن ما أردت قوله هو أن أهم ما يحتاجه السجين هو إحكام السيطرة على ذاكرته، لا يتركها تتجول على هواها.. عليه أن يعرف كيف يطفئ عنها النور في اللحظة المناسبة؛ ثم وعودة إلى السياق، فإن ما أريد قوله تحديداً هو ضرورة الانتقال من مرحلة الشكوى إلى مرحلة تغيير الواقع الذي لا يعجبنا، وإذا كان هذا يتطلب أن نبدأ بتغيير أنفسنا، فلنبدأ هذه الخطوة... المهم، أن لا نبقى مستسلمين لواقع نشكو منه جميعاً، ذلك أن الشكوى وتوصيف الحالة الراهنة لا يغير من الواقع شيئاً، وبما أنني أعلنت موقفاً واضحاً وصريحاً ضد العنف بكل أشكاله داخل المجتمع من أي طرف كان، فإن كافة الخلافات داخل المجتمع، وسائر الصراعات الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية، يجب أن نبحث عن حلول لها بالحوار والكلمة السواء والاحتكام للشعب. لذلك فقد خطر لي، وبما أنني هنا بلا فائدة ولا قوة ولا حول، أن أوجه دعوة حارة لأبناء وطني بين المحيط والخليج لمباشرة خطوة صغيرة لكن نتائجها ستكون هائلة على ما أتصور: وهي أن نبدأ باستعادة ذواتنا، وأن نكون نحن، نحن، وأن لا نمارس اعتباراً من هذه اللحظة أي عمل، أو نتخذ

أي موقف، أو نبدي أي رأي يخالف قناعاتنا... أقصد بذلك الموقف السلبي فقط، بمعنى الامتناع عن أي فعل أو نشاط يخالف قناعاتنا، ذلك أن هذا الموقف هو بحدود استطاعة الجميع، وكذلك المخاطر.. أما المواجهة الإيجابية فتُترك إرادياً حسب الاستطاعة من فرد إلى آخر... إنني هنا سأترك لخيالكم وفطنتكم أن تحصوا المواقف، وأن تتخيلوا النتائج لمثل هكذا عقد نعتصم به جميعاً، ونضع له برنامجاً زمنياً.. ثم ننطلق منه إلى موقف أكثر تطوراً حسب الظروف... لو استطعنا أن نحقق ذلك في الواقع بنسب معقولة، فإن واقعاً جديداً سينهض، وعلاقات جديدة تُبنى على التصادق والاحترام ستُنشأ، وإن الكثير من مظاهر النفاق والتكاذب والفتن ستختفي، ثم، وهذا هو المهم، سنشعر أن ذلك كله تحقق دون مخاطر تُذكر، وبالحد الأدنى الذي يشعر فيه كل واحد منا أنه هو، هو، في السر وفي العلن، فيستعيد احترامه لذاته، ويستعيد احترام الآخرين له... أستذكر ذلك كله الآن في محنتي لأن ذاكرتي في هذه الظروف تعاملني بخبث أو بتخابث مريب.. ذلك أنها تستدعي في هذه اللحظات العشرات من الأعزاء الذين يهمسون بآراء ومواقف.. أما في العلن، فيتناقضون تماماً مع قناعاتهم هذه.. وأكاد عندما أتابعهم يصرخون في الشوارع، أو على أجهزة الإعلام لا أصدق ما أراه.. من هو الذي أعرفه، من من بينهما الحقيقي ومن هو المزيف؟ نحن هنا لا نطالبهم بالجهر بقناعاتهم التي همسوا بها، فهذا قد يعرضهم لمخاطر هم غير مستعدين لها.. هذه مرحلة تالية لها ظروفها... المهم الآن، أن لا يعلنوا ما يناقض قناعاتهم، لا أكثر من ذلك ولا أقل.. أن يعتصموا بالصمت.. ذلك أنني أعتقد أن مخاطر الصمت هي بالحدود التي يمكن أن يحتملها الجميع دون استثناء، ولا عذر لأحد... هل يمكن أن نباشر ذلك في الحال..؟!

29. أودّ، بعد ذلك، أن ألامس موضوع القضاء، ومن هذا الباب بالذات، ذلك أن القضاء هو خط الدفاع الأخير عن المجتمع.. إذا استُبيح القضاء فإن استباحة المجتمع غدت ممكنة.. هذا أولاً.. وثانياً، لأنني أنتمي إلى هذه المؤسسة، وأعني بها مؤسسة العدالة في بلدنا، وأعتبر أن ما يمسها يمسّني بالصميم، لكنني في الوقت ذاته بتّ شخصاً واقعياً، لا بمعنى الرضوخ للواقع، والقبول بمعاييره، ولكن بمعنى محاولة فهمه وتقييمه، وبالتالي لم تعد تراودني أوهام كبيرة عن البطولات الفردية والرجال الفرسان، فالمسألة تجاوزت المقدرة الفردية.. لذلك بتّ على قناعة بأن على الذين ينشدون العدالة والمساواة والحرية أن يبحثوا في ذواتهم، وفي المجتمع برمته عن طريقة ما لصياغة منظومة قانونية متماسكة تستند إلى معادلة اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية محكمة، تعيد للوظيفة العامة ألقها واحترامها، لأنه عندما يكون الموظف العام أضعف حلقة في المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً، فإن الذين أضعفوه إلى هذه الدرجة يخترقونه بلا حساب، وعندها يغدو مستباحاً للاختراق بشكل عام، فتعمّ قيم الإفساد والفساد، ويتحول الحديث عن السيرة الذاتية، لهذا أو ذاك، وسيلة للتندر الشعبي، تعبيراً عن النواح والشكوى، ويغدو الحديث عن البطولات الفردية والصمود الفردي حديث عن شواذ، ومجرد تعويذة للإمساك بالأحلام الهاربة... ما يعنيني، هنا، موقف بين الواقع المر والأحلام.. يتعلق بأن يفطن، من يهمهم الأمر في وطني، من قاع المجتمع إلى قمة السلطة، قبل فوات الأوان، إلى حقيقة أن هناك مشكلات في بلادنا تراكمت واستوطنت بفعل عوامل عدة، وأن مجتمعنا بات يعاني من خلل خطير في أدائه لوظائفه، وأن قطاعات واسعة منه بفعل عوامل عديدة باتت عاجزة أو عاطلة أو معطلة، وأن قطاعات أخرى فقدت الاتجاه الصحيح باتجاه التطور، فتتصادم خطوطها وتتقاطع بغير هدى، مما يؤدي إلى اضطراب في المجالات والمفاصل الحيوية.. وأن هذا كله لا يعالج بالمداراة أو بالنفي أو بالتجاهل، كما لا يعالج بالتشبث بالمواقع والإصرار على كل شيء، وأن كل شيء على ما يرام... ومن جهة أخرى لا يعالج بمنطق التخندق والثأر وتفعيل الصراعات، لأن خندقة المجتمع تعني تدميره.. لهذا فإنني دعوت على مدى السنة المنصرمة علناً، وعلى رؤوس الأشهاد، إلى التداعي للكلمة السواء، ودعيت علناً إلى نبذ العنف والتعسف والعنف المضاد بكافة صوره، وأن يكفّ الجميع عن محاولات الإقصاء والاستئصال والإلغاء والتغييب، وأن يعلن الجميع أن لهم حقوقاً وعليهم واجبات في رحاب وطن، هو ملك مشترك لجميع أبنائه، وأن تنتهي مظاهر التفرد والهيمنة من الأفراد أو الجماعات.. سواء على بعض مؤسسات السلطة أو بالمقابل على بعض مفاصل المجتمع.. وأن تفتح الأبواب، بلا حدود، كي يعيد المجتمع إحياء مؤسساته على صعيد المنتديات والجمعيات والأحزاب والنقابات ومؤسسات الصحافة والرأي، وكذلك أن تُبثّ الروح بالمؤسسات التشريعية والقضائية والتنفيذية كمؤسسات حقيقية موضوعياً، وفاعلة وقادرة.. وأن يقونن هذا كله بمنظومة قانونية متماسكة تضع حدوداً فاصلة بين السلطات والمؤسسات. فلا طغيان من سلطة على أخرى، وفي الوقت ذاته لا فراغ بين السلطات والاختصاصات... هذا هو الطريق الوحيد للإصلاح، للتغيير الإيجابي، للتحديث، للتجديد.. وهذا هو الطريق الوحيد للانتقال من مرحلة التخبط والتصادم بين الاتجاهات المتعاكسة، إلى مرحلة يتجه فيها المجتمع برمته إلى المستقبل، تتضافر فيه القوى، وتتنافس على طريق البناء والتشييد والتماسك، ومن ثم على طريق التحرير والتوحيد على الصعيد القومي، وينتفي التنافس على المغانم الخاصة، والتنافس في الفساد والهدم والنهش بمقدرات الوطن وثرواته الحيوية.. ويستعيد الإنسان في وطننا إنسانيته، ويستعيد أغلى ما يملكه، وهم الأبناء والعلماء والباحثون الذين هجروه إلى المهاجر... إن ما فقدناه من ثروات مادية كبيرة يتحدث عنها الاقتصاديون، تمّ تهريبها إلى الخارج مكدسة في أرصدة البعض، أو يستثمرها البعض الآخر، أو يسوح بها فريق ثالث... كل هذا يمكن تعويضه، ولست في وارد النفي أو الإثبات، لأنني أدعو إلى عدم الاستسلام للشائعات والركون فقط للأدلة والبراهين الثابتة... أقول كل هذا – في حال ثبوته – يمكن تعويضه، أو استعادة بعضه بالقانون على الأقل.. لكن أن يفقد الوطن خيرة عقوله العلمية والنابغة،

على صعيد العلوم التطبيقية والإنسانية والطب والبحث العلمي عموماً، فهذا يعني كارثة حقيقية، لأن التعويض يحتاج إلى أجيال، وقد يكون فاتنا قطار العصر، لذلك فإن العمل على تهيئة كافة الظروف اللازمة لعودة عقولنا المهاجرة من المهاجر يجب أن يحتلّ الأولوية على كل شيء. يؤلمني ما تطالعني به الصحف المحلية من أن فلاناً الفلاني عاد يستثمر أمواله.. أو أن الأمير علان سيشيد لنا فندقاً.. وبأن فرص الاستثمار مفتوحة، ولم يكلف أحد نفسه بسؤال واحد: لماذا لا يعود العلماء والباحثون والأطباء والمهندسون إلى البلاد؟ وكيف يمكن أن نزيل العراقيل عن طريق عودتهم؟

30. إنني لا أعتذر عن هذه الاستطرادات.. كان يجب أن أتحدث عن ذلك كله، لنفهم في السياق كيف يمكن أن تستعيد الوظيفة العامة ألقها وموقعها.. فيحترم الموظف العام الصفة التي يمثلها، وبالتالي يحترمها المجتمع... ذلك أنه إذا لم تتحقق هذه الأجواء الإيجابية على الصعد كافة لا يمكن الحديث لا عن وظيفة عامة، ولا عن قضاء عادل ومستقل لا يخترقه أحد.. وعندما يصبح القضاء عصياً على الاختراق، يكون القانون أيضاً مصاناً لا أحد فوقه، ولا أحد دونه، وإنما الجميع، مجتمعاً ومؤسسات، أفراداً وجماعات، متساوون أمام القضاء، وفي ظل القانون.. فيلتزم كل حدوده، حدود وظيفته العامة، وحدود سلوكه الفردي...

31. وبما أن القضاء في بلادنا يعاني من وضع دقيق، فإن من الوهم، أو من الظلم أن نطالبه بما لا طاقة له به.. والعرب قالوا في ذلك المجال: "إذا أردت أن تُطاع فاطلب المستطاع".. لهذا، وبعيداً عن الوهم، وبعيداً عن الظلم، فإنني ألتمس العذر (لمحكمة أمن الدولة) ، وحتى للقضاء العادي الذي أُحيل إليه النائبان رياض سيف ومأمون الحمصي، رغم موقفي القانوني من دستورية محكمة أمن الدولة، والذي سأعبر عنه في حينه كونها محكمة ملغاة بحكم نصوص صريحة في الدستور.. فإنني كنت أرغب أن لا يلصق موضوع اعتقالنا، والإجراءات التي رافقته بالقضاء، بسبب انتفاء المسوغ القانوني نهائياً.. فيبدو القضاء وكأنه واجهة تنفيذية لقوى خفية من خارجه، وهذا حقيقة ما كنت أرغب أن لا يحدث... لن أشغلكم الآن بتفاصيل الوضع القانوني، والإجراءات والانتهاكات التي ارتُكبت، فقط أريد أن أقول أننا اعتُقلنا منذ شهرين، بعضنا تجاوز اعتقاله الشهرين، فنشر أحدهم مقالاً في الصحف المحلية استنكر أن يُطلق علينا لقب معتقلين، قال: إنهم موقوفون، ثم تفاخر بأنه تمت إحالتنا للقضاء.. ليكن، فنحن موقوفون على ذمة التحقيق، أليس كذلك؟ هذا يعني أيها السادة في محكمة أمن الدولة، أن للتحقيق ذمة يمكن الركون والاحتكام إليها، لكن لم يخطر على بال أحد أن يكون التحقيق بلا ذمة، أو أن تكون ذمته واسعة إلى هذا الحد... ذلك أنه منذ شهرين لم يضف إلى التحقيق كلمة واحدة.. نحن هنا في القسم السياسي للسجن المركزي بدمشق كما يلي: المهجع /4/ يضم الأساتذة: رياض الترك، حسن سعدون، حبيب صالح، وفواز تللو، وفي المهجع رقم /6/ الأساتذة: عارف دليلة، كمال اللبواني، وليد البني، وأنا.. وفي غرفتين منفردتين بالسجن المدني كل من النائبين: مأمون الحمصي ورياض سيف.. بالنسبة للنائبين سيف والحمصي، لا نعرف شيئاً عن أوضاعهما.. بالنسبة لنا، نحن الثمانية الآخرين، لم نغادر المهجعين المذكورين منذ دخلناهما، ولم نُبلَّغ قرار اتهام أو قرار ظن، ونحتاج إلى منجّمين لنعرف أي شيء عن مصيرنا... هل سيعتمدون ذات التهم التي وجهها فرع تحقيق الأمن السياسي؟ أم سيُضاف عليها، أم يُنتقص منها؟ هل تمّ التراجع عن إحالتنا للمحكمة بعد أن اكتشفوا تهافت أركان هذه الدعاوى التي حُركت علينا؟ وبالتالي فإن الهدف هو عزلنا، وإذا كان الموضوع مجرد عزل فما هي مدته؟ وإلى متى؟ كل هذه الأسئلة في علم الغيب بالنسبة لنا، وبالتالي لا نعرف ما هي الظروف وما هي المتغيرات التي يمكن أن تكون قد حدثت عندما تغادر هذه الكلمات.. إلى خارج السجن!! وبالتالي فإن مجال الرؤية يكاد يكون صفراً، من الناحية القانونية.. فما يحدث منفلت من أي ضوابط، لذلك فإن كافة الاحتمالات مفتوحة.. فقط وجدت نفسي أمام مهمة إضافية، لم أعد أفكر بما يمكن أن يحدث، لأنني لا أملك أية معطيات للبناء عليها، فدعوت أصدقائي لنسيان هذا الموضوع.. وهذا ما كان، رغم الاحتجاج.. إذ، كيف يمكن أن تطالب الإنسان، أي إنسان، بنسيان مصيره.. لكن هذه هي الطريقة الوحيدة للسكينة والهدوء والصمود. لهذا، لم أعد أفكر بالإفراج عن أصدقائي، متى، وكيف، وكذلك بما يتعلق بشخصي، ووجدت لنفسي مهمة بديلة، ربما تكون ممكنة، وهي الإفراج عن هذه الأوراق، فهل سأنجح بذلك على الأقل..؟

32. طالما أن الحديث مازال مستمراً عن الواقع والأحلام، لا بدّ أن أغامر بإثارة قضية هامة بتسليط الضوء عليها، وهي قضية أعتقد أنها في غاية الأهمية، وتشغل حيزاً هاماً من تفكيري، وتندرج بشكل من الأشكال ضمن ما تحدثنا عنه من إيجاد منظومة قانونية متماسكة ومتناسقة، تحكم كافة قطاعات المجتمع والدولة، ولكنها، ونظراً لدقتها وحساسيتها الشديدة، فإنها تحتاج إلى تفصيل خاص، هذه القضية هي، باختصار: واقع الأجهزة الأمنية، مهامها، وتداخل اختصاصاتها، وتشعبها.. وبما أن الحديث عن هذه القضية خارج السجن قد يثير بعض الريبة بسوء النية، وبما أن أي حديث عن إعادة هيكلة الدولة والمجتمع، والتنظيم والقوننة، لا أثر فعلي له ما لم تعالج قضية الأجهزة الأمنية بصراحة وشفافية، بعيداً عن النفاق والخوف.. فقد قررت أن أغامر بمواجهة هذه القضية، وأنا في قبضة هذه الأجهزة تعبيراً عن حسن النية، وعن التصادق الذي أدعو إليه في المجالات كافة، متحملاً كافة المخاطر التي تترتب على ذلك...

33. باختصار شديد، ونتيجة لظروف معروفة للجميع، تضخمت الأجهزة الأمنية في بلادنا بأعداد يُقال أنها هائلة، ورغم أنني لا أمتلك إحصائيات دقيقة فإن الواضح وغير المنكور من أحد، أن آثارها وظلالها تكاد لا تخفى على أحد.. حتى أن قناعة ترسّخت واستقرت في الوجدان العام – أنقلها هنا بغضّ النظر عن مدى صحتها من عدمه – تقول: أن هذه الأجهزة باتت تتدخل في كل شيء، كل شيء، وأنها وراء صعود هذا، وسقوط ذاك.. بل إن شعوراً – ربما مبالغاً فيه – لا أعرف – ينظر بعين الريبة إلى الذين يتولون أهم المناصب في البلاد، وهل هم مجرد واجهات لقوى خفية..؟. والتفاصيل كثيرة.. والخوض فيها كالمغامرة بالتجول في حقل ألغام... ما يعنيني هنا القول، أن ظروفاً دقيقة مرت على البلاد أنتجت هذه الظاهرة حيث تضخمت الأجهزة الأمنية، وغادرت اختصاصاتها ومواقعها، وباتت تتسابق في ضبط الشارع، وضبط السياسة، وضبط الاقتصاد، وضبط الثقافة، وضبط الإعلام، وضبط مفاصل الحياة جميعها.. حتى باتت عبارة "الموافقة الأمنية" ملازمة لأي نشاط، ووثيقة لازمة تتوقف عليها عمليات البيع والشراء والوكالات والزواج وإلى آخره.. كل هذا بالإضافة إلى الروايات، والتجاوزات المأساوية التي يتناقلها الناس عن الاعتقالات، والتعذيب في الأقبية، وربما لما هو أكثر من ذلك وأبعد.. وبما أنني لا أمتلك إحصائيات دقيقة عن ذلك، فإنني وبحيادية وقلق، أتابع من يعتبر أن هناك مبالغات مقصودة ومريبة في كل ما يُقال، وكذلك بالمقابل من يعتبر أن ما خفي كان أعظم... ما يعنيني هنا ليس الشكوى من هذه الأوضاع، ولا الدخول في متاهة التفاصيل، ولا في تحديد المسؤوليات، كما لا يعنيني الدخول في مباراة، من أساء للمجتمع أكثر من من.. ومن آذى المجتمع أكثر.. فالأذى من فريق لا يبرر الأذى من الفريق الآخر... ما يعنيني تحديداً أن أنبّه بصدق إلى أن المجتمع قد يحتمل مثل هذه الأوضاع لفترة معينة، يمكن مناقشة مبرراتها وظروفها وضروراتها.. لكنه لا يمكن أن يحتمل ذلك إلى ما لا نهاية.. فإذا لم يتصد العقلاء والمناضلون والوطنيون لمهمة إنهاء ظروف انتهت مبرراتها، وكان يجب أن ترحل معها، فقد يقلب المجتمع الطاولة على الجميع.. ذلك أن تحقيق الأمن الحقيقي في المجتمع على الصعيد الاستراتيجي لا يمكن أن تحققه الأجهزة الأمنية مهما امتلكت من طاقات وإمكانيات ووسائل.. فهذه الأجهزة يمكن أن تواجه حالة طارئة، ظروفاً قاهرة، لكن، على المدى البعيد، لن يوفر الأمن الحقيقي للمجتمع إلا نظامه القانوني المتماسك، نظامه الاقتصادي العادل الذي يوفر التوازن بين كافة فئات الشعب، نظامه التعليمي والثقافي والقضائي والتشريعي، وحتى التنفيذي، لكن ضمن هذه المعادلة، وليس بالخروج عليها، كل هذا – وهنا بيت القصيد – استناداً لنظام ديمقراطي يحقق تكافؤ الفرص للجميع، فيزول الشعور بالغبن، بموازاة زوال الشعور بالتسلط.. وأنا أقول هنا، وبكل تصادق، أنه عندما تطغى معايير الولاء على ما عداها من معايير المؤهلات، والإمكانيات الموضوعية والذاتية الأخرى في شغل المفاصل الأساسية بالبلاد، فإن اختلاطاً واضطراباً شديداً، لن يكون الفساد هو مظهره الوحيد... والمشكلة هنا لا تقتصر على مقدرة الذين يملكون زمام الأمور في التقييم والاختيار، لكن في انتفاء إمكانية التمييز بين المعايير بسبب النفاق المنفلت، والتكاذب على الأصعدة كافة.. ولن أزيد، فقط أريد أن يهتدي الجميع إلى حقيقة أنه ليس من حق أحد أن يختار للناس.. لا بدّ من تشريع نظام ديمقراطي حقيقي لينهض بهذه المهمات، وإذا كان البعض يتحدث عن الخصوصية، فأنا مع هذا الحديث، وهو يثلج الصدر حقاً. فنحن القوميين مع خصوصيتنا الإيجابية، المتمثلة بالعدالة والمساواة، ولسنا مع الخصوصية الطارئة التي فرضت الاستبداد والفتن... ولهذا فإننا تداعينا مع الجميع إلى الكلمة السواء، لنصل إلى تعريف وطني قومي للخصوصية، حتى لا يكون الحديث عنها تبريراً للاستبداد. فلنتشارك جميعاً بالحديث عن الخصوصية الإيجابية، عن احترام الإنسان، عن تكافؤ الفرص، عن مكرمة الجهر بالحق، عن المروءة والشهامة، وقيم الحضارة العظيمة التي بنى عليها الآخرون، وهدمنا نحن ما بناه الأجداد العظام. فلنبدع الديمقراطية التي تناسبنا بالحوار، وبالرأي، وبالرأي الآخر، لكن لنتعاقد جميعاً ولنوثّق هذا كنقطة انطلاق ننطلق منها جميعاً، وهي أن الاستبداد لا يناسبنا بأي حال من الأحوال. أقول ذلك بكل أمانة، وأصرخ بقدر ما تحتمل جدران هذه الزنزانة، أن الخصوصية ليست شعاراً، وليست ستاراً، وليست تعويذة، وإنما هي ممارسة عميقة في الواقع، وهي إبداع وحلم، بالإضافة إلى أنها جذور أيضاً.. لكنها ليست جذوراً متعفنة تحت التراب، إذ لا بدّ أن تنبت حتماً مجتمعاً عظيماً قادراً فاعلاً يفرز مؤسساته الحزبية والنقابية، يفرز جمعياته، ويفعّل منابر الرأي والإبداع.. بهذا، وبهذا فقط يعبر عن خصوصيته، وينميها، ويحفظ هويته في عالم مضطرب، بشفافية ومصداقية وفاعلية... بهذا، وبهذا فقط، ينزوي النفاق والتكاذب، وتختفي الغمغمات والهمهمات، وتُطهر الجروح من القيح ، وتُستأصل الأورام، ويتفعّل قانون الجدل الاجتماعي بين الآراء والأفكار، علانية.. يختبرها شعبنا الواعي، بسجيته السمحة، والتي لا تخيب.. ويتسابق الجميع إلى البناء على الأصعدة كلها.. وتختفي معاول الهدم والفتنة والتخلف. عندها، وعندها فقط، سيتحقق الأمن والأمان للجميع، وسيبحث المجتمع عن مهمات إيجابية في مجالات البناء لسائر أبنائه. هذا سيؤدي تلقائياً إلى أن عشرات الآلاف من الكوادر الشابة، التي تسخر في عمليات سلبية ضد المجتمع كمخبرين ومراقبين ومتنصتين، وكتائب الاقتحام والاعتقال والتعذيب، كل هؤلاء سيجدون أنفسهم بلا عمل.. فيعيدهم المجتمع إلى سياق العمل الإيجابي في مؤسسات المجتمع، ومؤسسات تحصينه من العدو والأعداء. عندها تنتفي علاقات النفاق والخوف والتكاذب والكيد بين جهاز الأمن وبين المواطنين، فيتجه كلٌّ إلى اختصاصه في سياق: أن العمل قسمة لخدمة وطن هو للجميع، فهل هذا ممكن..؟ وهل يتعارض هذا مع خصوصيتنا..؟!

34. قضية أخرى، وأرجو أن تكون أخيرة، لأنني أدرك كم أتعبتكم معي، وكم تماديت في الحديث... وهي موقفنا نحن القوميين، والمصداقية بين الواقع والأحلام. أعترف أولاً أننا نحن القوميين في مأزق، وأعترف ثانياً أننا نتحمل المسؤولية الأساسية عما تعاني منه أمتنا العظيمة، وأعترف ثالثاً أننا نستحق معظم ما يُوجّه إلينا من انتقادات تتعلق بالتقصير والعجز وعدم الجدية، وإلى آخره. وأعترف أخيراً بكل مشاعر الانتماء والعرفان، أن هذه الأمة العظيمة قد أعطت التيار القومي العربي في منتصف القرن الماضي ما لا يمكن أن تمنحه أمة من الأمم، وأنها احتضنته، وأسلمته قيادتها، ومنحته مشاعر بلا حساب، واحتضنته بالعيون، وقدمت تضحيات بلا حساب أيضاً. لكن هذا التيار للأسف الشديد، على مستوى الأداء والتنظيم والممارسة والحصاد والفاعلية، خيّب الآمال التي عقدتها الأمة عليه. صحيح أن الطريق لم يكن سهلاً، لكنني ضد التبرير، والتعلل بالظروف.. المهم أن خيبات هذا التيار وانتكاساته كانت هي بالذات خيبات وانتكاسات للأمة بأسرها. عندها، وعندها فقط، انكفأت الأمة عنه، وحاسبته بقسوة الأم على وليدها الذي حمّلته الآمال والأحلام، فخاب وخابت معه.. ولم يكن لديه ما يقدمه إلا التبريرات، والتعلل بالظروف الصعبة ومؤامرات الأعداء، وكأنه كان مطلوباً من الأعداء أن يفرشوا الورد أمامه ليخلص الوطن من هيمنتهم الوحشية. لكنها، الأمة، سخرت من كل ذلك، ومن التبريرات، فهي عندما دفعته إلى الساح، كانت تعلم ذلك كله أو أكثر، وكانت تدرك حجم المخاطر، وتوضعات الأعداء، وخرائط الخونة، وهي لم تبخل بوضع ذلك كله بين يديه. لكنه لم يعدّ للأمر عدته، فأنّبته بقسوة، وحمّلته ما يحتمل وما لا يحتمل، فانكفأ إلى الدفاع في مواقع ضعيفة ومحاصرة، فبعض القوميين الذين كان منوطاً بهم أن يحملوا راية الوحدة العربية بين المحيط والخليج، يتباهون الآن أنهم لم يقسموا أقطارهم الصغيرة، وإن كانوا لم يستطيعوا الحفاظ على حدودها، والذين تاهت بهم السبل في تنظيمات محلية وقطرية، وربما دون ذلك، اعتصموا بالحديث عن الأمجاد السالفة، وتفاخروا بعدم التفريط. لكن الأمة كان لها رأي آخر، ذلك أن الوجود والهوية يتعرضان لتهديد شديد، وبالتالي عليها أن تفرز من يقاوم ويتحدى ويستشهد ويتصدى ويشاغب على المخططات المعادية.. حتى لا يستقر الخنوع والاستسلام، وإلى أن يفيق ابنها القومي الخامل الأصيل لمشروعها الحضاري، واستراتيجيتها الإنسانية من غيبوبته، ويستلهم الدروس والعبر، ويعمّق خطه النضالي الأصيل من الواقع وإلى الحلم، فتستنهضه الأمة من جديد، وتدفعه إلى الساح حاملاً راياتها وأصالتها ورسالاتها ومخزونها الحضاري العظيم.

35. وبما أنني من أولئك النفر الذين لم يتسرّب الشك إلى قلوبهم لحظة واحدة في أحلك الظروف، حتى تلك التي غدا فيها الحديث عن الأمة العربية والوحدة العربية، مجالاً للتندر والسخرية.. ذلك أنني ما زلت مسكوناً بهذا الحلم، بل أن هذا الحلم هو كل ما تبقى مني... سأمضي أنا، وجيلي، وسيمكث هو في الأرض وفي البشر، هنا، إلى أن يتمكّن جيل عربي قادم من تحقيقه.

36. في غمرة الهجوم على التيار القومي، كان لا بدّ أن نعتصم بتأصيل العقيدة القومية دفاعاً عن الهوية والوجود، فقد وصل الانكسار إلى مرحلة بات فيها السؤال يُطرح دون مواربة: هل توجد أمة عربية فعلاً.. أم لا..؟ وكانت الإجابات المشككة بهذا الوجود تنهمر من كل حدب وصوب، لكن الذين وعدوا الناس بالسمن والعسل في العقود الأخيرة، بعد انحسار التيار القومي، لم يقدموا على الصعيد الاستراتيجي إلا حلولاً ناقصة، لا تتفق أبداً مع حجم التضحيات التي قُدمت. لذلك فإن الاعتصام بالموقف القومي كان يعني بالنسبة لنا عدم الانخراط بأي عمل قطري أو إقليمي.. فهناك منطق متماسك فكرياً وعقائدياً سعينا لتأصيله وتجذيره، وبما أن الطريق أمام أي نشاط بات شبه مسدود، فإننا اعتقدنا أن التمسك بمواقفنا العقائدية يكفي، فالدولة الإقليمية إلى زوال، ودولة الصهاينة كذلك، وستنهض دولة العرب الديمقراطية الواحدة، وبالتالي فإن مشاريعنا مؤجلة إلى أن يتحقق ذلك، حيث لا ديمقراطية ولا حرية ولا عدالة اجتماعية إلا في دولة الوحدة العربية، حيث كامل الثروات في خدمة كامل الأمة لتحيا بما تملك وما تستحق.

37. ورغم التماسك الواضح والقوي بهذا المنطق القومي، خاصة وأن شواهد السنوات الأخيرة، على صعيد الوطن وعلى صعيد العالم، تثبت كل يوم أن الحديث عن خروج العرب من التاريخ لم يعد ممكناً ما لم يتحد العرب... فالوحدة العربية تبدو اليوم، ورغم انحسار التيار الحامل لمشروعها، أكثر ضرورة من أي وقت مضى... لكننا رغم ذلك بدأنا نكتشف ضعفاً في المنطق القومي يكمن في إغفال مرحلة هامة، وسؤال أساسي هو: كيف ننتقل من هذا الواقع المجزأ إلى الوحدة؟ ومن أين نبدأ؟ وكيف نقطع هذه المسافة بين الواقع وبين قيام دولة الوحدة العربية حيث تتحقق الأحلام..؟ كيف نصل إلى دولة الوحدة؟ إن الحديث عن المن والسلوى بدولة الوحدة دون التصدي للمهام الضرورية لتحقيقها هو هروب إلى الوهم.. وهذه المسألة باتت مجالاً للتهكم على التيار القومي من التيارات الأخرى. إنه التحدي الحقيقي، ولم يعد كافياً الاعتصام بالموقف القومي عقائدياً.. لا بدّ من الانخراط في الواقع، مهما كان هذا الواقع، ومن ثم الصعود به والتصعيد معه إلى حيث الوحدة. لهذا كله، فإننا نعلن أن الاعتصام بالحديث المجرد عن إزالة الدولة الإقليمية وزوالها المحتم، لم يعد كافياً. فإن لم يتصد التيار القومي لمهماته فقد تزول الدولة الإقليمية لصالح المزيد من التشظي، ولن تكون إزالتها لصالح المشروع القومي إلا إذا تصدى التيار القومي لمعالجة كافة المشكلات التي يعاني منها المجتمع العربي في

سائر الديار. ثم إن الاعتصام بالحديث المجرد عن إزالة الدولة الإقليمية لم يعد كافياً لسبب آخر، وهو أن هذه الدولة طورت آلية عملها، وتوسعت أجهزتها ومؤسساتها، وفرضت سيطرة شبه كاملة على مقدرات المجتمع وإمكانياته.. وارتبط مصير عشرات الآلاف من الموظفين والعمال والجنود، وإلى آخرهم، بمصيرها، وهزمت مؤسسات المجتمع الحزبية والثقافية، والتهمت الاقتصاد والثقافة، وصادرت الرأي، واعتقلت الأحلام، فبرز السؤال الهام: هل يمكن أن يصل القوميون إلى أهدافهم التوحيدية إلا بالانغماس بهذا الواقع كما هو، كما هو بالضبط، لإعادة الفعل والتفعيل، والانطلاق منه إلى حيث يجب أن يكون؟ وإذا كان ذلك كذلك، وهو كذلك فعلاً، لماذا لا ينخرط القوميون العرب مع شعبهم العربي على امتداد ساحة الوطن بين المحيط والخليج، يخوضون معه كافة معاركه من أجل العدالة والحرية والديمقراطية، وبناء مؤسسات حقيقية للمجتمع تطلق طاقاته، لتكون مرتكزات صلبة للبناء القومي للأمة؟ ثم هل يمكن للتيار القومي أن يستعيد عافيته ومصداقيته إلا بالانخراط في حل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأمنية والمعاشية، التي يعاني منها الشعب العربي؟ وهل تنتظر هذه المشكلات حتى تقوم دولة الوحدة العربية؟ بل هل يمكن أن تقوم دولة الوحدة العربية إلا عبر التكاتف بين سائر قوى المجتمع العربي على حل هذه المشكلات؟ وهل يمكن للشعب العربي أن يناضل من أجل وحدته إلا إذا تمكّن من إطلاق طاقاته، وتحطيم قيوده؟

38. ثم.. ثم لا بدّ من الإشارة إلى مسألة بالغة الحساسية، وهي أنه لا بدّ من الاعتراف أن السلطات الإقليمية في الوطن العربي، هزمت الشعب العربي، وأكلت مؤسساته، دمرت مرتكزاته، أفرغت أحزابه من مضامينها، حولت منابر الرأي لتكون منابرها ورأيها وحسب... طورت أجهزتها إلى درجة، بات فيها العمل السري مستحيلاً، أو شبه مستحيل، أو في أحسن الأحوال معزول جماهيرياً، حتى مؤسسات الدولة الرسمية باتت شكلية إلى حد بعيد، حتى الجيوش تمّ تحييدها، أو ترويضها، أو تدجينها، أو اختراقها... كل هذا في ظل ظروف بالغة التعقيد على الصعيد الدولي، وفي ظل عداء صريح للهوية العربية، للوجود العربي.. نحن بالنسبة إليهم شرق أوسط، وشمال إفريقيا، وشعوب، وقبائل، وأقليات تسعى إلى تقرير مصيرها المستقل بحدود أصغر حتى من حدود سايكس – بيكو. لقد أسرّ لي أحد الأعضاء الناشطين في حقل المجتمع المدني، أن بعثة من المفوضية الأوروبية قدمت إليه نصيحة، أن ابتعد عن القوميين العرب، وأبعدهم عنك إذا كنت تريد أن تحصل على تأييدنا... في ظروف كهذه، بات العمل السري النضالي غير مُتاح، وفي الوقت ذاته، فإن الدعوة للعنف من أي نوع بات أكثر خطراً على المجتمع العربي، حتى من الأوضاع الراهنة، ذلك أن هنالك قوى عديدة وملغومة ومسكونة بالتخلف من كل الأطراف، جاهزة لتركب موجة العنف وتوجهها إلى حيث يريد الأعداء، وللاقتتال بسبب، وبلا سبب، في سائر أرجاء الوطن العربي. وبالتالي، فإن على القوميين العرب أن يتصدّوا بكل الوسائل المتاحة لهم لإخراج كافة أشكال العنف وأسلحته ومفاهيمه من داخل المجتمع العربي إلى حدوده... بل إذا استطعنا في مرحلة لاحقة دفعه إلى حدود العالم لمواجهة القراصنة مصاصي دماء الشعوب.

هذه الأوضاع الشائنة باتت مدركة من مختلف الشخصيات والقوى الخيرة في الأمة، سواء كانت قومية أم غير قومية، سواء كانت يسارية أو يمينية أو وسط، المهم أنها لم تنزلق إلى الفتن، بل أفرزتها تلك الفتن وصلبت مواقفها. وبالتالي فإن كل هؤلاء مدعوون لمغادرة مواقع السلبية والفرجة على ما يجري، إلى مواقع النشاط والأداء. فالصراع الآن قائم على خط الدفاع الأخير عن وجود الأمة، وعن هويتها.. وبالتالي، لا بدّ من تضافر كل هذه القوى الإيجابية في الأمة بالتنادي إلى الكلمة السواء، لينتزع المجتمع العربي حقوقه في الوجود أولاً.. لأن هذا المطلب ضروري للجميع كقاعدة انطلاق كل إلى أهدافه. أما بدون توفير هذه القاعدة من الحرية، فإن الطريق مقطوعة على الجميع، لأن قاعدة الانطلاق مخطوفة من الجميع.. ففي ظل حالة الاستلاب الراهنة لا يستطيع أحد أن يحقق أهدافه.. ذلك أن الجميع مُستلَب لقوى مجهولة، ربما، سواء بالإرادة، أو بالعجز، أو بالضرورة، لا فرق في ذلك!

39. هل يكفي هذا تفسيراً لظاهرة المنتديات وضرورتها، والحوار الذي أفرزته وعمّقته ورشدته..؟ وهل يكفي هذا جواباً على رسالة العتاب الرقيقة التي تلقيتها من أحد الأخوة العرب قبل اعتقالي بأيام، والتي قال فيها: "هل انتهى الأمر بأبي عصمت، (المناضل القومي)، لينشط في منتدى من أجل الحوار الديمقراطي في دمشق..؟". أولاً يا أخي، شكراً على هذه الصفة التي لا أستحقها، وثانياً، أرجو أن تثق أنني لم أنته في منتدى من أجل الحوار الديمقراطي، وإنما منه ابتدأت من أجل حوار ديمقراطي في عموم الوطن العربي.. هل تفهمني يا أخي؟

40. لكن السؤال رغم ذلك يبقى متضمناً لمشروعية غير منكورة، إذ يترتب عليه سؤال هو الأكثر أهمية في تاريخنا المعاصر، هو: كيف يخوض القوميون معارك الواقع العربي الراهنة..؟ السؤال كبير، وليس من حقي أن أجيب عليه من هنا، لكنني أجتهد بتقديم مشروع جواب يقول: يخوضونها وهم قوميون، يخوضونها لأنهم قوميون، ولأنهم عقائديون، ولأنهم منهجيون، ولأنهم يحتكمون إلى (جدل الإنسان) منهجاً، وإلى الجدل الاجتماعي قانوناً للتطور... أما كيف يفعلون ذلك، كيف يطبقونه على الأرض..؟ وما هو الأسلوب، وما هي الأدوات..؟ هنا الحدّ الفاصل بين الجهد والاجتهاد الفردي، وبين جهد الجماعة واجتهادها، حيث الاختصاص معقود للجماعة.. أقول ذلك من هنا، وبكل وضوح، لأن بعض القوميين

تصوروا أنه لكي يخوضوا نضال الواقع، عليهم أن يخلعوا منهج العقيدة، فخسروا الواقع، وخسروا العقيدة معاً. المطلوب الآن من كافة القوى والجماعات في الوطن العربي أن تراجع تجاربها، بعد هذا الزلزال الذي تعرّضت له الأمة نتيجة انحسار التيار القومي، ثم ليقدّم، كلٌّ وفق منهجه، قراءة عصرية للواقع.. ثم وعلى هذا الأساس الواضح والصريح يتمّ التحالف، بين كافة القوى، من أجل تحقيق المتّفق عليه، على أسس جليّة بعيداً عن المناورات. ويستمر الحوار، ويتطور بين مناهج ونظريات ومواقف، لا بين أشباح وهوائم لا لون لها، ولا حدود لشخصياتها، هل هذا واضح..؟!

41. هل يكفي هذا..؟ أعتقد أنه يكفي، وأرجو أن لا يكون قد زاد.. أو تجاوز الحدود. لكن عذري أن القلم هو السلاح الوحيد الذي لم يُنتزع مني حتى الآن... فليتحمّلني من يريد، وليضعني على الرف من يريد أيضاً.. فقد يحتاج أن يعود إليّ في يوم ما!

في هذه اللحظة، ومع أذان الفجر – فجر هذا اليوم – استيقظ صاحبي في المهجع، وفرك عينيه عندما وجدني مستيقظاً، وكنت أعرف أنه غافلني واطلع على بعض هذه الأوراق، دنا مني، وقال هامساً: "من يقرأ أوراقك يعتقد أنك مستغرق في رحلة مشوقة، تدعو لحجز الأماكن.. حرام عليك يا أخي".

قلت ممازحاً: "من يدري..؟ هناك أعزاء اشتقت إليهم، إلى مناكفتهم، وأعتقد أنهم كذلك.. الطريق مسدود بالنسبة إليّ، لكنه مفتوح بالنسبة إليهم.. فليأتوا..".

قال: "فاعل خير، يعني..؟".

قلت: "ربما... أحياناً يراودني في حلم أنه يمكن أن نُصنِّع من أبواب السجون مطارق، على أبواب الحرية... ثم ألا توافقني يا صديقي أننا هنا أكثر حرية مما كنا عليه في بيوتنا، وحتى في منتدياتنا، وسهرات سمرنا..؟ كنا نزيّن الكلمات، نُصنّعها، نُقلبها على الوجوه كلها، نخاف منها عندما تخرج.. ألا تلاحظ أننا هنا نتحدث بحرية أكثر، على سجيتنا، ودون خوف.. وأننا قطعنا المسافة فيما بين بعضنا البعض بفترة قياسية، حتى ما أكتبه هنا، أكتبه بحرية أكبر.. ربما كنت متردداً في كتابته خارج السجن، ربما كان هو الخوف من السجن.. الآن، أنا فيه، ولفترة غير محدودة، ولا أعرف لها نهاية.. وكل ما يتعلق بمصيري مجهول، قد أغادر هذه الزنزانة، ومن يدري قد لا أغادر.. فمما تريدني أن أخاف..؟!

قال: "ربما أنك تهيج مشاعري، لكنك لا تكتب بكامل حريتك، فقد لاحظت أنك خفت من بعض العبارات وشطبتها، أليس كذلك؟

قلت: "لا تتصوّر أن الخوف الذي يسكننا يمكن أن يغادرنا بهذه السهولة، لذلك أنا لم أدّع أنني كتبتُ بحرية كاملة، قلتُ كتبت بحرية أكثر بالنسبة لما مضى.. صدقني يا عزيزي، أنني قبل أشهر، كنت قد طلبت من أسرتي أن تعزلني.. لقد كبرت، وأشعر بغربة، أشعر أنني غير فاهم لما يجري، وغير مفهوم.. أشعر أنني في زمن لا أنتمي إليه.. أنا حقيقة أنتمي إلى زمن لم يأتِ بعد..! لذلك فإن استمراري في هذا الزمن المفروض دون أن أصرخ، دون أن أنادي على الزمن الآتي أن لا يتأخر.. لا معنى له... كنت أحلم بمكان بعيد، معزول، كنت قد اخترته وحددته تماماً.. أنفرد فيه بنفسي، بضميري، بمشاعري، أكتب وصيتي، ويكون موضع قبري.. لو أنهم تأخروا بضعة أيام في اعتقالي، كانوا سيرتاحون من وجودي، وكان هذا سيوفر عليهم عناء الاعتقال، وهذه التكاليف التي يتكلفونها على وجودي في السجن. الآن وقد حصل ما حصل، فإنني بدأت أشعر أن هذا السجن يعوّضني عن العزلة التي كنت أسعى إليها.. وربما هنا أفضل.

قال: "لكن، (وحدّق إلى قضبان الباب الحديدي الثقيل، السجان، والأقفال).. هناك كنت ستشعر أنه اختيارك، بدأته بإرادتك، وتنهيه كذلك.. الآن، أنت بلا إرادة، أنت مقيّد.. شيء لا يُحتمل.. أليس كذلك؟

قلت ضاحكاً: "إن ما يعزيني هو أنني لم أصادف السجان بعد، لم يواجهني حتى هذه اللحظة..".

قال: "يا رجل.. وأشار بيده إشارة ذات معنى، ونهض متبرماً محتجاً...".

قلت: "يا كمال، اجلس.. لا تستغرب يا صديقي، لقد حدّقت ملياً بوجوه أفراد الطاقم، بدءاً من الذين اقتحموا منزلي، رغم قسوتهم، إلى طاقم التحقيق وزنازين فرع تحقيق الأمن السياسي وحراسها، إلى محكمة أمن الدولة، وصولاً إلى هذا السجن ومسؤوله وطاقمه كله.. صدّقني لم أعثر على السجان بينهم.. هذا الإحساس خفّف من الإحساس بالوحشة إلى درجة كبيرة، وبدأت أعتاد على عالمي داخل هذا المهجع، حتى الباب الحديدي الثقيل لم يعد يعنيني بشيء.. هناك إحساس تولّد لديّ، أدخل السكينة والطمأنينة إلى جوارحي، هو أن جميع أفراد هذا الطاقم ليس مقتنعاً.. فللمرة الأولى يواجهون حالة لم يعتادوا عليها، لا تنظيم سري، لا عصابة مسلحة، لا عنف، لا شتائم، مجرد أفراد من تيارات شتى يتداعون للحوار، للكلمة السواء.. ألم تلاحظ كيف عوملنا في فرع تحقيق الأمن السياسي؟ حتى أننا لم نصدق أن التحقيق قد انتهى دون أن نتعرض لإهانة وضغوط وعنف. ثم ألم تلاحظ كيف يتعامل معنا مسؤول السجن ومعاونوه وسائر الطاقم من أبو محمود إلى أبو إياد، إلى أبو يامن، إلى أبو علي، وأبو شادي، وإلى آخرهم. صحيح أننا لا نعرف أسماءهم، وأنهم أحياناً يتصنّعون الصرامة، ويتقنون لغة الصمت، والتهرب من أي سؤال، لكن عيونهم تفضحهم أحياناً.. ألم تلاحظ أننا بتنا ننتزع منهم صباح الخير، ومساء الخير، وأحياناً يبتسمون لنا، ويقلقون لمرض أحدنا.. إنهم أبناء شعبنا الطيب، يا أخي.. أحياناً يخامرني شعور أنهم مساجين معنا، ربما نحن أكثر حرية منهم، صدّقني...

قال: "أوافقك، ربما على معظم ما قلت، لكن من غير المعقول أن ترسم للسجن هذه الصورة الوردية، فالسجن هو السجن، حجز الحرية، والعائلة، والأولاد، و.. أنت تهوّن الأمور كثيراً... إذا طالت بنا الإقامة هنا، سترى كم هي موحشة هذه الليالي... حقيقة، بدأت أصدق أنك فعلاً تريد أن تورّط أصحابك بدخول السجون!

قلت: "هل تتذكر، قبل اعتقالنا قيل لنا أن هناك قائمة بـــ50 شخصية، والبعض قال 100، وأن اعتقالهم سيحقق الهدوء.. وتذكر أنني في حينها قلت أن العدد قليل، يا أخي ليعتقلوا ألف، على الأقل، فلا نشعر بالوحشة.. ثم فوجئت أن الاعتقال اقتصر على 10 أشخاص فقط، وحتى لم يتيحوا لنا أن نجتمع معاً.. فعزلونا عن بعضنا البعض (4+4+1+1)، لهذا بدأت أشعر أن هذا المهجع يمكن أن يتّسع لـــ20، وربما 40، فالأسرّة يمكن أن تكون طابقين، وتصورت هذا المهجع يعجّ بالحركة وبالحوارات.. أما كان الوضع سيبدو أكثر حيوية..؟

قال: "كفى هزاراً، هل يعقل أن عاقل يتمنى السجن لأصحابه..؟ ثم ماذا لو قرروا أن تتغير المعاملة؟ ثم ماذا لو طالت المدة ؟

قلت مازحاً: "لا عليك، الحقيقة أنني أرجو أن نكون آخر دفعة للسجناء السياسيين في بلادنا، وأن نحتفل بيوم إلغاء السجن السياسي، كما يحتفل الفرنسيون بيوم سقوط الباستيل، لكن هذا لن يحدث إلا إذا تحررنا من الخوف، حتى من الخوف من السجون يجب أن نتحرر منه.. أما بالنسبة لطول المدة أو قصرها، فإنني ومن خلال تجربتي القصيرة، لاحظت أن أخطر ما يمكن أن يتعرض له سجين خاضع لسجن مفتوح المدة، هو أن يستسلم للقلق والتخمينات.. متى سأغادر، وكيف؟ إن الاستسلام لهذه الحالة يلغي الإرادة البشرية، ويشلّها، ويجعلها أسيرة، كما أنه يؤدي إلى توتر عصبي دائم، وقلق... وطالما أن ذلك كله لن يغير من الأمر شيئاً، فالذين قرروا اعتقالنا، لن يأبهوا لذلك كله، بل، ولا يعنيهم، ولعلهم قد نسوا أننا معتقلون. لهذا يا صديقي دعنا نلعب معهم لعبة (التطنيش)، لعبة رفض الاعتراف بالأسر.. دعنا نشغل أنفسنا بالقراءة، بالكتابة.. سجاننا يريدنا أن نقلق، ونصرخ من القلق.. ماذا لو عرف أننا لسنا قلقين..؟! "

قال: "قد تستطيع ذلك إلى حين..!".

قلت: "ربما.. الزمن بيننا على أية حال... ما أستطيع تأكيده لك أن لدي مشاريع أودّ تنفيذها. "

قال باستغراب شديد: "مشاريع، وهنا في السجن..؟!".

قلت: "بلى، وربما وضعت لها برنامجاً زمنياً أردت أن يكون أبعد من أي فترة قد يحددها السجان لإنهاء سجني."

قال: "كيف..؟".

قلت: "في لحظات الإحباط والانكسار والهزائم، وهي كما تعلم ليست قليلة، حاولت أن أتغلب على ذلك بإقناع نفسي بأنني أمتلك مواهب حقيقية في كتابة الرواية، والقصة، والمسرحية، والبحث في الفكر القومي، والفكر السياسي، وفي القانون، والمجتمع، والمذاهب، والأديان، وحتى في مجال الغزل أعتقد أن لدي مواهب مكبوتة... المهم أن ذلك كله بقي شفهياً باستثناء كتابين، وبعض المقالات، والدراسات الخاصة.. وكنت أبرر كسلي بالانشغال بقضايا مهمة، وأحياناً تافهة، فلم أختبر إن كانت تلك المواهب موجودة فعلاً، أم أنها مجرد أوهام يستدعيها العقل للتعويض عن الفشل في الواقع على الأصعدة كافة، الخاصة منها والعامة.. الآن قد تكون جاءت فرصة العمر كي أختبر ذلك كله..."

قال متهكماً: "أخشى أنك لن تجد شيئاً من هذا الذي تدّعيه، فتصاب بالفجيعة...".

قلت: "لا، لن أصاب بالفجيعة، ولا من يحزنون، وسأبرر الأمر على الفور، بأن تلك المواهب لا بدّ أنها كانت موجودة، لكنني للأسف لم أفتح لها الأبواب في أوقاتها المناسبة، فاختنقت، وماتت...".

قال: "الديماغوجية القومية، هي، هي... على كل حال قد يكون من حسن حظ القراء العرب أنك لم تفتح الأبواب لمواهبك، وقد يكون عليهم أن يتدخلوا لدى السجان لإخراجك من هنا قبل أن تبدأ تجريب مواهبك، وتلقيها على رؤوسهم..".

قلت: "كمال، عربي أنا، اخشاني هذه المرة.. لن أنساق للمهاترات معك، فأنتم الماركسيين تكفيكم هزائمكم حتى الآن.. وقد آن لكم أن تعودوا إلى جذوركم القومية، فهناك ما يمكن أن نتعاون عليه.".

قال: "سأفكر في الموضوع، لكنني أنصحك أن تكتب مسلسلاً للتلفزيون فقد علمت أنه يدرّ دخلاً مادياً كبيراً.. وأنت إذا.. إذا خرجت من هنا، ستجد نفسك على الحديدة ، وقد لا تجد حتى الحديدة...".

قلت: "نحن القوميون يا عزيزي لا يشغلنا المردود المادي.. لكنني سأفكر في الموضوع ذلك أن التلفزيون سلاح خطير... تصوّر قبل أن ندخل إلى هذه الزنزانة، كان الشعب العربي بمعظمه ينشغل لا بمن يحرر فلسطين، ولا بمن يستشهد في حيفا، ولا بمن يرفع الحصار عن العراق، ولا بمن يحقق الوحدة العربية، ولا بمن يسعى إلى الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، كان مشغولاً (بمن سيربح المليون..!). أنا أفهم يا أخي أن يهتم من يريد أن يرشح نفسه ليربح المليون، لكن أن يهتم الشعب العربي بذلك فهذا ما لا أفهمه..!".

قال وكأنه أدرك أنني وقعت في الفخ: "لأن الشعب العربي كله يحلم بالمليون.. أليس هذا هو الشعب العربي العظيم الذي تحدّثنا عنه يا عربي، أنت..؟!".

قلت: "بلى.. إنه عظيم فعلاً، وأنا متيّم به، وأثق أنه سيغير الواقع، وسيغير العالم، والبرنامج يقدم معلومات مفيدة على أية حال.".

قال: "الديماغوجية القومية مرة أخرى.. لكن هل قرأت ما كتبه رفعت السعيد..؟".
قلت: "كنت أعتقد أن لدينا ما يغطي السوق المحلية من المنافقين، فلدينا منهم ما يكفي، لكن شعبنا يعرف أنهم غير صالحين للاستهلاك الآدمي...".

قال: "بالأمس، كان موعد ندوة منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي، هل تعتقد أن الندوة عُقدت أم منعوها..؟".
قلت: "أريد أن أتصور أنها عُقدت.. كفى.. دعني أختم هذا الحديث.".

حبيب عيسى

دمشق – السجن المركزي

(القسم السياسي)

المهجع رقم /6/

فجر الاثنين 2001/11/12

إلى محكمة أمن الدولة – دمشق

مرافعة في القضية رقم / / لعام / /
جلسة: / / / /

مقدمة من المحامي حبيب عيسى

"نحن ألفنا الثبات، ثبات الأوتاد تحت المطارق، ألفنا الانقياد ولو إلى المهالك، ألفنا أن نعتبر التصاغر أدباً، والتذلل لطفاً، والتملّق فصاحة، واللكنة رزانة، وترك الحقوق سماحة، وقبول الإهانة تواضعاً، والرضى بالظلم طاعة، ودعوى الاستحقاق غروراً، والبحث عن العموميات فضولاً، ومدّ النظر إلى الغد أملاً طويلاً، والإقدام تهوراً، والحمية حماقة، والشهامة شراسة، وحرية القول وقاحة، وحرية الفكر كفراً، وحب الوطن جنوناً،... لكن الأمة المأسورة ليس لها من يحكّ جلدها غير ظفرها، ولا يقودها إلا العقلاء بالتنوير والإهداء... إن الله جلّت حكمته قد جعل الأمم مسؤولة عن أعمال من حكمته عليها، وهكذا لا يظلم الله الناس، بل الناس هم أنفسهم يظلمون..".

عبد الرحمن الكواكبي
"**طبائع الاستبداد، ومصارع الاستعباد**"

البــــاب الأول
فـي الأســــبـــاب..!

الــفـصـــل الأول
تـــمـــهـيــــدي

أيها السادة..!

السلام على من اتبع الهدى، ولن تتبعوا الهدى إلا بالعدل، فهل أنتم قادرون..؟

1. أعترف أمامكم الآن أنني وجدت نفسي في مأزق بعد أن راجعت ملف هذه القضية المنشورة بين أيديكم، بل أعترف أن هذا المأزق قد بدأ منذ لحظة اعتقالي، والاستجواب الذي تلا ذلك أمام فرع التحقيق للأمن السياسي، ومن ثم استُكمل أمام النائب العام لدى هذه المحكمة.. ذلك أنني وعلى مدى سنوات طويلة من ممارسة مهنة المحاماة كنت، وبعد الاطلاع على الادعاء والتكييف القانوني والأدلة وظروف القضية والأطراف، أجهد نفسي، إذا كنت وكيلاً للدفاع، بالبحث عن الثغرات في القضية، ومن ثم أدلة النفي، والتشكيك في أدلة الإثبات.. ذلك أن الناس لا يجرمون بالشك، ولا بالأدلة الباطلة والمصطنعة... في هذه القضية التي اعتُقلت على أساسها لم أجد أدلة إثبات، بل إن ما ساقه الأمن ومن ثم النائب العام من أدلة تصلح لأن تكون بحق، أدلة نفي، وبالتالي لا حاجة لأي قول إضافي، لهذا فقد وجدت نفسي، أنا الذي سخّرت حياتي للدفاع عن قضايا آمنت بها، ومن ثم عن حقوق موكلين اقتنعت بعدالة قضاياهم، لم أجد فيما نُسب إلي ما يجب أن أنفيه، سواء كان قولاً قلته، أو نشاطاً مارسته، أو بياناً صدّرته.. بل على العكس من ذلك، وجدت أقوالاً تحتاج إلى إضافات، وأنشطة تحتاج إلى استكمال، وقضايا ملحّة تحتاج إلى بيانات لم أصدرها بعد.. بل أعترف أمامكم أنني شعرت بالتقصير تجاه قضايا الأمة عندما اقتصرت أقوالي ونشاطاتي في الحدود الواردة في ملف القضية. ولعل هذا ما دفعني خلال الاستجواب سواء لدى فرع تحقيق الأمن، أو لدى النائب العام لدى هذه المحكمة أن أجيب على كافة الأسئلة التي ووجهت بها: هل قلت كذا..؟ وكان جوابي دائماً: نعم قلت، وأضيف كذا... وعندما لم يجدوا بذلك كله ما يمكن الركون إليه لتجريمي، لجأوا إلى التفتيش عن النوايا، فانتقلوا إلى صيغة جديدة: ماذا تقصد..؟ ومرة أخرى لم أكتفِ بما قصدته عندما قلت ما قلت، وإنما أضفت قصداً جديداً.. أما الأفعال، فلم يجدوا فعلاً واحداً يمكن مساءلتي عنه.. فأين هي الجريمة، وأين هي أركانها، وأين هو الفعل الجرمي، وأين هي آثاره..؟ إن تهافت أركان هذه القضية مثير للسخرية فعلاً، ذلك أنه لا يمكن لأي عاقل أن يستخرج من كل هذا الذي قلته أو كتبته، وتمت مواجهتي به، جرماً من أي نوع.. بل إنه قولاً وقصداً بعضٌ من الواجب الذي يفترض أن ينهض به كل مواطن عربي حرصاً على مستقبل الوطن، ومستقبل الأجيال العربية القادمة، وأن هناك مسؤولية تقصيرية يتحملها ويجب أن يُساءل عنها المتقاعسون قانوناً، ومسؤولية شرعية يتحملها المظلومون الذين يستكينون للظلم فلا ينهضون لرفعه.. وهناك، قبل ذلك كله وبعده، مسؤولية انتماء لوطن وأمة تستحق أن تحيا بما تقدر وتمتلك متحررة من الاحتلال المباشر لبعض أجزائها، ومتحررة من الهيمنة، والتبعية المفروضة على باقي الأجزاء. هذا الاستحقاق مرهون بأن يستعيد المواطن العربي إنسانيته وحقه في أن يمارس الطقوس الإنسانية: كحرية التعبير والرأي، والاختيار، والاختلاف والاتفاق، كل ذلك عبر مؤسسات، ومنظومات قانونية وديمقراطية، والخروج من البهيمية التي فُرضت عليه قسراً، سواء بالاحتيال، أو بالعدوان.. وهذا الاستحقاق بدوره مرهون بتحقيق الشرط الذي أجمعت كافة الشرائع السماوية والوضعية على ضرورة تحقيقه في أي مجتمع سوي، وهو المساواة أمام القانون، بمعنى أن وجود فئة أو حتى شخص واحد فوق القانون، يجعلنا أمام مجتمع يفتقد الحديث عن القانون فيه أي أثر للمصداقية، والعكس صحيح أيضاً: فإن وجود فئة، أو حتى شخص واحد لا يتمتّع بالمقدرة على ممارسة حقوقه القانونية وصيانتها والدفاع عنها، فإننا نكون أمام مجتمع مختلّ قانوناً، محكوم بالقهر.. لا يمكن لنا بحال من الأحوال أن نصف الأوضاع فيه بأنها أوضاع قانونية.

2. إنني أرى – واسمعوني جيداً فأنا أقصد تماماً ما أقول – أنه ليس من حق المواطن في بلادي أن يكون له رأي في طريقة إدارة الحكم في البلاد، ورأي في الحاكمين، وأن يعرف أين تذهب ثروات بلاده، وكيف يحرر المحتّل من أرضه وحسب، وإنما من واجبه أن يمارس ذلك كله، ومن حقه شرعاً وقانوناً أن يقاوم كل من يقهره ويمنعه من ممارسة أياً من هذه الحقوق.. وأن من حقه ومن واجبه أيضاً أن يعمل رأيه، وأن توضع بين يديه جميع المعلومات والبيانات عن واقع وطنه ومستقبله، إدارة وثروات وحقوقاً للغير وحقوقاً على الغير، لأنه هو المعني أولاً وأخيراً بهذا الوطن حاضراً ومستقبلاً، وهو الذي يبذل الجهد، ويدفع الضرائب، ويضحي بالدماء إذا اقتضى الأمر ليفتدي وطنه.. فمَن أحق منه في أن يجري احترام رأيه، وبأي حق أو قانون أو شرع يمكن فرض الوصاية عليه، والتقييد على حريته وإرادته وحقه في أن يعبر عن ما يجب، وما لا يجب في وطنه..؟

3. لقد آمنت دائماً، وأنا الآن أكثر إيماناً من أي وقت مضى، أن الإنسان في أي زمان ومكان، يساهم في تفعيل عملية التطوير في مجتمعه من خلال الجدل الاجتماعي الذي لا يمكن تفعيله إلا في مناخ من حرية الإرادة والديمقراطية، عن طريق التأثر والتأثير، والرأي والرأي الآخر.. كما أن المعرفة شرط الحرية، وبالتالي فأن توفر شرطي الديمقراطية والمعرفة هو المعيار الأساسي لتحديد ما إذا كان مجتمع ما، يسير على طريق التطور، وإشباع الحاجات، وحل المشكلات.. وبالتالي فإننا أمام منظومة قانونية واجبة الاحترام والنفاذ بحق المواطنين جميعاً على حد سواء.. وإذا لم يكن ذلك كذلك فإننا نكون حتماً أمام مجتمع تختلّ فيه النظم والقوانين، ويستقر فيه القهر والتخلف، وتُصادر فيه الحريات، وتُستباح القوانين، فلا يعرف الناس كيف يحصّلون حقوقهم، ولا يعرفون كيف يؤدون واجباتهم. مما يؤدي إلى استشراء الفساد والفوضى واضطراب المنظومة القانونية في المجتمع، وفقدان الاتجاه إلى التطور، وبالتالي تسود البهيمية ويفتقد المجتمع مرتكزاته الموضوعية، وتتحول المؤسسات الرسمية إلى أشكال فارغة تعشعش فيها جرائم الفساد والتخريب...

4. أرجو ألا يخطر ببال أحدكم أنني أتحدث بالسياسة، إنني أغوص الآن في صلب الجذر الأساسي للقضية التي هي بين أيديكم الآن، فنحن نعرف، ونقدر جيداً، أن البلاد مرّت بظروف استثنائية أدت فيما أدت إليه، إضافة للجراح العميقة في المجتمع، أدت إلى تجميد دور المؤسسات الحكومية والقضائية والتشريعية، واختلاط الصلاحيات، وطغيان الضرورات الأمنية على ما سواها، وهذا مفهوم في ظرفه وظروفه، رغم الاختلاف في وجهات النظر عن تحديد المسؤولية على هذه الجهة، أو تلك، وبغض النظر عن الإجراءات الاستثنائية ومسبباتها، والإفراط في تجاوز القوانين والأنظمة، فإن اختلاطاً شديداً تعرّضت له المؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية من جهة، وكذلك كافة المؤسسات النقابية والصحفية والحزبية ومنابر الرأي والمنتديات والجمعيات، وأضحت تلك المؤسسات الحكومية والمجتمعية هياكل فارغة من المضمون، تُدار من وراء الستار بحجة أن الاعتبار الأمني بات فوق كل اعتبار، وهذا أدّى إلى أن تكون الأجهزة الأمنية التي تعددت وتشعبت فوق المؤسسات المجتمعية وسلطات الدولة جميعها، فاختفت الحدود بين السلطات.. وبغضّ النظر عن مدى الصحة والخطأ في هذا التقييم، فإن الظروف التي أفرزتها هذه الأوضاع تمّ تقييمها من قِبل البعض تقييماً إيجابياً عالياً، ورأى فيه، ومازال، معطى إيجابياً بالغ الأهمية يجب التمسك به، والإبقاء على القبضة الحديدية ممسكة بأعناق مؤسسات المجتمع والدولة، وقيّمها البعض الآخر تقييماً سلبياً قاتماً، لا يرى فرصة لتطوير المجتمع والدولة إلا بإزالة آثار هذه الظروف الاستثنائية، التي انقضت مبرراتها، وما ترتب عليها من تجاوزات خطيرة على المجتمع والدولة.

5. الفريق الأول يستند إلى معطيات الاستقرار الذي تحقق نتيجة لهذه القبضة الحديدية، وأنه لا بدّ من القبض على هذا الاستقرار، والحفاظ عليه بأي ثمن، وأما التفريط به قد يعني التفريط بكل شيء.. وحتى يتحقق ذلك يجب الإبقاء على كل حال على حاله كما هو مع تحسينات شكلية، وتبديل بعض الوجوه، لأن أي تغيير حقيقي يعني تخلخل منظومات السلطة القابضة على مقاليد الأمور التي أدت إلى الأوضاع التي تمر فيها البلاد من أمن واستقرار. وأما الحديث عن الفساد وشكلانية المؤسسات والسلطات، فإنه حديث مبالغ فيه، ويمكن معالجته بحكمة وروية وتدرّج، ولا حاجة لهذا الضجيج غير المبرر.. هذا بالإضافة إلى الاستحقاقات الإقليمية والدولية، والأطماع الصهيونية ومؤامراتها ودسائسها، وإلى آخره... المحصلة برأي هؤلاء أن الداعين إلى التغيير يهددون في حقيقة الأمر استقرار البلاد والنظام السائد، وأنهم يخفون أحقاداً، ويبحثون عن ثغرات في النظام للنيل منه، وأن أحاديثهم عن الإصلاح هو غطاء لأهدافهم الحقيقية المبيّتة، وأن وراء الأكمة ما وراءها، وأنهم ربما ينشطون لصالح جهات خارجية معادية، أو لتحقيق مآرب شخصية.. لهذا، لا بدّ من مواجهتهم، والبطش بهم بقوة ليتفهموا أن القبضة مازالت قوية، وأنها قادرة، وأن أية إشارة بالضعف أو بالتردد من قِبل السلطة تنذر بالويل والثبور وعظائم الأمور.

6. الفريق الثاني: يستند إلى ما آلت إليه الأمور في البلاد من استشراء للفساد والرشوة والمحسوبية، وخلل في المنظومة القانونية والاجتماعية، وأن هناك عصبية استثمرت الأوضاع الاستثنائية لمصالحها الشخصية. ورغم أن

الأوضاع الاستثنائية قد انقضت، فإن هذه العصبة أقامت وقعدت وسيطرت ومدت يدها إلى حتى المال العام – الحرام – مستغلة غياب المؤسسات الحقيقية في المجتمع والدولة، فنهبت البلاد والعباد، وتصرفت بلا ضابط ولا رقيب، فسادت ومادت، وكأن الوطن حكر عليها، وما دون ذلك رعايا، وأنه تمّ الاستعمال المفرط للقوة والعنف لحصار الشعب في دائرة الخوف، وأن العديد من المجازر قد ارتُكبت، وأن المفقودين بالآلاف، وأن المعتقلين بالآلاف أيضاً، وأن المجتمع أمام منعطف خطير، وأن الأوضاع لم تعد تحتمل إلا المواجهة لتغيير الأوضاع، لأن الذين يتشبثون بمواقع السلطة ومفاصلها لن يتخلوا عن مواقعهم بمحض إرادتهم، وإلا فإن حدة الانحدار تتزايد، وإمكانية التطور محدودة، وإمكانية تحرير الأرض في الجولان معدومة.. وأن إمكانية مواجهة المخططات الصهيونية ودسائسها لا وجود لها في حقيقة الأمر، بل إن إضعاف المجتمع ومؤسساته إلى هذه الدرجة قد يجعل من نفاذ المخططات الصهيونية للفتنة ممكناً.

7. المهم: أن ما يقوله الفريقان في حق بعضهما البعض، أكثر حدة وقسوة مما نسبته إلى كل منهما.. لقد حاولت تهذيب العبارات والمواقف قدر الإمكان، وما خفي من عنف الخطاب كان أعظم، حتى أن هذا الخطاب تجاوز التهذيب، ذلك أن تهذيب عبارات التخاطب بين الفرقاء يتأتى من الحوار والتخاطب، ولكن عندما ينقطع الحوار، وتنسدّ سبله كما هو الحال بين الفريقين المشار إليهما، فإن تعبيرات الخطاب السفلي هي التي تسود، ويعتصم الجميع بالباطنية والنفاق والتكاذب، ويفقد البشر جلّ مكوناتهم الإنسانية، وينحطون إلى الدرك الأسفل من البهيمية المتوحشة ليس على صعيد التقييم وحسب، وإنما على صعيد السلوك والتطلعات أيضاً، ويُقفل على العقل، وتُبنى المواقف على الشائعات والأوهام، ويُستبدل التنافس والتسابق على بناء المجتمع وتطويره وتحصينه وإغناء الإيجابيات، ومحاصرة السلب، ومواجهة المشكلات والحاجات بشجاعة وحكمة وعلم وشفافية.. استبدال ذلك كله بالتنافس على تدمير ما تبقى من المجتمع، وإعلاء قيم السلبية، والتخريب والتدمير والفتنة، ويُستبدل المصطلح الشهير: "الوطن للآخرين، ولي أيضاً" بمصطلح أن "الوطن لي فقط"، وهذا يعني إلغاء الآخر.. وويل لمجتمع تتضخم فيه الأنا، ويتعدد فيه الآخر الملغى، فيتبادل الجميع شعوذات الإلغاء، عوضاً عن الاعتصام بالعقد الوطني والاجتماعي، بالعقد القومي..!

8. لقد تمترس البعض بحصون القوة، مدججاً بصنوف الأسلحة استعداداً للبطش في أية لحظة، وتمترس الفريق الآخر بالرفض، واعتصم فريق ثالث بموقف وسط لا يملك مقومات الدفاع عن أبسط الحقوق، ولا يجد منفذاً للتعبير عن تطلعاته وتوجهاته وأهدافه، ويتفاقم عند الجميع الشعور بالعجز وانسداد الأفق...

9. ثم.. ثم جاءت لحظة شغر فيها منصب رئيس الجمهورية، وتم إشغال المنصب الشاغر بالطريقة المعروفة، ورغم الملاحظات والتحفظات والشكوك التي ظهرت من البعض على طريقة الإشغال، وعلى الأسلوب، فإن الغالبية العظمى من شعبنا أرادت أن تحلم.. وأرادت أن تصدق أحلامها.. وأرادت أن ترى إمكانية ممكنة سلمية وسلسة لوضع حدّ للمظاهر السلبية، ولمحاصرة الفساد والمفسدين، ومن ثم الانتقال التدريجي للتغيير الحقيقي الإيجابي لإعادة وضع المجتمع أمام تحدي التطور والتقدم، فتعود لمؤسسات الدولة التنفيذية والتشريعية والقضائية مضامينها الموضوعية، وينفتح الأفق أمام المجتمع فتنطلق مؤسساته النقابية والحزبية والاجتماعية ومنابر الرأي الحرة، ويتطلع الجميع إلى مستقبل أفضل للأجيال القادمة، فينحسر الحديث عن الإلغاء والتهميش والاستعباد لعباد الله، ويتنافس الجميع في سلوك الإيجاب على الصعد كافة، ويهجرون أوكار الفتنة والغدر والثأر، ويتمّ تسوية الكثير من الأمور المعلقة، ويستعيد المجتمع السيطرة على مقدراته وثرواته، ويستعيد عقوله المهاجرة وما أمكن من ثرواته المهجرة، وتطلق الطاقات كلها بفاعلية وقوة لتحرير المحتل من الأرض ولوضع هذا الجزء من الشعب العربي أمام مهامه التاريخية في معارك أمته التي تمتد ساحاتها من فلسطين ولا تنتهي على ضفاف المحيط أو شطآن الخليج، وإنما تمتد لمساهمة الأمة الموحدة القوية في بناء منظومة قانونية للإنسانية جمعاء تحلّ مكان مؤسسات القرصنة والهيمنة التي يسمونها تعسفاً وتضليلاً، مؤسسات دولية، وهي في حقيقة الأمر واجهة للاحتكارات وغطاء لأساطيل العدوان.

10. قلت أن الغالبية العظمى من شعبنا أرادت أن تحلم بذلك كله، ليس استناداً إلى أية معطيات موضوعية بين يديها، لكنها بإرثها الحضاري الذي تحاول الفتن أن تشوهه أرادت حقيقة أن يحصل ذلك، أرادت أن تسامح.. أرادت أن تصفح.. أرادت أن تنسى من أساء إليها من الأطراف كافة، أرادت أن تفتح باب التوبة، أرادت أن تعطي فرصة، وفسحة النور أمام العقل ليعود متحكماً بالغرائز والانفعالات ليأخذ كل مكانه في وطن هو بأمسّ الحاجة لجهود كافة أبنائه معاً على طريق واحد، وإن تعددت السبل والوسائل... كنت أراقب ذلك كله بأسى، وأتساءل: تُرى،هل هناك من يهتم لهذه الإرادة العظيمة والنبيلة، هل هناك من يوليها بعضاً من الاهتمام بعيداً عن الشكليات والزيف والنفاق الذي مجه شعبنا..؟ وللأسف فإن الاهتمام الذي بدأ باهتاً سرعان ما عصف به الإهمال، فانزوى الاهتمام، وعادت مظاهر التمترس والمجابهة إلى البروز من جديد..!

11. البعض تمترس وراء مصالحه وامتيازاته محصناً بالقوة والتهديد باستخدامها، وعادت وسائل إعلامه من صحافة وتلفزة وإذاعة إلى رتابتها المعتادة، وغدا الداعون إلى التغيير البنّاء والإصلاح مارقين، خارجين على القانون، لكن أي قانون..؟ لا أحد يدري. والبعض الآخر تمترس وراء البؤس والعجز والخوف، يصدر البيانات ويتراجع عنها، ويلجأ إلى منتديات محاصرة أغلقت أو مهددة بالإغلاق، وانقطعت سبل الحوار، وأطلّ فرقاء العنف والعنف المضاد يهددون المجتمع مرة أخرى.. شامتين معاتبين: ألم نقل لكم..؟ (فالج لا تعالج..)..!

12. هنا، وفي هذه الأجواء تداعينا، أصدقاء وأخوة، علنا نستطيع أن نعيد الجميع إلى ساحة الحوار، ورغم التعقيدات فإن المغامرة مشروعة... لكن لم يخطر ببالي على الإطلاق أنني أدخل عالم "الجريمة" كما يحلو لمؤسسة الادعاء لدى هذه المحكمة أن تسميها... كنت أعتقد أننا نتصدى لمهمة حضارية وطنية تنقذ الوطن وتنقذ جميع الأطراف.. فنحن لسنا فريقاً، ولسنا حزباً، ولسنا عصابة، نحن مجرد منبر نقوم عليه بدور التحكيم لا أكثر من ذلك ولا أقل.. هذه هي الجريمة... فما هي أركانها، وما هي نتائجها..؟!

الفصل الثاني
الأسباب المعلنة

أيها السادة..!

13. سأسرد عليكم القصة كاملة لدخولي "عالم الجريمة"، وأرجو أن لا تضيق صدوركم بذلك، فأنا، رغم الزنزانة التي أكتب منها لا يضيق صدري بكم، ولا بالسجان.. وأدعو كافة الأطراف، بدون استثناء، إلى ساحة الحوار مرة أخرى، والبديل لذلك كارثة على الوطن... اللهم فاشهد، إني قد حذرت...

(الجريمة)، أيها السادة، إنني، وفي الأشهر الأخيرة من عام 2000 تداعيت، ونفر من الأخوة المثقفين المهمومين بالشأن العام، ومستقبل الوطن، ومستقبل أبنائهم، وأبناء غيرهم، وأبنائكم أنتم أيضاً، وأبناء الوطن أجمعين.. تداعينا لتأسيس منتدى للحوار الديمقراطي يدعو الجميع – دون استثناء، دون استقصاء، دون استئصال، دون إلغاء، دون تجاهل – إلى حوار ديمقراطي مفتوح حول مستقبل الوطن ومشكلاته، وهموم أبنائه، على قاعدة المساواة، على قاعدة أن الوطن هو لأبنائه جميعاً، على قاعدة من العلم والمعرفة والدراسة المنهجية، للوصول إلى حلول لمشكلات مستعصية، ولتحقيق الإشباع لحاجات الناس بالطرق المشروعة، على قاعدة إرساء منظومة قانونية متماسكة متكاملة، تحترم الناس ويحترمونها، ورأينا أن يحمل هذا المنتدى اسم رمز من رموز وطننا وأمتنا، هو المرحوم المناضل الدكتور جمال الأتاسي، وأن يكون مقر المنتدى في بيته العامر، رغم ما يشكّله هذا من إرهاق على أسرته الكريمة، تلك الأسرة الكريمةالتي لم ترحّب بالفكرة وحسب، وإنما أصرّت على استضافة المنتدى استضافة دائمة.. وهكذا كانت السيدة الفاضلة حرم المرحوم جمال الأتاسي وكريماته الثلاثة، يقمن بعمل شاق ودوري مع كل ندوة، حيث يتم إخلاء المنزل من الأثاث وإحضار كراسي للحضور، ثم إعادة الوضع إلى ما كان عليه.. إنني أستذكر ذلك الآن، وأنا خلف القضبان بفيض من العرفان والتقدير لجهد وعطاء وتضحية ينوء تحت ثقلها أشجع الرجال وأصلبهم، ذلك أن المسألة لم تكن تتعلق بالجهد المادي، وإنما قبل ذلك بالجهد المعنوي، ومواجهة الضغوط والتهديدات، خاصة أن الأستاذة سهير جمال الأتاسي أصرّت أن تواجه الموقف وأن تتحمّل مسؤولية رئاسة المنتدى في هذه الظروف المضطربة... إنني بتأثر بالغ لا أجد حقيقة التعبير المناسب المعادل لهذا الجهد العظيم، في يوم ما، لا بدّ أن يوثّق ذلك كله لمن يريد أن يعرف قدرة شعبنا على العطاء...

14. المهم، أننا في الهيئة التأسيسية للمنتدى، منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي، توافقنا على الأهداف والمبادئ الأساسية بحيث يكون المنتدى ساحة مفتوحة للحوار، وأن نقف على مسافة معينة من كل الأفكار التي تُطرح في ساحته، وأن نشجع الأفكار التي تدعو إلى الحوار والكلمة السواء، وأن نواجه الأفكار المتطرفة من كافة الأطراف، وأن نرتقي بلغة الحوار إلى مستوى حضاري يليق بشعبنا وأمتنا، وهكذا كان... فعندما اقتربت لحظة افتتاح المنتدى في 2001/1/14، افتتحت المنتدى بكلمة تتضمن هذه المبادئ، وبما أنني لم أتمكّن حتى هذه اللحظة من الاطلاع على ملف الدعوى، وبالتالي لا أعلم إن كانت هذه الكلمة موجودة في ملف الدعوى، فإنني أرجو السماح لي بتلاوتها حرفياً في هذه

المذكرة، لأنها الأساس لكل ما جرى بعدها في الأشهر الثمانية التالية، وحتى لحظة اعتقالي، وهذا هو النص الحرفي لتلك الكلمة:

15. أيها السادة الأفاضل:

أرحب بكم في رحاب هذا البيت العربي العامر الذي اعتاد أن يضمنا ويجمعنا في أحلك الظروف ندخله آمنين ونخرج منه مطمئنين، ولعل الكثير من الحاضرين هنا يعرفون أنه عندما كان يحدث أمر جلل – وما أكثر الجلل الذي حدث – كنا وبعفوية نتجه إلى هنا، فنلتقي بميعاد وبدون ميعاد، ورغم قلة الحيلة، ورغم أن الأمة جريحة محاصرة بألف طريقة وطريقة.. من الداخل محاصرة بدول التفتيت وقواعد العدوان وثقافة الفتنة، ومن الخارج محاصرة بأساطيل العدوان وقراصنة الرأسمالية متعددي الجنسيات المدججين بأسلحة الدمار الشامل.. رغم ذلك كله، كنا نغادر هذا المكان قابضين على أحلامنا بمستقبل عربي مختلف لأمة حملت عبر الأجيال مشاريع تحرر وعدالة ومساواة للإنسانية جمعاء، ولسان حالنا يقول: محنة... وستمضي.
وإذا كان هذا البيت العربي العامر يجمعنا مرة أخرى، بإرادة أصيلة مشتركة بين هذا الجمع الممتاز من أبناء الأمة وبين أهل هذا البيت الكريم، فإنه يعزّ علينا ألا يكون جمال الأتاسي بيننا الآن.
إنني أعرف أنه كان يحلم بهذا اللقاء... لكن أن يتحقق هذا بعد رحيله فإن ذلك يحمّلنا مسؤوليات مضاعفة كان جمال الأتاسي بمفرده قادراً أني يتحمل جزءاً كبيراً منها.

أيها الأخوة الأفاضل:

أن يحمل هذا المنتدى اسم جمال الأتاسي وأن يحتضنه بيت جمال الأتاسي فإن هذا ليس تكريماً لنضال وسيرة شامخة عزيزة على قلوبنا وحسب، وإنما هو قبل ذلك وبعده انتماء لوطن ولأمة ولحلم عاش جمال الأتاسي وقضى لتحقيقه.. الانتماء هنا ليس لما قاله وفعله جمال الأتاسي خلال مسيرة حياته الغنية وحسب، وإنما قبل ذلك كله وبعده، الانتماء هنا لحلم جمال الأتاسي، الانتماء للموضوع وليس للذات.. وهذا بالضبط ما عاش جمال الأتاسي وقضى من أجل تحقيقه.
لقد حلمنا مع جمال الأتاسي على مدى سنين طويلة، وفي كل ركن من أركان هذا البيت بأن نكون في نطاق الإقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة، ونحن سنواصل الحلم لنكون كذلك في إطار إقليم شمالي ليس لجمهورية عربية متحدة تمكّن منها الأعداء في الماضي ولكن لجمهورية عربية متحدة حدودها حدود الوطن شاملة الأمة بين المحيط والخليج.
إن منتدى جمال الأتاسي الذي نشهره اليوم بمناسبة مرور الذكرى الثالثة والثمانين لميلاد جمال عبد الناصر، سيكون ساحة مفتوحة للحوار بلا حدود إلا حدود الثوابت الوطنية والقومية التي يمكن أن تُصاغ وتُحدد في ميثاق شرف نلتزمه جميعاً.. وبقدر ما تحصر هذه الثوابت بهوية الأمة، ووجود الأمة، ووطن الأمة بقدر ما تتسع دائرة الحوار الإيجابي الفعال.
إن هذا المنتدى يولد في ظروف بالغة الحساسية والدقة، تولّدت عن حراك اجتماعي وسياسي وثقافي واقتصادي تمثّل في عشرات المنتديات المنتشرة في أنحاء دمشق سبقنا إلى تأسيسها فعاليات اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية نجلّها جميعاً ونقدّرها.. وبالتالي فإننا نعتبر أن كل جهد مخلص بذله الرواد والمناضلون والمثقفون في تأسيس تلك المنتديات المختلفة كألوان الطيف الموحدة تحت قوس الوطن هو جهدٌ في تأسيس هذا المنتدى، وهذا الحراك برمّته وصولاً إلى هذا البيت الكريم هو بدوره ثمرة لنضال مرير خاضه شعبنا وتصدّى له مناضلون أشدّاء يندر أن يجود التاريخ بأمثالهم كثيراً.. منهم من قضى، ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا... لا أقول ذلك تقديراً وإجلالاً للذين قضوا وللذين ينتظرون وحسب، وأنا أعرف أن الكلمات مهما تسامت لن تفيهم حقوقهم، وإنما أقوله قبل ذلك وبعده لنحدد النقطة التي دخل منها منتدانا الوليد في السياق التاريخي لتطوّر المجتمع، فهو ليس معزولاً عن واقع ينتقل تدريجياً من واقع مقبوض عليه إلى واقع يتحرك حراكاً شديداً في الاتجاهات كافة.
وأقوله ثانياً لتأكيد قضية في منتهى الأهمية وهي أن هذا المنتدى لم يأتِ انتقاصاً من.. وإنما جاء إضافةً إلى كل المنتديات ومنارات اليقظة التي انتشرت في بلادنا هذه الأيام، يتفاعل معها ويتكامل.. فمرحباً بهذا الشكل البسيط من التعددية الذي نأمل أن تفرض نفسها شيئاً فشيئاً... وأقول ذلك ثالثاً لتقديم تقدير وعرفان لأحزاب التجمع الوطني الديمقراطي، ولمؤسسة التجمع المركزية، وللأمين العام للاتحاد الاشتراكي العربي الناطق باسم التجمع الوطني الديمقراطي الأستاذ حسن إسماعيل عبد العظيم الذي تحمّل المسؤولية في ظروف حساسة ودقيقة، وذلك للجهود التي بذلها التجمع وللمساهمة التي قدمها ليكون هذا المنتدى ممكناً من ناحية، وللمسافة التي أردنا وأراد التجمع أن تكون بين هذا المنتدى وبينه من ناحية أخرى، ذلك أن هذا المنتدى سيكون شخصية اعتبارية مستقلة لإعادة الحياة الثقافية والسياسية إلى مجتمعنا، والتي غُيّبت عنه قسرياً لزمن طويل. وإذا كانت المؤسسات الحزبية تعمل بالسياسة على خلفية ثقافية، فنحن بمنتدانا سنعمل بالثقافة على خلفية الرؤى الاستراتيجية الشاملة للأمة وللإنسانية حيث المعرفة شرط الحرية.
وأقول هذا رابعاً لأن مياهاً غزيرة عبرت بردى منذ منتصف القرن المنصرم، وإذا كانت تلك المياه قد ركدت أحياناً أو أصبحت آسنة أحياناً أخرى أو جفت في أحيان ثالثة فإن هذا كان من العوامل التي لحقت بالمجرى حيث غارت المياه هنا، أو تمّ تلويثها هناك، لكن بردى وعند المنبع مازال ينز ماءً زلالاً... إن جذر مجتمعنا رغم كل ما يبدو على السطح مازال بخير.. وإن أحد أهم أهداف هذا المنتدى هو الغوص عميقاً إلى جذور المجتمع ثم الصعود خطوة خطوة إلى أن يورق ويزهر ويثمر من جديد... إنها ساعة للمراجعة والتأصيل والفرز، لقد ظُلمت أفكار عظيمة لأن أحداً لم يُتح له أن يطلع عليها، أو لأن أصحابها لم يجدوا منبراً للتعبير عنها، وطفت على السطح أحياناً أفكار مخربة لأنها قُدمت للناس على أنها مسلمات مقدسة لم يتجرأ أحد على مناقشتها... فليكن هذا المنتدى حاضنة لحوار إيجابي ومراجعة إيجابية، وأن ننبه هنا إلى أنه يجب ألا نغفل لحظة واحدة إلى أن ذلك يجري في أجواء شديدة التقلب والتغيير، وإلى أن قوى العدوان من الخارج وعناصر التخريب في الداخل تتكامل في تقديم قصف إعلامي مكثف ومدروس وخطير لنسف الثوابت التي تقوم عليها الأمة وطمس هويتها. وهذا يعني أن على المنتدى أن ينهض ويجدّ السير على طريقين متوازيين في وقت واحد:
- الأول مقاومة التخريب والتغريب والعدوان.
- الثاني يتعلق بالمراجعة والتأصيل والتأسيس والتحصين لثقافة الأمة وهويتها ورسالتها.

ولعلنا نقف بسرعة أمام بعض المحطات الرئيسية على سبيل المثال لا الحصر:

1. شهد العقد الأخير من القرن العشرين سيادة مفهوم اقتصاد السوق وثقافة السوق وانهيار منظومة الدول الاشتراكية وتفتيت دولة المركز السوفييتية، إن المشكلة ليست كامنة – كما يصورونها – في جوهر الاشتراكية والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الشعوب والدول، فهذا حلم قديم متجدد دائماً، وهو مستقبل البشرية على أية حال... المشكلة كانت في الأسلوب، وحل المشكلة لن يكون بالهروب إلى الخندق الآخر، وإنما بالمراجعة، وحل المشكلة، واستئناف التطور النبيل للبشرية. إن ثقافة المقاومة هنا تتمسك بالجوهري والأصيل، وتقدر عالياً التضحيات التي قدمتها البشرية لبناء نظام اجتماعي ودولي تسوده المساواة بين البشر وبين الدول أيضاً. إن مواجهة الطغيان العنصري يتلاقى تماماً مع جوهر الرسالات الحضارية التي حملتها الأمة العربية إلى العالم عبر تاريخها، إنه الدور الذي جاب العالم وعاد ليستقر هنا مرة أخرى، فهل نحن مستعدون..؟!

2. إن وحدة الأمة العربية ضرورة حيوية لتدخل عصر العولمة كقوة فاعلة ومؤثرة، ومواجهة سياسة التفتيت مهمة أساسية من مهام هذا المنتدى.

3. إن أرض الجولان غالية غالية، لكن فلسطين غالية غالية غالية أيضاً، فبقاء الصهيونية في فلسطين أو على جزء منها، يعني أن وطن العرب بأسره مازال تحت الهيمنة الأمريكية الصهيونية.. لقد تدحرجت مشكلة فلسطين من مشكلة قومية تخص الأمة العربية بأسرها إلى مشكلة تخصّ جزءاً من شعب فلسطين.. الآن على الأمة أن تستعيد فلسطين وتحدد مفهوماً استراتيجياً ثابتاً من قضية الصراع العربي الصهيوني ومستقبل هذا الصراع الذي يبحثون عن خاتمة له، ونبحث له عن بداية قومية.. وستبقى فلسطين لنا إن حررناها بات تحرير الأمة ممكناً، وإذا احتلوها بقينا جميعاً تحت الاحتلال.

4. مواجهة أفكار ومرتكزات كافة الفتن الطائفية والمذهبية والقبلية والعائلية والعشائرية والإقليمية، وتأصيل المواطنية والانتماء للأمة والوطن.

5. من حق المواطن العربي في هذا البلد أن يتمتع بكافة حقوقه المدنية، وأن يمارس مواطنيته بجوانبها كافة من حيث العمل وتكافؤ الفرص والمساواة أمام القانون وحرية التفكير وإبداء الرأي وتأسيس الأحزاب والمنتديات والجمعيات ذات النفع العام وتأسيس النقابات والفصل الحقيقي بين السلطات وممارسة حقوقه الديمقراطية كافة ترشيحاً وانتخاباً، وممارسة حرية الصحافة والنشر والتعبير، ورفع كافة أشكال القيود التعسفية، وصياغة دستور واضح نظيف من التناقض والغموض يوضع موضع التنفيذ الفعلي، يلتزم به الحاكم والمحكوم.

6. إذا كانوا يبحثون عن حقوق الأقليات بتقرير مصيرها في الوطن العربي، فنحن في هذا المنتدى سنبحث عن حقوق الأمة العربية – بمفهومها الحضاري الإنساني العظيم – حقها بأن تقرر مصيرها.

أيها الأخوة:

لقد شرفتني اللجنة المشرفة على هذا المنتدى بأن اقدم لكم تعريفاً به خلال فترة زمنية محددة، لا تتجاوز الدقائق العشر، وقد اعتقدت ومازلت، أنه بمجرد ما يحمل هذا المنتدى اسم جمال الأتاسي فإن ذلك سيمنحه هوية لن تكون خافية على أحد.. وأنا الآن لا أعرف إلى أي مدى خيبت آمال تلك اللجنة الكريمة، لكنني على يقين بالقاعدة التي سنها الشرع للاجتهاد عندما أعطى للمجتهد المخطئ أجراً وللمصيب أجرين، وأنا الآن قبضت على الأول، أما الثاني فإنني سأستعين بكم علنا نتقاسمه معاً، لذلك كتبت على هذه الورقة أنها مشروع تعريف أو مسودة تعريف بمنتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي، تاركاً لحضرتكم التصويب وصولاً إلى الصيغة النهائية لهوية هذا المنتدى، لذلك فإنني أقترح أن يأتي التعريف بهذا المنتدى حصيلة للمداخلات والحوارات والمقترحات التي ستتفضلون بها في هذه الجلسة بعد أن نستمع إلى المحاضرة التي سيلقيها أخي الأستاذ جاد الكريم الجباعي.

بقي أن أتوجه بشكر خاص للأخت الدكتورة سراب الأتاسي ولأفراد العائلة الكريمة على استضافتهم لهذا الجمع النبيل من أبناء أمتنا، ولأقول لكم بالنيابة عنها البيت بيتكم، وأقول لها باسمكم جميعاً البيت بيتنا، هكذا كان وهكذا سيبقى لنلتقي دائماً بجمال الأتاسي.. ندخله آمنين ونخرج منه مطمئنين...

وشكراً لكم.

الأحد 2001/1/14

حبيب عيسى

16. هل وجدتم أيها السادة، في هذه الكلمة جرماً ما، من أي نوع..؟ لا أعتقد ذلك، أو دعوني أقول، أنني أترك الأمر لتقديراتكم.. ما يهمني هنا التأكيد على أن المنتدى بدأ يرتقي بالحوار من جلسة إلى أخرى، فقد كان طبيعياً بعد سنوات طويلة من انقطاع الحوار أن تكون البدايات صعبة ومجهدة، وقد كنا في الهيئة التأسيسية لمنتدانا نحاول تقريب وجهات النظر، ونوجه الحوار قدر المستطاع باتجاه المستقبل، وقد تحقق ذلك بفضل وعي حضاري قلّ نظيره لدى رواد المنتدى، حيث انزوت من جلسة إلى أخرى الأفكار المتطرفة، وساد مبدأ مواجهة الأفكار الخاطئة بالأفكار الصحيحة، لأنه السبيل الوحيد للتقدم والتطور، وكان هناك قرار من قِبلنا أن نعطي الأخوة من حزب البعث العربي الاشتراكي الصدارة، ونتيح لهم فرصاً مناسبة للحوار... وبدأ الخطاب يتحول إلى العقلانية من الأطراف كافة، وشجّع هذا تنامي ظاهرة المنتديات في سائر أرجاء القطر، وقررنا في الهيئة التأسيسية للمنتدى شرعنة النشاط، ووضع المنتدى تحت سقف القانون.. فتقدمنا بطلب إلى الوزارة المختصة، وهي وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل، بقصد إشهار المنتدى.. وأحيل الطلب إلى مديرية الشؤون الاجتماعية بدمشق لاستكمال الإجراءات، حيث رحّب مدير الشؤون الاجتماعية والعمل بتأسيس المنتدى، وطلب استكمال الإجراءات، لكن، وفجأة، هبط قرار مفاجئ من جهة خفية بوقف إجراءات الشهر، وأصدرت وزارة الشؤون الاجتماعية قراراً برفض الإشهار, ونبرز هنا أولاً النص الحرفي لطلب إشهار المنت

17. مقام وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل الموقرة – دمشق

نحن الموقعين أدناه، واستجابة للتطورات التي تشهدها بلادنا، فقد تنادينا لتأسيس منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي في محافظة دمشق، مقره المؤقت دمشق – المزة أوتوستراد – منزل المرحوم الدكتور جمال الأتاسي.

أولاً : الأهداف العامة :

1. المساهمة بتأصيل الثقافة العربية وتجديدها لمواكبة تطورات العصر.
2. إتاحة ساحة مفتوحة للحوار بين أوسع قطاعات شعبنا حول مختلف القضايا التي تهمّ المواطن، والبحث في كافة أشكال النظريات والمناهج الثقافية والإنسانية والفلسفية، وتهيئة المناخ المناسب لسماع الرأي والرأي الآخر حول مختلف القضايا المطروحة تأسيساً للارتقاء بالتفكير العلمي والثقافي والمعرفي.
3. الدفاع عن الثقافة العربية وهويتها الحضارية والمعرفية وفتح الأبواب للاطلاع على الثقافات الإنسانية العالمية للتفاعل معها من مواقع ثابتة الجذور والانتماء.
4. مواجهة كافة أشكال الاختراق الصهيوني للثقافة العربية ومواجهة كافة أشكال التطبيع والتمسك بالثوابت القومية تحت مختلف الظروف والمتغيرات.
5. المساهمة في إغناء المشروع النهضوي العربي المعاصر.

ثانياً : مصادر التمويل :

1. رسوم الانتساب.
2. رسوم الاشتراك.
3. التبرعات.
4. الهبات والوصايا والأوقاف.
5. الموارد الأخرى التي يوافق عليها مجلس الإدارة.
6. الإعانات الخارجية تقبل حصراً بعد موافقة وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل.

ثالثاً : النظام الداخلي والمؤسسات :

يُكلف مجلس الإدارة المؤقت بإعداد مشروع نظام داخلي يحدد الأحكام الخاصة بالعضوية ومؤسسات المنتدى ونشاطاته وفق أحكام القانون رقم /93/ لسنة 1958 يعرض على الاجتماع الأول للهيئة العامة للمنتدى.

رابعاً : المؤسسون :

1- حبيب عيسى　2- منير الخطيب　3- جاد الكريم الجباعي
4- سليم خيربك　5- محمد عمر كرداس　6- سهير جمال الأتاسي
7- محمد وليد مبيض　8- جهاد مسوتي　9- نهاد النحاس
10- نوار الأتاسي　11- عبد الحفيظ الحافظ

مقام وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل الموقرة :

بالوكالة عن المؤسسين أتقدم بهذا الطلب راجياً إشهار تأسيس هذا المنتدى وفق أحكام القانون /93/ لعام 1958.
وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير.
دمشق في 2001/04/18 م.
وكيل المؤسسين　　　　المحامي حبيب عيسى

18. وعندما رفضت وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل إشهار المنتدى تقدّمت بطعن خلال المدة القانونية، وهذا هو النص الحرفي لمذكرة الطعن:

مقام وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل الموقرة
دمشق

تحية عربية وبعد،

إن الهيئة العامة التأسيسية لمنتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي تلقت باستغراب القرار رقم /795/ تاريخ 2001/5/12، والذي تضمّن رفض وزارتكم طلب المؤسسين لمنتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي بإشهار المنتدى، وإجراء القيد في السجل والنشر في الجريدة الرسمية.
وبما أن القرار الذي نتظلم منه قد تضمّن أن سبب الرفض يعود إلى عدم اختصاص وزارتكم من جهة، ولأن النصوص القانونية لا تنطبق على منتدانا من جهة أخرى، فإن القرار المشكو منه جاء مخالفاً مخالفة صريحة للنصوص القانونية الناظمة لعمل جمعيتنا الثقافية التي تحمل اسم منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي، كما جاء مخالفاً مخالفة صريحة للقوانين والأنظمة النافذة، وخاصة قرار السيد رئيس الجمهورية رقم 1330 لعام 1958 المتضمن اللائحة التنفيذية لقانون الجمعيات والمؤسسات الخاصة رقم 93 لعام 1958، والتي حصرت الاختصاص بما يتعلق بإشهار الجمعيات والمنتديات الثقافية بوزارتكم الكريمة.
لقد استند قراركم على القانون 93 لعام 1958 الخاص بإشهار الجمعيات الخاصة، وعلى قرار السيد رئيس الجمهورية رقم 1330 للعام ذاته الذي تضمن اللائحة التنفيذية للإشهار. ونحن نقبل أن نحتكم وإياكم للنصوص القانونية الواردة في القانون والقرار المنوّه عنهما، ذلك أننا نسعى لتمتد مظلة القانون فوق رؤوس الجميع بدون تمييز... مؤسسات رسمية، أو مؤسسات أهلية، أو أفراد، ليساهم الجميع كل بما يستطيع في بناء

نهضة الوطن والرقي بالإنسان العربي ثقافة وفناً وعلماً ومعرفة، ذلك أن هذا هو السبيل الوحيد ليكون الأداء بمستوى التحديات الحضارية التي تواجه مجتمعنا وأمتنا.

ونحن في الأحوال كلها نرحّب ترحيباً شديداً أن ينتقل الحوار حول الجمعيات والمنتديات ومؤسسات المجتمع الأهلي عموماً إلى ساحة القانون والمؤسسات الرسمية ذلك أن هذا الحوار سيصل في النهاية إلى الصيغة المثلى لنشاط تلك المؤسسات والجمعيات والمنتديات، كما سيفعل دور المؤسسات الرسمية في الإشراف والرعاية والتنظيم والتنسيق والتصويت.

انطلاقاً من هذه المفاهيم المحددة فإننا نتقدم بهذا التظلم من القرار /795/ تاريخ 12 /2001/5، يحدونا الأمل الكبير في أن يُطوى هذا القرار لمخالفته الأنظمة والقوانين النافذة من جهة، وأن تقوم وزارتكم بالإشراف على منتدانا الثقافي ورعاية نشاطاته من جهة أخرى.

إن هذا الاعتراض، أو التظلم حري بالقبول شكلاً وموضوعاً للأسباب القانونية التالية :

1. **في الشكل** : إن هذا التظلم مقدم من الهيئة العامة التأسيسية لمنتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي ضمن المهلة القانونية التي تحددها المادة /11/ من القانون 93 لعام 1958 مستجمعاً شرائطه الشكلية فهو حري بالقبول شكلاً.

2. **في الاختصاص** : لقد اعتمدنا في تقديم طلب إشهار منتدانا إلى وزارتكم على المادة /10/ من القانون /93/ لعام 1958 التي تنص على ما يلي : " تقوم الجهة الإدارية المختصة بإجراء الشهر خلال ستين يوماً من تاريخ طلبه، فإذا مضت الستون يوماً دون إتمامه اعتُبر الشهر واقعاً بحكم القانون، وعلى الجهة المذكورة بناء على طلب ذوي الشأن إجراء القيد في السجل والنشر في الجريدة الرسمية ". وبما أن اللائحة التنفيذية التي تضمّنها قرار السيد رئيس الجمهورية رقم 1330 لعام 1958 قد حدد بما لا يدع مجالاً للشك أن وزارة الشؤون الاجتماعية هي الجهة

الإدارية المقصودة بالمادتين 10 و 11 من القانون 93 المنوّه عنه، فإن هذا يجعل من وزارتكم هي الجهة الوحيدة صاحبة الاختصاص في إشهار جمعيتنا الثقافية التي أسميناها منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي.

3. **في الموضوع والمضمون** : إن منتدانا ومن خلال أهدافه الثابتة التي أوردناها في عقد التأسيس والتي تضمنها طلب الإشهار المقدم إلى وزارتكم هو جمعية ثقافية وفق منطوق المادتين 54 و 55 من القانون /93/ المشار إليه، ذلك أن المادة /54/ عرّفت الجمعية الثقافية بالقول : " تُعتبر جمعية ثقافية كل جمعية يكون الغرض من تكوينها النهوض بالعلوم أو الفنون أو الآداب "، والمادة /55/ من القانون إياه حتمت : " على مجلس إدارة الجمعية الثقافية موافاة الجهة الإدارية المختصة سنوياً بتقرير عن نشاطها... ". وهذا يعني أن ما جاء في القرار الذي نتظلم منه من أن النصوص القانونية لا تنطبق على منتدانا في غير محله، بل ومخالف للقوانين والأنظمة النافذة، ذلك أن أهداف منتدانا تنسجم مع المادة /54/ من القانون /93/ حيث يهدف المنتدى إلى النهوض بالعلوم والفنون والآداب والثقافة عموماً.

4. **حول طلب إشهار المنتدى** : إن قبول طلب إشهار المنتدى من قِبَل ديوان وزارتكم وتسجيله تحت رقم /5180/ تاريخ 2001/4/18، ومن ثم إحالته إلى مديرية الشؤون الاجتماعية والعمل التي وجّهت إلى وكيل المؤسسين الكتاب رقم /3748/ تاريخ 2001/4/29 لاستكمال الوثائق اللازمة وإيداعها ديوان المديرية، وبناء على طلب المديرية فقد تمّ إعداد تلك الوثائق المطلوبة، ولكن وباستغراب شديد ووجهنا من أن المديرية رفضت استلام الوثائق التي طلبتها هي بالذات. وعوضاً عن استكمال إجراءات إشهار المنتدى فوجئنا بالقرار الذي يتضمن رفض طلبنا بإشهار المنتدى. ونحن سنرفق مع هذا التظلم كافة الوثائق المطلوبة وفق الشروط التي حددتها مديرية الشؤون الاجتماعية والعمل بدمشق.

5. **في النظام الداخلي للمنتدى** : لقد استند قراركم الذي نتظلم منه على " نموذج نظام الجمعيات "، ونحن هنا لنا وقفة أخرى : ذلك أن نموذج النظام يؤكد أن وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل هي المختصة بما يتعلق بالجمعيات، ذلك أن المادة /13/ من نموذج النظام تنص على ما يلي : " تخبر مديرية الشؤون الاجتماعية والعمل عن اجتماع الهيئة العامة للجمعية قبل موعده بخمسة عشر يوماً على الأقل مع صورة عن جدول الأعمال "، والمادة /37/ : " يقوم أمين صندوق الجمعية... بإيداع المبالغ في المصرف المقبول من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل "، والمادة /38/ : " ز- التبرعات الخارجية بعد موافقة وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل "، والمادة /40/ : " على الجمعية أن تودع أموالها في المصرف الذي يقرره مجلس الإدارة والمقبول من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل "، والمادة /45/ : " للجمعية أن تنشئ فروعاً لها... بعد موافقة وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل... ".

6. **المسكوت عنه في قرار رفض إشهار منتدانا** : هكذا فإننا لا نجد في مستندات قرار رفض إشهار منتدانا ما يبرر هذا القرار، كما لا نجد في الأسباب التي وردت في متن القرار ما يمكن الاستناد إليه قانونياً لإصدار مثل هذا الرفض، وهذا يدفعنا للحديث عن المسكوت عنه في قرار رفض إشهار الجمعية الثقافية : منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي. ورغم أننا نعلم أن البحث هنا وفي هذا المجال هو كالبحث عن الأشباح، لكننا سنحاول قدر المستطاع، ذلك أننا نسعى للتصارح والتصادق على الأصعدة كافة، ونأمل أن ترتقي العلاقة بين منتدانا وبين وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل إلى المستوى الذي يخدم الثقافة والعلم والأدب في وطننا ويرتقي بالإنسان العربي إلى المستوى اللائق الذي يستحقه في عالم اليوم.

هل يعود السبب الحقيقي الذي أدّى إلى رفض إشهار منتدانا إلى أن لدى الوزارة شبهة بأن منتدانا ذو طبيعة سياسية، إذا كان الجواب : نعم، دعونا نجيب بما يلي :

نحن في عصر لم يعد فيه من الممكن الفصل فصلاً حاسماً بين ما هو ثقافي وما هو أدبي وما هو علمي وما هو سياسي، فالثقافة الأصيلة سياسة والثقافة الهابطة سياسة أخرى، والأدب الرفيع سياسة والأدب المنحط سياسة أخرى، والعلوم الإنسانية التي ترتقي بحياة الإنسان وعلومه ومعرفته سياسة، والعلوم التي تدمر المجتمع والكون سياسة أخرى، والفن والموسيقى الراقية سياسة، والغناء الهابط سياسة أخرى...

نقول ذلك لأن المادة الثالثة من نموذج نظام الجمعيات الذي تسلمناه من مديريتكم بدمشق ينص على ما يلي : " لا يجوز لهذه الجمعية أن تتدخّل في العقائد الدينية والأمور السياسية ". ماذا يعني هذا ؟ وهل يستوي التدخل في العقائد الدينية إيجابياً للرقي بسلوك الناس ومعاملاتهم وانتمائهم لوطنهم مع التدخل في العقائد الدينية لإثارة الفتن والنعرات الطائفية والمذهبية، وبأي الاتجاهين يجب ألا تتدخل الجمعية... ؟ أما أنه لا يجوز للجمعية أن تتدخل في الأمور السياسية... هل يستوي التدخل في الأمور السياسية من خلال بناء الإنسان ثقافياً ومعرفياً وحضارياً وأدبياً وفنياً وعلمياً مع التدخل في السياسة لصالح القوى المعادية وقوى القهر الاجتماعي والثقافي والسياسي التي تعمل على تحطيم بنية الإنسان وتعطل طاقاته الخلاقة التي يحتاجها مجتمعنا، وبأي سياسة يجب ألا تتدخل الجمعية... ؟

إن ما جاء في المادة الثالثة من نموذج نظام الجمعيات هو لغو، وبما أنه لا لغو في القانون فإن هذه المادة لا قيمة لها... ثم إنه في النظام الداخلي تقول الجمعية ما يجب أن تفعل، ولا تتمكن أي جمعية في الكون أن تحيط بما لا تفعل، ذلك أن ما لا يجب أن تفعله محدد بقوانين وأنظمة نافذة في المجالات المختلفة لتلك الممنوعات...

إن النص القانوني المقصود والذي يجب أن يُعبَّر عنه بصياغة قانونية علمية هو : أنه لا يجوز أن تتحول الجمعية الثقافية إلى مؤسسة حزبية سياسية لها تراتبيتها التنظيمية والقيادية، وأنه لا يجوز أن تتحول الجمعية الثقافية إلى مؤسسة دينية لها مذهبيتها الخاصة، وأنه يجوز للجمعية الثقافية، بل يجب عليها أن ترتقي بالمفاهيم الثقافية والدينية لإنتاج حياة سياسية وعلاقات اجتماعية تعتمد على الإيجابي والموحد في الأديان والمذاهب... كل هذا بما ينفع الناس.

إن الفيصل إذن هو أن لا تتحول الجمعية الثقافية إلى تنظيم سياسي أو تنظيم ديني... فهل يمكن أن يُنسَب إلى منتدانا شبهة من هذا النوع...؟

إن الهيئة التأسيسية لمنتدانا تضم فعاليات ثقافية ساهمت بتأسيس هذا المنتدى بصفاتها الشخصية، ولو كانت تريد أن تبني تنظيماً سياسياً لكانت سلكت الطرق التي تؤدي إلى ذلك... وإن الفترة التجريبية التي يمر فيها منتدانا أثبتت أن منتدانا مفتوح لكافة الآراء البنّاءة لتطوير شخصية الإنسان في بلدنا وإطلاق طاقاته وإبداعاته الثقافية والفنية والاجتماعية والفكرية... وهذا يصبّ كله في الإطار الإيجابي للتطور المطلوب.. وهي أسباب يجب أن ترحّب بها وزارتكم، لا أن تكون سبباً لرفض إشهار منتدانا.

نحن نعرف أن ظروفاً استثنائية قد مرّت على بلادنا تمّ التضييق فيها على مؤسسات وجمعيات ومنتديات المجتمع الأهلي، وأن وزارتكم قد اكتفت في أغلب الأحيان بالرفض والمنع وعدم الموافقة..

نحن الآن ندعوكم وندعو أنفسنا للتكاتف في أن تعود وزارتكم للعب دورها النشط والفعال في تفعيل مؤسسات وجمعيات ومنتديات المجتمع الأهلي، وأن تتطور القوانين والأنظمة بما يتماشى مع عصر لم يعد يرحم من لا يتقدم لأخذ مكانه الملائم.

لهذا كله، واستناداً لمنطوق المادة /11/ من القانون /93/ لعام 1958 ولما تراه وزارتكم الكريمة من واجب عليها لتنشيط جمعيات المجتمع ومنتدياته الإيجابية، نتقدم بهذا التظلّم مشفوعاً برجاء طي القرار رقم /795/ تاريخ 2001/5/12، وإشهار منتدانا أصولاً، وإجراء القيد في السجل، والنشر في الجريدة الرسمية.

ومع التحية تفضلوا بقبول الاحترام

دمشق 2001/5/22

وكيل المؤسسين

المحامي حبيب عيسى

19. ثم صدرت تعليمات أمنية بالتضييق على المنتديات، وإغلاق أغلبها، لكن السيد رئيس الجمهورية أعلن صراحة في حديث صحفي منشور أن منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي قد استُثني من هذه الإجراءات والتعليمات، وهذه هي الفقرة بالحرف الواحد المنشورة في جريدة المجد الأردنية بتاريخ 2001/3/19 من حديث رئيس الجمهورية للصحيفة:

فهد الريماوي: وماذا عن الناصريين في "الاتحاد الاشتراكي العربي الديمقراطي؟

رئيس الجمهورية: ألم يلاحظ إخواننا الناصريون أننا استثنينا منتدى الدكتور جمال الأتاسي من إجراءات "التنظيم" التي اتخذناها بحق المنتديات الأخرى؟

20. ثم قررت الهيئة التأسيسية لمنتدانا دعوة المنتديات في البلاد لتدارس الأوضاع في اجتماع طاولة مستديرة بهدف التنسيق بين المنتديات، وبحث إجراءات وضعها تحت مظلة القانون، والاتفاق على ميثاق شرف تلتزم فيه المنتديات بالخط الوطني، وبالوحدة الوطنية، وبالدعوة للحوار دون انفعال أو تطرّف بأي اتجاه كان. وكان موعد الاجتماع ومكانه قد حدّدا في منزلي، لكن الجهات الأمنية أبلغت ممثل المنتدى تعليمات قاطعة بمنع هذا اللقاء، وفرضت عليه الاتصال بالمنتديات في البلاد لتبليغها قرار الإلغاء حتى لا يحضر أحد، وقد حدث ذلك كله قبل 24 ساعة من الموعد المحدد. وبالفعل تمّ ذلك، لكن الأجهزة الأمنية غفلت على ما يبدو عن تبليغ إخواننا في حزب البعث العربي الاشتراكي بقرار الإلغاء، ففوجئت أنه، وفي الموعد المحدد، حضر إلى منزلي عدد كبير من أساتذة الجامعة علمت أنهم من فرع حزب البعث فيها، فرحبت بهم، ثم اعتذرت لأن الجهات الأمنية قررت إلغاء اللقاء الذي حضروا ليحضروه، وتساءلت بأسى،من كان يمكن أن يضار من هكذا لقاء، الهدف منه ترشيد نشاط المنتديات، وتفعيل دورها الإيجابي لبناء لحمة حقيقية بين أبناء الوطن على قاعدة الحوار والرأي والرأي الآخر، ومن ثم الاحتكام للشعب... وللأمانة فإن إخواننا في حزب البعث العربي الاشتراكي فوجئوا بذلك، وأبلغوني أسفهم، وأجمعوا أن قرار المنع كان في غير محله... (أليس حزب البعث العربي الاشتراكي قائد الدولة والمجتمع..؟)، وقد أصدرت بياناً توضيحياً بهذا الشأن جاء فيه ما يلي:

21. **تصريح ناطق رسمي**

كانت الهيئة العامة لمنتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي بدمشق قد قررت بجلسة 2001/4/15 دعوة ممثلي المنتديات في سورية إلى عقد طاولة مستديرة للبحث في واقع المنتديات، من حيث الظاهرة، الأزمة، والاستمرار، ولإجراء مراجعة شاملة لمرحلة الأشهر المنصرمة، بهدف التصويب والتفعيل والتنشيط لحراك اجتماعي ثقافي وسياسي، يحصن مجتمعنا ويؤهله لمقاومة أخطار غير خافية على أحد، وقد تمّ تحديد مساء يوم الأحد 2001/4/29 موعداً لذلك اللقاء. لكن وببالغ الأسف تمّ تبليغ الهيئة العامة لمنتدانا وفي ساعة متأخرة من مساء يوم السبت 2001/4/28 من قبل جهات أمنية.. أن هناك قراراً قاطعاً بمنع هذا اللقاء، مما اضطرنا للاتصال بالفعاليات والشخصيات الفاضلة المدعوة.. لتبليغها بما جرى على أمل التشاور في أوقات لاحقة.

لقد كان الموقف مفاجئاً لنا من حيث المضمون، ومن حيث التوقيت أيضاً.

أولاً: من حيث المضمون.. نتساءل ونطرح السؤال على الجميع:

من في مجتمعنا، من في وطننا يضار من مثل هذا اللقاء...؟

وأي خطر أمني يشكله..؟ وعلى من..؟
نفرٌ من أبناء الوطن تداعوا بشفافية ومصداقية عالية لإطلاق الحيوية للمؤسسات الأهلية للمجتمع لتؤدي دورها تعبيراً بصوت عالٍ عن بوح وهمهمات، وأفكار تكلست في الحناجر، تكاد تتحول إلى أورام قاتلة... أين الخطر إذن، وأين الخطأ...؟
هل هو كامن في إطلاق طاقات شعبنا الثقافية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتعبير عنها بكل مصداقية، والاحتكام للمنطق والعقل والتمسك بالأصالة والتجديد والتصويب من خلال الحوار ومقارعة الحجة بالحجة...؟
أم أن الخطر يكمن بعدم ممارسة ذلك بكل الوسائل...؟
إننا بكل المصداقية وبلغة الحوار الذي ندعو إليه، نقول إن منع هذا اللقاء بين ذلك النفر الممتاز من أبناء الوطن كان في غير مكانه، وكان استباقاً غير مشروع لنتائج هذا اللقاء.. فقد تمّ تفويت فرصة حوار جاد نجزم أنها لم تكن تشكل خطراً على أمن البلاد، وإنما كانت ستشكل تحصيناً وتفعيلاً لمجتمع، سعينا وسوف نسعى لأن يكون آمناً لكل أبنائه، وبكل مواطنيه.
ثانياً: ومن حيث التوقيت، فقد فوجئنا بقرار المنع قبل ساعات من الموعد المحدد رغم أننا أعلنا عن موعد اللقاء قبل أكثر من 15 يوماً، مما أدى إلى أن يتجشم الكثيرون مشقة السفر إلى دمشق لحضور هذا اللقاء..
فمنهم جميعاً نتقدم ببالغ الأسف والاعتذار.
على أية حال، وبما أننا حزمنا أمرنا على أن نواجه كافة المواقف بالدعوة إلى الحوار، الذي لا نملك سلاحاً سواه، وبما أن التراجع عن الخطأ فضيلة، وبما أننا باحثون جادون عن تلك الفضيلة للتمسك بها وتنميتها، فإننا نأمل التراجع عن قرار المنع، ومن جهتنا سنواصل المشاورات مع المنتديات المنتشرة في أرجاء بلادنا، وسنحدد موعداً جديداً للقاء نرجو أن لا يكون بعيداً.

دمشق في 2001/4/29 الناطق الرسمي
حبيب عيسى

22. وكنت قد تحدثت عن موضوع إغلاق المنتديات، وذلك بكلمة تمهيدية بافتتاح جلسة 2001/3/4 لمنتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي، حاولت أن أبحث فيها عن النقاط المشتركة بين خطاب السلطة، وخطاب دعاة الإصلاح في منتدياتهم وبياناتهم.. وخلصت إلى أن هناك نقاط مشتركة كثيرة بين الطرفين، فلماذا لا يعملون عليها وعلى تنميتها عوضاً عن تبادل المهاترات والاتهامات، وقد جاء الحديث بالحرف الواحد كما يلي:

23. **كلمة لا بد منها**

حبيب عيسى

أيها الأخوة الأعزاء :
أرحب بكم مع استهلال هذا اللقاء الثالث في رحاب منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي. أرحب بكم وأشكر احتضانكم الدافئ لهذا المنتدى رغم أنكم تعلمون أن طريقكم إليه ليس مفروشاً بالورود، ونعرف أن طريقنا إليه شاق وصعب، وعلينا أن نشقه بالجهد والعرق والمعرفة والحوار والإصرار.
أرحب بكم، وفي القلب غصة، لأن أجواء الحوار والتفاعل النشط لقوى المجتمع الحية على الصعد الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية قد تلبدت بأجواء الخوف فخسرنا ساحات واسعة للحوار بتوقف بعض المنتديات عن النشاط، وأجهضت منتديات وليدة واعية قبل أن ترى النور.
هناك الخوف من الظاهرة، وهنا الخوف عليها . وبين الخائفين منها والخائفين عليها خطوط متقاربة إذا انطلقنا من حسن النية والنوايا واستبعدنا وعلى الفور أولئك الذين لا يريدون لهذا المجتمع أن يتعافى من سلبيات تكبل حركته باتجاه التطور والتقدم .
الخائفون من ظاهرة المنتديات والبيانات يبررون مواقفهم (بعد استبعاد الاتهامات والانفعالات التي لا مبرر لها ولا أساس). أنهم يخافون على الوحدة الوطنية، ويخشون من التسرع، وأنهم ضد التدخل الأجنبي في حركة المجتمع وضد العلاقات مع السفارات الأجنبية، وأنهم ضد العلاقة مع المنظمات المخترقة صهيونياً، ويخشون أن يغفل القائمون على المنتديات عن حقيقة الصراع العربي الصهيوني، وأنهم يدافعون عن المرحلة التي انقضت والتي تنال منها الحوارات والمنتديات، وأنهم يدافعون عن الحزب قائداً للدولة والمجتمع، وأنهم ضد التجارب المستوردة، أن الديمقراطيات الغربية لا تليق بنا، لأن ظروفنا الموضوعية غير ناضجة، وأنهم يدافعون عن القطاع العام، وعن المؤسسات، والقوانين والدستور وإلى آخر ما يقولون من تجاوز للخطوط الحمراء التي لا نعرف من وضعها .
إن حسن النية الذي ننطلق منه باعتباره الأصل، وباعتبار أن سوء النية طارئ و يحتاج إلى إثبات، إن حسن النية يدفعنا إلى القول أن في جوهر هذا الموقف حرص لا يختلف عليه أحد، وأن ما هو مختلف عليه خاضع للحوار ولا يستحق كل هذه الاتهامات والانفعالات وردود الأفعال غير المبررة
لقد راجعت كل ما كتب من بيانات تقريباً، وتابعت أغلب الحوارات التي دارت في ساحات الحوار والمنتديات فلم أجد من يدعو إلى هدم الوحدة الوطنية ولم أعثر على من يطالب بالتعامل مع السفارات أو بالتدخل الأجنبي، أو بالتعامل مع الصهاينة إلا بصفتهم أعداء للأمة والوطن ولم نصادف من يتهجم على المرحلة التي انقضت، صادفنا تلك الدعوات المشروعة للتغيير والانعتاق من القوانين الاستثنائية والطارئة وتحديث القوانين ورفع وصاية الأجهزة الأمنية عن المجتمع وتفعيل دور النقابات ومؤسسات المجتمع لتكون مؤسسات حقيقية تحكمها القوانين والأنظمة سواء كانت الأجهزة التنفيذية أو التشريعية أو القضائية، وصادفنا تلك الدعوة إلى إلغاء المادة من الدستور التي تنص على قيادة حزب البعث للدولة والمجتمع، فهل يفهم من هذا كله أنه تهجم على المرحلة التي انقضت، أم أنه يجب أن يفهم ضمن سياقه الصحيح كدعوة تتجه إلى المستقبل لتبنيه، ولا تتجه إلى الماضي الذي دخل التاريخ بماله وما عليه، ولم يعد بأي حال مجالاً للفعل الإنساني .
أيها الأخوة : انطلاقاً من مبدأ الصديق من صَدَّقك لا من صَدَّقك نقول لإخواننا في حزب البعث العربي الاشتراكي أن النصوص في القوانين والدساتير لم ولن تصنع من حزب من الأحزاب قائداً للدولة والمجتمع بل على العكس من ذلك تماماً، ذلك أن تلك النصوص غالباً ما أفرغت تلك الأحزاب من مضامينها وحولتها إلى جهاز من أجهزة الدولة . والأمثلة على ذلك لا تعد ولا تحصى .
ونحن كقوميين، وبكل التصادق الذي ندعو إليه نأمل في أن يستعيد حزب البعث العربي الاشتراكي دوره الريادي على الساحة العربية، وأن تكون الدولة في سوريا بعضاً من اهتماماته لا أن يكون هو بعضاً من أجهزتها .
إن الدولة الإقليمية في الوطن العربي لم تفتك بمواطنيها العرب وحسب وإنما التهمت أحلام القوميين الذين حكموها ... فلنستعد أحلامنا معاً لمواجهة عدو لا يستثني أحداً من أبناء هذه الأمة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ...

أيها الأخوة :

إن هاجسنا هو المستقبل، لقد أضنتنا معارك الماضي وصراعاته وهذا المنتدى سيبقى ساحة للحوار من اجل المستقبل، وقد أثبت شعبنا وقواه الحية مقدرة وسمواً قل نظيره في التاريخ، حيث تداعى الجميع للحوار لتصحيح معادلة آن الأوان لتصحيحها على صعيد الأمة كلها بحيث يكون الحوار الأداة الوحيدة لحل مشكلات الاختلاف داخل المجتمع العربي،وبحيث يكون العنف المسلح هو الأداة التي تستعمل حصراً لمواجهة العدو الأمريكي الصهيوني، وبحيث لا نسمح لهذه المعادلة أن تنقلب مرة أخرى .
لهذا كله نأمل أن تعود ساحات الحوار الوطني للنشاط والعطاء وأن تعود مشاعلها لتضيء فضاءات الوطن . فبالحوار وبالحوار وحده نسترشد إلى الطريق الصحيح . ونحن لا نقول ضمدوا جراحنا، ولكن نقول دعونا نضمد جراحنا بأيدينا، دعوا هذا المجتمع يستعيد مقدرته على إفراز الصادات اللازمة .. دعوا جهازه المناعي يعمل بطاقته القصوى ...

أيها الأخوة

حتى نسهم في هذا الفعل الإيجابي لا بد أن نتحرر من الخوف، والخوف آفة فتاكة بالذات البشرية .
صاحب البيت اليوم هو الأخ الدكتور عبد الرزاق عيد، وهو غني عن التعريف، فمنذ فترة طويلة وهو يعمل مسحراتياً في وطنه، أن أفيقوا من تحت كوابيسكم واقتلوا الخوف في ذواتكم، واستعيدوا إنسانيتكم .
الكلمة له فليتفضل .

24. ثم تتابعت نشاطات المنتدى على هذا المنوال من الحوار الحر النظيف.... إلى أن تمّ اعتقالي فجر يوم 2001/9/12...

أيها السادة :

25. لم يخطر لي، وأنا أنشر أمام محكمتكم الموقرة، باختصار شديد، وقائع الأشهر الثمانية من عمر منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي، بدءاً من افتتاحه وحتى لحظة اعتقالي، أن أخرج عن موضوع الدعوى، أو أن أشغل وقت المحكمة بقضية لا علاقة لها بها..، وإنما حاولت أن أوضح للمحكمة السياق العام لنشاطي خلال تلك الأشهر الثمانية، والهدف النبيل الذي سعيت من أجل تحقيقه، بغضّ النظر عن مدى النجاح والفشل الذي أصبته أو أصابني منه، وحاولت أن أضع بين أيدي محكمتكم الأصول الثابتة والكاملة للكلمات والبيانات التي ألقيتها أو قمت بإعدادها، والتي حاولت مؤسسة الادعاء لدى محكمتكم، ولدى فرع التحقيق الأمني، أن يعثروا فيها على جرم أو شبهة أو حتى ربما نوايا جرمية، فكانت معظم الأسئلة مستندة إلى تلك الكلمات والبيانات. وإنني سأجازف بالاعتراف جازماً أن النائب العام لدى محكمتكم، والسادة المحققين لدى فرع تحقيق الأمن السياسي ليسوا سعداء بالاتهام الذي تمّ توجيهه إليّ، وأنهم بعد التدقيق المعمّق في كل ما صدر عني، لم يعثروا على ما يؤيد أي اتهام لي بارتكاب جرم ما، أو حتى مخالفة، لذلك لجأوا جميعاً إلى البحث عن النوايا، والتفتيش في المكنونات البشرية، فكانت الأسئلة كلها تقريباً تبدأ بالسؤال: ماذا تقصد بقولك كذا..؟ وكأن الكلمات المنشورة ليست واضحة الدلالة..! أليس هذا دليلاً كافياً على صعيد مؤسسة الادعاء.. أنها ذاتها غير مقتنعة، وأنها تشكك في هذا الاتهام..؟!

26. فأنا أمامكم، أيها السادة، ليس استناداً إلى أقوال قلتها، أو نشاطات مارستها، ولكن استناداً إلى نوايا، ربما كنت أقصد إليها– والله أعلم– لقد أريد لهم أن يصلوا إلى هذا الاتهام.. المهم أنني على ثقة تامة أنه لو تُرك الأمر للإرادة الحرة لهم، لما سارت الأمور بالطريقة التي سارت عليها، ولما كان هناك قضية، ولا اتهام، ولا جرم، ولا من يحزنون.. ورغم أن محاكم التفتيش الشهيرة أخذت اسمها من هذا الأسلوب، وهو التفتيش في ضمائر البشر عن جرائم يحاسبون عليها، فإنني، ومن خلال علاقتي بالقانون، أعتقد أنه من الصعب العثور على جرم في ملف هذه الدعوى...!

27. ثم أنني أردت من خلال هذا السرد لتسلسل الأحداث، أن أضع هيئتكم الموقرة في السياق الحقيقي للطريق التي أوصلتني إلى هنا خطوة بخطوة، لتكتشفوا حقيقة ما جرى، وما يجري، ولماذا..؟ ذلك أنه، ومنذ بداية علاقتي بالحقوق والقانون والعدالة، وجدت نفسي دائماً غير مقتنع بالرمز للعدالة بتلك المرأة معصبة العينين تحمل الميزان.. لقد أرادوا من ذلك أن العدالة يجب أن لا تتعرف على المتخاصمين كي لا تفرق بينهم.. ورغم القيمة النبيلة لهذه الفكرة، فإنني رأيت أنها تحرم العدالة من التدقيق في ظروف المتخاصمين وأحوالهم، وحتى التدقيق في ملامحهم ومدى الصدق أو الادعاء.. وبالتالي فإن على العدالة أن لا تكون معصبة العينين أبداً، بل يجب أن لا يرفّ لها جفن، أن تمتلك بصراً حاداً، ربما يكون ضرورياً للبصيرة العادلة.. وربما عليها أن تمدّ نظرها إلىما وراء المتخاصمين، تدقق في ظروفهم وبيئتهم، ومن يكيد لهم.. وفي هذه القضية – قضيتي – فإنني أرى أن المشكلة الحقيقية ليست في ملف الدعوى، وليست بين مؤسسة

الادعاء بفرعيها وبيني، وإنما لها أبعاد أشمل، وأكثر تشعباً.. فالمدعي الحقيقي لم يواجهني بعد، ولم يفصح عن نفسه، ولم يطل برأسه من ملف هذه القضية، وبالتالي فإن عليكم أن تبحثوا عنه علكم تعثرون عليه، فيفصح عن نواياه الحقيقية.. ومن جهتي لن أدّخر جهداً في مساعدة العدالة، لأنني أيضاً معني بمواجهته، والتعرف على نواياه...

28. ثم أنني أريد القول لأساتذتي، وزملائي، وإخواني المحامين الكرام، الذين تطوعوا للدفاع عني، لا تجهدوا أنفسكم بالبحث في ملف القضية، ذلك أنكم لن تجدوا أي مستند يؤيد لائحة الاتهام، بل أن المستندات التي أوردتها مؤسسة الادعاء هي ذاتها دليل ساطع على براءتي، وعلى الأهداف النبيلة التي سعيت لتحقيقها.. أقول ذلك مشغوفاً بما لا أملك أن أعبر عنه من الشكر والتقدير والامتنان لمواقفكم النبيلة التي أعتز بها، وسأحملها ديناً في عنقي إلى ما تبقى من مشوار العمر.

29. ثم أنني أريد أن أضع هيئتكم الموقرة أمام حقيقة أرجو أن لا تغيب عن فطنة محكمتكم، وهي أن كافة الاستجوابات التي ووجهت بها أمام فرع تحقيق الأمن السياسي، ومؤسسة الادعاء لدى هذه المحكمة، كانت تستند إلى مقاطع تمّ اقتطاعها عشوائياً وتعسفياً من سياقها الطبيعي، ومن الأهداف التي قيلت من أجلها، وبالتالي فإنني لم أقصد من إبراز أصول الكلمات التي ألقيتها، أو البيانات التي أصدرتها الهروب من القضية، وإنما إغناء ملف القضية بالأصول الحقيقية لتلك الآراء حتى يتمّ الاستناد إليها في سياقها الصحيح، وغايتها الحقيقية، وذلك مساهمة مني في مساعدة العدالة للوصول إلى الحق.. فأنا – كمحامٍ – تحت القسم بالالتزام الصارم بذلك الشعار الذي حملته على صدري، وقبل ذلك في عقلي وقلبي (الحق والعروبة)، لقد وضعت هذا الالتزام فوق كل اعتبار، ومازلت، وسأبقى إلى آخر يوم من عمري، رغم أنني أعرف أكثر من غيري أن القابض على أيهما، كالقابض على الجمر، فكيف بالذين أصرّوا أن يقبضوا عليهما معاً، تحت كل الظروف، وفي مواجهة المتغيرات كلها...؟!

30. ثم إن كافة الأقوال المنسوبة إلي، هي مجرد آراء مطروحة للحوار المفتوح، وهي مقترحات مطروحة للمداولة، وبالتالي فإنها تحتمل الخطأ والصواب، وكنت قد قلت في افتتاح الجلسة الأولى لمنتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي، أنني أستند إلى القاعدة الشرعية التي تحضّ على الاجتهاد، حيث مقابل الاجتهاد والخطأ أجر واحد وللاجتهاد الصائب أجران، وقلت أنني اكتفيت بالأجر الواحد، لكنني أحضّ الجميع على الاجتهاد والحوار وصولاً إلى الصواب فنقتسم معاً الأجر الآخر...

31. ثم إن فترة السجن والعزلة التي فُرضت عليّ حتى الآن، أتاحت لي فرصة للمراجعة المتأنية لكل ما قلته على مدى الأشهر الثمانية الأخيرة قبل اعتقالي، لعلي قلت كلمة نابية هنا، أو فكرة متطرفة هناك، لكنني، وبكل صدق أقول لكم، وجدت نفسي بريئاً حتى أكثر مما توقعت، وهادئاً أكثر مما كانت تتطلبه الأحداث والاستفزازات، واستغربت حقيقةً من أين جاءتني هذه السكينة، ذلك أنني اعتمدت منهجاً للحوار، وتقريب الآراء، والبحث الهادئ عن حلول علمية للمشكلات، ومعالجة المواضيع الحادة بروية زائدة عن الحد.. حتى أنني استذكرت لهجة العتاب الرقيق والاستغراب من بعض الأخوة الذين يعرفون مواقفي الثابتة والصارمة من القضايا المصيرية، والذين ارتابوا بهذه السكينة وذلك الهدوء اللذين أواجه بهما مواقف خلافية.. وأذكر أنني قلت جواباً على ذلك: لقد آن الأوان أن نطرح أفكارنا وهمومنا وتطلعاتنا وعقائدنا للنقاش العام في حوار مفتوح مع الأفكار المخالفة على الصعد كلها.. فما جرى في الوطن العربي يحتاج إلى هذه المراجعة... إن هذه العملية تشبه إلى حد بعيد المقاتل الذي يجب عليه أن يتفقد سلاحه وجاهزيته ومؤونته قبل أن يتحرك، وهذا يستدعي الانتقال من مرحلة شهدت ضجيجاً عالياً حول أفكار متواضعة فولّدت صراعات أكثر مما بَنَت في الواقع، إلى مرحلة رصينة تشهد حواراً خلاقاً حول أفكار واعدة عميقة متماسكة بموضوعية وهدوء وضبط النفس في تلقي الأفكار المخالفة، وامتلاك الشجاعة في التخلي عن أفكار اعتنقتها عقوداً من الزمن، لكنك لم تعد قادراً على الدفاع عنها، ولم تعد تصلح للمستقبل.. فتكون سمات هذه المرحلة هي: بناء أكثر، صراع أقل... وبالتالي فإنني استغربت حقاً الأسئلة التي وُجهت إلي من مؤسسة الادعاء عن خرق الدستور، والتحريض، وما شابه ذلك.. ذلك أن الأقوال التي نسبها إليّ الادعاء تنفي ذلك.. فمضمون السؤال ذاته ينفي السؤال...

32. أيها السادة، أؤكد لكم، أنه لا يوجد مواطن واحد في سورية، ومنهم الفقير لله تعالى الماثل أمامكم، يخرق الدستور، أو يفكر في خرقه، يخرق القوانين، أو يفكر في خرقها، بغضّ النظر عن الرأي فيه أو فيها.. نحن كمواطنين قد نطالب بتغيير الدستور، بتغيير القوانين، بتطويره وتطويرها.. أين الجرم في هذا..؟! ليس نحن، أيها السادة، الذين يخرقون الدستور والقوانين.. هم، الذين لم يكتسبوا مواقعهم في السلطة، أو في التجارة، أو في السمسرة، أو في ما يسمونه الاستثمار، إلا بخرق الدستور والقوانين، ومن وراء ظهره وظهرها.. الذين يخرقون الدستور والقوانين، أيها السادة، هم المدججون بأسلحة ترهب الناس ليتملكهم الخوف، ويحتكرون الثروة ليزحف الناس طلباً لحاجاتهم الضرورية.. إنهم الحيتان، والقطط السمان، ورحم الله الفقيه الألماني نيتشه الذي قال: "إن القانون كشبكة خيوط العنكبوت، تقع فيها الحشرات

الضعيفة، أما الحشرات الكبيرة فتخزقها بغير حساب". لقد أردنا في منتدانا أن نرتقي بالأداء الإنساني لمجتمعنا كي يسمو فوق التقسيم الحشري للمجتمع، بإنهاض دولة الحق والقانون، بحيث لا يكون القانون شركاً للضعفاء، كما لا يكون غطاء لسفه الأقوياء وسفاهاتهم...!

33. ثم أنني أريد أن أكمل الصورة، ذلك أنه على صعيد الممارسة، فإن نشاط منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي على مدى ثمانية أشهر حتى اعتقالي، لم يشهد حادثة واحدة تعكر صفو الأمن في المنتدى، أو في البلاد، بل على العكس من ذلك تماماً، فإن هذا النشاط أدى إلى حوار بين أطراف كانت قد تصورت أنها لا يمكن أن تلتقي، وأن لغة الحوار مقطوعة بينها، لكنها اكتشفت أنها يمكن أن تتحاور، وهكذا كان الحوار يرتقي من جلسة إلى أخرى، وأن المتحاورين الذين يختلفون حول الآراء والأفكار داخل المنتدى، يتصافحون بعد انفضاض المنتدى، فتتهذب لغة الحوار، ويتسابقون للحديث عن نقاط الالتقاء.. كما أن حضور الأخوة البعثيين خاصة من أساتذة الجامعات والنقابيين لجلسات المنتدى، كان لافتاً، فلم تخلُ جلسة واحدة من حضورهم، وكانت مداخلاتهم أحياناً تُقابل بالتصفيق عندما يقدمون أفكاراً بناءة، ويفتحون صدورهم للحوار البناء.. حتى رجال الأمن كان حضورهم لجلسات المنتدى لافتاً، وكانوا أيضاً موضع ترحيب، يسجلون كل كبيرة وصغيرة، ويرفعون تقاريرهم.. هم لم يسجلوا حادثة واحدة تخلّ بالأمن، ورواد المنتدى لم يضيقوا ذرعاً بهم... فإذا كانت هذه هي الأجواء، وهي كذلك بالفعل، أليس لنا الحق أن نتساءل من الذي أضير، ومن الذي يمكن أن يضار من حوار لم يشهد حادثة عنف واحدة رغم سخونة الأفكار والمناقشات...؟ ثم أليس لنا الحق أن نتساءل عن ما نسب إلينا من تحريض وجرائم أخرى لا وجود لها في الواقع..؟ ولماذا تمّ افتعال واختلاق هذه الدعوى، ولحساب من..؟!

34. ثم إنني أريد أن أختم الحديث عن منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي، وقضية إشهاره وشرعية نشاطه، بأن المنتدى كان تحت التأسيس، وأن إجراءات إشهاره كانت قد بدأت، وأن رئيس الجمهورية أعلن بشكل واضح لا لبس فيه، أن منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي قد تمّ استثناؤه من إجراءات تنظيم المنتديات، ثم أشاد بالمنتدى وبالأجواء الإيجابية التي تسوده، وبناءً عليه فإن كل ما تمّ استجوابي بشأنه سواء لدى فرع تحقيق الأمن السياسي، أو لدى مؤسسة الادعاء الخاصة بمحكمتكم يتعلق بتصريحات وبيانات ومداخلات أدليت بها بصفتي الناطق الرسمي باسم منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي وليس بصفتي الشخصية، فكيف يستقيم قانوناً أن تتمّ مساءلتي عن نشاط منتدى أشاد رئيس الجمهورية، وهو في قمة هرم السلطة، بنشاطاته وإيجابياته؟ (لطفاً العودة إلى تصريح رئيس الجمهورية بخصوص المنتدى)... كيف تكون نشاطات المنتدى إيجابية من وجهة نظر رئيس الجمهورية، وتكون خرقاً للدستور وجرائم أخرى من وجهة نظر مؤسسة الادعاء..؟! لهذا كله فإنني اعتبرت أن مؤسسة الادعاء احتاجت إلى شجاعة غير عادية لتحريك هذه الدعوى، رغم الملابسات التي رافقتها...

35. لكن، هل انتهى الأمر عند هذا الحدّ..؟

لا.. إننا مازلنا في البداية، وأرجو أن تتحلوا بالصبر لاحتمال ما أقول، ذلك أن القضية لا تتعلق بشخصي، سجن يطول، أو إفراج يتحقق، بصدق أقول لكم أنه لو كانت هذه القضية قد أخذت طريقها الاعتيادي، وعُرضت على محكمتكم الموقرة في التوقيت الطبيعي، فإن قراري كان أن ألوذ بالصمت، وكنت قد حزمت أمري على أن لا أتقدم بكلمة دفاع واحدة، وأن أكتفي بأقوالي أمام مؤسسة الادعاء بشقيها، وبالأدلة التي قدموها.. لكنني، وبعد أن قلّبت الموضوع على أوجهه كافة رأيت أن الموضوع لا يتعلق بشخصي، أو بعدة أشخاص يُعتقلون أو يُطلق سراحهم، وإنما يتعلق بمستقبل الوطن، وحرية التعبير فيه، وبحرية المواطن في أن يتمتع بحقوقه السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والقانونية، ويتعلق بمستقبل الديمقراطية، والنظام الذي يجب أن ينهض بالحق والقانون... وهذا وضعني أمام السؤال الحاسم، الذي لم أعثر له على جواب، وأعتقد أن جوابه ليس في ملف الدعوى المنشورة أمام محكمتكم، وهو: لماذا أنا معتقل..؟ فإذا كانت مشاغلكم لا تسمح لكم بعناء البحث عن جواب، فإن هذه المسألة هي شغلي الشاغل الآن، فأنا متفرغ في هذه الزنزانة لملاحقة حتى الأشباح.. علني أعثر على جواب...

فأنتم، وأنا، طرف واحد بما يخص هذه المسألة... فهل سبق لكم أن واجهتم حالة كهذه..؟!

الفصل الثالث

الأسباب المباشرة

36. أخشى أن يُفهم مما تقدم، أنني قصدت القول، أن وجودي في السجن، كان، بلا سبب.. وأنني بريء إلى درجة مطلقة... ذلك أن معايير البراءة هنا ليست معايير قانونية، وإنما معايير واقعية، معايير أمنية ربما، معايير سياسية.. لا أعرف بالضبط، لهذا قلت أنه لا بدّ من وجود سبب ما، وراء اعتقالي، لكن هذا السبب، وعلى سبيل القطع، ليس في ملف الدعوى.. هناك سبب أو أسباب مسكوت عنها في ملف هذه الدعوى، فدعونا نبحث عنه، أو عنها، ذلك أنه لا يليق بقدري أن أُعتقل، وأن أُعزل عن أسرتي وعن مجتمعي، دون سبب جوهري... كما أن ذلك لا يليق بالذين قرروا اعتقالي، رغم أنني لا أعلم على أي مستوى اتخذ هذا القرار... كما لا يليق بمحكمتكم الموقرة، أن نكتشف بعد أشهر أو سنوات على اعتقالي – فالمسألة مفتوحة على ما يبدو، ومتوقفة على إرادة خفية عليّ وعليكم – أنها لم تجد سبباً مقنعاً لمحاكمتي، وأن يُطلب إليها أن تصدر حكماً يطول، أو يقصر، دون أن تتكون لديها قناعة مسببة بذلك.. لذلك كله، فإن هناك رغبة تجتاح كياني في البحث وراء السبب الحقيقي الكامن وراء اعتقالي، حيث استيقظ داخلي المحامي، الذي يتابع مجريات الدعوى من خلال القناعة التي يقدمها إليه موكله، ثم ينتقل إلى ملف الدعوى فيتابع الادعاء والأدلة ومواقف الأطراف الأخرى.. ثم عليه بعد ذلك أن يرسم مخططاً بذهنه لمجريات أحداث الدعوى قد لا يتفق مع رواية أي من الأطراف في الدعوى، ثم عليه بناءً على ذلك أن يبني موقفه القانوني من القضية، موقفه الذي يرضي ضميره.. لهذا فإنني حقيقة مهتم بمعرفة السبب الجوهري وراء اعتقالي، بغضّ النظر عن الإدانة أو البراءة، وقد تعززت هذه الرغبة مع ليالي العزلة، وأضحت فوق كل اعتبار وقبله، رغم أنني على يقين بأن المهمة بالغة الصعوبة، لأنني سأكون كمن يجري وراء أشباح لا يواجهونني، لا أعرف ماذا يدور في رؤوسهم، لهذا سأحاول أن أضع الافتراضات والاحتمالات بين أيديكم، ملتمساً مساعدتكم، لعل هذه المذكرة تستفز من يهمهم الأمر، فيفصحون لي ولكم عن السبب الجوهري وراء اعتقالي، فترتاح ضمائركم ويرتاح ضميري كذلك...، ثم، ألا يمكن أن يتبين أولئك، الذين يهمهم الأمر، أنهم ارتكبوا خطأ فادحاً بحقي، وبحق الموكلين التسعة المعتقلين معي، وربما بحق أسرهم، وما هو أبعد من ذلك، فيتراجعوا عن الخطأ، عوضاً عن التمادي فيه.. وذلك بحثاً عن الفضيلة الكامنة في التراجع عن الخطأ..؟ فلعلهم مازالوا يهتمون بالفضائل..!

بعيداً عن ملف القضية، أو إضافة له، دعونا نتفق أن السبب الجوهري الكامن وراء اعتقالي هو الآراء والمواقف السياسية التي صدرت عني، فهذا يسهل علينا البحث حتى لا نضيع في متاهات أخرى.. إذن فلنفتش في تلك الآراء والمواقف عن سبب، توهم، أصحاب القرار بالاعتقال، إنني لهذا السبب، أهدد أمن الدولة، ثم دعونا نناقش أين الحق، وأين الخطأ في الموقف...

37. لنبدأ بالبحث في الأسباب المباشرة المفترضة...

بداية، لا يمكن أن أنسب إلى الجهة صاحبة القرار باعتقالي، أنها قررت الاعتقال بلا سبب جوهري، بل أكثر من ذلك أكاد أجزم أنها لم تكن راغبة باعتقالي في هذا الوقت بالذات، بدليل أنني تلقيت قبل 48 ساعة من اعتقالي تحذيراً صريحاً عن طريق ممثل منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي في العلاقة مع جهاز الأمن، بأن الكيل قد فاض بالنسبة إلي، وأن بيني وبين الاعتقال شعرة رفيعة.. سألت: "ما المطلوب إذن؟"،قال: "بصريح العبارة، مطلوب الصمت، كفى..".. مطلوب مني صراحة أن أصمت، أن أكفّ عن أي نشاط لاحق، وإلا...! حقيقة الأمر، شعرت وقتها بالامتنان بيني وبين نفسي لمرسل التحذير لأنه من جهة يدلّ على حرص من جانبه، ويطالبني بشكل غير مباشر أن أجنبه تنفيذ قرار الاعتقال، ولأنني عرفت صراحة أن بيني وبين الاعتقال شعرة تصورت أنها تحتاج إلى أسابيع كي تنقطع، ولم يخطر ببالي أنها لن تصمد أكثر من 48 ساعة... المهم، أنني حاولت قدر المستطاع، وبكل ما أملك أن أجنبهم وأجنب نفسي تنفيذ قرار اعتقالي، رغم التداعيات الساخنة التي تسارعت باعتقال أصدقاء أعزاء من جهة، وبالتداعيات التي لحقت بذلك.. ووجدت نفسي أمام خيارين، لا مجال للتذبذب بينهما: إما أن أكون أنا، أنا، فأنهض بالموقف الذي وهبت نفسي له، إضافة إلى موقف مضاف نتيجة الاعتقالات يفرض أن أقوم بواجبي وما يفرضه علي شرف مهنة المحاماة باتخاذ كافة الخطوات والإجراءات للدفاع عن موكلين وضعوا ثقتهم بي، وهم قبل ذلك شركاء لي في حمل هموم مشتركة تتعلق بالوطن والحريات العامة والمستقبل، وإما أن يدفعني الخوف من التحذير، ومن أهوال الاعتقال التي ترسخت في الذهن قصصاً وروايات مرعبة، فألغي هذه الأنا من الوجود، وأصبح أي شيء آخر.. أي شيء آخر ضعيف، مذعور، ضئيل، أقل من حشرة... سأترك لخيال كل منكم أن يطلق عليه ما يشاء، ويجسّده بالكائن المناسب...

38. أعترف أمامكم، أنني، ورغم دقة الموقف وخطورته، ورغم الصور المرعبة للمعتقلات التي استحضرتها الذاكرة بإلحاح وخبث شديدين، لم أشعر للحظة واحدة أنني أمام خيارين، وإنما أمام خيار واحد لا شريك له، وهو أنني لن أكون إلا أنا...ولن أقول العياذ بالله منها، بل أنا فخور بها، فهذا يومها..!!

وهكذا أيها السادة، وجدت نفسي أمام خيار لا شريك له، وهو أنني سأتشبث بموقفي الوطني القومي كما هو، لا زيادة ولا نقصان من جهة، وسأقوم بواجبي تجاه أخوة، وأصدقاء، وشركاء، ومناضلين قبل أن يكونوا موكلين، ولو كانت النتيجة أن ألحق بهم.. وبالتالي فإن موقفي لم يكن أبداً، ولا بأي حال من الأحوال، تحدياً للتحذير أو لصاحبه، وإنما كان استجابة لموقف عاهدت نفسي أنني لن أحيد عنه تحت أي ظرف، واستجابة لشرف مهنة التزمته على طول الخط، ووفاء لمناضلين ووطنيين وسجناء رأي وضمير لا أملك تحت أي اعتبار أن أخذلهم في محنتهم.. فالحياة موقف أولاً وأخيراً، وقد حانت ساعته، وهذا هو ميدانه.. وكان هناك أمل، ولو ضئيل، يحدوني بأنه سيتمّ تفهم موقفي، وسيتم تقديره ليس بعدم اعتقالي وحسب، وإنما بالتراجع عن القرار الخاطئ باعتقال الأخوة والأصدقاء، فيتم إطلاق سراحهم في الحال ليجنبوا أنفسهم ويجنبوا الوطن آثار ممارسات خاطئة آن لها أن تنتهي، وأن تصبح جزءاً من الماضي، وحسب... لكن الأمل خاب... وأصحاب قرار الاعتقال رأوا على ما يبدو أن الكيل قد طفح، فقطعوا الشعرة، وكان قرار الاعتقال... ليكن هذا موقفهم، لكن هل لي أن اسأل عن موقفكم أنتم؟ هل لي أن أسأل هيئتكم الموقرة: أين الجرم في موقفي؟ بل، بالإضافة إلى الموقف العام، هل كنت أستحق أن أحمل على صدري شعار المحاماة (الحق والعروبة) لو تخاذلت عن ذلك قيد أنملة، واتخذت موقفاً آخر..؟ هل أذكر لكم الأسماء وملابسات الاعتقال..؟ دعوني أذكرها لكم باختصار شديد، وحسب تسلسل تواريخ الاعتقال:

39 1- السيد مأمون الحمصي، عضو مجلس الشعب الذي اعتقل من مكتبه لأنه علّق بياناً على باب مكتبه يقول فيه لناخبيه الذين يمثلهم في مجلس الشعب، أنه بذل جهده لتحقيق مطالبهم في العدالة والمساواة واحترام الدستور ومواجهة التجاوزات على أمن المواطنين وحرياتهم الأساسية وإلى آخره.. وأنه اصطدم في نهاية المطاف بالمعوقات، وأن طريقه مسدود، لذلك عاد إلى ناخبيه يعتصم في مكتبه بينهم، ويعلن إضراباً عن الطعام لمدة أسبوع... إنها طريقة راقية وحضارية.. كنت آمل أن ينتقل رئيس مجلس الشعب، وأعضاء مجلس الشعب، ورموز السلطة التنفيذية إلى مكتبه يرجونه التراجع عن إضرابه عن الطعام وعن اعتصامه، وأن مطالبه ستناقش بكل حرية... لكن، عوضاً عن ذلك، انتُزع بقسوة من فراشه وتمّ اعتقاله رغم أن الدستور يحصن عضو مجلس الشعب، ويكفل له الحرية بإبداء رأيه داخل المجلس وخارجه، ولا يساءل عن مداخلاته.. كما أن الدستور حرم توقيف عضو مجلس الشعب إلا بالجرم المشهود حصراً، وبعد الحصول على أذن مجلس الشعب، أو من رئيسه في حال كان المجلس في إجازة.. ولم يراع الدستور ولا القوانين، وبما أن الإجراءات باطلة، وما بُني على باطل فهو باطل، فإنني طالبت بإطلاق سراحه في الحال، وأوضحت ملابسات التوقيف اللاقانونية، كما أوضحت أن سبب اعتقاله هو البيان الذي تضمن مطالبه حصراً، وأن ملف الدعوى يقتصر على ذلك.. وذلك رداً على خفافيش الظلام التي استغلت وجوده معزولاً في السجن فتذكرت أن له تاريخاً في علاقات تهريب بينه وبين بعض رموز السلطة.. وأكدت أن الدعوى تدور حول البيان حصراً، وأن الدفاع يستند إلى البيان في الدفاع، وقد تأكد ذلك مرة أخرى عندما استُدعي للتحقيق مرة ثانية، وبحضوري، حيث كان السؤال الذي تكرر على مدى أكثر من ساعة ونصف: هل تراجعت عن البيان..؟.. هل نفهم من ذلك أن هذا يعني تراجعاً عن البيان..؟ وعندما نفى تراجعه عن البيان أعيد إلى السجن، ومازال...

40. 2- المناضل، الزميل الأستاذ المحامي رياض الترك، هذا الرجل الصابر، الصامد، الرجل الحق، له دَين في أعناقنا نحن القوميين العرب، لن نفيه حقه لأجيال قادمة.. ففي أواخر الستينيات، ومطلع السبعينيات، ومع تصاعد الهجمة على الوجود القومي للأمة العربية بعد هزيمة الانفصال التي جرت، هزيمة 1967، فإن الهجمة على الأمة وصلت إلى الجذور، فتجرأت القوى الإقليمية لأول مرة منذ سنوات على طرح القضية بشكل عقائدي ومنهجي، وهي أن الأمة العربية غير موجودة، وبالتالي فإن الدعوة للوحدة العربية دعوة ديماغوجية لا أساس لها، وطرحت هذه القضية انطلاقاً من مواقف يمينية، وانطلاقاً من مواقف يسارية في وقت واحد، من منطلقات متناقضة باتجاه هدف واحد، وطرحت هذه المسألة بحدة على الحزب الشيوعي السوري، فوقف المناضل رياض الترك (أبو هشام) ذلك الموقف الذي لا يمكن أن ننساه له، إلى جانب أمته العربية وهويتها، فانشق الحزب الشيوعي السوري على هذا الأساس، وعندما كاد التيار الإقليمي الانعزالي أن يلقى هزيمة منكرة، فإنه لجأ إلى الاتحاد السوفيتي (العظيم) حينها ليتدخل، وهو القاعدة غير المنكورة للاشتراكيين في العالم، وكانت المفاجأة أن الحكماء السوفيت أصدروا فتواهم الشهيرة بأن الأمة العربية غير مكونة، وأنها قد تكون قيد التكوين، وأن إسرائيل دولة معترف بها دولياً، وبالتالي فإن الدعوة إلى الوحدة العربية، والدعوة إلى تحرير فلسطين هي دعوة لا أساس لها في (الفكر الماركسي العلمي)، فكان الموقف الحاسم الذي اتخذه هذا الرجل، الرجل، رياض الترك، ليقود التيار المناضل داخل الحزب الشيوعي... الغريب، والذي لم أفهمه كقومي عربي، هو أن حزب البعث العربي الاشتراكي قائد الدولة والمجتمع من بداية السبعينات، وهو الحزب الذي يرفع شعار الوحدة والحرية والاشتراكية، قرر

التعاون مع التيار الإقليمي الانعزالي في الحزب الشيوعي الذي لا يعترف بوجود الأمة العربية أصلاً، ولاحق التيار القومي التقدمي داخل الحزب واعتقل قائد هذا التيار رياض الترك لمدة ثمانية عشر عاماً... رياض الترك هذا أُطلق سراحه منذ سنوات قليلة، ودعيناه لإلقاء محاضرة عن مستقبل الديمقراطية في سورية، وألقى محاضرة من أهم المحاضرات التي أُلقيت في منتدانا، ذلك أن المناضل رياض الترك لم يكتفِ بتقييم التجربة التي انقضت، وإنما قدّم برنامجاً للمستقبل.. لقد كنت أتابع هذا الشيخ الجليل كلمة بكلمة، وهو يدعو لمستقبل وطني، لمصالحة وطنية.. لم تورثه سنوات الاعتقال المديدة كلمة واحدة عن الثأر، لم يطالب بشيء يعوض فيه ما مضى، كانت مطالبه من أجل الجميع، وللجميع. لقد أكبرت هذا الموقف، أكبرت هذا التسامح، أكبرت هذه القوة، أكبرت هذه الشجاعة، لأن هذا ما يمكث في الأرض، وأما الزبد فسيذهب جفاءً... وأعقبت هذه المحاضرة مداخلة إعلامية أعاد فيها جزءاً من المحاضرة ذاتها، وقد توقعت فعلاً من فرط حسن النية الذي أُتّهم دائماً به، أن الأيدي ستتسابق من كل الأطراف لتلاقي اليد الممدودة من قِبَل رياض الترك، لكنني فوجئت باعتقاله.. كان يوم اعتقاله فجيعة بالنسبة إلي. كان يوماً حزيناً.. حزيناً... كنت على موعد معه في ذات يوم، وكنت أنتظره وقد علمت أنه عانى من مشاكل صحية، وأنه ككل المناضلين الذين عرفتهم، مهمل لصحته، يتحدى هذا الجسد الضئيل، ويحمّله ما لا يحتمل.. المهم علمت أنه تمت إحالته إلى هذه المحكمة، فأسرعت لتنظيم وكالة خاصة بعد أن أعلمني الزميل الرئيس، رئيس فرع نقابة المحامين بدمشق، الأستاذ وليد التش، أن الأستاذ رياض الترك رفض الاستجواب أمام المحكمة إلا بحضوري، وأنه ذهب إلى المحكمة مرتين، فشكره الأستاذ رياض الترك وصمم على موقفه... لكن ورغم الحصول على أذن من هذه المحكمة على تنظيم الوكالة، ورغم أن الوكالة تم تنظيمها من وراء ظهري، فلم يُسمح لي حتى بحضور تنظيمها، كما أن الأوامر.. الأوامر أيها السادة، من أين لا أدري.. كانت حاسمة بأن لا تُسلم هذه الوكالة لي.. لقد اعتُقلت، ومضى ما مضى على اعتقالي، ولم أستلم هذه الوكالة حتى الآن، وحتى بعد اعتقالي، وحتى هذه اللحظة، لم يُسمح لي أن ألتقي به رغم أننا في سجن واحد.. ماذا تريدونني أن أقول عن هذا كله، وعن أي قانون نافذ تريدونني أن أتحدث، وعن أي نقابة تخضع لضغوط لا أعرف من أين، وعن أي محكمة..؟

41 3- السيد رياض سيف، عضو مجلس الشعب، هذا الرجل الصناعي الشجاع الذي يحمل طموحاً بأن يُنتج، ويعمل، ويحقق الاحترام لهذه العبارة: (صُنع في سورية)... تابعته عن بُعد دون أن ألتقيه، أعجبت بشجاعته في طرح العديد من المواضيع، واختلفت معه في مواضيع أخرى، لكن الاختلاف لا يفسد للودّ قضية. ثم تابعت هذه الشعبية التي بدأ يكسبها، كرجل عام، في ظروف بالغة الصعوبة والدقة. ثم اقتربت منه بعد أن أعلن منتداه للحوار الوطني، وحوّل منزله إلى ساحة للحوار الوطني.. وكنت دائماً أعتبر أننا بحاجة لمئات من هذا الطراز، وكان من الطبيعي أن نصبح أصدقاء، وأن أشاركه همومه التي تجاوزت الحدود، ثم تابعت حماسه الشديد عندما قرر في الفترة الأخيرة أن يكون نائباً بحقّ، ففتح ملفات الهاتف الخليوي بشجاعة، وقدّم دراسة هامة عن الموضوع وعن المخالفات المرتكبة، ثم أعاد افتتاح منتداه بمحاضرة هامة للصديق العزيز برهان غليون، كان لها أثر إيجابي دعا من خلالها إلى برنامج إصلاحي يبدأ من رئيس الجمهورية.. وقد توقعت أن يكون لهذه المحاضرة والحوارات التي تبعتها دورٌ في تفعيل مشروع التحول الديمقراطي في البلاد، ولم يخطر ببالي على الإطلاق أن السيد رياض سيف عضو مجلس الشعب، سيخسر حريته نتيجة لها.. وعندما أُبلغت الخبر، كدت لا أصدق، فهو يتمتع بالحصانة، ولم يُعتقل أثناء المحاضرة وإنما بعد انقضاء أكثر من 48 ساعة عليها، وأنه كان نائماً عندما حضروا لاعتقاله، وأن اعتقاله كان بدون مذكرة توقيف، وبحجة أن وزير الداخلية يدعوه إلى فنجان من القهوة.. ولم نعرف أنه قيد الاعتقال إلا بعد مرور ساعات على اعتقاله عندما أذاعت وكالة الأنباء الرسمية خبر الاعتقال... وكان من الطبيعي أن أخف إلى منزله أعلن تضامني، وفي اليوم التالي تقدمت لتنظيم وكالة عنه، لكن المماطلة أخّرت تنظيم الوكالة فاعتُقِلت قبل أن أتسلمها...

42 4- السيد الدكتور كمال اللبواني، هذا الطبيب الشاب الذي كان يلفت نظري بمتابعته الدائمة والدائبة لنشاط المنتديات، وخاصة منتدانا، منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي، كما أنه عضو الهيئة التأسيسية لمنتدى الحوار الوطني الذي يُعقد في منزل النائب رياض سيف، كما كانت تلفت نظري مداخلاته الجريئة والهادفة في الصميم، ورغم أن الظروف لم تسمح بتمتين العلاقة الشخصية بيننا فإنني كنت في كل ندوة أنتظره، وأفتقده إذا غاب.. كان يترك عيادته في الزبداني ويحضر إلى دمشق لمتابعة هذه الندوات مما يوحي بشفافية واهتمام بقضايا وطنه ومستقبله. لا أعرف لماذا في مساء ذلك اليوم قررت أن أتصل به، أطمئن على أحواله، قالت لي زوجته ببراءة أنه ذهب لإسعاف مريض، وأنهم أخذوه من المنزل لهذه الغاية.. طلبت إليها أن يكلمني فور عودته، ولو كان الوقت متأخراً، وانتصف الليل، ولم يتكلم.. بعد منتصف الليل اتصلت بي زوجته تخبرني بهلع وخوف: كمال لم يعد إلى البيت، هل لديك معلومات..؟ قلت لها مطمئناً: لا تقلقي، أحوال الأولاد؟ قالت: نائمون.. قلت لها: سيعود إن شاء الله، سنبقى على اتصال.. وبقينا على اتصال حتى الصباح عندما طلبت إليها أن تذهب إلى قسم الشرطة لتنظيم ضبط باختفاء زوجها، وتمّ تنظيم الضبط، وهمسوا بأذنها: يمكن أن يكون الأمن قد اعتقله..!!

43. 5- السيد الدكتور وليد البني، هذا الطبيب الشاب الذي لفت نظري بحماسته ومداخلاته المباشرة، ومتابعته الدؤوبة لمنتدانا، وبنشاطه في لجان إحياء المجتمع المدني والبيانات التي صدرت عنها،وكذلك نشاطه الدؤوب في الهيئة التأسيسية لمنتدى الحوار الوطني.. كانت مداخلاته في منتدانا دورية، لم يتغيب عن ندوة واحدة، وكانت نزعته للديمقراطية واضحة.. في تلك الليلة ذاتها، اتصل بي أحد الأصدقاء، قال: لقد اعتقلوا الدكتور وليد البني.. لم أصدق، اتصلت، ردّت السيدة زوجته، قالت بحزن: لقد علمت فقط من الناس أنهم أخذوه من العيادة.. من هم؟ لا أدري.. إلى أين؟ لا أعلم.. قلت لها أرجو أن يكون استدعاءً طارئاً، سيعود بإذن الله، نبقى على اتصال.. وهكذا أمضيت تلك الليلة أتبادل الاتصال مع زوجة الدكتور كمال اللبواني، ثم مع زوجة الدكتور وليد البني حتى الصباح، أحاول أن أكون مطمئناً لهما، مستغرباً في الوقت ذاته: لماذا؟ من أجل كلمة؟! من أجل الدعوة للديمقراطية؟! من أجل رأي..؟!!

44. 6- السيد الدكتور عارف دليلة.. هذا الصديق العزيز، والاقتصادي البارز الذي يستمتع بملاحقة الفساد والفاسدين، وكشف المستور، ضارباً بعرض الحائط بمصلحته الشخصية. وكان من الطبيعي أنه كلما شدّد حملته على الفساد، كلما اقتربنا من بعضنا أكثر.. كان يصعّد نشاطه في ندوة الثلاثاء الاقتصادي، وكانت محاضرته السنوية فيها ومداخلاته الدؤوبة، حديث الناس.. عارف دليلة هذا تعدد نشاطه من لجان إحياء المجتمع المدني إلى حركته الدائمة في المنتديات ومحاضراته ومداخلاته التلفزيونية، يحمل هموم وطنه وشعبه، ويتابع الدراسات حول ثروات البلاد، والثروات غير المشروعة للبعض، والسفه عند البعض الآخر، وينتقل ليلقي المحاضرات من مدينة إلى أخرى، من منتدى إلى آخر يدقّ ناقوس الخطر، ويدعو لليقظة قبل فوات الأوان، وعندما تعمّق بدراسة المشكلات الاقتصادية وصل إلى استنتاج هام، وهو أن المشكلات الاقتصادية في سورية ليست اقتصادية، وإنما هي مشكلات سياسية، فضاقوا به وبنشاطه، نقلوه من الجامعة، وعندما قمنا بالطعن بالقرار أمام مجلس الدولة، قاموا بتسريحه وإحالته إلى التقاعد... هذا العارف دليلة جاء ليلقي محاضرة في منتدانا، كان هادئاً صبوراً يحذر من المخاطر، لكن عندما استفزوه، قال ما يجب أن يُقال.. في الاقتصاد والسياسة. بعد المحاضرة أشفقت عليه رغم أن كل ما قاله ضمن القانون، وتحت سقف الدستور. في صباح ذلك اليوم، والذي قضيت ليلته على الهاتف بين زوجة الدكتور كمال اللبواني وزوجة الدكتور وليد البني، اتصلت به لأطمئن عليه.. ردّ على الهاتف، كان يجهّز نفسه لمغادرة المنزل، طلبت إليه أن يمر عليّ لنشرب القهوة معاً.. بعد نصف ساعة، اتصل بي أحد الأصدقاء.. لقد اعتقلوا د. عارف دليلة.. أيضاً.. وأيضاً...

45 7- السيد حسن سعدون، هذا الرجل الذي تعرفت عليه من خلال مداخلاته الهادفة في منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي، والقادم من التخوم الشمالية لوطننا..لا يمكن أن أنسى، كيف كان يواجهنا بحدة عندما يضغط علينا الوقت، وعدد المتداخلين الكبير، فنضطر لتوقيف المداخلات، ومنها مداخلته مثلاً.. كان يواجهنا بصوته ذات النبرات الحادة: أنا قادم من 1000كم كي أقول رأياً.. لا يحق لكم أن تمنعوني من الكلام.. أنتم كغيركم... كنا نواجه انفعاله بالتحبب والودّ.. متحمس لوطنه، هادئ في طرحه، يدعو للحوار الوطني والديمقراطي... أحياناً عندما يصادفني خارج المنتدى يحدثني عن المستقبل، عن ما يجب أن يكون.. لقد مضى العمر.. إلى متى ننتظر... في صباح ذات اليوم لاعتقال الأخوة المذكورين في الفقرتين السابقتين تمّ اعتقاله، لم يعثروا عليه في منزله بدوما، فلاحقوه إلى القامشلي بعد أن كان قد حضر جلسة للمنتدى، استدرجوه إلى فرع الأمن هناك، وطلبوا إليه أن يستبدل ملابسه بملابس عسكرية، ونقلوه إلى دمشق..!

46. 8- السيد حبيب صالح، صديق قديم، من المتيمين حباً بجمال عبد الناصر، ومن خلال ذلك بأمته العربية، قومي، صادق، يقول رأيه على السجية، شديد الانفعال والتأثر.. كان يتحمل مشقة السفر من طرطوس إلى دمشق مع كل جلسة من جلسات منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي، وكذلك منتدى الحوار الوطني، فقط ليقول رأيه، وغالباً بالقضية الفلسطينية والموقف القومي منها.. كان الأخوة البعثيون في منتدانا، وفي المنتدى الآخر، يستفزونه، فيردّ على الاستفزاز... لم يقل شيئاً يستحق عليه الاعتقال... كان موقفه قومياً لا غبار عليه.. لكنهم ضاقوا ذرعاً به فاعتقلوه في صبيحة ذات اليوم المشار إليه، فبعد مغادرته دمشق إلى طرطوس إثر جلسة لأحد المنتديات، تمّ اعتقاله من منزله وإحضاره إلى دمشق...

47 9- صحيح أن علاقتي بهؤلاء الأخوة، والمناضلين، والمثقفين، كانت تتجاوز علاقة المحامي بموكليه، فهم قبل ذلك وبعده أخوة أعزاء يجمعنا الهم العام، مهمومون بقضايا وطننا وأمتنا. تجمعني صداقة مع البعض، وتعارف مع البعض الآخر.. لكن، ومنذ لحظة اعتقالهم نهض دوري كمحامٍ عنهم ليتصدر علاقتي بهم، وذلك إضافة للسيد فواز تللو الذي تمّ اعتقاله معي في ذات الوقت حيث التقينا في المعتقل... هذا المهندس الشاب اللطيف الذي التقيته في منتدى الحوار الوطني يطرح أفكاره بهدوء وروية، خجول، يهتم بالوطن وقضية الديمقراطية والحوار.. تأثر كثيراً لاعتقال النائب رياض سيف حيث كان من الهيئة التأسيسية للمنتدى، كان متحمساً لأن يستمر المنتدى بأداء دوره.. فوجئت به معتقلاً، كما

فوجئ هو..تعمقت علاقتنا في المعتقل، ظروف اعتقاله مماثلة لظروف اعتقالي.. كنت حقيقة أشعر أن هؤلاء الأخوة الأعزاء يحتاجون إلى صديق يقف معهم في محنتهم أكثر من حاجتهم إلى محام ، وكنت من ناحية أخرى قد عقدت العزم أن أحول قضيتهم من قضية دفاع عنهم إلى دفاع عن الوطن، دفاع عن الشعب، دفاع عن الحريات العامة، عن دولة الحق والقانون... لذلك فإن علاقتي بهم حتى لحظة اعتقالي كانت علاقة استعداد وإجراءات حيث كانت على الشكل التالي، وحسب الترتيب السابق:

48. الأول، السيد مأمون الحمصي، تمكنت، وبعد عناء شديد، وتعقيدات لا مبرر لها من تنظيم وكالة عنه، وبالتالي تمكنت من زيارته أكثر من مرة، وحضرت معه الاستجواب الثاني أمام قاضي التحقيق النائب السابع بدمشق.. وأعترف أنني أعجبت بثباته على مواقفه المعلنة في بيانه، ورفضه التراجع.. وعندما حاولت بعض الصحف التشهير به وبموقفه القانوني وتقديم معلومات مغلوطة عن الدعوى، وجدت من واجبي أن أتصدى للدفاع عنه.. فقد اعتبرت محاولة النيل من سمعته وهو سجين معزول، عملاً غير أخلاقي، لذلك قررت إصدار بيان باسم هيئة الدفاع عنه، وهذا نصه الحرفي:

49 . **بيـــــان**

من هيئة الدفاع

عن عضو مجلس الشعب السيد محمد مأمون الحمصي

عندما أعلن عضو مجلس الشعب السيد مأمون الحمصي مطالبه العشرة واعتصامه في مكتبه وإضرابه عن الطعام لمدة أسبوع اعتباراً من 7 / 8 / 2001 ، كان من المتوقع أن يتدخل السيد رئيس مجلس الشعب أو أحد المسؤولين لمفاوضة النائب المعتصم والبحث معه في طلباته والوعد بإجابة هذه الطلبات أو معظمها، ولكن فوجئنا أنه في صباح يوم 9 / 8 / 2001 تم إيقاظ عضو مجلس الشعب وإجباره على ارتداء ملابسه من قبل قوة مسلحة اقتادوه إلى القصر العدلي وتم توقيفه .

وقد تبرعنا في الحال لتشكيل هيئة للدفاع عن السيد محمد مأمون الحمصي ، ورغم المضايقات التي تعرضنا لها في البداية سواء بتنظيم الوكالة أو بالعراقيل التي وضعت لزيارته، فإننا وبعد الإطلاع على ملف القضية نبين ما يلي :

- إن الإدعاء استند إلى البيان الذي كان السيد مأمون الحمصي قد علقه، في مكتبه ويتضمن المطالب التالية :

1 - المطالبة بقدسية الدستور والحد من حالات الطوارئ وإلغاء الأوامر العرفية .

2 - المطالبة بسيادة القانون وتعزيز سلطة القضاء والإصلاحات الضرورية له وضمان استقلاليته .

3 - المطالبة بإنهاء عمل الهيئة المركزية للرقابة والتفتيش والتي أصبحت مصدر رعب وتصفية للحسابات وخرجت عن عملها القانوني المنوط بها .

4 - مطالبة الحكومة بالكف عن فرض الرسوم والضرائب ورفع الأسعار التي أنهكت المواطن وحطمت كل آماله ، متجاهلة أي زيادة تحقق الحد الأدنى من العدالة .

5 - المطالبة الدائمة بملاحقة الفساد والهدر بكل أشكاله .

6 – رفع أيدي بعض المسؤولين وأبنائهم عن خيرات هذا الوطن من أجل توزيع هذه الخيرات بالعدالة والمساواة لكل فئات الشعب .

7 - المطالبة بإلغاء عقود الخليوي لما ظهر فيها من خروج عن الدستور وتلاعب في العقود لمصلحة بعض المتنفذين وإضاعة الفرصة لدعم الخزينة حتى تنعكس بالفائدة على المواطن .

8 - المطالبة بالحد من تدخلات الأجهزة الأمنية في الحياة اليومية وأن يقتصر عملها على الأمور التي تخص أمن الوطن وأن يعاد ترتيبها على هذا الأساس ، وأن تحول أبنيتها المتعددة في كل المحافظات إلى جامعات من أجل أن ننزع الخوف من قلوب المواطنين ومن أجل أن نبني أجيالاً تمارس حقها في الحرية وتتعلم الديمقراطية بشكلها السليم .

9 - المطالبة بتشكيل لجنة برلمانية لحماية حقوق الإنسان وأن تمنح الحكومة التراخيص اللازمة من أجل إنشاء هذه اللجان .

10 -المطالبة بتفعيل دور مجلس الشعب وعدم المساس والتعرض للناشطين فيه وعدم قمعهم وتغيير الأسلوب المتبع بالضغط عليهم داخل المجلس وخارجه والالتزام بالمادة (66) من الدستور المتعلقة بحصانة النواب ، وأن يلتزم رئيس مجلس الشعب بتطبيق النظام الداخلي بالشكل الأمثل .

- رسالة تضامن من اللجنة العربية لحقوق الإنسان وجواب شكر من السيد الحمصي عليها ونحن هنا لن نبحث في حيثيات القضية ودستورية توقيف موكلنا وصحة الإجراءات أو بطلانها ، فنحن على ثقة من أن القضاء العادل سينصف موكلنا في النهاية . ما يهمنا الآن هو حملة التشهير التي تشنها بعض الأقلام المجهولة النسب على الموكل وهو في موقف لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، وتنسب إليه أفعالاً وممارسات لا وجود لها في ملف القضية الموقوف على حسابها ، لذا فإنه من الواجب أن نوضح للرأي العام ما يلي :

1 - إن القضية الوحيدة مسار الإدعاء على السيد محمد مأمون الحمصي عضو مجلس الشعب ، هي البيان المشار إليه ، وبالتالي فإن هذا البيان هو أيضاً الموضوع الوحيد للدفاع .

2 - إننا نقوم بواجب الدفاع عن السيد محمد مأمون الحمصي تبرعاً من قبلنا ودون أي مقابل ونعتبر أن المطالب التي وردت في بيان عضو مجلس الشعب محمد مأمون الحمصي مطالب مشروعة من حقه بموجب الدستور والقوانين الإعلان عنها، بل ومن واجبه أيضاً .

3 - لا علاقة لهيئة الدفاع ، ولا يوجد في ملف الإدعاء أي قضية أو مسألة سابقة . ونحن نتساءل عن سبب التشهير الذي يلحق بشخص السيد محمد مأمون الحمصي وتاريخه ، ونحذر أنه من حقه قانونياً ملاحقة المشهرين به عندما يمتلك حريته في ذلك . . . ونتساءل أيضاً لماذا تثار الآن قضايا وشائعات تعود إلى عشرين عاماً أو خمسة عشر عاماً، ولماذا السكوت عليها طيلة هذه المدة . . . مع أنه يتمتع بعضوية مجلس الشعب منذ عشر سنوات ..؟!

- إن قضية السيد محمد مأمون الحمصي عضو مجلس الشعب كما هي في ملف القضية 1743 / 2001 هي قضية رأي ورأي عام . وهي كذلك في ملف الإدعاء حصراً، وهي كذلك أيضاً في مذكرات الدفاع . . . فالقضية لا تتعلق بشخص السيد محمد مأمون الحمصي وإنما

تتعلق بمطالب محددة وردت في بيانه كما حرص السيد مأمون الحمصي على مناقشتها خلال فترة عمله كنائب في مجلس الشعب السوري ، وبالكيفية التي عالجت فيها السلطات هذه القضية وهو يعتقد أنه من حقه أن يطالب بها ومن واجبه أيضاً .. وإذا كانت وزارة الداخلية قد اعتبرت أن ذلك يشكل جرماً وأن (أداة الجريمة) هو هذا البيان فإن الكلمة الأخيرة للقضاء .

ـ إننا على ثقة بأن القضاء في بلدنا يمتلك قدرات وكفاءات ممتازة والمشكلة كامنة في أجهزة اعتادت أن تتدخل في كل كبيرة وصغيرة تتعلق بحياة شعبنا وفي عمل مؤسساته ودوائره القضائية والتشريعية والتنفيذية . .

ـالمطلوب الآن أن تعود تلك الأجهزة إلى قواعدها وأن تترك مؤسسات المجتمع تؤدي دورها بكفاءة واستقلالية، فهل تنتهي دولة المخبرين وتنهض دولة المؤسسات ؟ هذا هو الأمل ... لهذا فقد اعتبرنا إحالة قضية السيد محمد مأمون الحمصي إلى القضاء العادي فرصة تاريخية لمؤسسة العدالة في بلدنا قضاة ومحامين، وتفعيلاً لدور القانون ، أن نقف الموقف الذي يتناسب واللحظة التاريخية التي تمر فيها بلادنا .
لهذا فإن هيئة الدفاع تتمنى على الجميع التقيد بحيثيات الدعوى وموضوعها حصراً . . ونحن من جهتنا ننطلق من اعتبار المطالب التي تقدم بها السيد محمد مأمون الحمصي في بيانه هي بحد ذاتها الأداة التي نعتمدها في الدفاع .
ولا حول ولا قوة إلا بالله .

دمشق في 19 / 8 / 2001 **هيئة الدفاع**

عن عضو مجلس الشعب السيد مأمون الحمصي

50. الثاني، الزميل المحامي الأستاذ رياض الترك، أوضحت أنني لم أتمكن من استلام الوكالة عنه، ولم يُسمح لي بزيارته، وقد أصدرت بياناً بصفتي ناطقاً رسمياً باسم منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي، قمت بتلاوته في جلسة المنتدى بتاريخ 2001/9/2 استنكرت فيه اعتقاله، وطالبت بالإفراج عنه، وهذا نص البيان:

بيان ناطق رسمي

قامت الأجهزة الأمنية يوم السبت الأول من أيلول – سبتمبر – بملاحقة المناضل المحامي رياض الترك إلى طرطوس حيث تم إلقاء القبض عليه رغم ظروفه الصحية الدقيقة، واقتادته إلى جهة مجهولة.
لقد اعتبرنا ذلك اليوم يوماً حزيناً آخر في تاريخ سورية، ذلك أننا كنا نأمل أن تكون هذه الممارسات التعسفية للأجهزة الأمنية قد أصبحت من الماضي، وذلك كمقدمة ضرورية لا بدّ منها لتنهض دولة العدل والقانون والمواطنية الحقة.
إننا في منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي تنتابنا مشاعر خاصة من جراء هذا التصرف اللامسؤول، ذلك أن النشاط العام الأخير للمناضل رياض الترك تمثّل في تلك المحاضرة الهامة التي ألقاها في منتدانا عن الديمقراطية ومستقبل الديمقراطية في بلادنا.. ورغم أننا في المنتدى نقف على مسافة معينة من الأفكار التي يتم تداولها في منتدانا ونتداعى جميعاً محاضرين ومستمعين ومتداخلين إلى الكلمة السواء، فإننا قدّرنا عالياً تلك الروح السامية السمحة التي دعا من خلالها في الفصل الأخير من محاضرته إلى النظرة المستقبلية وإلى الاتفاق والتعاقد الوطني والحوار المفتوح والتطوير الإيجابي للمجتمع ومؤسساته القانونية والتنفيذية والتشريعية.. وكان الأمل يحدونا أن تصل هذه الدعوة إلى جميع من يهمهم الأمر في البلاد لنشترك جميعاً ودون استثناء، ودون اصطفاء ودون إقصاء، في بناء وطن هو من البداية وإلى النهاية وطننا جميعاً.
إننا بقلوب تنبض بالحزن والأسف، تلقينا نبأ اعتقال هذا المناضل الكبير من قِبَل أجهزة أردنا أن نصدّق أنها قد أُعيدت إلى أدوارها واختصاصاتها بعيداً عن التدخل في حياة المواطنين في بلدنا وما يجب وماذا لا يجب أن يقال.
إننا لا نقول ذلك دفاعاً عن رياض الترك رغم أننا جميعاً على استعداد أن نفتديه في أية لحظة. ولكننا قبل ذلك وبعده، نقوله دفاعاً عن وطن آن له أن ينهض، ذلك النهوض المرهون أولاً وأخيراً بنهوض دولة المؤسسات الحقيقية والشرعية. وهذا كله يتوقف على وضع حد حاسم للتعسف الذي تمارسه الجهات الأمنية.
إننا في منتدى جمال الأتاسي نأمل ممن يهمهم مستقبل هذا الوطن أن يتكاتفوا لإطلاق سراح رياض الترك فوراً.

- الحرية لسجناء الرأي في سورية.
- الحرية للمنفيين في العودة إلى الوطن
- الحرية لرياض الترك

الناطق الرسمي

المحامي حبيب عيسى

51. الثالث، السيد رياض سيف، عضو مجلس الشعب الذي اعتقل على خلفية إعادة افتتاح منتدى الحوار الوطني في منزله، وقد كان من الطبيعي أن أصدر بياناً باسم منتدى جمال الأتاسي تضامناً مع منتدى الحوار الوطني حيث استنكرت اعتقال النائب رياض سيف، وهذا نص البيان:

تصريح الناطق الإعلامي حول اعتقال النائب رياض سيف

تلقينا مساء يوم الخميس 2001/9/6 نبأ اعتقال السيد رياض سيف عضو مجلس الشعب ومنظم منتدى الحوار الوطني.
إننا إذ نستنكر بشدة هذا الاعتقال الذي يعتبر مخالفاً لأبسط الحقوق، وانتهاكاً لحقوق الإنسان، واعتداء على الحق الدستوري لعضو مجلس الشعب، وعلى الحصانة التي يتمتع بها، نطالب بالإفراج الفوري عنه.

إن اعتقال السيد رياض سيف في اليوم التالي لاستئناف منتدى الحوار الوطني نشاطه، وعلى أثر الندوة الوطنية التي عقدها المنتدى حيث تداعى الجميع إلى عقد وطني، والى التكاتف من أجل تطوير الحوار الديمقراطي في بلدنا، يؤكد أن هناك قوى خفية لا تتورع عن أي فعل لمقاومة قوى التطوير والإصلاح والديمقراطية في بلادنا.
لقد سبق لنا في منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي أن نبهنا إلى خطورة التضييق على المنتديات في نيسان الماضي، وأعلنا أننا جزء لا يتجزأ من هذا الحراك الثقافي والاجتماعي والسياسي، وأن زهرة لا تصنع ربيعاً، وأننا لن نتوقف عن نشاط منتدانا، وأننا سنصمد في مكاننا إلى أن يعود الجميع إلى أماكنهم، وعندما أعلن الأستاذ رياض سيف استئناف نشاط منتدى الحوار الوطني في الخامس من الشهر الحالي، استبشرنا خيراً. وعندما حضرنا الندوة والحوار الوطني المسؤول، اعتبرنا ذلك مقدمة لأن تعود كافة المنتديات لاستئناف نشاطاتها، وأن تعود واحات الحرية للزحف على التصحر في الواقع، وفي العقول أيضاً. لكن اعتقال الأستاذ سيف جاء ضربة أخرى للأحلام التي أردنا أن تترجم واقعاً ملموساً.
إن اعتقال الأستاذ رياض سيف عضو مجلس الشعب بعد استئنافه لنشاط منتدى الحوار الوطني، بعد اعتقال المناضل المحامي رياض الترك على أثر إلقاء محاضرة في منتدانا، وبعد اعتقال عضو مجلس الشعب مأمون الحمصي لمجرد أنه أصدر بياناً بمطالب الشعب في قدسية الدستور والحد من تدخل الأجهزة في شؤون البلاد والعباد.. إن ذلك كله يؤكد أن القوى المعادية للإصلاح والحوار والديمقراطية قد بدأت حملتها، ولا نعرف إلى أين يمكن أن تصل، ولا أين يمكن أن تتوقف.
لذا فإننا نطالب جميع من يهمهم الأمر بمستقبل مزدهر لبلادنا في الحرية والكرامة والديمقراطية أن يتكاتفوا لمواجهة المخاطر، والعمل الجاد لإطلاق سراح سجناء الرأي والحرية.
إننا في منتدى جمال الأتاسي نعلن تضامننا التام مع منتدى الحوار الوطني، ونأمل الإفراج الفوري عن الأستاذ رياض سيف وكافة سجناء الرأي في بلادنا.
دمشق في 2001/9/6

الناطق الإعلامي
حبيب عيسى

وقد تمكنت من زيارته مرة واحدة، وذلك قبل اعتقالي بيوم واحد، ولم أتمكن من حضور استجوابه.

52. السادة (من 4 إلى 8): د. كمال اللبواني، د. وليد البني، د. عارف دليلة، السيد حسن سعدون، السيد حبيب صالح، فقد تمّ اعتقالهم قبل اعتقالي بثلاثة أيام فقط.. طلبت من المحكمة الأذن بتنظيم وكالة عنهم، لكن اعتقالي تمّ قبل الحصول على هذا الإذن... أما السيد فواز تللو فقد اعتُقل بالموازاة مع اعتقالي في يوم واحد، والتقينا في الزنزانة معاً في فرع تحقيق الأمن السياسي.
هذا هو باختصار شديد واقع المعتقلين، وعلاقتي الحقوقية بهم...

53. السؤال هو: هل تجاوزت علاقتي بالموكلين تلك العلاقة المفترضة بين المحامي وموكليه..؟ وهل هذه العلاقة هي التي أدت بي إلى السجن..؟! لا أريد على الإطلاق أن أنفي ذلك.. لكن هل في هذه العلاقة جرم ما، وعلى أية درجة..؟!
بداية، يشرفني أن يجمعني بهؤلاء ذلك الشعور الذي انتابنا جميعاً دون سابق معرفة في أغلب الأحيان، ودون اتفاق في الأحيان كلها.. أنه آن الأوان أن نخرج من الحالة البهيمية والسلبية، أن نعرّض أفكارنا وأحلامنا وهمومنا للنور، للشمس.. أن لا نورّث الأبناء حالة التعفن التي نحيا، أن نساهم في تحصين الوطن ضد الفتن بكل صورها، وضد التوحش بأشكاله كافة، من أي مصدر جاءت، أو أتى... فأين الجرم في هذا...؟ هل في صحفكم القانونية مادة قانونية تجرم المواطن إذا أراد أن يكون مواطناً بحق، إنساناً بحق، يحلم بالحرية لأمته وللإنسانية جمعاء، ثم بعد ذلك لنفسه..؟

54. لقد دعونا، وندعو إلى ميثاق شرف وطني قومي نحرّم فيه استخدام العنف على المجتمع من أي مصدر كان، بل أن يوجه العنف حصراً لمواجهة العدوان على أمتنا المتمثل بالعنصرية الصهيونية والهيمنة الأجنبية أياً كان مصدرها.. ونحن نعتقد بكل إخلاص وصدق، أن كافة الخلافات والصراعات داخل المجتمع العربي حول الماضي والحاضر والمستقبل، يجب أن تُحَلّ عن طريق الحوار والتصادق والكلمة السواء والاحتكام للشعب وللعقل وللعلم وللتراث الإيجابي المجيد... باختصار شديد، ندعو لتصحيح هذه المعادلة المقلوبة الآن في الوطن العربي، والمتمثلة بإدارة كافة الخلافات والصراعات الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية والاقتصادية بالعنف العنيف داخل المجتمع العربي، باستخدام كافة الأسلحة المتاحة، بأيدي القوى المتصارعة والمختلفة، وكأنه لا تجمعها لغة مشتركة ولا تاريخ مشترك، وفي الوقت ذاته إدارة الظهر للعدو الصهيوني يفتك بشعبنا ذبحاً وتقتيلاً وتهجيراً، وإدارة الظهر للإمبريالية الدولية تنهب الثروات، وتتحكم بالحكام، وتقيم قواعد العدوان على أرض الأمة، ثم استجداء ما يسمونه (السلام) بعد إراقة الدم والكرامة والشهامة والمروءة.. إن هذه المعادلة المقلوبة آن لها أن تجد من "يعدلها" على لهجة إخواننا في مصر.. أن يعيدها إلى وضعها الطبيعي، وأن نتعاقد على اعتماد الوسائل الديمقراطية، والارتقاء بالحوار، والاحتكام إلى الرأي العام وإلى صندوق الانتخابات في إدارة شؤوننا، وحل كافة القضايا الداخلية بالحوار، ووضع القضايا الخلافية على الطاولة بدون مواربة ولا زيف ولا تكاذب، نعمل فيها الرأي والعقل والمشورة، ولا نتركها تتعفن في عقولنا، شائعات، وأكاذيب، وبدع مدسوسة... هل في هذه الدعوة ما يضير..؟! ألا تستحق أن يدافع عنها المدافعون، وهل في الدفاع عنها جرم ما..؟! وهل تمّ اعتقالي

كي لا أقول في هؤلاء الرجال، الرجال، الذين تنادوا للحوار والنقاش وفتح صفحة جديدة من الحوار بلا عند ولا أحقاد.. كلمة حق، هي بعضٌ متواضع مما يستحقون..؟! على أية حال يبقى السؤال مشروعاً: ترى،أين انقطعت تلك الشعرة التي حدثني عنها من نقل إلي التحذير مساء ذلك اليوم الحزين الذي شهد تلك الاعتقالات..؟ وهل كانت موجودة أصلاً، أم كانت مقطوعة قبل ذلك بزمن بعيد..؟

55. من مراجعة دقيقة ومتأنية لنشاطي خلال الساعات الثمانية والأربعين السابقة على اعتقالي، تبين لي أن هذا النشاط اقتصر على اجترار الأحزان، والردّ على وسائل الإعلام التي حاصرتني بالأسئلة تستوضح عن الموقف القانوني للموكلين، والتعسف الذي جرى خلال عمليات الاعتقال.. وأتساءل الآن أمامكم: هل كان يجب أن لا أجيب حتى لا أُعتقل؟ هل كان علي أن أقدم معلومات كاذبة؟ أو أن أراوغ وأنافق لتبرير عمليات الاعتقال..؟ هل كان علي أن أحنث بالقسم وأخون شرف المهنة، وأخذل شعار "الحق والعروبة"..؟ عندما قلت ذلك لأحد الأصدقاء في حينه.. قال: أفق من أحلامك.. لقد ولى عصر الشعارات... أجبته: لا لم يولِّ، نحن الذين ولّينا الأدبار هرباً من كل ما هو حقيقي وإنساني وقومي.. وقد آن الأوان أن نعود إلى الساحة... المهم، هل تمّ اعتقالي كي أُحرَم من شرف الدفاع عن هؤلاء الرجال، الرجال...؟!

56. إن هذه المسألة بالغة الأهمية، وهي عندي فوق كل اعتبار، ذلك أنه مع بداية عمليات الاعتقال الأخيرة كنت أدرك المخاطر الناجمة عن أن قوى معينة في وطننا لا يروق لها ما يجري من حوار مفتوح في المنتديات، ولا يروق لها تصعيد المطالب لتحقيق الحريات العامة والديمقراطية والتعددية السياسية.. وأنها ستحارب هذه الظاهرة بكل ما تملك دفاعاً عن مواقعها، لإجهاضها والقضاء عليها.. وبالتالي فإنني مع بداية حملة الاعتقالات وتواتر الأخبار بأن المعتقلين يصرون على أن أكون وكيلاً للدفاع عنهم، فإنني وجدت نفسي أمام واحد من هذه الاحتمالات:

ا- أن أعتذر عن التوكيل عنهم دفعاً للمخاطر عن شخصي الضعيف والمحاصر أصلاً.

2- أن أقبل التوكيل، لكن مع مراعاة "الخطوط الحمراء" التي يتحدثون عنها بحيث ترضى كل الأطراف، أي أن أقف موقفاً وسطاً بين السجان والضحية.

3- أن أتبرع متطوعاً لتبنّي قضية المعتقلين، والجهر بما أعتقد أنه الحق، وأن تكون قضيتهم هي قضيتي، وتحمل كل ما يترتب على هذا الموقف من نتائج.

57. قلت أنني كنت أمام ثلاثة احتمالات، ولم أقل خيارات، ذلك أنني، وفي حقيقة الأمر، كنت قد حددت خياراتي قبل الاعتقالات بزمن طويل.. فهؤلاء، بما يتعلق بموضوع الحريات العامة والديمقراطية حصراً، هم أنا، بالضبط أنا، وهذه قضيتي.. وهذه مسألة محسومة للنقاش، وليست خاضعة للنقاش، ولا لوجهات النظر.. وبالتالي فإنني تصديت لتحمل الأعباء كاملة، بما يمليه علي الواجب والضمير المهني والوطني.. وكنت أعرف منذ اللحظة الأولى أنني في سباق مع الزمن، وكان السؤال الذي يتحداني في كل لحظة، حتى لحظة اعتقالي: هل سأتمكن من قول كلمتي بما يجري، أم سأُحرم من ذلك..؟ وعندما كانت وسائل الإعلام تتصل بي لتستوضح عما يجري، فإنني كنت أحاول قدر الإمكان أن أضبط أعصابي، وأتصنّع الهدوء، وأدعو إلى التعقل، وأن الاعتقالات لا تحلّ المشكلة، وإنما تعقدها.. كنت أريد أن أصل إلى ساحة القضاء كي أقول كلمتي الحاسمة... لكنني رغم ذلك لم أصل للأسف..! المهم، أنني لم أتردد بنقل الصورة بموضوعية، دون تزييف.. لا تهوين.. ولا تهويل... ومرة أخرى كنت أمام أكثر من احتمال:

– **الأول:** أن أمتنع عن الردّ على الأسئلة التي توجهها وسائل الإعلام عن الوضع القانوني للموكلين، وبالتالي أترك لوسائل الإعلام هذه أن تقول وتحلل بأن المحامي في سورية لا يجرؤ على الكلام عن الوضع القانوني لموكليه، وبالتالي أتركها تتساءل: كيف إذن سيجرؤ على الدفاع عنهم..؟

– **الثاني:** أن أقوم بتزييف ما يجري، فأقوم بتوصيف الاعتقالات التعسفية بأنها توقيف قانوني، وأصف الإجراءات الباطلة بأنها إجراءات قانونية، وأكتفي بمحاولات التبرير وأطلب الشفقة والرحمة بالمعتقلين...

– **الثالث:** أن أقول الحقيقة كما هي، كما هي بالضبط، لا زيادة ولا نقصان، وأن أتحفظ على الإجراءات، وأطالب بالإفراج عن المعتقلين، والعودة عن الإجراءات التعسفية الباطلة...

58. ومرة أخرى، لم أكن أمام خيارات فقد اخترت الطريق الثالث دون تردد لأنني اعتقدت، ومازلت، أن اللجوء إلى أحد الاحتمالين الأول أو الثاني يشكل جرماً حقيقياً يسئ لسمعة البلاد، ويسئ لمؤسسة العدالة، إضافة إلى، وقبل، أن يسئ إليّ شخصياً... فهل هذا الموقف هو الذي قطع الشعرة، وبالتالي أدّى إلى اعتقالي، علماً أنني لم أبادر للاتصال بأية جهة إعلامية، وإنما تلك الجهات الإعلامية هي التي بادرت للاتصال عن طريق مكاتبها المعتمدة رسمياً في سورية...؟!

إذا كان ذلك كذلك، فهل يمكن تحت أي اعتبار أن يُنسب إلي جرم ما..؟! ولهذا السبب بالذات، وهو المتعلق بما قلته لوسائل الإعلام..؟!

أنا شخصياً أميل إلى عدم التصديق أن هذا هو السبب الجوهري وراء اعتقالي، وإن كنت أميل إلى أنه ربما قد يكون سبباً من الأسباب... لكن من الناحية القانونية، هذا سبب متهافت لا يمكن الاستناد إليه قانوناً... فدعونا إذن نتابع ملاحقة الأشباح علنا نصل إليهم، وإلى سبب أكثر إقناعاً.

59. سأعود قليلاً إلى الوراء، فبعد أن بدأ منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي ممارسة نشاطه، قررنا في الهيئة التأسيسية للمنتدى حصر العلاقة بين المنتدى وأجهزة الدولة، بما في ذلك الأجهزة الأمنية، بأحد الأخوة أعضاء الهيئة، نظراً للظروف الدقيقة التي تمرّ فيها البلاد، ولحساسية الموقف، وتفادياً لأي خطأ أو سوء فهم.. لكنني فوجئت بهاتف يدعوني بإلحاح، لكن بلطف شديد، لشرب فنجان من القهوة، فأجبت: هل الموضوع يتعلق بمنتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي؟ وكان الرد بالإيجاب.. فقلت: إن المنتدى قام بتسمية الأخ /فلان/ ليكون صلة الوصل بين المنتدى وبينكم، وهذا رقم هاتفه، وعلى كل حال، سأقوم بالاتصال به لإبلاغه ضرورة الحضور لمراجعتكم، أما أنا فإنني غير مخول، ليس لي صفة للحديث معكم، ثم أن تنظيم العلاقة بهذه الطريقة يزيل أسباب سوء الفهم بين المنتدى وبينكم، ويحدد المسؤوليات... لكن الإلحاح تواصل، كما تواصل إصراري على هذا الموقف من جانبي، والحقيقة أنه لم يكن وراء موقفي أي دافع بالتحدي – لا سمح الله – وإنما كان الدافع فقط هو تنظيم عمل المنتدى، وتوزيع المسؤوليات، بحيث تنتظم العلاقة بين المنتدى وبين كافة الجهات تفادياً لأية أخطاء... ثم وفي فترة لاحقة، أعيد الاتصال أكثر من مرة، واستمر إصراري على الموقف، ثم تلقيت اتصالاً صريحاً يطلب إلي وقف نشاط المنتدى في الحال، فأجبت أن هذا فوق طاقتي، ذلك لأنني لا يمكن أن أغلق هذا المنتدى بيدي.. قال: ما هو الحل؟ قلت: أن تغلقوه بالقوة، أرسلوا دورياتكم وامنعوا رواد المنتدى من الحضور.. قال: هذا يثير "شوشره".. قلت: لا تغلقوه إذن...

60. ثم، وبعد ذلك تمّ إبلاغي أن السيد رئيس مكتب الأمن القومي لدى القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي يدعوني للقاء به.. فسألت: هل الموضوع يتعلق بالمنتدى، وكان الجواب بالإيجاب، فاعتذرت لذات الأسباب، قال لي الذي حمل الدعوة، الداعي الآن ذو صفة سياسية وليس صفة أمنية، قلت: أنا ليس لي أي صفة سياسية وأنا غير مخول من المنتدى بتمثيله.. وإنني سأبلغ مندوب المنتدى لحضور هذا الاجتماع، وهكذا كان...

لقد تناهى إلى سمعي بعد ذلك، أن تلك الجهات امتعضت من موقفي: ومن يكون هذا.. الكذا.. كذا.. الذي لا يهرول لتلبية مثل هذه الدعوة... وأنا هنا، وبعد مرور كل هذا الوقت، لا أريد الاعتذار عن هذا الموقف، أريد حقيقة أن أؤكده، لكن في الوقت ذاته أريد التأكيد أنني لم أتخذ هذا الموقف من باب التحدي على الإطلاق، وأنني شخصياً يشرفني اللقاء بالجميع دون استثناء سواء كانوا مواطنين مساكين على شاكلتي، أم مسؤولين كبار.. ولكنني فقط كنت ألتزم حدودي، وحدود التفويض المخول به من الهيئة التأسيسية للمنتدى لا أكثر من ذلك، ولا أقل...

فهل كان هذا الموقف هو السبب الكامن وراء اعتقالي، أو ضمن الأسباب التي ساهمت في ذلك..؟ مرة أخرى لا أجده سبباً مقنعاً على الإطلاق، ومن باب الدعابة، أقول لكم لم أعثر على مادة في قانون العقوبات تجرّم من لا يشرب القهوة.. على أية حال لنتابع البحث علنا نعثر على سبب أكثر إقناعاً..؟

61. تلقيت اتصالاً هاتفياً من مكتب صحفي معتمد رسمياً في دمشق، يقول لي أن الصحفي الأمريكي /مارك ماثيوس/ من صحيفة /البالتيمورجين/ الأمريكية يطلب إجراء حديث صحفي معي، وعندما حاولت الاعتذار ألحّ علي، ولو بلقاء سريع لمدة دقائق، فوافقت مضطراً، وكان حديثاً ذا مغزى، فللمرة الأولى أواجه ماكينة الإعلام الأمريكية المعادية، وكان موقفي حاسماً إلى درجة كبيرة، أحسست بعدها أنني لم أقل في السياسة الأمريكية كل ما أريد قوله، لكنني أشفقت على الصحفي الذي اضطربت ألوانه وأحاسيسه، وسمع كلاماً لم يعتد عليه.. وهو ضيفي على أية حال، فشعرت بالأسف، وقلت له في نهاية اللقاء، كنت أتمنى أن تكون سياسة بلادكم مختلفة لننعم معاً بلقاء إنساني لطيف... المهم أنني بعد المقابلة بساعات قليلة تلقيت اتصالاً هاتفياً يقول بالحرف الواحد: "أنت وطني يا أستاذ حبيب"، شكرته، ولم أسأله عن السبب الذي أدّى به إلى هذا الاكتشاف.. لكنني سعدت أن الأجهزة الأمنية تتابع الأمور بدقة... وهذا هو النص الحرفي للمقابلة، فقد حرصت على تسجيلها كلمة بكلمة:

62. نص الحوار الذي أجراه السيد مارك ماثيوس، مراسل منطقة الشرق الأوسط لصحيفة البالتيمورجين التابعة للتايمز الأميركية مع السيد حبيب عيسى، الناطق الرسمي باسم منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي بدمشق، وذلك في الساعة /21/ مساء يوم الأربعاء 2001/5/3. قام بترجمة الحديث السيد جورج بغدادي من مركز الشام للصحافة.

المراسل : لقد حضرتُ إلى دمشق لتغطية زيارة قداسة البابا لدمشق، وبما أنني هنا فقد أحببت أن أستغل الفرصة كي أعرف ما هي التغييرات التي حدثت في سورية منذ أن استلم الرئيس بشار الأسد رئاسة الجمهورية، وما هو إحساس الناس هنا ؟ وأريد أن أسألك تحديداً عن منتدى جمال الأتاسي، ما هي الأهداف ؟ وماذا حصل في الأيام الأخيرة ؟

السيد حبيب : أولاً أرحب بالسيد مارك في بلادنا، وأنا كمواطن عربي يلتقي للمرة الأولى بشخصية أمريكية، أشعر بالأسف الشديد لأن حكومة دولة الولايات المتحدة الأمريكية، ومنذ فترة طويلة تقود جميع معارك العدوان على الأمة العربية.. نحن أرضنا محتلة في الجولان،

والأسلحة التي تحتل الجولان هي أسلحة أمريكية.. العراق ضُرب ويُضرَب بأسلحة أمريكية.. لقد كنت في بغداد منذ أيام، شاهدت الجريمة التي ارتكبها جيش دولة الولايات المتحدة الأمريكية.. لقد اختنقت برائحة شواء الأطفال في ملجأ العامرية ببغداد، أكثر من أربع مائة طفل.. لماذا..؟ شاهدت التشوهات على أطفال العراق. في فلسطين يُقتل أطفالنا وإخوتنا أيضاً وبأسلحة أمريكية. نحن نستغرب لماذا تقف دولة الولايات المتحدة ضد أمتنا بهذه الطريقة.. نحن لسنا بائعي نفط، نحن نصدّر حضارات.. قداسة البابا قادم إلى هنا إلى مركز الحضارة. لماذا يُضرب مركز الحضارة بهذه الوحشية. من حقنا أن نعيش وأطفالنا حياة أفضل.. إننا لا نستطيع أن نتحدث عن حقوق الإنسان قبل أن نتحدث عن حقنا في تقرير مصيرنا. إن كل المظالم التي تقع على شعوب العالم الثالث تشترك دولة الولايات المتحدة الأمريكية فيها، حتى بتفصيلات الاعتداء على حقوق كل إنسان في الوطن العربي، حتى النظم التي تعتدي على حقوق الإنسان في الوطن العربي هي من صناعة دولة الولايات المتحدة الأمريكية.. هل نموذج دولة المملكة العربية السعودية هو النموذج الديمقراطي الذي تريد أن تفرضه دولة الولايات المتحدة على العرب ؟

ضمن رؤيتنا الشاملة هذه نحاول في سورية أن نتطور وأن نصل إلى صيغة مع شعبنا، مع حكومتنا، لتحسين أوضاعنا، وإطلاق طاقات شعبنا، وتحسين الأداء للمؤسسات الأهلية في المجتمع.

أريد أولاً أن أخبرك أنني كنت بين مجموعة من المحامين أصدرنا بياناً ضد اعتداء دولة الولايات المتحدة على العراق عام 1991، وأنني كنت ضمن الجموع الشعبية التي هاجمت سفارة دولة الولايات المتحدة الأمريكية بدمشق عام 1998. إننا نرغب أن تكون دولة الولايات المتحدة الأمريكية دولة داعية لحقوق الإنسان، ومدافعة عنه، وأن لا تكون هي المعتدية عليه.

نحن هنا سنعرف كيف سنتدبر أمورنا، ونأمل أن يكفّ الملحق الثقافي في سفارة دولة الولايات المتحدة الأمريكية بدمشق عن التدخل في شؤوننا. في هذا المجال فإن منتدى جمال الأتاسي قد وُلد ضمن الحملة التي بدأت في سورية منذ حوالي عشرة أشهر لبناء مؤسسات أهلية في المجتمع. حركة كبيرة لمنتديات عديدة تأسس ضمنها منتدى جمال الأتاسي للدفاع عن الثقافة العربية، وعن حقوق الإنسان العربي، ومقاومة العدوان الصهيوني، وحق عرب فلسطين في كل فلسطين، وحق اليهود العرب في أن يعودوا إلى بيوتهم في دمشق وبغداد والرباط، وحق اليهود المرتزقة الذين استقدمهم المستعمرون من الخارج في العودة إلى البلدان التي جاءوا منها في روسيا وبولندة وأوروبا وأمريكا وسواها. باختصار شديد، حق الفلسطينيين في العودة إلى ديارهم مقابل حق اليهود بالعودة إلى ديارهم أيضاً، لا أكثر من ذلك ولا أقل.

المراسل : في العشرة أشهر الأخيرة كيف تطور منتدى جمال الأتاسي ؟

السيد حبيب : نحن مازلنا في مرحلة التأسيس. هناك حضور جماهيري لافت للمحاضرات التي يقيمها المنتدى.. يتمسك الحاضرون والمحاضرون بالثوابت الوطنية والقومية للأمة العربية. أرجو أن تعلم بدقة أن مسألة حقوق الإنسان في وطننا لا يمكن فصلها عن مسألة رفع الهيمنة الأمريكية والصهيونية عن الوطن العربي. باختصار شديد نقول : بقدر ما ترتفع الهيمنة الأمريكية الصهيونية عن الوطن العربي بقدر ما نأخذ نحن كبشر حقوقنا على الأصعدة كافة.

المراسل : منذ حوالي أيام كان من المفترض أن يُعقد اجتماع لمنتدى جمال الأتاسي لكن السلطات دعت إلى منعه، ما السبب في ذلك ؟

السيد حبيب : يوم الأحد الفائت 2001/4/29 لم يكن اللقاء لمنتدى جمال الأتاسي، كان اللقاء لمجمل المنتديات في سورية، حوالي /20/ منتدى من كل أرجاء سورية.. السلطات في سورية منعت هذا اللقاء، ربما لخطأ في إدراك طبيعته. كان الهدف من اللقاء هو أن تبحث هذه المنتديات بتقييم مرحلة الأشهر العشرة المنصرمة.. أين كان الخطأ..؟ أين كان الصواب..؟

المراسل : الخطأ من مَن ؟

السيد حبيب : من كل الأطراف. لكننا سنواصل الدعوة، وأعتقد أننا سنصل إلى صيغة لعقد هذا اللقاء في المستقبل القريب.

المراسل : هل ستشارك في هذا اللقاء ؟

السيد حبيب : نحن الذين سندعو إليه.

المراسل : ما هو عدد الحضور ؟

السيد حبيب : الدائرة المستديرة كانت ستضم حوالي /20/ منتدى، وكان هناك عدد كبير من المراقبين سيحضر.

المراسل : إذن ما هو العدد الإجمالي ؟

السيد حبيب : بين الـ 50 والـ 70 شخصية.

المراسل : هل كان هناك بيان محدد ؟

السيد حبيب : كان هناك جدول أعمال : البحث في واقع المنتديات ومستقبلها، والبحث في السبل الممكنة لتطوير الأداء.

المراسل : بالنسبة للواقع، ولمستقبل المنتديات، هل كان لديكم فكرة ستطرحونها على المنتديات ؟

السيد حبيب : كانت الفكرة الأساسية هي البحث في وضع هذه المنتديات تحت سقف القانون، وأن تتحول هذه المنتديات إلى حاضنة لحوارات جدية في سورية بين مختلف فئات شعبنا لإنتاج الحياة السياسية المناسبة لمجتمعنا.

المراسل : وضع المنتديات تحت سقف القانون، هل هذا يعني تحويل تلك المنتديات إلى أحزاب سياسية ؟

السيد حبيب : لا، هناك فرق بين المنتديات والأحزاب السياسية.

المراسل : لقد قلت أن الفكرة الأساسية هي وضع المنتديات تحت القانون لإنتاج حياة سياسية.

السيد حبيب : المنتديات تنتج حياة سياسية، وليست هي الحياة السياسية. المنتديات تبحث في أصول الثقافة والفكر، بينما الأحزاب تحمل نظريات محددة. نحن هنا في سورية نسعى لأن تكون هناك حرية أحزاب، ومنتديات، وجمعيات، وإلخ.

المراسل : إذن، أنتم لا تريدون تأسيس حزب، وإنما تسعون فقط لتنظيم موضوع المنتديات ؟

السيد حبيب : نعم.

المراسل : **بطريقة رسمية؟**

السيد حبيب : نعم.

المراسل : حتى الآن هذه المنتديات يُدعى إليها داخل البيوت، هل يمكن أن تحدث هذه اللقاءات في أماكن عامة ؟

السيد حبيب : عندما سنحصل على تراخيص قانونية سيصبح هذا ممكناً، سيكون لهذه المنتديات مقراتها ومكاتبها.

المراسل : الاجتماع الذي كان مقرراً يوم الأحد 2001/4/29، هل كان هو الأكبر، هل كان الوحيد الذي سيجمع المنتديات ؟

السيد حبيب : نعم، كان هذا اللقاء هو المحاولة الأولى لجمع هذه المنتديات، ذلك أن أحد أهداف تأسيس منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي بدمشق أن يكون واسطة تنسيق بين المنتديات.

المراسل : هل تشكّل حضرتك أي تهديد للسلطة ؟ وهل السلطة تظن أنك تشكّل تهديداً عليها ؟

السيد حبيب : عن الشق الأول من السؤال، أقول لا أظن أنني أشكّل تهديداً لأحد. عن الشق الثاني من السؤال، فلتسأل السلطة.

المراسل : من هي الجهة التي تظن أنها هي تحديداً التي منعت ذلك اللقاء، والتي تحدّ من نشاط المنتديات ؟ هل هي المخابرات ؟ هل هي القيادة السياسية ؟

السيد حبيب : لا نعرف.

المراسل : هل أنت الذي تلقيت أمر منع هذا اللقاء ؟

السيد حبيب : لقد تمّ تبليغ ممثل المنتدى لدى الجهات الرسمية بذلك.

المراسل : من مَن يتألف منتداكم ؟

السيد حبيب : مجموعة شخصيات مستقلة، وربما بعضهم ينتمون إلى أحزاب مختلفة، وينتمون إلى ثقافات وأيديولوجيات مختلفة..

المراسل : أيضاً وجهات نظر سياسية مختلفة ؟

السيد حبيب : نعم.

المراسل : ما هو البرنامج الذي يعتمده منتدى جمال الأتاسي ؟

السيد حبيب : المنتدى يهدف إلى حرية العمل السياسي، وحقوق الإنسان، وحرية الصحافة والنشر، والديمقراطية والانتخاب.. كل هذا ضمن إطار الدفاع عن الوطن في مواجهة الصهيونية، وتحرير أرضنا في الجولان، وتحرير فلسطين، ورفع الحصار عن أهلنا في العراق، والدعوة إلى الوحدة العربية.

المراسل : أنا أفهم الديمقراطية على أنها تعبير الناس عن نفسها إذا كنت مختلفاً معهم أم لا.. وأن لهم الحق أن يقولوا رأيهم سواء كنت أحبهم أم أكرههم. هل هذه نظرتك إلى الديمقراطية كما ترغب أن تحدث في سورية ؟

السيد حبيب : نعم، ولكنني على قناعة أن الشعب العربي لن ينعم بالديمقراطية طالما أن دولة إسرائيل موجودة. إن وجود دولة إسرائيل هو الذي يحرمنا حقنا في الديمقراطية والحياة الكريمة.

المراسل : بغضّ النظر عما يجري في سورية، تعتقد أن الديمقراطية لن تتحقق طالما أن إسرائيل موجودة ؟

السيد حبيب : الديمقراطية بالمفهوم الشامل الذي تحدثت به أنت، لن تتحقق ونحن تحت الاحتلال. نحن كعرب الآن نشعر أننا تحت الاحتلال.. نحن في مرحلة تحرر وطني.. شركات النفط الأمريكية ودولة إسرائيل يحتلون وطننا، ويحولوننا إلى عبيد.. ومن الصعب أن ينعم العبيد بالديمقراطية.

المراسل : شركات النفط الأمريكية ودولة إسرائيل يستعبدونكم ؟

السيد حبيب : نعم، نحن ثرواتنا منهوبة، ويجب أن نبقى تحت الضرب بكل الوسائل ليستمر ذلك النهب.

المراسل : بالنسبة للحكومة الحالية في سورية هل هي متأثرة بالسياسة الأمريكية ؟

السيد حبيب : المنطقة كلها تتعرض للعدوان الأمريكي.

المراسل : هل تعتقد أن الولايات المتحدة تعمل لإجهاض الديمقراطية في سورية ؟

السيد حبيب : نعم.

المراسل : كيف ؟

السيد حبيب : أنا كمراقب أرى أن كل أشكال العدوان، ليس على الشعب العربي فقط، وإنما على كافة شعوب العالم الثالث، وجميع الممارسات التي تمّت ضد الشعوب وحريتها وديمقراطيتها، تمّت بفعل مباشر أو غير مباشر من قِبَل الولايات المتحدة الأمريكية أو أجهزة مخابراتها.

المراسل : كيف تمارس أمريكا هذه السياسة على سورية ؟

السيد حبيب : سورية الآن في حالة حصار، أرضها محتلة، ومهددة بعدوان إسرائيلي في أي وقت.. في ظل هذه الظروف لا نستطيع أن نمارس حياتنا الطبيعية، وفي ظل الظروف الاستثنائية، تتغير الأولويات.. وعندما تتحرر أرضنا سيأخذ الحديث عن الديمقراطية مكانه البارز في مجتمعنا، وسيأخذ منحى حقيقياً. ورغم العدوان فنحن نحاول أن نستعيد حياتنا الطبيعية، وأن نمارس حريتنا وديمقراطيتنا.

المراسل : هل هذا يعني أن حرية الكلام ستزدهر ؟

السيد حبيب : نحن نحاول ذلك، ونرى أن الظروف أفضل، ونحن رغم حالة العدوان نبحث عن طريقة ما لأن نكون أكثر مقدرة على الحرية والديمقراطية.

المراسل : ماذا ستفعلون ؟

السيد حبيب : نحن ندعو إلى الحوار بين كافة الأطراف.. نتمسك بأصالتنا ووطننا وحقنا في الحياة الكريمة.

المراسل : ماذا تفعلون لتحقيق ذلك في منتداكم ؟ وما هي المواضيع التي تطرحونها ؟

السيد حبيب : نحن حتى الآن نقدم ما نراه ضرورياً لمواجهة قصف إعلامي مكثف دولي.. وللأسف فإنه قادم أيضاً من بلادكم.

المراسل : أنا أفهم وجهة نظرك تجاه الولايات المتحدة الأمريكية، لكن سؤالي : ك يف ستتابعون عملكم لتحقيق أهدافكم بعقد اجتماع للمنتديات بسورية، ذلك الاجتماع الذي رفضته السلطات ؟

السيد حبيب : نحن لدينا برنامج.. سندعو لهذا اللقاء مرة أخرى، سنحدد له موعداً، ونرجو أن تكون الظروف قد أصبحت أفضل لعقده.

المراسل : هل يا ترى هناك حوار بين المنتديات والسلطات ؟

السيد حبيب : نحن لا نعرف ما تقوم به المنتديات الأخرى، لكننا نحاول أن نكون على علاقة بجميع المنتديات.. وأعتقد أن الحوارات مستمرة بين كل الأطراف، بما في ذلك الحوار بين المنتديات والدولة للوصول إلى صيغة ما للتعامل الإيجابي.

المراسل : وهل تعتقد أن المنتديات الفردية ستستطيع العمل بمفردها ؟

السيد حبيب : المستقبل مفتوح لكافة الاحتمالات.

المراسل : هل سيواصل منتداكم القيام بنشاطاته ؟

السيد حبيب : نعم، يوم الأحد القادم 2001/5/6 سنقيم ندوة عن القضية الفلسطينية، وسيتحدث في هذه الندوة د. نديم البيطار وهو أستاذ في جامعات أمريكا، وكذلك الأستاذ رجا ديب ووليد المبيض، وستجري حوارات مفتوحة حول ذلك.

المراسل : هل ترى أنه في سورية تقدم أكثر نحو الديمقراطية.. حتى الآن ؟

السيد حبيب : نعم هناك آمال.. نحن دائماً نتفاءل بحياة أفضل..

المراسل : هل لديكم توقعات معينة بشخص الرئيس بشار الأسد أنه سيعمل حريات أكثر ؟

السيد حبيب : نأمل ذلك.

المراسل : هل لديكم توقعات معينة وخابت ؟

السيد حبيب : حتى الآن مازالت الأمور مفتوحة للاحتمالات.. نحن الآن بوضع أفضل من السابق.

المراسل : كنت تتوقع الأفضل، أليس كذلك ؟

السيد حبيب : نحن نتحرك ضمن المساحة التي نرى أن الحركة فيها ممكنة، ونحاول أن نوسعها.

المراسل : قبل خمس سنوات هل كان يمكن لهذه المنتديات أن تكون قد أسست ؟

السيد حبيب : كانت الظروف صعبة.. اعتقد أنه الآن يوجد قطاعات كبيرة في الدولة والمجتمع ترى أن هناك حاجة لتطوير الحياة الثقافية والسياسية.. ونحن سنمارس هذا بمنتهى الهدوء وبالحكمة الممكنة، لأن ظروف العدوان الواقع على بلادنا لا تحتمل هزات عنيفة في المجتمع.

المراسل : يعني أنتم لستم مع ثورة من الداخل طالما هناك عدوان من الخارج ؟

السيد حبيب : نحن سنوجّه كافة طاقاتنا للدفاع عن الوطن، وضد أي عنف في الداخل.. نحن أرضنا محتلة.. ماذا كنت ستقول لو أن جزءاً من دولة الولايات المتحدة الأمريكية كان محتلاً ؟

المراسل : لكنك من الواضح أنك تسعى إلى الديمقراطية ؟

السيد حبيب : ليس أنا فقط.. شعبنا كله.

المراسل : **موضوع مختلف.. هل تعتقد أن سورية تساعد الفلسطينيين ؟**

السيد حبيب : نعم، إلى حد ما.. أنا قومي وحدوي، وبالتالي لا فرق لدي بين الجولان وفلسطين.. القدس وحيفا ويافا هم بأهمية الجولان تماماً. وأنا عن نفسي سأقاتل حتى تحرير كامل فلسطين وكامل الوطن العربي.. نحن من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي أمة واحدة، لها الحق في تقرير مصيرها.. وعندما نفعل ذلك سنقيم دولة قومية ديمقراطية حقيقية، ربما يتعلم منها العالم كله.. نحن صدرنا رسالات هامة إلى العالم، وأعتقد أن ديانتك أنت من عندنا، وأن قداسة البابا قادم إلى هنا، إلى هذا المنبع.. لو احترمتم هذا المنبع للحضارات، فسنكون في عالم أفضل.

المراسل : هل هناك بعض التغيرات في المنحى الاقتصادي ؟ ما رأيكم بالتقدم الاقتصادي ؟

السيد حبيب : نحن نأمل أن تتسرع عملية التقدم.. وسنعود إلى المسألة الأساسية.. نحن لا نستطيع أن ندخل عصر العولمة ونحن أمة مجزّأة، نحن سنكون فريسة لهذا العالم.

المراسل : هل تتكلم عن سورية أنها مجزأة ؟

السيد حبيب : لا، أنا أتكلم عن الأمة العربية المجزأة.. مصر والسودان ولبنان والأردن المغرب.. نحن بهذه الأجزاء سنكون لا شيء.. ستستمرون في أكلنا وأكل ثرواتنا.. لذلك يجب أن تكون الخطوات الاقتصادية مدروسة. نحن نبحث عن نوع من العدالة الاجتماعية في سورية، ونحن لا نثق باقتصاد السوق والرأسمالية.. الاقتصاديون في سورية يبحثون عن برامج تحقق نوعاً من التقدم، وتحافظ على خصوصياتنا الوطنية.

المراسل : إذن أنت قلق من عملية العولمة ؟

السيد حبيب : نعم. هناك أمريكيون أيضاً قلقون من العولمة.. كما حدث في سياتل مثلاً..

المراسل : أنا لم أكن قلقاً.

السيد حبيب : هذا شأنك.. نحن ديمقراطيون هنا.

المراسل : هل اجتماع المنتديات كان سيضم منتديات من مختلف أنحاء سورية ؟

السيد حبيب : نعم، وبعض ممثلي هذه المنتديات حضر إلى دمشق لأننا لم نتمكن من تبليغهم بقرار الإلغاء.

المراسل : أين يوجد منتديات هامة خارج دمشق ؟

السيد حبيب : في جميع المدن السورية توجد منتديات هامة.

المراسل : أشكرك شكراً جزيلاً.

السيد حبيب : أنا أيضاً أريد أن أرحب بك مرة أخرى في بلادنا، وأن أشكرك.. وأريد أن أخبرك أنني ترددت كثيراً قبل استقبالك.. لا أعرف لماذا تقوم دولة الولايات المتحدة الأمريكية بكل هذا العدوان على أمتنا.. نحن كبشر يمكن أن نكون أصدقاء، وأنتم الآن القوة الوحيدة في العالم.. لماذا تلوثونه بهذه الطريقة ؟ لماذا تعتدون عليه بهذا العنف ؟ أين الحكماء في دولة الولايات المتحدة الأمريكية ؟ أنتم تخطئون كثيراً هذه الأيام، مع أنفسكم أولاً. على أية حال، أتمنى لك إقامة سعيدة في سورية.. نحن نعتزّ بمحبة الناس واستضافتهم.. نحن لا نسعى إلى عداء أحد.

دمشق 2001/5/3

فهل في هذا اللقاء ما أزعج البعض..؟ دعونا نتابع البحث عن الأسباب..

63. ثم أن مكتب جريدة المجد الأردنية طلبت إجراء لقاء معي بعد الحديث الذي نشرته الجريدة عن اللقاء برئيس الجمهورية، والكلام الطيب الذي صدر عن سيادته بخصوص منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي.. فكان لقاءً شاملاً يلقي الضوء على نشاط المنتدى، وهذا هو النص الحرفي الأصلي للحوار، حيث أن جريدة المجد، لأسباب تتعلق بها، لم تنشره كاملاً:

60. حوار مع المحامي حبيب عيسى
الناطق الإعلامي الرسمي لمنتدى جما ل الأتاسي في سورية

س 1 : أريد أن أعلم منك صراحة هل أطلعتم كهيئة منتدى على محاضرة رياض الترك قبل إلقائها ...؟

ج 1 : بصراحة شديدة أقول لك أننا كهيئة منتدى لم نطلع على نص المحاضرة قبل إلقائها ولم نطلع على أي محاضرة ألقيت في المنتدى قبل أن تُلقى ، ذلك أن هيئة المنتدى تنطلق من مبدأ حق التعبير والرأي والاختلاف ، وليس من حق أحد كائناً من كان أن يمنع أحداً من إبداء رأيه مهما كان اتجاه هذا الرأي . هذا هو المبدأ العام ، أما بما يتعلق بمحاضرة الأخ المناضل رياض الترك ، فإنني لا أعتقد أن من حق أحد في بلادنا أن ينصب من نفسه رقيباً على ما يقول ، ذلك أنه دفع حوالي 18 عاماً من عمره ليس من أجل الدفاع عن حقه في التعبير ، وإنما دفاعاً عن حق المواطنين في بلدنا عموماً أن يمارسوا إنسانيتهم بالتعبير عما يجيش في صدورهم .

س 2 : لكن ألا ترى معي أن المحاضرة تجاوزت الخطوط الحمراء المتعارف عليها في سورية .....؟

ج 2 : هل تستطيع أن تحدد لي أنت أو أي أحد في سورية أين تقع هذه الخطوط الحمراء بالضبط .....؟ هل يستطيع أحد أن يخبرنا في حال وجود هذه الخطوط العربية فعلاً ... من وضعها ، واستناداً إلى أية قواعد أو معايير ....؟

يا أخي آن لنا أن نتجاوز تلك الخطوط الوهمية التي فُرضت على عقولنا وحركتنا بعوامل الخوف والتخويف والاستبداد ، هذا وطن ، وكل مواطن شريك في الحقوق والالتزامات ، وهذا الوطن الذي نحلم بأن يكون نظيفاً من كافة أشكال الخطوط وألوانها ، إنه وطن على مستوى واحد لمواطنين أسوياء ، الخطوط ليست في داخله ، الخطوط على حدوده الوطنية إن شاء البعض وعلى خطوطه القومية المتسقة مع حدود الأمة كما يقول الكثيرون وأنا منهم ، لكن أن يحمل البعض هذه الخطوط إلى قلب الوطن يقسمونه مستويات ويفصلونه على مقاسهم صعوداً أو هبوطاً ، ويجعلون من الحديث عن تصرفاتهم ، أو مجرد إبداء الرأي في أفعالهم محرمات دونها خطوط حمراء أو سوداء .... فهذا ما لا يمكن أن نقبل به أو نعترف ، نعم الثوابت الوطنية والقومية ينبغي التمسك بها والإصرار عليها ..... أنت تحضر منتدانا منذ ميلاده ..... هل لاحظت يوماً أحداً من الحاضرين أو المتداخلين أو الحضور يدعو إلى التفريط بشبر واحد من أرض الوطن ؟ هل صادفت كلمة واحدة تنتقص من الانتماء الوطني والقومي للمواطنين في بلدنا ؟ ... لم يحصل ولن يحصل ، إنني لا أقول أننا أكثر حرصاً من غيرنا على هذه الثوابت ، لكنني أقول أن كافة المواطنين في سورية سواء في هذا الحرص ...... لكن أن يصبح الاختلاف بالرأي حول طريقة الإدارة أو الحكم ، أو الاختلاف بالرأي حول مناهج تطوير البلاد وانعتاقها مما يقيد تقدمها ، أو أن مجرد ذكر شخص أياً كان ، أو مرحلة أياً كانت من المحرمات ....فهذا ما لا يمكن القبول به ..... ورغم ذلك يا أخي فنحن عبرنا أكثر من مرة عن أننا لا نذكر الماضي بهدف التجريح أو تصفية الحسابات أو الأخذ بالثأر وإنما بهدف الانعتاق من الأثر السلبي لقيود تكبل مجتمعنا وتمنعه من الحركة الإيجابية الفاعلة لمواجهة أخطار قوى معادية تتربص بنا وبأمتنا .

س 3 : هل تعرضتم في المنتدى لمضايقات بعد المحاضرة ؟

ج 3 : لا أبداً .

س 4 : كيف تقيمون ذلك ؟

ج 4 : نحن أولاً نقيم ذلك إيجابياً ، لكن مجرد طرح السؤال والأسئلة التي تلاحقني حول هذا الموضوع منذ يوم المحاضرة وحتى الآن حيث أتلقى الهواتف باستمرار للاطمئنان ..... إن هذا بحد ذاته يحمل دلالات لا تخفى عن مدى الخوف الذي يمتلك الناس .... أليس غريباً ألا يصدق المواطن في بلدنا كائناً من كان يمكن أن يعبر عن رأيه المختلف دون أن يناله الأذى الآن نرجو أن تختلف هذه النظرة ، وأن تزول هذه الصورة المشوهة تماماً عن أذهان الجميع ...... وما زال الوقت مبكراً على أية حال .

س 5 : أريد أن أسألك سؤالاً صريحاً ارجو أن أتلقى جواباً صريحاً عليه . ما رأيك أنت بمضمون محاضرة رياض الترك وتوجهاتها ......؟

ج 5 : نحن في المنتدى حاضنة للأفكار والآراء التي تطرح ولسنا منتجين لتلك الأفكار والآراء .... وبالتالي فنحن على مسافة واحدة من تلك الأفكار .... لنأخذ مثلاً الندوة الأخيرة للمنتدى التي تضمنت محاضرة المناضل رياض الترك وردود الأفعال عليها نجد أن الندوة تضمنت أربعة اتجاهات رئيسية :

1 – المحاضرة ذاتها .
2 – ردود أفعال مؤيدة لما ورد فيها وزادت عليها .
3 – ردود أفعال مناقضة لما في المحاضرة وتطرقت في نقدها والرد عليها .
4 – ردود أفعال توفيقية بين المعارضين لأفكار المحاضرة والمؤيدين لها .

نحن في المنتدى نقف على مسافة واحدة من تلك الاتجاهات ، وسننشرها كما هي دون زيادة أو نقصان ، وسنضع عليها العنوان الثابت : (إن الأفكار والآراء الواردة تعبر عن وجهة نظر أصحابها وليس عن وجهة نظر المنتدى) وأنا أعتقد أن منتدانا استحوذ على مصداقيته من مواقفه هذه ، أما إذا كنت تسأل عن رأيي الشخصي بالمحاضرة فأنت يا أخي تجري هذا اللقاء معي بصفتي ناطقاً باسم المنتدى ، لذا سأحتفظ برأي الشخصي إلى مكان آخر حتى لا يحصل أي لبس بين موقف المنتدى ، وموقفي الشخصي .

س 6 : لكن ما هو رأيك في الدعوة التي وجهها أحد البعثيين في المنتدى للتهدئة والحوار الهادئ ، وإلا فإن المنتدى سيتعرض للإغلاق .....؟

ج 6 : أولاً أنا أقدر تقديراً كبيراً هذه الدعوة وأعرف عن قرب الصديق العزيز د . كامل عمران الذي وجه هذه الدعوة ، وأعرف أنه وجهها من باب الحرص على المنتدى ، أكثر من ذلك أعرف أن البعض قد فهم هذه الدعوة فهماً خاطئاً فتصور أن الدكتور عمران يهدد بإغلاق المنتدى فحصلت بعض ردود الأفعال التي نعتذر عنها ....ونحن يا أخي قلنا أكثر من مرة أننا نسعى بكل ما نملك إلى الكلمة السواء ، وإلى التوافق على الحق والعودة عن الباطل ، وبالتالي فإننا ضد الآراء المتطرفة هجوماً كانت أو دفاعاً ..... نحن نبحث عن الموقف الوطني الموضوعي ، ونواجه الاستفزاز بالدعوة للحوار لكن علينا أن نعترف يا أخي أن الأمور لا تجري دائماً كما نريد ونتمنى ، ذلك أن سنوات طويلة من الصمت ، سنوات طويلة من العجز عن التعبير بحرية جردت البشر في وطننا من المقدرة على الحوار نحن الآن في مرحلة إعادة تأهيل أنفسنا لممارسة هذا السلوك الإنساني الراقي الذي أسمه الحوار والذي يتمثل بالمقدرة على الاستماع للرأي المخالف حتى النهاية دون تشنج أو انفعال ، وأعتقد أن الإصرار على الحوار واتساع دوائره هو السبيل الوحيد لذلك ، وصدقني أنني أحلم أن تتسع دائرة الحوار في منتدى جمال الأتاسي لتصل إلى حدود الوطن شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ...وعلينا أن نعترف أن هناك من يعتبر الرأي الآخر ممنوعاً إلى درجة التحريم وهناك من يعتقد أنه يمتلك الحقيقة المطلقة والحق المطلق ، وأن من يخالفه الرأي يستحق الرجم .... لقد آن الأوان لتجاوز هذه المرحلة ، وأن نتنادى جميعاً للكلمة السواء ، وأنت ترى يا أخي رغم حساسية الموضوع ، فإن الرأي الغالب في النهاية كان الدعوة للمصالحة وللحوار والتعاون لإيجاد مسالك مشتركة للتقدم بالوطن وبمواطنيه باتجاه العدالة والمساواة والتحرر والمقاومة .

س 7 : لاحظنا أنك أعلنت بابتهاج واضح عودة منتدى الحوار الوطني بمنزل النائب رياض سيف ، فما هي دوافعك إلى ذلك ؟

ج 7 : إن هذا يتفق مع الثوابت التي أعلنا أننا نتمسك بها منذ اللحظة الأولى لميلاد منتدانا، لقد أعلنا أننا جزء لا يتجزأ من الحراك الاجتماعي والثقافي والسياسي في بلادنا ، ومع إعادة الحيوية والفعالية لمجتمعنا عبر المؤسسات والمنتديات ، وعندما تم التضييق على المنتديات ، أعلنا بوضوح أننا نتضامن مع هذه المنديات ، وأن زهرة لا تصنع ربيعاً ، وأننا لسنا بديلاً عن أحد ووصل هذا التضامن إلى حد دعوة المنتديات في بلادنا كلها للتضامن فيما بين بعضها البعض ، وفتحنا أبواب منتدانا للجميع دون استثناء وقد تمكنا بالفعل بفضل الاحتضان الدافئ من قبل رواد منتدانا أن نصمد مكاننا ، وقلنا أننا سنبقى في مكاننا إلى أن يعود الجميع إلى أماكنهم وكان من الطبيعي بعد كل هذا وفي سياقه العام أن نرحب بعودة منتدى الحوار الوطني في منزل الصديق العزيز النائب رياض سيف كما رحبنا بعودة منتدى حقوق الإنسان في منزل الصديق المحامي خليل معتوق ، وكذلك ترحيبنا باستئناف منتدى عبد الرحمن الكواكبي نشاطه في حلب وكذلك المنتدى الوطني في حمص، كما كان من الطبيعي أن نحيي المنتديات التي استمرت مثل منتدى الحضارة في منزل الأستاذ عمر أبو زلام عافاه الله وشفاه ، وكذلك منتدى اليسار في جرمانا وإلى آخر ما هنالك ..... كما كان من الطبيعي أن نرحب بميلاد جمعية حقوق الإنسان في سورية وبرئيسها الذي كان حاضراً المنتدى الصديق العزيز المحامي هيثم المالح .

نحن يا أخي لا نشعر تجاه الجمعيات الأخرى بشعور التنافس ، وإنما نشعر تجاهها بمشاعر التكامل والإخاء ووحدة الهدف المتمثل باستعادة هذه الحيوية الإنسانية الإيجابية التي يتمتع بها شعبنا وبالتالي فإننا نسعد بميلاد أي جمعية أو منتدى لأي سبب كان ، فبهذا وبهذا فقط يقوى مجتمعنا وبهذا يتحصن لمواجهة كافة الأخطار .

س 8 : دعنا نعود إلى البدايات ، كان السيد رئيس الجمهورية قد أشار إلى استثناء منتداكم من إجراءات تنظيم المنتديات وقد تكرر موقف سيادته الإيجابي من منتداكم بحديثه للصحف الفرنسية إبان زيارته لباريس ... فلماذا هذا الاستثناء بنظركم ، وأين أصبحت قصة إشهار المنتدى ؟

ج 8 : نحن في منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي نقدر الموقف الإيجابي الذي ورد على لسان رئيس الجمهورية من منتدانا الثقافي ، ولا شك أن لدى سيادته الأسباب الحقيقية التي بنى عليها هذا الموقف الإيجابي من المنتدى . وأعتقد أنه ليس من حقنا أن نتحدث عنها ، لكننا في الوقت ذاته كنا نأمل أن يشمل هذا الموقف الإيجابي كافة المنتديات في بلدنا على مختلف أشكالها وتوجهاتها ذلك أن منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي قد أعلن ومنذ لحظة ميلاده أنه يعتبر نفسه جزءاً لا يتجزأ من هذا الحراك الثقافي والسياسي والاجتماعي الذي شهدته بلادنا في الآونة الأخيرة ، وأنه لم ولن يتمكن من تأدية دوره الإيجابي إلا ضمن هذا الحراك وهذا التنوع لإعادة إنتاج حياة ثقافية واجتماعية وسياسية حقيقية . و نحن حقيقة ومن باب التفاؤل بالمستقبل لم ننظر إلى موقف السيد رئيس الجمهورية من منتدانا على أنه استثناء ، كما لا نعتقد أنه كان يقصد التعبير عن موقف سلبي من المنتديات الأخرى في بلدنا ، وإنما كان القصد يتعلق بإجراءات مؤقتة نرجو أن تزول أسبابها – إن كان لها أسباب – وأن تعود ساحات الحوار للانطلاق بكامل طاقتها .. وهاهي المنتديات تعود إلى ممارسة نشاطها الواحد تلو الآخر وهذا بحد ذاته يدعو للتفاؤل ، أما فيما يتعلق بإشهار منتدانا فإن مؤسسات الدولة مازالت أسيرة الظروف السابقة للأسف الشديد فهي إما عاجزة عن القيام بدورها وإما ممنوع عليها القيام بهذا الدور ، ونحن نعتقد أن بقاء مؤسسات الدولة على هذه الحال يعني أن عجلة الإصلاح لن تتقدم خطوة واحدة للأمام ليس على صعيد المنتديات وحسب وإنما على الصعد كافة ، ولهذا فإن قضية إشهار منتدانا مازالت معلقة بدون حل .

نقول هذا أولاً ، من زاوية رؤيا تشمل الوطن بمواطنيه وحكامه ، ونعتقد أننا أشد ما نكون حاجة إلى الكلمة السواء التي لا يمكن أن نصل إليها إلا بالحوار والتصادق ونعتقد أن شعبنا أثبت أنه شعب راشد جدير بتحمل المسؤولية في أحلك الظروف ، ونعتقد أن مناخ الحوار هو المناخ الوحيد الذي يحصن مجتمعنا وشعبنا في مواجهة أخطار لا تخفى على أحد .

ونقوله ثانياً لنحذر من المنافقين الذين لم يرق لهم أن تتطور حالة الحراك الاجتماعي والثقافي والسياسي لأنهم ولسنوات طويلة امتهنوا النفاق صناعة للتعيش على حساب الشعب ، وإشاعة أجواء الفساد والخوف والتخويف ، أنهم وعبر التاريخ فتكوا بالنظم التي نافقوها أكثر من الفتك بالشعوب .

إن تلك الكائنات الفتاكة بمجتمعنا لا تعيش إلا في الظلام ولا تنمو إلا بممارسة العنف على المجتمع ، لذلك فقد استفزتها أجواء الحوار والحرية التي بدأت ترتقي من خلال التفاعل البناء بين أفكار كانت لسنوات طويلة حبيسة ذوات أصحابها .

أنت يا أخي عاصرت حركة منتدانا ورافقتها وكذلك كنت شاهداً على حركة كثير من المنتديات ... ألم تلاحظ كيف كان الحوار يرتقي بالناس وبالمتحاورين ألم تلاحظ كيف كانت الأفكار المتشددة من البعض بمواجهة البعض الآخر كانت تنحسر من ندوة إلى أخرى لتتسع دائرة الذين يتداعون إلى الوفاق والاتفاق .

ألم يكن من الواجب أن يتم التعامل بالكثير من الإيجابية مع العديد من المحاورين الذين قضوا سنوات طويلة في السجون والذين لم يحضروا إلى ساحات الحوار طلباً للثأر ولا لتصفية الحسابات ، وإنما كانوا دعاة حوار .. ومصالحة وطنية واسعة ؟؟

هل يمكن أن تواجه هذه الحالات الإنسانية السامية ، أو تلك الحوارات الهادئة الهادفة بتلك الإجراءات المبالغ فيها ؟؟

من أول إغلاق بعض المنتديات إلى آخر التضييق على طرح أفكار واجتهادات لتطوير الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية .

يقولون أن هناك من أخطأ ، يقولون أن هناك من يدعو إلى التغيير والتجديد والتصويب والهجوم على ممارسات وظروف وأوضاع سادت لفترة طويلة ...

طيب ..... لماذا الدعوة إلى التغيير والتجديد إذا كان كل شيء على ما يرام ...؟

نحن لا نعتقد أن كل شيء على ما يرام ، وبالتالي فإن الدعوة إلى التغيير والتجديد مشروعة .

لقد تعاقبت أجيال من شعبنا على الحياة في ظروف استثنائية وممارسات استثنائية وطوارئ وقوانين عرفية حتى أن هذه الأجيال لم تذق طعم الحياة الطبيعية فلنفترض أن هناك ظروفاً فرضت كل هذا .... لكن هل يعقل أن تستمر الممارسات الاستثنائية بعد انقضاء ظروفها ....؟

نحن يا أخي دعاة حوار هادئ وهادف بعيداً عن التشنج والتعجل والانفعال ونحن على ثقة أن القوى الخيرة في مجتمعنا من كافة الأطراف ستتوصل عن طريق الحوار والجدل الاجتماعي البناء إلى حلول لكافة المشكلات التي يعاني منها شعبنا والوصول إلى صيغ قانونية يحتكم الجميع إليها وتحكمهم جميعاً في نهاية المطاف .

لهذا كله نأمل أن إجراءات التضييق على المنتديات والجمعيات ذات النفع العام والشخصيات الثقافية والعامة كانت مؤقتة وأن تزول لنعود جميعاً إلى الحوار والاحتكام إلى المنطق فالأفكار الصحيحة يمكن أن تواجه وتنتصر على الأفكار الخاطئة بينما العنف والتضييق والتخويف ينمي الأفكار الخاطئة ويحولها إلى خطيئة كبرى ، ويحاصر الأفكار الصحيحة ويعطل فاعليتها .

س 9 : ما الأهداف الأساسية لمنتداكم ؟ وهل تعتقد أنكم تسيرون على الطريق الصحيح لتحقيق هذه الأهداف ....؟؟

ج 9 : عن الشق الأول من السؤال أقول أن الأهداف الأساسية لمنتدانا بصيغتها النهائية ما زالت قيد الصياغة النهائية ذلك أننا نتعلم من الحوار الإيجابي الذي يجري داخل المنتدى لكن من حيث المبدأ فإن أحد أهم أهداف المنتدى هو الغوص عميقاً إلى جذور مجتمعنا ثم الصعود خطوة خطوة إلى أن يورق ويزهر ويثمر ، فنحن متيقنون من أننا ربما اقتربنا من نهاية الليل الطويل الذي ظلل أمتنا لسنوات طويلة وأن مرحلة المخاض الراهنة ستفرز الأصيل والعظيم على كافة الصعد الفكرية والثقافية و الحضارية والإنسانية ونحن نطمح حقيقة أن يكون منتدانا حاضنة نموذجية لحوار إيجابي ، ومراجعة إيجابية ، وبالتالي يسهم بإنجاز إيجابي للمستقبل العربي ، وهذا يعني أن منتدانا سيحتضن ثقافة المقاومة لكل أشكال التخريب والتغريب والتصهين والأمركة كما سيدفع باتجاه المراجعة والتأصيل والتأسيس والتحصين لثقافة الأمة وهويتها ورسالتها .

وهكذا فإن أهدافنا متداخلة شاملة ما هو وطني وما هو قومي وما هو إنساني ، وأعتقد أن قدر هذه الأمة هو أنها لا يمكن أن تنهض إلا برؤيا شاملة وبالتالي فإن مواجهة الطغيان الأمريكي الصهيوني يتلاقى تماماً مع جوهر الرسالات الحضارية التي حملتها الأمة العربية عبر تاريخها ، إنه الدور الذي جاب العالم وأعتقد أنه عاد ليستقر هنا مرة أخرى .... نرى بذوره في حركة المخاض القومي والوطني التي تلف الوطن العربي والأمة العربية .

ونحن نرى أن الوحدة العربية حاجة ضرورية الآن أكثر من أي وقت مضى لتدخل أمتنا عصر العولمة كقوة فاعلة ومؤثرة ، ومواجهة سياسة التفتيت مهمة أساسية من مهام المنتدى .

ونحن نرى أن تحرير الجولان يتم بالتوازي مع تحرير فلسطين – كل فلسطين – فبقاء الصهيونية في فلسطين أو على جزء منها يعني أن وطن العرب بأسره مازال تحت الهيمنة الأمريكية الصهيونية ، لقد تدحرجت مشكلة فلسطين من مشكلة قومية تخص الأمة العربية بأسرها إلى مشكلة تخص جزءاً من شعب فلسطين ، إن على الأمة العربية أن تستعيد فلسطين وتتبنى مفهوماً إستراتيجياً واضحاً لقضية الصراع العربي الصهيوني ومستقبل هذا الصراع ...... الذي يبحثون عن خاتمة له ونبحث عن بداية قومية تحرر فلسطين والأمة كلها وستبقى فلسطين عربية ، إن حررناها بات تحرير الأمة ممكناً ، وإذا استسلمنا للوجود الصهيوني في فلسطين بقينا جميعاً كأمة عربية تحت الاحتلال .

أما على الصعيد الداخلي فإننا نرى أن منتدانا سيكون ساحة مفتوحة للحوار وإنتاج ثقافة المقاومة والمواجهة لأفكار ومرتكزات كافة الفتن الطائفية والمذهبية والقبلية والعائلية والعشائرية والإقليمية وتأصيل المواطنية والانتماء للأمة والوطن فقد آن الأوان للمواطن في بلادنا أن يتمتع بكافة حقوقه المدنية وأن يمارس مواطنيته بجوانبها كافة حيث العمل وتكافؤ الفرص والمساواة أمام القانون و حرية التفكير وإبداء الرأي وتأسيس الأحزاب والمنتديات والجمعيات ذات النفع العام وتأسيس النقابات والفصل الحقيقي بين السلطات وممارسة حقوقه الديمقراطية كافة ترشيحاً وانتخاباً وممارسة حرية الصحافة والنشر ، ورفع كافة أشكال القيود التعسفية ، وصياغة دستور واضح يلتزم به الحاكم والمحكوم . كما أن منتدانا سيكون ساحة للبحث والإعداد لصياغة حقوق المواطن العربي وحقوق الأمة العربية بمفهومها الحضاري والإنساني العظيم ..... حقها بأن تقرر مصيرها ... وحق المواطن العربي أن ينتقل بحرية في وطنه العربي .

هكذا ترى يا أخي أننا نحاول أن نجتهد وأن نرى المشهد المحلي والعربي والإنساني كما هو وكما نحلم أن يكون .

أما عن الشق الثاني من السؤال ، فإنني محاولة مني للإجابة على هذا السؤال أقول أن نفراً من أبناء الأمة من أصول سياسية مختلفة وينتمون إلى أيديولوجيات وثقافات مختلفة أيضاً قد التقوا لتأسيس هذا المنتدى ورأوا أن يحمل اسم رمز شامخ من رموز الشجاعة والشموخ وصدق الانتماء هو الدكتور المرحوم جمال الأتاسي وذلك إحساساً منهم أنهم يمكن أن يضيفوا إلى ساحة الحراك الاجتماعي والثقافي والسياسي إضافات إيجابية ... وإنطلاقاً من هذه الرؤية الشاملة فقد تم الإعلان ومنذ اللحظة الأولى لميلاد منتدانا عن دعوة لجميع المنتديات في سورية للتنسيق والتكامل والتكافل والارتقاء بالنشاط الثقافي والسعي لتحقيق الأهداف الوطنية المتفق عليها .

هكذا ترى أننا نحاول أن يكون منتدانا علامة فارقة وواسطة العقد .... هل ننجح أم لا ...؟؟؟ هذا سؤال لا يتوقف علينا فقط ...... كل ما نعرفه أننا نحاول وهذا بحد ذاته شرف عظيم نسعى إليه ونعززه باستمرار ، نعم نحن نعتقد أننا نسير بالاتجاه الصحيح لكن هل سنستطيع تحقيق أهدافنا أم لا فهذا لا يتوقف علينا وحدنا . نحن يا أخي نعمل في ظروف بالغة التعقيد وفي أجواء مشحونة وبالغة الحساسية وأنت لاشك تلاحظ كم يكون الموقف بالغ الصعوبة عندما ترتفع الأصوات وغالباً ما أحسسنا أن الموقف يكاد يفلت من بين أيدينا لكن حتى الآن وبفضل وعي جماهيرنا العظيمة نرى أن الأمور تسير من حسن إلى أحسن ... نحن يا أخي في مرحلة إعادة تأهيل أنفسنا للعمل العام من جديد وهذا يحتاج إلى وقت وصبر ومثابرة وإصرار فبقدر ما نمتلك ذلك وبقدر ما تتكاتف القوى الحية في مجتمعنا بقدر ما نقترب من تحقيق أهدافنا ...

س10 : تحدثتم عن استقلالية المنتدى فهل هو مستقل بالفعل وما نسبة التقاطع بينه وبين أحزاب القوى السياسية المعارضة في سورية ؟

ج 10 : يا أخي لماذا لا تصدقون أننا مستقلون ، وأن منتدى جمال الأتاسي هيئة اعتبارية مستقلة ...؟ يا أخي سأحلف لك : والله العظيم نحن هيئة مستقلة ، لكن من أين جاءت شبهة عدم الاستقلال ...؟ ربما تكون قد جاءت من أن المنتدى يحمل اسم المرحوم الدكتور جمال الأتاسي .

والدكتور جمال الأتاسي كان الأمين العام للاتحاد الاشتراكي العربي في سورية وكان الأمين العام للتجمع الوطني الديمقراطي لكن هذا هو الجانب السياسي من جوانب هذه الشخصية الشاملة الشامخة العامة . فالدكتور جمال الأتاسي كان قبل ذلك وبعده مفكراً وصاحب موقف ثقافي

وفلسفي وكان كاتباً ومنظراً وبهذا المعنى الثقافي الشامل فإن هذا المنتدى يتشرف أن يحمل اسمه ، ذلك أن منتدانا هو منتدى ثقافي قد ينتج مواقف سياسية ، وليس حزباً سياسياً يتبنى مواقف ثقافية ، وهكذا ترى أننا نميز تمييزا حقيقيا بين الحزب والمنتدى ، حيث لكل منهما طريق مختلف وأسلوب مختلف وغايات مختلفة فلا المنتدى يغني عن الحزب ولا الحزب يغني عن المنتدى هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن لأحزاب التجمع أدواتها ووسائل إعلامها الملتزمة بخطها السياسي بينما منتدانا مفتوح لسائر الثقافات والاتجاهات ولعلك لاحظت التنوع في الأفكار التي تطرح داخل المنتدى من أقصى اليسار فنحن لا نتبنى مواقف بعينها ولكننا ندافع عن حق الجميع في التعبير عن أفكارهم بغض النظر عن اتفاق واختلاف .

ثم أريد أن أؤكد لك أن اللجنة المشرفة على المنتدى تضم مستقلين وربما تضم من ينتمي لأحزاب داخلة بالتجمع أو بسواه لكننا جميعا نتصرف بهذه اللجنة بالصفة الشخصية لكل منا وان أحزاب التجمع الوطني الديمقراطي على الانفراد أو الاتحاد لم تحاول أن تفرض على المنتدى خطاً معيناً أو تتدخل بعمل لجنته وهذا يحسب للتجمع ولأحزابه .

أما إذا كانت الشبهة قد جاءت من عدم التدقيق بين الاستقلالية والحيادية فإننا نؤكد على الاستقلالية لكننا لسنا بأي حال من الأحوال حياديين فنحن منحازون تماماً إلى جانب شعبنا وحقوقه في الديمقراطية والحياة الكريمة ومنحازون لأمتنا وثقافتها وتراثها ونحن في خندق الدفاع عن وطن الأمة وشعبها في الميادين كافة .

وهكذا فإن مواقفنا تتقاطع وتتضامن وتتكامل مع مواقف الأحزاب والجمعيات والجماعات والشخصيات التي تتفق أو تقترب من أهداف المنتدى وتشترك معه في الأهداف الآنية والنهائية سواء كانت معارضة أم غير معارضة ونثمن عالياً كافة المواقف والأفعال والممارسات الإيجابية من قضايا أمتنا ووطننا وشعبنا ، ونقدر عالياً كل من يقف إلى جانب شعبنا في نضاله لتحرير أرضه المحتلة في الجولان وتحرير فلسطين والسعي إلى الوحدة العربية وحقه في الوقت ذاته بحياة كريمة يتمتع بها بكافة حقوقه السياسية والاجتماعية والثقافية فالعزف المنفرد لا ينتج سمفونية عظيمة...نحن نطمح أن يتكامل اللحن والأداء بين الآلات المختلفة والعازفين ، فليأخذ كل المكان الذي يستطيع من خلاله أن يعطي النغمة المناسبة في الوقت المناسب لإنتاج سيمفونية الوطن والأمة ، فقد أرهقت أسماعنا الأغاني الهابطة ، والموسيقى الساقطة .... نحن يا أخي في منتدى جمال الأتاسي ، نحاول أن نقترب من الموقف الصحيح فنقول انه ليس لدينا عقدة العداء لأحد بالمطلق ، وليس لدينا رغبة الولاء لأحد بالمطلق أيضاً ....

نحن نحتفظ بحريتنا كاملة في أن نقترب ونلتحم ونقترب من الموقف الذي يقترب من الأهداف والثوابت التي تحدثنا عنها أياً كان مصدر هذا الموقف ، وأننا سنقف موقف المقاومة والحشد والمواجهة مع المواقف التي تأخذ الاتجاه المناقض والتي تشكل اعتداء على ثوابت أمتنا وحقوق شعبنا أياً كان مصدر هذه المواقف ......

نحن حقيقة نسير على خط قريب من النضالات المطلبية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية لأحزاب التجمع الوطني الديمقراطي ولشخصيات عامة مستقلة ولأحزاب وقوى ليست ممثلة بالتجمع كما أننا في الوقت ذاته لا نتردد في التقدير عالياً لأي موقف إيجابي يصدر عن الحزب الحاكم أو الدولة باختصار شديد ليس لدينا عقدة العداء ولا عقدة الولاء .

نحن مع هذا الموقف ، ونحن ضد ذاك الموقف ، نحن مع هذا الموقف موضوعياً لهذا الشخص أو الجهة ونحن ضد موقف آخر مناقض لذات الشخص أو للجهة ذاتها ، صدقني ليس لدينا عقدة العداء حتى الموت .... ولا عقدة الموت حباً ....

إلا الوطن يا أخي ...... نموت فيه حباً ، ونقاوم الأعداء حتى الموت .

ونحن يا أخي ليس لدينا إلا الكلمة التي نحاول أن تكون إيجابية ، ونحن سنواجه كل الأسلحة بسلاح وحيد لا نملك سواه هو الدعوة للحوار ، فقد حسمنا أمرنا ، نحن ضد كل أشكال العنف على المجتمع أياً كان مصدرها ونحن ضد مواجهة العنف بالعنف ، نحن سنواجه حتى العنف ....بأيد ممدودة للحوار وسنواجه الأفكار الخاطئة بالأفكار التي نعتقد أنها صحيحة وبعقول مفتوحة للحوار .

نقول ذلك لتصحيح المعادلة المقلوبة في وطننا العربي حيث الصراع والعنف العنيف بين العرب أنفسهم ، بينما الحوار والاستكانة للعدو الصهيوني ولتصبح المعادلة من الآن وصاعداً العنف بكل أشكاله وأدواته لمواجهة العدو الصهيوني والأمريكي ، والحوار بكل أساليبه وأشكاله وطرقه لمواجهة المشكلات وبكل ألوانها داخل المجتمع العربي .

فهل تضمّن هذا الحوار ما أزعج البعض..؟ لكن دعونا نتابع البحث عن الأسباب...

65. لقد تمّ توجيه سؤالين هامين لهما مغزى خاص لدى فرع تحقيق الأمن السياسي، ولم يُدوَّنا في محضر الاستجواب، كما لم تُدوّن الأجوبة عليهما..!

السؤال الأول: يتعلق بالكلمة القصيرة التي ألقيتها بمناسبة اغتيال الصهاينة للشهيد أبو علي مصطفى في افتتاح جلسة منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي بتاريخ 2001/9/2، أي قبل اعتقالي بعشرة أيام، حيث اعتبرت أن خيارنا الاستراتيجي، احتراماً لدماء الشهداء، هو تحرير فلسطين.. كل فلسطين... ودفعاً لأي لَبس أو تأويل، أثبت هنا النص الحرفي لهذه الكلمة التأبينية القصيرة:

.66

أيها السادة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نرحّب بكم ونبدأ جلسة اليوم بالوقوف دقيقة صمت عن روح الشهيد أبو علي مصطفى وشهداء الانتفاضة العظيمة.

أيها الأخوة الأعزاء:

أن نقول أن فلسطين عربية، فإن لهذه الهوية ثمن يجب أن يُدفع، لا بحجم فلسطين، ولكن بحجم الأمة كلها. لأنهم لو تمكنوا من نزع تلك الهوية عن فلسطين.. بتنا جميعاً بلا هوية...

لهذا قلنا ونكرر أن أولئك الأطفال الذين يطلقون الحجارة، وأولئك الرجال الرجال الذين يخوضون معركة هوية الأمة في أقدس بقاعها، وتلك النسوة اللواتي يلدنَ قنابل ومتفجرات في فلسطين، أن هؤلاء جميعاً طليعة الأمة العربية للعصر القادم...

إن الحواجز بيننا وبينهم يجب أن تزول.. إن الحدود التي تحمي الصهاينة لا بدّ من تدميرها... لا بدّ أن نعلن في لحظة الحزن الشديد على الشهيد أبو علي مصطفى وشهداء الانتفاضة خيارنا الاستراتيجي الوحيد المتمثّل بتحرير فلسطين، كل فلسطين، من عصابات الصهاينة، وتحرير الأرض العربية من قواعد العدوان الأمريكية، وتحرير الأمة كلها من نظم الفساد والنهب والتبعية والتخريب والقهر.. إنه العهد للشهداء الأحياء حتى لا تذهب دماؤهم هدراً...

فهل اعتبر البعض أن هذه الكلمة تضمنت جرماً ما، وما هو..؟ هل يمكن الإفصاح عنه..؟

67. السؤال الثاني: وقد وجهه إلي أحد السادة المحققين في فرع تحقيق الأمن السياسي بالصيغة التالية، وإنني أحاول هنا أن أسترجع بالحرف ما قال لي، قال: "إذا كنت تعتقد أننا لا نعلم ماذا تعمل، ولماذا تخطط، وماذا تريد أن تفعل فأنت مخطئ.. نحن نعرف كل شيء عنك، ونعرف أنك تخطط لإنشاء حزب لليقظة العربية، وأن جميع هذه النشاطات التي تقوم بها هي غطاء لذلك.. لإخفاء أهدافك الحقيقية".. ,وأنا حقيقة لم أكن أريد أن أنفي، كنت أريد أن أشرح وجهة نظري تماماً من هذه القضية.. لكنه عندما استطرد بالأسلوب الأمني يسأل عن الأسماء، وعن علاقتي بفلان وعلان، أدركت أنه لا فائدة من الكلام... لكنني هنا، وإذا كان لهذا الموضوع أية صلة باعتقالي، فإنني أقرّ وأعترف فوراً ودون تردد، وأنا بكامل الأهلية القانونية، أنني لا أنفي هذا الهدف الذي نذرت له ما تبقى من عمري، وإنني أشعر بالتقصير لأنني لم أتمكن حتى هذه اللحظة من إنجاز ما يجب إنجازه على هذه الطريق.. ذلك أنني، وبعد التجارب المريرة التي مرّت بأمتنا ترسخت لدي قناعة تامة بأن هذه الأمة تستصرخ المناضلين الشرفاء من أبنائها للنهوض بمؤسسة قومية اعتبارية تنتهج البحث العلمي، وتتمثل التجارب السابقة على صعيد الإرهاصات والتجارب القومية العربية السابقة، لتنهض بالمهام القومية... فهل أنا بحاجة لأحدثكم عن المهام القومية..؟ المقام هنا لا يتسع للأسف.. فقط أريد أن أقول: أن هذا الموضوع يؤرقني، لكنه كما جاء في السؤال مازال حلماً يراودني، لم أتمكن من المساهمة بتحقيقه حتى الآن... وإن كنت أعلن بكل وضوح أنني لن أتردد في المساهمة فيه بقدر ما أملك وما أستطيع.. وأؤكد هنا أن هذا المطلب هو مطلب مُلحّ وضروري وأساسي لتنهض الأمة من حالة لم نعد نحتمل استمرار ترديها، ومعطيات فتنها، كما أن التهديد الشديد لهوية الأمة ووجودها يتطلب ذلك...

كل هذا لا أنكره، ولا أتنكر له، ولا أتهرب منه، ولا أدعو إليه سراً، ولا أستثني أحداً في هذه الأمة... فالجميع مدعوون للمساهمة فيه، الجميع بدون استثناء... لكن هل في هذا جرم ما..؟ ثم إن هذا كله مازال حلماً، فهل هناك عقوبة على الأحلام..؟! فليتحقق الحلم، ولينهض التنظيم القومي المؤهل تأهيلاً دقيقاً، وليتح لي أن أساهم في تحقيقه، ولو بجهد ضئيل من هذه الزنزانة... إذا حصل ذلك فإنني سأكون جاهزاً لدفع الثمن بكل رضا وقبول... لكن هذا الحلم، أيها السادة، مازال ينتظر الرجال من أبناء هذه الأمة، وتحقيقه فوق طاقة أي فرد، أو مجموعة من الأفراد.. بحجم الأمة هو.. وبعقول أبنائها وطاقاتهم الخلاقة ينهض...

هاأنذا أقرّ بالحلم، لكن لا داعي لدفع الثمن لحلم لم يتحقق بعد، وبالتالي فإنني أستبعد هذا الموضوع من أسباب اعتقالي، ولو كان استبعاداً مؤقتاً على الأقل.. إلا إذا كان الذين قرروا اعتقالي قرروا توجيه ضربة استباقية في هذا الاتجاه...

68. على أية حال فإن الدعوة لبناء التنظيم القومي لم تكن بالنسبة إلي، في أي يوم من الأيام، دعوة سرية أو تآمرية، وإنما دعوة علنية.. اعتقدت دائماً أنها دعوة مشروعة، وهي حق لكل عربي، وواجب عليه في الوقت ذاته.. ولم أكفّ عن هذه الدعوة منذ أن كان عمري /10/ سنوات عندما تخليت عن جاكيت الصوف الوحيدة التي أملكها لتذهب إلى ثوار الجزائر، وعندما ساهمت في حفر الخنادق وتنظيف الأسلحة تضامناً مع بور سعيد، وعندما لم يتوقف سيل الدموع على فلسطين والعراق وظفار واليمن، وكل وطن العرب... وكنت قد وجهت هذه الدعوة صراحة عندما ساهمت في ندوة عُقدت مؤخراً بالقاهرة عن المفكر القومي العربي الكبير د. عصمت سيف الدولة بمداخلة نُشرت في كتاب صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت بالتعاون مع معهد التنمية من أجل المستقبل بالقاهرة، وهذا هو النص الحرفي لهذه المداخلة:

69. **استراتيجية الحركة القومية العربية**

ورقة مقدمة إلى الندوة الفكرية في القاهرة

حول المفكر العربي الكبير : د . عصمت سيف الدولة التي عقدت في القاهرة في الفترة 28-2000/3/30

- دمشق : 10/ 2/ 2000

- **حبيب عيسى**

<u>عَودٌ على بدء . . . في رحاب الشيخ الرائد :</u>

أيها الأخوة :

- في تموز (يوليو) 1974 أراد أحدهم أن يتحدث عن الحركة العربية الواحدة وفي 12 آب (أغسطس) من العام ذاته 1974أوقد أبو ذر ناره رغم حرارة آب (أغسطس) واستل سفوده يشوي الحديث ويقلبه على نار هادئة .

- قال أبو ذر للمتحدث في حينه : " إنني أحاول أن أكون هادئاً فيما مسست به موضوعاً لو تحاور فيه اثنان على قبري لهبت عظامي تشترك في الحوار " .

- كان أبو ذر هنا هو عصمت سيف الدولة الذي استعار اسم الصحابي الجليل الذي عاش وحيداً ومات وحيداً .

- قال أبو ذر الغفاري مفسراً وحدته : " ما زال بي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يُبق لي قول الحقيقة صديقاً " .

- قال عصمت سيف الدولة مواسياً شيخه وهو يستعير اسمه في القرن العشرين : " لا عليك أبا ذر ، كنت بغير صديق ، الآن أنت قدوة ، ألسنا نعود إليك بعد مئات من السنين نستمد شجاعة قول الحق المر من الانتساب لاسمك " .
- الآن نستعير ما قاله شيخنا إلى شيخه فنقول : لا عليك عصمت سيف الدولة ، رحلت قبل أن يتحقق الحلم ، الآن أنت قدوة ، و الحلم ما زال مشرعاً ، نقول ذلك بعد سنين قليلة من رحيلك ، نستمد شجاعة قول الحق المر من الانتساب إلى نهجك الصارم والشجاع .
- اليوم وفي هذه القاعة تتحقق الخطوة الأولى إلى الحلم . . . ها هم نفر من الذين عرفتهم وعرفوك ، ومن الذين عرفوك ولم تعرفهم يبحثون في الموضوع الذي حلمت . . . علهم يتجاوزون الحديث عن الأمة إلى ممارسة النضال لإنقاذها . . . علهم يتجاوزون مرحلة إطلاق الأفكار إلى مرحلة تمثلها سلوكاً وحركة . . . فيتجاوزون مرحلة العجز إلى رحابة الإقدام والاقتحام ، ويتجاوزون مرحلة الانفعال إلى المجالات الرحبة للفعل الإيجابي الجاد ، ويضعون حداً لمأساة أبي ذر التي تحدثت عنها عندما قلت :
" يؤمن أبو ذر إيماناً مطلقاً بأن (الاكتفاء) بالحديث عن الحرية والوحدة والاشتراكية والثورة العربية وفلسطين المغتصبة . . . الخ ، قد أصبح عاراً وضراراً ، وبأنه سقطت قيمة الكلمات إذ انتهكت مضامينها واهترأت ألفاظها .
فالحرية عبودية والوحدة انفصال ، والاشتراكية استغلال ، والثورة العربية استرخاء على صفحات المجلات في حفل من المبارزات الكلامية ، وفلسطين المغتصبة قد حملت سفاحاً ووضعت خيانة . . . "
- فهل نضع حداً لهذه المأساة . . . ؟
- وهل نكون كما يجب أن نكون . . . ؟
- هل نجيب عن السؤال التحريضي الذي كان بعضنا يعتبره استفزازياً عندما كان بعضنا يخطئ أمامك ويقول " نحن " . . فتواجهه بالسؤال الصعب : مين أنتم ؟
لم تكن تستنكر هذه النحن . . . وإنما كنت رحمك الله تحرضنا لامتلاك الشروط الذاتية والموضوعية للجماعة المنظمة الفاعلة . . . تحرضنا لنجعل من أنفسنا شخصية اعتبارية تحمل هوية أمة ، وعنفوان أمة ، وكرامة أمة ، ومرؤة أمة لا تستحق كل هذا الهوان . . وإنما تستحق أن تحيا بما تملك وما تختزن من تراكمات حضارية بالغة الثراء .
نحن نجتمع اليوم بعيون مفتوحة وعقول يقظة لنجيب عن السؤال من نحن . . . ؟ وأن يحدث هذا في رحاب ذكراك العطرة فهذا يمنحنا الثقة بجدية ومصداقية تستدعيها ظروف الأمة ، وتفرضها رعاية عقائديتك الصارمة .
على هذا ، وبناء عليه سنبحث إستراتيجية الحركة القومية في ثلاثة محاور رئيسية :

المحور الأول : حال الأمة

1 – على صعيد المشهد الدولي .
2 – على صعيد قوى الهيمنة المحلية .
3 – على صعيد البنى السياسية للأمة .
4 – على صعيد الحركات القومية .
5 – على صعيد البنى الفكرية .

المحور الثاني : المنطلقات

1 – على صعيد المشهد الدولي .
2 – على صعيد الأمة .
3 – على صعيد بناء القوى السياسية للأمة .
4 – على صعيد بناء التنظيم القومي .
5 – على صعيد التحالفات .

المحور الثالث : الغايات الإستراتيجية

1 – على صعيد المشهد الدولي .
2 – على صعيد الأمة .
3 – على صعيد الدولة القومية .

(1)
المحور الأول : حال الأمة

1 – على صعيد المشهد الدولي : تطور مفهوم الحلف المقدس إلى الحلف الأوروبي في أواخر القرن التاسع عشر ، ثم تطور إلى عصبة الأمم المتحدة في الربع الأول من القرن العشرين ، ثم إلى هيئة الأمم المتحدة في النصف الأول من القرن العشرين ، ثم إلى النظام الثنائي القطب ، ثم إلى القطب الأمريكي الوحيد . . . لقد تأسس هذا النظام الذي يسمونه (نظاماً دولياً) على مبدأ تنظيم سيطرة الأوربيين على العالم والانتقال بالأوربيين من الصراع على موارد أوربا وأمريكا الشمالية – التي أباد الأوربيون أهلها الأصليين – إلى مرحلة الصراع على موارد العالم ، وقد عبرت تلك الأجهزة والمنظمات من الحلف المقدس وحتى هيئة الأمم عن مراكز القوى وتطورها وتمركزها . . . وكان هذا كله تتويجاً للقرون الخمسة الأخيرة من الألفية الثانية حيث جاب قراصنة أوروبا العالم ، وصاغوا من أعراف القراصنة ما أسموه قانوناً دولياً ، وأنشئوا هيئات أسموها دولية ، وهي في حقيقة الأمر هيئات تنظم عمليات نهب العالم والسيطرة عليه .
لقد كان نصيب الوطن العربي من ذلك كله وصاية وانتداباً وحماية واستعماراً وقواعد واحتلالاً ومن ثم عدواناً مستمراً حتى الآن (بالدول) على الوطن العربي والأمة العربية من أول دولة الصهاينة إلى آخر الدول العدوانية المنتشرة بين المحيط والخليج حيث تفتك أجهزتها بالأمة والوطن ، وتخضع الثروات العربية والمادية البشرية للنهب المستمر والمنظم و المزدوج لصالح قوى الهيمنة الدولية ولصالح قوى الهيمنة المحلية .

2 – على صعيد قوى الهيمنة الداخلية : لقد احتاج النظام الإقليمي – الذي أقامته قوى الهيمنة الدولية عدواناً على الأمة – إلى النصف الأول من القرن العشرين لتثبيت حدود تفتيت وطن الأمة وشعبها وإنشاء دولة الصهاينة ، واحتاج هذا النظام الإقليمي إلى النصف الثاني من القرن العشرين لبناء مؤسسات ما يسمونه الشرق أوسطية وإشهار الشراكة العلنية بين دول النظام الإقليمي ودولة الصهاينة تحت الرعاية الأمريكية .

3 – على صعيد البنى السياسية للأمة :إن البنى السياسية للأمة تفتت تحت ضربات النظام الإقليمي خلال القرن المنصرم حيث شهدت السنوات الأخيرة من القرن العشرين مجتمعاً عربياً تفككت قواه السياسية الحية وغدا عارياً أعزل من قوى المقاومة والدفاع .

4 – على صعيد الحركات القومية : لقد أصاب الحركات القومية ما أصاب البنى السياسية عموماً ، ونتيجة ضعف البنى الفكرية لتلك الحركات ، ونتيجة ضعف بناها التنظيمية ، فإن هذه الحركات والأحزاب تاهت على الطريق إلى الوحدة العربية أحياناً أو تحولت إلى قوى تستخدمها دول النظام الإقليمي أحياناً أخرى ، وذلك بسبب الخطأ الفادح الذي وقعت فيه عندما لم تقدّر مستوى الخطر العدواني الذي يمثله النظام الإقليمي في الوطن العربي ، فتصور البعض أن مجرد السيطرة على الدولة الإقليمية يكفي لإضفاء صفة القومية عليها .

وتصور البعض الآخر أن أجهزة الدولة الإقليمية قادرة بالتوجيه القومي على تحقيق الأهداف القومية ، واكتشف هؤلاء وأولئك بعد فوات الأوان أن الدولة الإقليمية ابتلعتهم وابتلعت أحلامهم واستخدمتهم في مشاريعها التفتيتية عوضاً عن أن يستخدموها في مشاريعهم القومية .

إن الأحزاب والمؤسسات القومية التي بدأت إرهاصاتها مع بداية القرن العشرين ، واكتملت تنظيماتها مع منتصفه ، واعتلت سلطات النظام الإقليمي في بعض المواقع اندثرت مع نهاية القرن ولم يبق منها إلا الأشلاء . . لكنها تركت تراثاً خصيباً وتجربة فذة لابد من الانكباب على دراستها بعناية فائقة لتجنيب الأجيال العربية القادمة الأخطاء والانحرافات .

5 – على صعيد البنى الفكرية : لقد تحولت الساحة العربية خلال القرن العشرين إلى أكبر حقل تجارب في التاريخ البشري للأفكار والأيديولوجيات التي أنتجتها البشرية خلال تاريخها كله ، ونكاد لا نعثر على نظرية أو منهج سواء من الماضي السحيق وحتى الحاضر المر إلا وتشكلت حركات وأحزاب هنا وهناك على طول الأرض العربية وعرضها تتلمس الخلاص على هديها .

صحيح أن هذه الأفكار وتلك النظريات كان فيها الكثير من التغريب والتخريب ، لكن وبفعل عمق الصراع على هذه الأرض العربية فإن تجربة بالغة الثراء قد حدثت ، وجاءت أحداث القرن لتضع حداً لكثير من الصراعات الفكرية ، وتفتح ساحات أخرى للحوار والصراع وترشح هذه الأمة مرة أخرى لتنتج رسالة خلاص معاصرة للبشرية .

وإذا كانت هذه الأمة تعتصم هذه الأيام بسجيتها لدفع موجات التخريب والتغريب . . فإن هذا في الوقت ذاته تعبير حي عن استعداد لاستقبال رسالة التغيير بعد قرن من التفتيش في العصور المنصرمة ، وبعد قرن من التدقيق في الترجمات الكثيفة لكل ما أنتجته البشرية . فالأمة تدرك والأعداء يدركون أيضاً أن التغيير هنا في وطن العرب عندما تدق ساعته فإن قوة على هذه الأرض لن تمنع صداه من أن يتردد في مغارب الأرض ومشارقها .

المحور الثاني : المنطلقات

1 – على صعيد المشهد الدولي : إن البشرية وبعد التطور الذي شهدته في مجالات الفلسفة والعلوم والأدب والثقافة تستحق نظاماً دولياً متوازناً وعادلاً يتناسب مع التطور الذي بلغته الإنسانية ، ومن غير المعقول ولا المقبول أن يستمر نظام القرصنة الأمريكي الذي يحكم عالم اليوم .

إنه نظام تدمير الكون وتلويث الكوكب واستعباد البشر وتقسيم العالم إلى عوالم عليا وسفلى وجنوب وشمال . والأمة العربية هي الأكثر تضرراً من مثل هذا النظام الفاسد الناهب لثروات الشعوب ، وبالتالي فإن حركة التحرر العربي هي الأولى بأن تكون في طليعة القوى الإنسانية الناهضة لتحرير العالم من براثن هذا النظام الفاسد .

فالعالم في ظل التطور الحضاري ليس عوالم من السادة والعبيد ، وإنما عالم واحد لابد أن ينتج أنظمته ونواميسه حيث المساواة بين الشعوب ، ولكل الشعوب ، والأمة العربية الموحدة الفاعلة هي المرشحة لبناء مثل هذا النظام الدولي العادل والسامي .

2 – على صعيد الأمة : نحن ننطلق من حقيقة أن الأمة العربية قد اكتملت تكويناً منذ أن تمكن المجاهدون العرب بقيادة الصحابة والتابعين من هزيمة أقطاب النظام الدولي الفاسد الذي كان سائداً في ذلك الوقت ، فحرروا الأرض العربية من العدوان الأجنبي وتم التفاعل الإيجابي بين الشعوب والقبائل والعشائر التي تسكن هذه الأرض فتوحدت ثقافة وأهدافاً ، وبالتالي فإن أي عدوان على الأمة العربية بالتقسيم أو بالاحتلال هو عدوان يجب أن يدُفع بالطرق المناسبة .

3 – على صعيد إعادة بناء القوى السياسية : إن القوى السياسية التي دمرها النظام الإقليمي في الوطن العربي أو تلك التي وهنت لأسباب تتعلق ببنيتها الفكرية والتنظيمية لم تعد صالحة بعد كل هذه التطورات التي شملت العالم وتجاوزت بناها الفكرية والتنظيمية .

إننا ندعو كافة القوى والأحزاب السياسية أو ما تبقى منها إلى المراجعة الشاملة لأفكارها وأساليبها ، وأن تستجيب لحاجة إعادة بناء هيكلية وتنظيمية وفكرية تنسجم مع الحقائق التي أفرزتها التجربة المرة للقرن العشرين ، وأهم هذه الحقائق الاعتراف بالوجود القومي للأمة العربية ولو كانت هذه القوى والأحزاب غير قومية من الناحية العقائدية . فانطلاق هذه القوى من الوجود القومي للأمة ، واعتبار ساحة الأمة هي ساحة عملها معياراً لمدى تخلصها من الانخراط في مشاريع التفتيت والتقسيم .

فلتتعدد المنابر والآراء والقوى ، وليعلن كل فريق ماذا يريد للأمة العربية – كل الأمة العربية – وليفتح باب الجدل الاجتماعي واسعاً ، وليحتكم الجميع في النهاية لإرادة الأمة ، وليلتزم الجميع بعقد اجتماعي مؤداه : أن تحقيق ما يريده كل فريق للأمة العربية مرهون بمقدرة القوى الحية وتحالفها في معركة تحرير الأمة من العدوان متعدد الأشكال والجنسيات والدول ، ثم وبعد التحرير والتوحيد ليدعو كل فريق إلى برنامجه وعلى ماذا يتفق أو يختلف مع الآخرين .

4 – على صعيد بناء التنظيم القومي : لقد استنفذ القوميون العرب خلال القرن العشرين مراحل التجريب لبناء التنظيم القومي ، وتأكد للجميع أن الفشل الذي أصاب هذه التجارب لم يتأت من كون هذه التجارب قومية ، ولكن من كونها لم تكن قومية كما يجب .

الدروس على أية حال حية ، والنتائج قاطعة ،و(الطليعة العربية) حاجة وضرورة . كيف نبنيها ومتى . . .؟ هذا هو السؤال . . .

3 – على صعيد التحالفات : إن " الطليعة العربية " كتنظيم قومي للأمة مطالبة بأن تكون العصب والعمود الفقري لتحالف عريض يضم كافة القوى الحية في الأمة التي ترفض واقع التبعية والتفتيت أياً كانت الأفكار التي تدعو إليها ، ذلك أن معركة تحرير الأمة مفتوحة ، وكل عربي له مكانه وموقعه الذي ينتظره في خندق المعركة ، ولكل عربي بعد ذلك حق الاختلاف على كل شيء .

المحور الثالث : الغايات الإستراتيجية

1 – على صعيد المشهد الدولي : إن الحركة القومية واعتماداً على منهجها الإنساني ترى أن الإنسان . . وبالتالي المجتمعات البشرية في تطور مستمر لا يتوقف وأن البشر عندما يستنفذون مرحلة ينتقلون إلى أخرى ، والأمة العربية عندما تحقق وحدتها القومية ستسهم إسهاماً فعالاً في بناء نظام دولي متوازن عادل ، وبالتأكيد فإن العالم في هذه الحالة لن يُحكم بأعراف رعاة البقر والقراصنة وإنما ستحكمه قوانين الحضارة والمبادئ السامية المستمدة من الرسالات السماوية والقوانين الوضعية المستمدة من مبادئ المساواة بين البشر ونبذ العنصرية والنهب والفساد .

2 – على صعيد الأمـــة : إن الحركة القومية العربية تستهدف تحرير الأرض العربية ، كل الأرض العربية ، وتوحيدها ، ورفع الظلم والهيمنة عنها ، وفتح مجالات التخطيط والبناء واستثمار الثروات العربية ، وحل المشكلات التي يعاني منها المجتمع العربي ، ذلك أن هذه المشكلات هي مشكلات قومية ولا تحل إلا في إطارها القومي ، وإخضاع الثروات والبشر لتخطيط شامل يردم الهوة التي حدثت بين الأمة والتقدم العلمي، وتسترد الأمة علماءها وباحثيها الذين لا يجدون مجالاً لأبحاثهم على أرض أمتهم في ظل الأوضاع الشائهة الراهنة، وتسترد الأمة أبناءها ، أبناء شهداء التحرير والمقاومة الذين طاردهم النظام الإقليمي فألقوا بأنفسهم في قوارب تهيم بهم في البحار حتى إذا وصلوا إلى الشاطئ الآخر يعملون على تنظيف شوارع المستعمرين الذين طردهم آباؤهم وأجدادهم ، أو يتحملون مذلة الاصطفاف أمام سفارات دول الهيمنة يستجدون سمة دخول . .

إن للأمة حقاً كما لكل الشعوب المنهوبة في العالم في الثورة العلمية التي حصلت إن كان على صعيد العلوم التي نشرها العرب أيام نهضتهم ، وإن كان على صعيد مشاركة العلماء العرب في النهضة العلمية التي يدعيها الغرب لنفسه هذه الأيام ، وإن كان على صعيد الإمكانيات والثروات التي ينهبها الغرب من بلاد العالم وبالأخص بلادنا .

إن هناك عهوداً من الفتن والتخلف والامتهان فرضت على الأمة وأدت إلى تشويه في توزيع السكان وتوضعهم بين المحيط والخليج . . . الحركة القومية وبناء على البحث العلمي ستعيد رسم خريطة الأمة بشرياً واقتصادياً وصناعياً وزراعياً ، وسيتاح للشعب العربي أن يعيد وصل ما انقطع من صلات وتفاعل ، وستدب الحياة في الآثار العربية ، وستستعيد جوامعنا وكنائسنا دورها الإشعاعي والمركزي للخروج من الفتن وتجاوز التخريب والتغريب . وستستعيد الأمة ما تتمكن من استعادته من ثرواتها المنهوبة وآثارها المنهوبة ، وأهم من هذا وذاك ستستعيد دورها المسروق منها هذه الأيام ، هذا الدور الذي أثبتت التجارب الحية أنه لها بحكم الموقع ، وبحكم الحضارة ، وبحكم المقدرة ، وأن عليها أن لا تتخلى عنه مرة أخرى ، حتى للذين يدعون أنهم يحملون أفكارها ودياناتها. والشواهد المرة على الجرائم التي ارتكبت باسم أفكار الأمة ودياناتها أكثر من أن تحصى .

الأمة عندما تستعيد دورها لن تحيا بما تملك وحسب ، وإنما ستعيد لرسالة الإنسانية والحضارة والمساواة والعدالة توهجاً أشد ما تكون الإنسانية حاجة إليه هذه الأيام .

3 – على صعيد الدولة القومية : إن هناك خلطاً مقصوداً بين مفهوم الدولة القومية وبين الدولة الإقليمية التي حكمها قوميون أحياناً . . . والفرق بّين وشاسع بين النموذجين ، فالقوميون الذين حكموا الدولة الإقليمية لم يحولوها إلى دولة قومية للأمة ، بل العكس ، فإن تلك الدولة الإقليمية طوعت القوميين أحياناً ، وخذلتهم في معاركهم القومية أحياناً أخرى ، وأكلت أحلامهم القومية في الأحوال كلها .

الدولة القومية التي يتطلع القوميون لبنائها هي الدولة المشروعة الوحيدة في الوطن العربي ، وهي الدولة التي تتطابق حدودها مع حدود الوطن والأمة ، وبالتالي تمتلك الأركان المشروعة للدولة وهي :

- **الوطن** : الوطن العربي .
- **الشعب** : الأمة العربية .
- **السلطة** : وهي السلطة المشروعة ، وحتى تكون مشروعة بالمفهوم القومي

يجب أن تتوافر لها عناصر الشرعية والمشروعية ، ونحن هنا لن نستبق الأحداث و نتحدث عن طبيعة هذه الدولة و تفاصيل أجهزتها و طرق إدارتها و تداول السلطات فيها، لكن لابد من تحديد الثوابت التي يبني عليها القوميون مؤسساتهم القومية ومنها الدولة .

أولاً : إن مؤسسة الدولة القومية يجب أن تتيح أوسع الفرص لمشاركة الشعب العربي – كل الشعب العربي – في اتخاذ القرارات على مختلف الصعد كما ستؤمن تكافؤ الفرص ، وبالتأكيد فإن دولة الأمة القومية لن تكون شكلاً من أشكال الدول الرأسمالية أو الشمولية . ولكنها ستكون دولة الإنسان العربي الحر من كل أشكال القيود ، والذي ستتاح له كل الفرص لممارسة هذه الحرية . ذلك أن الجدل الاجتماعي هو الذي ينتج التطور , والجدل الاجتماعي لا يمكن أن يمارس في ظل أجواء القهر السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي .

ثانياً : إذا كانت الحركة القومية هي التي ستنجز عمليات التحرير والتوحيد ،(سواء بمفردها أو بالتحالف مع مختلف القوى القومية الحية في الأمة)ومن ثم الوصول إلى دولة العرب القومية .فإن هذا لا يعطي القوميين أي حق في احتكار حكم الدولة القومية . ذلك أن مقدرة القوميين على التحرير والتوحيد لا تعطيهم الحق في الإدارة و الحكم حيث المهام مختلفة والمقدرات المطلوبة لذلك مختلفة أيضاً . إن إدارة مؤسسات الدولة القومية ستكون متاحة للقادرين الذين سيختارهم الشعب العربي ، أما كيف يتم هذا الاختيار ، وكيف سيتم تداول السلطات فهذا سيتم في حينه استناداً لمبدأ المساواة الموضوعية وليس الشكلية لكل مواطني الدولة القومية .

ثالثاً : إن التعددية السياسية ستكون متاحة في الدولة القومية ، وحرية طرح البرامج السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية مكفولة للجميع ، وهذا يعني أن السلطة في الدولة القومية سيتولاها الفصيل السياسي الذي يقدم برنامجاً مقنعاً للغالبية من أبناء الأمة : أياً كان هذا الفصيل ، وأياً كان نهجه .

رابعاً : إن أجهزة الدولة القومية وفي سنواتها الأولى ستنشغل في إعادة توزيع الثروات العربية ، وإعادة هيكلة المجتمع العربي والعمران العربي ، والزراعة العربية ، والصناعة العربية ، واسترداد ما يمكن استرداده من الثورات العربية المنهوبة أو المهربة ، لكن السنوات التالية ستكون حافلة بالبناء والتنمية والاستثمار الشامل لكل إمكانيات الأمة وطاقاتها .

ونختتم بما قال شيخنا الذي نتحدث بوحي من أفكاره : " لما كان الجدل الاجتماعي هو الطريق الوحيد الذي يعرف به الناس في المجتمع الغاية الاجتماعية فإن النظام القانوني في المجتمع لا يكون مشروعاً إذا تضمن قيوداً سياسية أو اجتماعية على مقدرة الناس على الجدل الاجتماعي " .

وفقكم الله ، والسلام عليكم

دمشق : 10 / 2 / 2000

حبيب عيسى

[c1]

فهل رأى البعض أن هذه المداخلة تضمنت ما يستحق المساءلة..؟! مرة أخرى، وبعد التدقيق في ذلك كله، لم أجد جرماً، ولم أعثر على السبب المقنع وراء اعتقالي...

70. لنتابع البحث إذن... منذ سنوات، وأنا عضو في المؤتمر القومي الإسلامي، وخلال دورتيه الأخيرتين اللتين عُقدتا في بيروت، دورتي عام 1998 ودورة عام 2000، كانت لي مواقف محددة من قضية الصراع العربي – الصهيوني، أعلنت فيها صراحة أنني أعارض أشكال ما يسمونه (السلام) مع (إسرائيل) جميعها، وأنني أعارض (السلام الشامل) كما أعارض (السلام المنفرد)، وأنني أرى في مصطلح (السلام العادل والشامل) مصطلحاً مضللاً، وإنني ضد مبدأ مقايضة الأرض بالسلام، وأنني لا أوافق أن أعتبر أن (السلام) مع العدو الصهيوني بات الخيار الاستراتيجي للعرب.. وأنني أعارض استخدام هذه المصطلحات في مقررات المؤتمر على اعتبار أن المؤتمر القومي – الإسلامي هو مؤتمر استراتيجي على صعيد الأمة، وليس هيئة استشارية لهذا النظام أو ذاك لتحسين شروط التفاوض مع العدو الصهيوني.. وقد لاحظت حينها أن هذا الموقف استفز المحسوبين على بعض النظم، وقد تقدمت للمؤتمر بمداخلة تحت عنوان: "الخروج من الفتنة" أكدت فيها أن ما يسمونه (السلام بين دول المشرق العربي والعدو الصهيوني) هو المعادل الموضوعي للفتنة. وهذا هو النص الحرفي للمداخلة:

.71 الخروج من الفتنة

بقلم : حبيب عيسى

بسم الله الرحمن الرحيم

" الله أعلم حيث يجعل رسالته "

الأنعام (124) صدق الله العظيم

أيها الأخوة أعضاء المؤتمر القومي الإسلامي :

(1)

أعترف أمامكم أنني ترددت طويلاً بين المقدرة على الصمت و الشجاعة على الكلام .

ذلك أنه حتى الصمت في هذا الزمن يحتاج إلى مقدرة خاصة ، لأن المطلوب الآن ليس مجرد السكوت عن هذا المنكر الذي يتم تفعيله في مختلف مناحي حياتنا ، وإنما المطلوب أن نشارك فيه على عكس القاعدة الشرعية التي تفرض مقاومته .المطلوب أن ننخرط في أوحاله بالفعل أو باللسان أو بالقلب وهذا أضعف الواجبات " الشرق الأوسطية " التي يلزمنا بها النظام الإقليمي السائد بين المحيط و الخليج ، بعد أن تم نشر أوبئة الفتن من كل نوع وفي سائر المجالات و الأنحاء بين المحيط والخليج .

أما الشجاعة على الكلام ، أو باللغة الفقهية ، أعظم الجهاد عن طريق الجهر بالحق في وجه جور السلاطين الذين يحكمون عالم اليوم و يعيثون فيه فساداً و إفساداً وتلويثاً و تخريباً ونهباً ، فإنني حقيقة لا أعرف إن كنت أملك بعضاً من تلك الشجاعة ، ذلك أن الكلام الذي يستحق أن يقال و أن يسمع بعد تلك السنوات من الأحلام و الخيبات ، لا بد أن يكون مختلفاً، محدداً، حاداً كحد السيف ، ذلك أن الخلط في المفاهيم و الغزارة في القصف الإعلامي الذي يستهدف عقولنا قد أوجد هذه الحالة النادرة في التاريخ، وهي أن يفرض على الأمة كلها أن تفكر بعقل عدوها وتسعى لتحقيق أهدافه وتعتبر الوصول لما يريده هذا العدو انتصاراً يستحق المسيرات و المهرجانات و ضجيج أناشيد النصر .

- ويل لأمة تفكر بعقل عدوها .
- ويل لأمة تسعى لتحقيق أهداف أعدائها .
- ويل لأمة لا تحترم دماء شهدائها .

(2)

ونحن لا نلقي الكلام جزافاً ، و إنما نعايش أدق تفاصيل الواقع و حقائق الأمور ، ومن هذه الحقائق أنه في أواخر القرن التاسع عشر وضع قراصنة أوروبا برنامجاً للقرن العشرين للسيطرة على العالم و نهب ثرواته ، وكان ما يخص الوطن العربي من هذا البرنامج تحقيق ثلاثة عناصر أساسية يجب تحقيقها بالتوازي :

أولاً: وضع خرائط تفصيلية لتقسيم الوطن العربي و إنشاء دول عدوانية فعلية على أرضه تغتصب الأرض و الشعب معاً .

ثانياً: استيراد مرتزقة غرباء عن الأرض العربية يتم زرعهم في القلب العربي **فلسطين .**

ثالثاً : تحقيق مشاركة وتفاعل وتعاون بين مختلف الكيانات بما في ذلك كيان المرتزقة المستوردين لإحكام شبكة العدوان على الأمة العربية و التبشير بكيان شرق أوسطي فيه كل ما يحلو لهم من قبليات و عنصريات و مذاهب و تغيب عنه الأمة .

هل يجادل أحد في صحة أو حقيقة هذه الأهداف المعادية للأمة .... ؟ خاصة و أن الوثائق التي لا يتسع المقام لها أضحت في متناول الجميع ، وهي وثائق تقشعر لها الأبدان .....

(3)

الآن ، وبدون الغوص في التفاصيل ، ما هي نتائج كل الأحداث في القرن العشرين ...؟

وماذا تحقق من الأهداف الثلاثة المعلنة للعدو ...؟

أولاً: لقد احتاجوا إلى النصف الأول من القرن العشرين لتحقيق الهدفين الأول والثاني، فقام النظام الإقليمي لدول تجاوز عددها العشرين دولة تعتدي على البلاد والعباد وتقيم أنظمة الفساد وتضخ ثروات الأمة للأعداء ، وتقيم السجون في كل مكان وتغتال وتفتك بالأمة و الأبناء حتى بات المواطن العربي لا يعرف الفرق بين حدود السجون الرسمية وحدود الدول الإقليمية التي فرض عليه أن يحمل جنسيتها . وتشكلت جامعة للتنسيق بين أعمال تلك الدول ثم دخلت جيوشها إلى فلسطين لتحاصر جيش الإنقاذ العربي والفدائيين العرب الذي هبوا لنصرة عرب فلسطين فتجرد عرب فلسطين و عرب غير فلسطين من السلاح ثم تنسحب لتعلن قيام دولة " إسرائيل " .

ثانياً : ثم احتاجوا إلى النصف الثاني من القرن العشرين لتقف تلك الدول بجامعتها و جيوشها ومخبريها و سجونها حائلاً بين الأمة وبين تحرير فلسطين، ثم تُشْهر في النهاية شراكتها مع دولة المرتزقة ، و تبشر بكيان شرق أوسطي تتقاسم فيه الثروات و المياه و الهواء .

ثالثاً : يعلن الجميع الانضواء تحت مظلة الهيمنة الأمريكية التي ورثت النفوذ الأوروبي في العالم .

هذا ما جرى و كل ما عداه تفاصيل .

(4)

المهم أن الأهداف التي تحققت هي أهداف أعداء الأمة ، و لهم كل الحق أن يحتفلوا بما حققوا .

- لكن أن يفرض على الأمة أن تحتفل بذلك فهذا أكثر من أن يحتمل .
- لكن أن يصل الخلط في المفاهيم إلى حد حشو العقول العربية بأن ما تحقق هو أهداف الأمة وأن عليها أن ترقص طرباً لذلك و أن تشيد الأصنام والتماثيل للذين حققوا هذا الانتصار العظيم للأعداء، فهذا يصل إلى حد الفظاعة والفظاعة، هل علينا أن نكون ضد أنفسنا .....؟

هل رأيتم أيها الأخوة كم أنا حزين ومقهور ، صدقوني أن الحزن ليس مما يفعله الأعداء بنا، و لكن لما نفعله نحن بأنفسنا، فنحن جميعاً فرداً فرداً مسؤولون عما نحن فيه " ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم "

- هل رأيتم أيها الأخوة كم الحديث صعب بالنسبة لأمثالي .....؟
- هل رأيتم كم الصمت قاتل ...؟
- هل اقتنعتم أن القلم ليس دائماً خير وسيلة للتعبير ...؟

وأن القلم إذا لم يرتبط مع وسائل الفعل لأخرى و يتفاعل معها و تتحقق جملة الشروط المطلوبة للفعل الإيجابي المقاوم من أول من يطلق الرصاص إلى آخر من يربي الأطفال ويزرع الأرض و يقتحم مجالات العلوم ... يتحول مداداً للثرثرة بل ربما ينقلب إلى أداة للاستكانة ....؟

(5)

إذاً دعونا نعترف بداية أن الخطأ الجوهري الذي وقعت به قوى التحرر في الوطن العربي أنها لم تقدر خطر النظام الإقليمي التقسيمي للوطن العربي حق قدره ، لقد انشغلت بالخطر المتمثل بالكيان الصهيوني و استكانت للنظام الإقليمي، بل وتصالحت معه أحياناً ودخلت في دهاليز أجهزته أحياناً أخرى، أو انشغلت بالتنافس معه والصراع على السلطة، وهذا كله كان جهداً ضائعاً استهلك الكثير من الشهداء والضحايا .

(6)

الآن وبعد كل هذا الذي جرى لابد من الإقرار أن النظام الإقليمي في الوطن العربي بكل مكوناته هو الأخطر على الأمة ووجودها وحضارتها، وهو الذي أقام دولة الصهاينة في فلسطين، وهو الذي حماها من الجماهير العربية لمدة نصف قرن ، وهو الذي يتشارك معها الآن جهاراً نهاراً في العدوان على الأمة العربية شعباً و أرضاً وثروات ، وهو الذي يلغي وجود الأمة ويفتعل الفتن بين أبنائها ويؤسس مع الكيان الصهيوني مؤسسات الشرق أوسطية الأخطبوطية متعددة الأطراف ، فلنخرج جميعاً من مستنقع التفاصيل عن العلاقة بين هذه الأطراف المعادية للأمة وعن الحصص المتخصصة لكل طرف منها، فنحن باسم الأمة لسنا طرفاً في كل هذا الذي جرى و يجري و سيجري من معاهدات ومواثيق بين بعضهم البعض .. و الأمة يجب أن تكف عن تقديم الشهداء لتزيد حصة فلان من غنائم الحرب على الأمة ، على حساب حصة علان، فهم جميعاً سواسية في عدوانهم على الأمة ، إنهم جميعاً ينتظمون في نظام القرصنة متعددة الجنسيات ، يؤدون الوظائف المطلوبة منهم و الخطأ التاريخي الذي ارتكبته حركة التحرر في القرن العشرين ودفعت الأمة ثمنه شهداء و ثروات و إمكانيات تقدم وتطور و تحرر، هو الوهم بأنه يمكن الركون إلى النظام الإقليمي أو لبعض منه في معركة مقاومة الصهيونية .

الآن لابد من إعادة ترتيب الأولويات كما هي فعلاً ، لابد من التمسك بالثوابت كما هي حقيقتها، لابد من فرز منهج الأمة وفكر الأمة و عوامل أصالتها وحضارتها وتحصين العقل العربي بمواجهة عمليات الاختراق و التشويه والفتن .

(7)

وبمناسبة الحديث عن الفتنة فإن المهم الانتباه والتنبيه والتحذير بأن الحلف بين دول الشرق أوسطية يدرك تماماً كم أن هذه الأمة أصيلة وكم أن مكوناتها الحضارية قوية وعصية على الموت رغم المظاهر الاحتفالية التي تعم صفوف الأعداء ، وبالتالي فإنهم يدركون تماماً أنهم لن يمروا إلا بتعميم الفتن بين أبناء الأمة، وبالتالي فإن ما يسمونه " سلام عادل وشامل " و " سلام الشجعان " هو المعادل الحقيقي للفتنة في المجتمع العربي ، ذلك أن الشعب العربي الذي سيجد نفسه وجهاً لوجه مع الصهاينة سيبدع الأساليب للمقاومة و بالتالي سيهدد مشروع تحالف الدول الشرق أوسطية وسيهدد وظائفها في الوطن العربي .. وحتى يحصل ذلك ، يجب (صهيونياً و أمريكياً و أنظمة إقليمية) أن تفتح أشكالاً من الصراعات والفتن الطائفية والمذهبية و العنصرية و أن تنبش فتاوى القتل و التقتيل بين العرب وبعضهم البعض فتطغى على ضرورات قتال الأعداء ومقاتلتهم والجهاد ضدهم ، بينما يقوم تحالف الدول الشرق أوسطية على تسليح البعض لقتل البعض الآخر ، فيقتل العرب بعضهم البعض و يستمر تحالف الدول الشرق أوسطية في تأدية الوظائف المنوطة به .

(8)

وحتى لا يحصل هذا ، وحتى نحقق مقتلاً للقوى المعادية لابد من إفشال ذلك ، وهذا لن يكون إلا بالتمسك بالثوابت وسد الذرائع لكل أشكال الفتن ، وتحديد المهام و الأهداف ، وفصل عناصر الصراع الاجتماعي الطبيعي والإيجابي الذي يحصل داخل الوجود القومي للأمة وبين الصراع مع القوى المعادية التي تستهدف وجود الأمة و حضارتها وثرواتها .فالصراع الأول يدار بالحوار والديمقراطية والجدل الاجتماعي ، والصراع الثاني يدار بالمقاومة والقتال والجهاد ضد القوى المعادية .

لهذا وبكل وضوح وتحديد يجب ألا نسمح بأي حال من الأحوال لأدوات الصراع الاجتماعي أن تستخدم في الصراع مع العدو . وفي الوقت ذاته لا نسمح لأدوات وأسلحة الصراع مع العدو أن تستخدم في الصراع الاجتماعي داخل مجتمعنا العربي .

(9)

إنني أدعو إلى عهد و عقد نتعاهد عليهما جميعاً لتحديد هذه المفاهيم والالتزام بها، ففي هذا تحصين للأمة وللمجتمع ، وتمهيد للطريق القويم إلى معركة شاملة مع قوى الهيمنة والاحتلال التي تفرض ظلالها المقيتة على أمتنا العربية بين المحيط والخليج ومواجهة لقوى العدوان التي تفرض نظام القرصنة الذي يسمونه زوراً وبهتاناً نظاماً دولياً وشرعية دولية . إنني أقول لكم وبكل وضوح واستناداً إلى ما أعرف ــ وهو تخصصي ــ عن مشروعية القوانين و الأنظمة ، إن ما يسمونه شرعية الأمم المتحدة ، و ما يسمونه قانوناً دولياًلا أساس له في الحق و في الشرائع ، و إن مستنده الوحيد هو القوة الغاشمة التي يفرضها قراصنة القوة ومصاصي دماء الشعوب على العالم، و إن النظام الإقليمي في الوطن العربي ليس إلا نتاجاً لنظام القرصنة هذا ، وإن الدول القائمة على أرض الأمة العربية من أول دولة الصهاينة إلى آخر دولهم قامت على معاهدات بين دول القرصنة الدولية و لاأساس لها في الواقع العربي ، فالدولة المشروعة الوحيدة في الوطن العربي هي الدولة القومية التي تتطابق حدودها مع حدود أرض الأمة ويتطابق شعبها مع حدود شعب الأمة .

وبالتالي فإن الوطن الوحيد الذي ننتمي إليه هو الوطن العربي و إن الأمة الوحيدة التي ننتمي إليها هي الأمة العربية، وإن دويلات التجزئة من أكبرها إلى أصغرها ، من جمهورياتها إلى ممالكها وسلطناتها هي دول غير مشروعة، لا تمتلك عناصر الدولة المشروعة وهي الوطن والشعب و السلطة التي تمثل الوطن والشعب ، فليست أية قطعة من الأرض وطناً ،وليست أية مجموعة من الناس شعباً . إن لهذا مقاماً آخر لا يحتمله هذا الحديث ، لكننا نشير إليه هنا مجرد إشارة لنسن قاعدة قانونية تفيد " إن الثورة على الأوضاع القائمة في الوطن العربي ومقاومة القوى المعادية بكل أشكالها وصورها وتوضعاتها ودولها ومنظوماتها القانونية وأجهزتها القمعية ليست عملاً مشروعاً و حسب، و إنما هي واجب شرعي أيضاً .

(10)

هكذا نعتقد أننا أشد ما نكون حاجة لنخط خطا في العقل و لنحفر خطا في الواقع العربي لا للتعبير عن نهاية مرحلة وبداية أخرى و حسب ، و لكن لإجراء تقييم موضوعي لتجربة بالغة الثراء بالشهداء و الضحايا ، بالانتصارات و الهزائم، إن هذا يحتاج منا إلى شجاعة على النفس و على الغير و على المفاهيم، ومن ثم إعداد العدة لاستنفار طاقات الأمة ،ومخزوناتها الحضارية و زجها في معركة فاصلة مكشوفة على وشك أن تبدأ ، و أن يوقف على الفور أي هدر للطاقات في غير أماكنها الصحيحة ، يكفي ما حصل حتى الآن ...!!.

إن ما قدمته الأمة من ضحايا و شهداء يكفي لتحرير أرض الأمة عشرات المرات لو أن الضحايا و الشهداء كانوا في سياق نهج واضح للتحرير .

- لقد استغرق البعض جهدهم في البحث عن النهج و المنهج الصحيح .
- وقدم البعض حياتهم و دماءهم شهداء في الفعل الميداني المباشر .

واتهم الفريق الأول الفريق الثاني بأن الدماء التي تبذل لن تؤدي إلى الهدف إلا إذا كانت في سياق منهج صحيح .

و أجاب الفريق الثاني بأننا سئمنا تنظيراً و نظريات ... وذهبوا إلى الشهادة .

الآن و بعد التجربة نجد في كلا الموقعين جزءاً من الحقيقة، فلا الاستغراق في التنظير يحرر الأمة ، ولا نبل الشهادة و طهارة الدماء تحصن الفعل و تؤدي إلى تحقيق الأهداف، و المشهد أمامنا بالغ الثراء (إنهم يخوضون بدماء الشهداء حتى الركب لمصافحة القتلة أنفسهم) .

(11)

السؤال المطروح بقوة علينا جميعاً : كيف نحصن الشهداء فلا تذهب دماؤهم هدراً ؟ كيف نحترم دماء الشهداء و نحصنها دون أن يستخدمها الأعداء بأقلام توقيع صفقات العدوان على الأمة .....؟

وهذا لن يكون إلا بالكف عن المماحكات العقيمة بين ضرورة الغوص في الواقع و بين ضرورة الغوص في التنظير ، و دمج عناصر التحرر و التغيير في معادلة واحدة للفعل الإيجابي على المسار الصحيح قيغتني الفكر و يتصلب في أتون المعارك و تطمئن أرواح الشهداء بأنهم بذلوا أرواحهم على الطريق الصحيح إلى الأهداف التي افتدوها بأرواحهم .

إن تحقيق الشروط الضرورية لبناء هذا المعادل الإيجابي للعمل الثوري التحرري يتوقف على مقدرة العرب على الخروج من نهج الفتنة و أن نضع حداً لعصر الفتنة في رؤوسنا فنقر : إن معارك داحس و الغبراء قد انتهت قومياً ، وإن معارك الجمل و صفين قد مضى عليها الزمن إسلامياً ، و إن هذا الجيل العربي ليس مسؤولاً عن هذه و لا تلك ، و من غير المقبول ولا المعقول قومياً و إسلامياً أن يفرض على جيلنا و الأجيال العربية القادمة أن تبقى حبيسة تلك الفتن بينما الوطن و العقيدة كليهما في أشد درجات الخطر والحصار العدوان .

(12)

في حدود المراجعة الصحيحة و التدقيق الصائب نقول أنه لم يوجد في التاريخ تيار قومي وتيار إسلامي ، بل لابد من التأكيد على أنه و عبر التاريخ العربي المعروف و منذ الرسالة التي تلقاها جدنا العربي محمد بن عبد الله e أضحت عقيدة التوحيد القومي العربي هي عقيدة الإسلام ، و بهذه العقيدة التي توهجت في صدور الجنود العرب تمّ استئصال القبلية من العقل العربي ، و تشكلت " أسر الثورة " حيث تتكون كل أسرة من ثلاثة أو خمسة أفراد من قبائل عربية مختلفة يتعاهدون فيما بينهم على الأخوة الكاملة في كل شيء و المشاركة في كل شيء إلا ما حرمه الله ... وكان ذلك على حد علمنا أول تنظيم حزبي عقائدي في التاريخ البشري كله ، ثم اندفعت تلك الأسر المؤمنة منضبطة تحت قيادتها المركزية

فهزمت القبلية محلياً وواجهت في وقت واحد وفي معركة واحدة متعددة الساحات موحدة الأهداف كل أشكال العدوان الخارجي على الأمة فأبعدت المعتدين عن أرض الأمة شرقاً و غرباً وشمالاً وجنوباً . وتم التفاعل الإيجابي بين الشعوب والقبائل التي كانت تقطن هذه الأرض العربية الطهور بين المحيط والخليج، واكتمل الوجود القومي للأمة .

(13)

هل يستطيع عاقل أن يميز بين عنصري العروبة والإسلام في تحقيق هذا الانتصار وهذا التكوين القومي :
- هل كان هذا النصر بفعل العروبة ...؟
- هل كان هذا النصر بفعل الإسلام ...؟
- أبهذا النصر انتصرت العروبة على الإسلام ...؟
- أم بهذا النصر انتصر الإسلام على العروبة ...؟

لقد كان نصراً بالعروبة و العقيدة معاً ، وكان انتصاراً للعروبة والعقيدة معاً ، هذا الانتصار الذي فتح أبواب العالم لتغيير النظام العالمي الفاسد الذي كان سائداً في تلك الأيام ولم يتوقف التقدم إطلاقاً لأن وهناً أصاب سواعد الرجال أو وهناً أصاب عقيدتهم .. و لكنها الفتنة التي ضربت المركز فامتدت آثارها إلى الأطراف، فعاد عرب المركز يقتتلون قبائل و أسر مذاهب وامتد ذلك إلى المسلمين غير العرب فخفت التوهج هنا وهناك وعاد طواغيت النظام العالمي الفاسد يتحكمون في العالم إلى يومنا هذا .

وما هي مرتكزات و عناصر النهضة والتحرر ...؟

هل هي مرتكزات التوحيد العقائدي والتوحد القومي ، أم هي مرتكزات الفتن القبلية والمذهبية .

ذلك أنه لا يمكن لنكون بشراً أسوياء كما أردانا الله سبحانه وتعالىأن نحمل النقيضين معاً .

فإما أن نحمل الفتنة في رؤوسنا و نمضي معها إلى حيث تتجه الآن من قبلية تتمثل بالنظام الإقليمي الذي يحتل أرضنا ويتحالف مع الصهاينة لتحقيق وظائف لنظام القرصنة الدولي تماماً كما كانت تفعل القبائل الجاهلية التي كانت تعمل لحساب الفرس الروم ،وإما أن نحمل الأمة والعقيدة معاً في رؤوسنا فنمضي بهما إلى حيث التحرر والانعتاق والتوحد القومي، ومن ثم تغيير هذا النظام الدولي الفاسد إنه الخيار و الاختيار في هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ أمتنا .

(14)

إن الفتنة بين القوميين والإسلاميين لم تنحصر على الإطلاق بينهما فتفصلهما إلى تيارين ، و إنما كانت تؤدي من حيث تفاعلاتها السلبية إلى فتنة داخل الإسلاميين أنفسهم و إلى فتنة داخل القوميين أنفسهم فنقع بذلك في مستنقع ثلاثة أنواع من الفتن :

أولاً : فتنة بين القوميين و الإسلاميين .
ثانياً : فتنة بين الإسلاميين و الإسلاميين .
ثالثاً : فتنة بين القوميين و القوميين .

لهذا نجاح مؤتمركم في ردم الفتنة بين القوميين و الإسلاميين يؤدي في الوقت ذاته إلى ردم الفتنة بين القوميين و القوميين وإلى ردم الفتنة بين الإسلاميين والإسلاميين أيضاً، ويفتح الطريق واسعاً إلى وهج من التحرر و التحرير لن يقتصر أثره على الأمة العربية و إنما سيشمل الإنسانية بأسرها .

(15)

المهم أن تنفق على أننا تيار واحد على امتداد الساحة القومية للأمة العربية و أن ليس بيننا وبين بعضنا البعض منتصر ومهزوم، فإما إن ننتصر معاً وإما أن نهزم معاً .. لم ينتصر العرب يوماً عل حساب هزيمة الإسلام ، ولم ينتصر الإسلام يوماً على حساب هزيمة العرب .

فعوامل الهزيمة عندما كانت تحل كانت تشمل العروبة و الإسلام معاً، و عندما كانت تتوفر عوامل النصر كان يشملهما معاً، و لهذا قلت أنني لا أجد مكاناً لواو العطف بين العروبة و الإسلام ، إنهما كيان عضوي واحد .

(16)

لايجادل أحد في هذه الدنيا في أن الرسالة التي حملها خاتم النبيين جدنا العربي محمد بن عبد الله e موجهة إلى الإنسانية كافة ، إلى الإنسان أينما وجد على أرض هذا الكوكب ، و إلى أجمل مستقبل من الزمان لا يعلمه إلا الله .

لكن هذا لا يعني أنها رسالة هائمة فوق الوقائع و الحقائق التاريخية والاجتماعية و الجغرافية و الإثنية ، و إنما استجابة إلهية لحاجات ملحة ، وفي سياق رسائل إلهية تعاقب نزولها إلى البشرية حملها الأنبياء الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم ، وكانت هذه الرسالة هي الرسالة الإلهية الأخيرة للبشرية " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ، بهذا المعنى فإن تلك الرسالة العظيمة قد حملت فيما حملت هذا القرار الإلهي الذي لا راد له بأن التدخل الإلهي المباشر في حياة البشر تقويماً و تصويباً عن طريق الأنبياء والرسل قد انتهى و أن على الإنسانية وقوى الحق و العدل أن تتحمل من الآن فصاعداً مسؤولية إبداع الأساليب و توفير الإمكانيات لمواجهة قوى الظلم و الطاغوت ، فالمهمة أصبحت منوطة بها استناداً إلى قواعد رسختها الرسالات الإلهية للبشرية .

(17)

ليس صدفة (و حاشا لله أن ينسب إليه ذلك أحد) أن الجماعة البشرية التي خاطبتها الرسالة الختامية مباشرة ، و التي جاءت الرسالة بلسانها وبقصص مغروسة في تاريخها هي تلك الجماعات التي تسكن هذه الأرض العربية المقدسة والتي كانت مهبط الوحي للرسالات الإلهية السابقة عليها و الممهدة لها.

وإذا كانت هذه الأرض الطهور محط أنظار الإنسانية لتتلقى منها الإشعاع الحضاري و الرسالات الإلهية في الوقت ذاته ، فإنها كانت عبر العصور و حتى هذه اللحظة من التاريخ الإنساني هدفاً للقرصنة و الغزاة و الطواغيت في كل مكان من هذا العالم .
فما من قوة على هذه الأرض ، وما من طاغية أراد أن يمد طغيانه على العالم أرادت أو أراد أن يكون لهما شأن في السيطرة على هذا العالم إلا و أدركوا أن ذلك يتوقف أولاً و أخيراً على الاحتفاظ بموقع قدم على هذه الأرض العربية ، و هكذا فإن صراع القبائل و العشائر و الشعوب على الأرض العربية اختلط بالصراع على هذه الأرض و أضحت الصراعات المحلية في الوطن العربي تدخل في سياق الصراع الدولي على العالم .

(18)

في هذا السياق، فإن حاجة البشرية إلى الرسالات الإلهية تم إشباعها ببعثات الأنبياء والرسل، يحملون الرسالات المتعاقبة التي لم تقتصرْ في جوهرها على الدعوة لعبادة الله الواحد الأحد، و إنما تدعو إلى ذلك في سياق دعوة البشرية للانعتاق من العبودية للظالمين، و أصنامهم ، و مقاومتهم ، و تخليص البشرية من شرورهم وصولاً إلى إحقاق الحقوق وترسيخ العدالة و المساواة بين البشر .
إذا كانت الإرادة الإلهية التي لا راد قد اختارت هذه الأرض الطهور مهبطاً لرسالتها الموجهة للبشرية، فإن ذلك تزامن وتواكب وتفاعل مع القوى الموجودة على الأرض فانحازت لها قوى التحرر و الإنعتاق و العدالة و الحق و قبضت عليها كالقابض على الجمر ، و قاومتها ووقفت في طريقها قوى الطاغوت والظلم فحاربتها بكل ما تملك ، ولهؤلاء المؤمنين بها امتداد على ساحة الإنسانية كلها ولأولئك المتضررين منها امتداد على مدى ساحة الإنسانية كلها أيضاً .

(19)

هكذا و على الأرض الطهور بالذات تفاعل ما هو حاجة بشرية بما هو مطلب إلهي .
وهكذا أيضاً أصبح مصير البشرية يتوقف على أن تتمكن سفينة نوح من الإبحار من هنا أو يعم الطوفان فتتمكن قوى الطاغوت والظلم من محاصرة هذا الميناء العربي المقدس الذي استقبل الرسالات الإلهية حيث انطلقت بها ومنها سفن النجاة للبشرية ، في مواجهة أساطيل الدمار التي يطورها القراصنة لإخضاع العالم للطاغوت أو تدميره تماماً .
هكذا على هذه الأرض الطهور تفاعلت شرائع حمورابي مع شرائع الفرعنة ، وملاحم جلجامش مع حضارة بلقيس ، وحروب الهكسوس مع حروب نبوخذ نصر ، وقوارب البردي مع قوارب الفينيق ، وتغريبة بني هلال مع تشريقة الزير سالم ، وتمرد زنوبيا مع تمرد النعمان ، ومعارك ذي قار مع حروب أبرهة و مقاومة الفرس والتصدي لظلم البيزنط . ثم إعلان حلف الفضول الذي تزامن إعلانه مع استعداد هذه الأرض الطهور لتلقي الرسالة الإلهية الختامية للبشرية .

(20)

لقد تفاعل ما كان يجري علىالأرض بما كان يهبط من السماء وتم التفاعل والفرز هنا على أرض العرب ثم على صعيد العالم فتحالفت قوى الظلم والطاغوت هنا مع قوى الظلم والطاغوت في العالم وكانت في موضع التبعية لها ، وحملت قوى الحق رسالات العدالة والحرية إلى العالم فالتقت بقوى التحرر والعدالة على الصعيد الإنساني كله .
هكذا حمل جدنا ابراهيم الخليل فأسه وحطم أصنام قومه ، ولننتبه فقبل ابراهيم الخليل عليه السلام كانت القبائل تحطم آلهة بعضها البعض دفاعاً عن آلهتها هي . أما الآن فنحن أمام حالة توعية ، فجدنا ابراهيم الخليل لم يحطم أصنام الأقوام الأخرى و إنما حطم أصنام قومه وتحدى مماحكاتهم وطرح جدوى الصنمية والتصنيم ، و عندما بعث موسى عليه السلام تحدى ظلم الفراعنة ، ومهد لرسالة جدنا المسيح عليه السلام الذي حمل صليبه رافضاً ظلم وطاغوت القوى الغاشمة وعبودية الإنسان للمال (إن دخول جمل من سنام إبرة أسهل من دخول الأغنياء الجنة) ، و إذا كان الطواغيت قد تمكنوا من السيد المسيح فإن قلة من حوارييه انطلقوا إلى العالم لا يملكون إلا تعاليم أستاذهم التي اخترقوا بها مركز الطاغوت العالمي في ذلك الوقت و أعطوا العالم نصف دينه بسنوات قليلة . وبعد ذلك بعث جدكم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة الختامية للبشرية فحملها رسل مشبعون بالعقيدة إلى مراكز لطاغوت مرة أخرى في العالم و أعطوا العالم نصف دينه الآخر ، ورفعوا الظلم عن الأمة ، فتفاعلت الجماعات البشرية على أرضها بعد أن ارتفع عنها الظلم الخارجي و اكتملت الأمة تكويناً و توحيداً ووضعت بصمتها لبناء نظام دولي عادل ومتوازن .

(21)

إننا لا نقول هذا لنعطي أنفسنا امتيازاً على البشرية لا نسعى إليه بل نرفضه ، لكننا نقوله في مواجهة دونية تفرض علينا هذه الأيام ، فأما أن نقبل بأن نكون دون هذا العالم الذي يسمونه " عالم أول " و إما أن يدمروا كل شيء إنها المعادلة التي يفرضها اليوم هذا النظام العالمي الفاسد الظالم ، و التي نرفضها ، فنحن لسنا مناجم بترول وغاز، نحن أمة الحضارة و الرسالات .
صحيح أننا نرفض استغلال الآخرين لكننا نرفض أن نبقى موضعاً للاستغلال ليس دفاعاً عن الأمة فقط ، و إنما دفاعاً عن إنسانية الإنسان المهدورة في طاحونة الطاغوت الذي يحاصرنا بأساطيله وقواعد عدوانه .
استناداً إلى هذا كله و انطلاقاً منه دعونا نتفق على مواقف ثابتة من قضايا مصيرية تهم الأمة والوطن والعقيدة .

(22)

أولاً : الوحدة العربية :

إن النظام الإقليمي السائد في الوطن العربي لا ينسجم مع المفهوم الشرعي الإسلامي، ويتعارض مع المفهوم القومي الحضاري لأنه وفق المصطلح الشرعي الإسلامي قبلية جاهلية واستناداً للمفهوم القومي العقائدي عدوان إقليمي على وجود الأمة .
كما أن الهدف الإنساني بالمصطلح القومي هو أن تكون للأمة رسالة إنسانية للمساواة والعدل وبناء نظام عالمي متوازن، وهذا ما تعجز عنه الأمة في حالة التجزئة، بل أنها هي ذاتها معرضة لعدوان غاشم من نظام دولي فاسد يشملها ويشمل شعوب الأرض قاطبة ، ووفق المصطلح الاسلامي فإن الرسالة توجب مقاومة الطواغيت الذين يستغلون شعوبهم ويستبدون بالعالم ونشر رسالة الاسلام لا يعني نشر الدين الاسلامي وحسب، وإنما يعني رفع الظلم عن البشرية وتحقيق العدالة والمساواة بين البشر .
والأمة العربية التي هي مركز الدعوة الإسلامية لن تتمكن من حمل الرسالة وهي معتدى عليها بالتجزئة والفرقة والعدوان الخارجي ، بل وأنها وهي في حالتها هذه ليست عاجزة عن مد يد العون للأخوة في الدين على صعيد العالم وحسب وإنما عاجزة عن الدفاع عن العقيدة في نقطة المركز أيضاً . وبالتالي فإن الوحدة العربية ضرورة إسلامية كما هي ضرورة قومية ، وهي قضية يجب أن تتوحد الصفوف حولها ، وليست مسألة خلافية .

(23)

ثانياً : فلسطين :
إن فلسطين عربية ليس من البحر إلى النهر فهذه هي هي الحدود البريطانية لفلسطين أما الحدود القومية لفلسطين فهي بين المحيط والخليج .
1 - فلسطين في المنهج القومي هي جزء من أرض الأمة وطناً وجزء من أمة العرب شعباً ، وهي ملك للأجيال العربية المتعاقبة وبالتالي فإن هذا الجيل من العرب بكامله لا يملك أن يتنازل عن شبر واحد من الأرض القومية للأمة .
وهذا يعني أن كل العقود والمعاهدات بين حكومات ومنظمات فلسطينية وغير فلسطينية، باطلة لأنها تجري بين أطراف لا صفة لها قانوناً في التعاقد حول قضية لا يملكون من أمرها شيئاً . إن الممثل الشرعي والوحيد للقضية الفلسطينية هو الشعب العربي بأجياله المتعاقبة ، وبالتالي فإن الحقوق المخولة لهذا الجيل من الشعب العربي محصورة بالحفاظ على الأرض القومية وحمايتها من العدوان ، وبالتالي لا يملك أحد من هذا الجيل العربي أن يتنازل عن شبر واحد من أرض فلسطين كائناً من كان .
فإذا كانت هذه هي حدود الحقوق المخولة للشعب العربي برمته ، فإن الحقوق الممنوحة لبعض الدول الإقليمية أولها جميعاً والحقوق الممنوحة لمنظمة التحرير الفلسطينية أو للمنظمات الفلسطينية برمتها دون ذلك بكثير ، إنها تتصرف بما لا تملك إطلاقاً .
2 - أما فلسطين في الشرع الإسلامي فهي أرض حررها العرب من السيطرة الومانية وهي كما شرع الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه شيخ المشرعين لدولة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنها أرض ملك للأمة لا تملك لأشخاص أياً كانوا، وإنما هي ملك لأجيال الأمة المتعاقبين إنها موضع للإنتفاع بها وليست موضعاً للملكية الشخصية ، وبالتالي فإن هذا الجيل من المسلمين برمته لا يملك أن يتنازل عن فلسطين وإنما تنحصر حقوقه بالدفاع عنها وحمايتها والانتفاع الإيجابي بها .
مرة أخرى نجد أن الموقف المنهجي القومي والمنهج الشرعي الإسلامي متطابقان تماماً مع قضية فلسطين ، وبالتالي فإن تحرير فلسطين ضرورة من ناحية الشرع والفقه الإسلامي ، وهي قضية قومية ومركزية وبالتالي يجب أن تتوحد الصفوف حولها وليست مسألة خلافية .

(24)

ثالثاً : الأراضي العربية المحتلة بعدوان 67 :
إننا وفي هذا المجال لن نحاسب الدول الإقليمية التي احتلت بعض أراضيها بعدوان 67 وفق المنهج القومي أو الشرع الإسلامي، وإنما نطلب منها فقط أن تلتزم حدود النهج الإقليمي الذي ارتضته هي ، ذلك أن تلك الدول قد قامت وارتضت الحدود التي قامت عليها بموجب المعاهدات الاستعمارية لسايكس بيكو وغيرها من المعاهدات ، وبالتالي فهي ملزمة بالأنظمة والقوانين التي تأسست عليها .
لذلك فإن الدول الإقليمية لا تملك شبراً واحداً من الأرض خارج حدودها الإقليمية، ولا تملك أن تفاوض عليه أو تقايض عليه أو تتنازل عنه ، أو يكون موضوع صفقة بينها وبين الصهاينة .
وبالتالي ووفق المنهج الإقليمي ذاته فإن الدول الإقليمية تملك أن تستعيد أرضها بكل الطرق والوسائل المتاحة شريطة أن لا تعتدي على أرض الغير وحقوق الغير .
إن حدود الدول الإقليمية المحتلة أراضيها وفق المنهج الإقليمي في التفاوض تقف عند حدودها الإقليمية مع فلسطين ولا تتعداها ، والدول الإقليمية في الوطن العربي كانت تدعي منذ 15 / 5 / 1948 وحتى 19 / 11 / 1977 أنها تعتبر أرض فلسطين للفلسطينيين .
الآن نحن لا نطالب الدول الإقليمية المحتلة أراضيها أن تحرر فلسطين ، ولا أن تعتبر أرض فلسطين للفلسطينيين ، نطالبها فقط أن لا تقر أن أرض فلسطين أو بعضها للصهاينة ، لأنها بذلك تتجاوز حدودها الإقليمية ، وتشترك في العدوان على أرض فلسطين بحجة استرجاع أراضيها الإقليمية .

(25)

رابعاً : الأراضي المحتلة على التخوم والثغور العربية :
إن الموقف من هذه الأراضي وفق المنهج القومي والنهج الشرعي الإسلامي يتطابق تماماً وينطبق عليها تماماً ما قلناه عن فلسطين .

(26)

خامساً : العراق :

إن العدوان على العراق ، واشتراك دول النظام الإقليمي في الوطن العربي في إحكام الحصار على العراق ، وتسخير الأرض العربية من قبل بعض الدول الإقليمية كقواعد للعدوان على العراق ... إن ذلك كله عدوان على الأمة العربية جمعاء ، وإن المؤتمر القومي الإسلامي مطالب بأكثر من كلمات الشجب والتنديد ، والقواعد الأمريكية والبريطانية في الوطن العربي هي بكل المقاييس ، واستناداً إلى الوظائف والمهام عبارة عن " دول اسرائيلية أخرى " في الوطن العربي ، أو أشد خطراً وفتكاً .

(27)

أيها الأخوة أعضاء المؤتمر القومي الإسلامي :

إن أمتنا على وشك أن تدخل مرحلة جديدة من مراحل صراعها الطويل مع قوى العدوان والهيمنة الدولية وامتداداتها وقواعدها ودولها على أرض العرب ، وإن الصراع لم ينته كما يتوهم أطراف اتفاقيات النظام الشرق أوسطي والراعي الأمريكي ، إنه على وشك أن يبدأ كما يجب بعد أن انكشف المستور .. إنها معركة طويلة ومتعددة ومتشعبة ومفتوحة ، وفي معركة كهذه فإن الأمة ستعرف كيف تعزز قواها الحية وتستجمع عناصرها الإيجابية وطوبى لمن يتقدم الصفوف .

وإذا كانت رياح الفتنة ، وأفكارها ، ومذاهبها وطوائفها ، وعصبياتها ودويلاتها ، وكهنتها ، قد عصفت بالأمة والوطن واغتالت الحلم الإنساني بعالم عادل متوازن، وإذا كانت قوى الطاغوت والشر قد عادت مرة أخرى تحاصر هذه الأرض الطهور بأساطيل الغدر والعدوان والتهديد من كل حدب وصوب ، وإذا كانت قوى الطاغوت المحلي تتعاون مع قوى الطاغوت الدولي فتزرع هذه الأرض الطهور خرائط وحدوداً شائهة وقواعد للمعتدين حيث يطبق على صدورنا هذا الليل العربي الحالك السواد فما أحوج هذه الأمة الآن لتستعيد إرادتها ، وإذا كان هناك من افتعل مشكلة بين العروبة والإسلام ، بين الوطن والإسلام ، فإننا نقول إن هذا الوطن العربي هو وطن العروبة والإسلام معاً .. والحديث ذو شجون نأمل أن يكون لها نهاية، ففي لجة هذا الليل العربي الحالك السواد بوادر بريق ينطلق من السماء يتفاعل مع صرخة تتفجر فيها هذه الأرض الطهور ويتردد صداها في كل مكان من هذا العالم ، أن أفعلوها أيها العرب ..... افعلوها مرة أخرى ....!!

والسلام على من اتبع الهدى

دمشق : الخميس / 14 / شوال 1420 هـ
20 / كانون الثاني / 2000م . **حبيب عيسى**

72. ثم تقدمت بمداخلتين قصيرتين هذا نصهما:

المداخلة الأولى:

المؤتمر القومي الإسلامي
بيروت : جلسة 2000/1/22
مداخلة : أ . حبيب عيسى – دمشق

الأخ الرئيس ، الأخوة أعضاء المؤتمر القومي الإسلامي :

1 - استناداً إلى ما تفضل به الأخوة أعضاء هذا المؤتمر سواءً في هذه الدورة أو الدورات السابقة، فإنني أقترح أن نصيغ عهداً و عقداً بيننا نلتزم به جميعاً ينص على ما يلي :

" إن حمل راية القومية العربية واجب إسلامي ، و إن حمل راية الإسلام و عقيدته واجب قومي " و أن نلتزم بذلك ممارسة و عملاً و جهاداً ونضالاً، و أن نخرج من إطار المجاملات فيما بين بعضنا البعض .

2 - سمعت بالأمس اقتراحاً من أحد الأخوة المشاركين بسحب الاعتراف من منظمة التحرير الفلسطينية وعدم الاعتراف بها كممثل شرعي ووحيد للشعب العربي الفلسطيني ... إن هذا الاقتراح جدير بالبحث في حالة واحدة ، واستناداً إلى مبدأ المساواة أمام الحق والقانون ، و الأمة ، وهو أن نعلن جميعاً أن الدول القائمة في الوطن العربي (و لا أقول العربية) ليست الممثل الشرعي للأمة العربية ، ولا لأي عربي بين المحيط والخليج ، و أن كافة العقود و المعاهدات التي تبرمها هذه الدول وتلك المنظمة ليست ملزمة للشعب العربي ، ولا للأجيال العربية القادمة ، وإن فلسطين العربية و كل أرض العرب من المحيط إلى الخليج وفقاً للتشريع الإسلامي ، و العقيدة القومية معاً هي موضع ، و مطرح للانتفاع بها من قبل الأجيال العربية المتعاقبة ، و أن الأرض ليست ملكاً لأحد أياً كان موقفه أو موقعه ، و أن هذا الجيل بكامله من العرب حكاماً و محكومين لا يملكون التنازل عن أي حق عربي في الوطن العربي :

(أرجو أن يطبق مؤتمركم مثل هذه الوصية)

3 - أقترح إضافة فقرة تتضمن موقفاً من القواعد الأجنبية على الأرض العربية التي تستخدم للهيمنة على الأمة العربية ، وإذا كانت هذه القواعد تستخدم الآن لضرب أهلنا في العراق فهي و من حيث الوظائف تستهدف الأمة العربية كلها و إنها (دول إسرائيلية) بكل معنى الكلمة . بل إن بعضها أقدم من دول الصهاينة و أكثر مقدرة منها ، و الدلائل متوفرة ، ومن لا يصدق ليذهب إلى الظهران .

4 - النظام الإقليمي السائد في الوطن العربي بدأ يفك الحصار عن الكيان الصهيوني و يجمع في الوقت ذاته على فرض الحصار على أهلنا في العراق . فليتبنى هذا المؤتمر دعوة تتوجه إلى الأمة العربية جمعاء لتأخذ الأمة – كل الأمة – الطريق المعاكس لتشديد الحصار على العدو الصهيوني ، وكسر الحصار عن أهلنا في العراق ، و تحدي هذا الحصار .
عار علينا جميعاً أن يستمر ذلك .

وفقكم الله لما فيه خير الأمة

2000 / 1 / 22 **حبيب عيسى**

المداخلة الثانية:

المؤتمر القومي الإسلامي
بيروت : جلسة 2000/1/23
مداخلة : آ . حبيب عيسى

في إطار بند مقاومة التطبيع الوارد في البيان الختامي، أقترح إضافة إعلان تأسيس اللجنة (القومية – الإسلامية) لمقاومة التطبيع و التصهين .

- و أن هذه اللجنة مؤسسة من مؤسسات المؤتمر القومي الإسلامي .
- مهمة اللجنة التنسيق و تبادل المعلومات بين لجان مقاومة التطبيع في سائر أنحاء المدن و الأرياف ، و العمل على تأسيس هذه اللجان في كل مكان من الوطن العربي .
- تتعاون اللجنة مع اللجان القائمة في إعداد قائمة سوداء بالمطبعين مع الصهاينة .
- تنشر هذه القائمة على الرأي العام العربي و تحفظ هذه القائمة في سجلات المؤتمر ، ويتم نشرها دورياً .
- تقدم اللجنة تقريرها إلى لجنة المتابعة و تعرض دورياً على المؤتمر .

وشكراً

بيروت 2000/1/23

حبيب عيسى

73. فهل تمّ اعتقالي على خلفية موقفي في المؤتمر القومي الإسلامي، خاصةً وأنه تسرّب إلي أن السيد عبد الحليم خدام نائب رئيس الجمهورية العربية السورية، وخلال لقاء خاص جمعه بالأمانة العامة للمؤتمر القومي العربي، طلب إليهم سحب الدعوة الموجهة إلي لحضور دورة المؤتمر في ذلك الوقت على خلفية موقفي في المؤتمر العربي القومي – الإسلامي..!

74. لا أستطيع أن أجزم بالجواب، وإن كنت أعتقد أنني في مواقفي تلك لم أرتكب جرماً من أي نوع... ثم أنه من حسن حظي، ومن حسن حظ الأمة العربية فإن ما يسمونه (عملية السلام) قد توقفت لأن دولة الصهاينة لم تعد جاهزة للتسوية، ليس لأنها لا تريد، ولكن بفعل عاملين أنتجتهما الأمة على عجل، كردّ فعل منعكس شرطي للحفاظ على الوجود والهوية، بغضّ النظر عن الشعارات الآنية، والمضامين الأيديولوجية التي رُفعت في أكثر من مكان.

75. العامل الأول نهضت به المقاومة العربية في جنوب لبنان، حيث اضطر الصهاينة للفرار من هناك دون أية شروط، وبذلك فإن الدولة الإقليمية في لبنان خرجت واقعياً من مسار التفاوض مع العدو الصهيوني، لأنه لم يعد لديها ما تبرر به توقيع معاهدات وبروتوكولات مع العدو الصهيوني، كما لم يعد لديها مبررات لرفع العلم الصهيوني على سفارة صهيونية في قلب بيروت العربية الصامدة، كما لم يعد مبرراً للسلطة في لبنان أن تدخل مفاوضات من أي نوع مع العدو الصهيوني، وبالتالي فإن المسار اللبناني سقط من حسابات معاهدات التسوية مع العدو الصهيوني.

76. العامل الثاني تمثل في المقاومة العربية في فلسطين، حيث تنوعت فنون المقاومة للمشروع الصهيوني من الحجارة وحتى القنابل البشرية المتفجرة، وبالتالي فإن السلطة الإقليمية في فلسطين لم تعد قادرة على ضبط الشارع، وإنما أضحت مضطرة للتخندق معه، وبالتالي لم تعد تجد تبريراً لسلسلة التنازلات التي كانت قد بدأت منذ سنوات، وهذا كله وجه ضربة قاصمة لمشروع بيريز، ومن لف لفه من الصهاينة العرب حول ما أسماه (الشرق الأوسط الجديد)، بل أن خط بيريز ذاته انهزم داخل الكيان الصهيوني ذاته، وعادت مؤسسة الإرهاب الصهيونية إلى الواجهة دون مواربة أو تجميل، مما جعل الحديث عن (السلام الشامل) مؤجلاً إلى حين، وأن على مشاريع (سلام الشجعان) كما مشاريع (سلام الجرذان)، أن تنتظر لحظة مناسبة أخرى قد تأتي، وقد لا تأتي..!!

وقد قدمت مداخلة بهذا المعنى إلى الدورة المشتركة التي عُقدت في بيروت بين المؤتمر القومي – الإسلامي وبين المؤتمر القومي العربي في مطلع العام 2001، وهذا هو النص الحرفي للمداخلة:

77 . **مقترحات من وحي النهوض العربي** .

ورقة مقدمة

للجلسة الاستثنائية المشتركة

للمؤتمرين القومي العربي والقومي الإسلامي

بيروت : 15 / 10 / 2000

- حبيب عيسى

الأخوة العرب أعضاء المؤتمرين القومي العربي والقومي الإسلامي :

أرجو ابتداءً أن تسمحوا لي بتسجيل الشكر والتقدير للمقاتل العربي السيد حسن نصر الله على الهدية التي قدمها لهذا المؤتمر والمتمثلة بأسر عقيد صهيوني . . .

هكذا تكون الهدايا . . . ! ونحن في حالة اجتماع دائم لتقبل أمثالها . . .

أرجو ثانياً أن تسمحوا لي بتسجيل الشكر والتقدير لتلك السواعد الطاهرة التي فجرت المدمرة الأمريكية في خليج عدن . إن أهمية هذا الحدث تفوق نتائجه المادية المتمثلة في إرسال النعوش إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك تفوق الارتياح النفسي الذي شعرنا به ونحن نرى تلك المدمرة التي كانت تستفز مشاعرنا على مدى عشر سنوات وهي تتباهى بقصف أهلنا في العراق – أن نراها تترنح تحت تلك الضربة الشجاعة الباسلة . . . فهذه الحادثة أكدت أن العدو ليس متواجداً في فلسطين، وإنما هو في كل مكان على أرضنا . . قواعد مجرمة .. وفي بحارنا أدوات جريمة . . وفي سمائنا غربان عدوان .

إن دولة الولايات المتحدة الأمريكية هي العدو الرئيسي لهذه الأمة العربية . وإن رئيس وزراء الكيان الصهيوني مهما جرى تلميعه وتضخيمه ليس أكثر من رئيس مخفر للشرق الأوسط لدى الإدارة الأمريكية، فلتضرب أمريكا في كل مكان على أرضنا العربية الطهور وفي بحارنا وفي سمائنا . . . إنها العدو الحقيقي لأمتنا في هذه المرحلة التاريخية . . .

أرجو ثالثاً : أن تسمحوا لي بتسجيل الشكر والتقدير للجماهير العربية (للجيل العربي الجديد تحديداً) التي انطلقت من عمان إلى الدار البيضاء ، ومن الخرطوم إلى بغداد، تطلق صرخة الأمة العربية، تحتضن أطفال الحجارة ، تكفن الشهداء بالدموع والغضب . إن هذا الحدث تجاوز دعم الانتفاضة العربية في فلسطين، ودخل في سجل الأمة العربية القومي لتصحيح أوهام ومصطلحات عن الأمة العربية فقدت الاتجاه الصحيح، وركدت تحت ضربات الأعداء، واستسلمت لخرائط ومخططات شائهة ومشوهة للأمة وطناً وشعباً . فها هي الأمة تؤكد على لسان أطفالها بين المحيط والخليج أنها بخير، وأنها تحتضن فلسطين كأن النكبة قد حصلت بالأمس .وكأن سايكس - بيكو وبلفور ومعاهدات وصكوك الاعتداء على الأمة تفتيتاً وتقسيماً واستلاب إرادة ، كل ذلك لا أثر له في الواقع . . . وأنها محنة وستمضي . .

الأخوة العرب أعضاء المؤتمرين القومي والقومي الإسلامي :

إنني اقدر لكم تداعيكم لهذا اللقاء الاستثنائي الذي فرضته هذه المرحلة المتقدمة من المؤامرة الأمريكية الصهيونية التي تضع اللمسات الأخيرة على خريطة صهيونية لشرق أوسطية تخدم مصالحهم . . ومن ثم المواجهة الشعبية التي تفجرت من فلسطين إلى عُمان إلى الرباط لوضع اللمسات الأخيرة على خريطة أمة عربية واحدة تختص بوطن عربي واحد متحرر مستقل، ثم للبحث في حيثيات إبداع الأدوات والوسائل وشحذ الهمم واستنفار كافة أشكال المقاومة لإنجاز التحرر والاستقلال . . . فإنني أرجو أن يكون هذا الملتقى فصيلاً فاعلاً وجاداً في سياق نهضة أمتنا التي راهن الأعداء أنها دُفِنت تحت ركام المؤامرات المكثفة . . . فظهرت في الأيام الأخيرة وكأنها في أبهى صورها لا ينقصها إلا إبداع الأدوات والقوى المحركة المنظمة لتنظيم تحركها القومي الأصيل وحصد النتائج التي تتناسب والتضحيات ودماء الشهداء . . . فالأمة يجب أن تغلق كل الطرق على العابثين بقدسية دماء الشهداء العرب، تلك الدماء التي يجب أن تكون مداداً لتحصين الأمة ورسم خريطتها الموحدة المتحررة ، وأن لا تسمح بأي حال من الأحوال أن تكون مداداً لعقود ومعاهدات القتلة والمعتدين على الأمة ووجودها الحضاري .

لهذا أرى أن من واجب هذا الملتقى الكريم التأكيد على الثوابت التالية :

1 - إن مقولة (الأرض مقابل السلام) التي أعلن النظام الإقليمي في الوطن العربي تمسكه بها من أول الدول بأشكالها وألوانها المختلفة إلى آخر الدولة المقترحة لبعض فلسطين، قد وضعت معظم فلسطين العربية خارج برامجها .. بل أنها تتعامل معها على أنها دولة للصهاينة يسمونها (إسرائيل)، أي أن النظام الإقليمي بقضه وقضيضه وجيوشه وأجهزته لم يعد محايداً في الصراع بين الحركة الصهيونية والأمة العربية وإنما بات منحازاً انحيازاً كاملاً لدولة الصهاينة في مواجهة الأمة العربية . وهكذا انتقل النظام الإقليمي الذي يحتل الوطن العربي من مرحلة اعتبار فلسطين جزءاً من أرض الأمة العربية، على جيوش النظام الإقليمي، أن تحررها إلى مرحلة أن فلسطين للفلسطينيين وأن النظام الإقليمي يقبل ما يقبله الفلسطينيون، ثم إلى مرحلة مقايضة الأرض بالسلام، والترجمة الفعلية لذلك أن معظم فلسطين العربية بات دولة للصهاينة تسمى (إسرائيل) ، تقام معها المعاهدات وتبرم الاتفاقات والمواثيق ويضمن النظام الإقليمي أمن (إسرائيل)، وتضمن(إسرائيل) أمن النظام الإقليمي . . هذا يضع الأمة العربية عامة وهذا الملتقى الكريم لأبناء الأمة، أمام مسؤولية تاريخية تحدد الموقف القومي الثابت من قضية فلسطين ، إن فلسطين جزء من أرض الأمة العربية وطناً، وجزء من بشر الأمة العربية شعباً .. وإن مسؤولية تحريرها تقع على عاتق الأجيال المتلاحقة للأمة تتوارثها جيلاً بعد جيل ، وأن أحداً في هذه الأمة، كائناً من كان، سواء كان من مواليد فلسطين أومن مواليد نواكشوط، لا يملك أن يساوم أو يتنازل عن شبر واحد من الأرض العربية ، وأن كل كيانات النظام الإقليمي على الاتحاد أو على الانفراد لا تملك أن تفعل ذلك .. بل أن هذا الجيل العربي كله لا يملك على الإطلاق شيئاً من هذا أو ذاك . لهذا فإن كل الاتفاقيات والعقود والمعاهدات التي يبرمها النظام الإقليمي على الاتحاد أو على الانفراد، باطلة ولا أثر قانوني لها . . . وبالتالي فإن على الأمة العربية وقواها الفاعلة ، وهذا الملتقى منها، أن تضع خططاً لتحرير فلسطين . . كل فلسطين واستعادتها أرضاً محررة وشعباً متحرراً من وطن الأمة وشعبها ، وهذا يقتضي رفض صفقات (السلام الشامل) قبل صفقات (السلام المنفرد)، وفضح ما وراء المصطلحات المشبوهة .

2 - إن الحل القومي لقضية فلسطين لا يضمن استعادة حقوق الأمة العربية وحسب، وإنما يحقق الشروط الإنسانية للمرتزقة الأوروبيين الذين جندتهم الحركة الصهيونية بإشراف الاستعمار البريطاني، ذلك أن إعادتهم إلى مجتمعاتهم التي تم انتزاعهم منها بالعنصرية هو الحل الإنساني الوحيد لمشكلتهم، كما أن إعادة اليهود العرب إلى بيوتهم في بغداد ودمشق والدار البيضاء والقاهرة وصنعاء والخرطوم وغيرها هو الحل الإنساني الوحيد لمشكلتهم، وإذا كان لابد من محاسبتهم فإن ذلك سيتم ضمن القواعد الإنسانية والتسامح الذي عُرِفت به الأمة العربية عبر عصورها، ولعل التجربة الأخيرة لتفكيك الجيش الصهيوني في جنوب لبنان دليل لا يضاهى على سماحة هذه الأمة .

3 - إن الحركة الصهيونية لم تكن في أي يوم من الأيام حاجة يهودية، وإنما كانت ومنذ البداية حاجة استعمارية التفت إلى أهميتها الساسة البريطانيون للحفاظ على شريان السويس وتجزئة الأمة العربية .. وإذا كانت دولة الولايات المتحدة الأمريكية قد ورثت مؤسسات الاستعمار البريطاني، فإنها ورثت فيما ورثت دول النظام الإقليمي في الوطن العربي، دولة الصهاينة في فلسطين ، وإذا كانت دولة الصهاينة جزءاً من آلة الاستعمار البريطاني للوطن العربي فإن دولة الصهاينة ليست أكثر من مخفر متقدم للإدارة الأمريكية فيما يسمونه (الشرق الأوسط)، وإن رئيس الوزراء الإسرائيلي مهما تم تلميعه ليس أكثر من رئيس مخفر للشرق الأوسط لدى الإدارة المحلية .

إن فهم ذلك والتأكيد عليه في منتهى الأهمية لإزالة التضليل والأوهام، فدولة الولايات الأمريكية، وليس (إسرائيل)، هي العدو الرئيسي والأصيل للأمة العربية في هذه المرحلة التاريخية كونها تقود قوى الهيمنة الأنكلوسكسونية على العالم . وإن مؤسسة الدولة الصهيونية تتكامل مع مؤسسات النظام الإقليمي في فرض الهيمنة الأمريكية على الوطن العربي وبالتالي على العالم .

4 - إن النظام الإقليمي في الوطن العربي يستنزف الثروة الإستراتيجية الهامة للأمة العربية، ويطلق يد دول الهيمنة وشركاتها متعددة الجنسيات لتبديد تلك الثروة العظيمة حيث أن أمراء النفط لا يحصلون من ثمن النفط إلا على ما يعادل أجرة الحراسة ، ذلك أن سعر النفط يذهب إلى الدول الأوروبية على شكل ضرائب ولشركات النفط الأجنبية ، وحتى هذا الجزء اليسير الذي يعطى لأمراء النفط مقابل الحراسة يتم استرداده بطرق مختلفة .

لهذا فإن مصلحة الأمة العربية إيقاف استنزاف النفط العربي إلى أن تستعيد الأمة العربية استقلالها وتسترد مصادر ثروتها النفطية ثم تنظم الإنتاج وفق احتياجات السوق العالمي .

عجيب أمر هذا النظام العالمي الإمبريالي الذي يدعو إلى اقتصاد السوق وأسعار السوق باستثناء النفط ، فإن أمر الإنتاج والتسعير تحت الهيمنة الدولية .. !! للولايات المتحدة وشركاتها الاحتكارية .

5 - لابد أن يؤكد هذا الملتقى على أن فتح الأرض العربية لإقامة قواعد أجنبية تنطلق منها طائرات العدوان وصواريخه، وكذلك فتح المياه الإقليمية لسفن الأعداء للإغارة على أبناء شعبنا العربي في العراق، حرام وأن على الشعب العربي في كل مكان أن يقاوم قواعد العدوان بكل الوسائل والأساليب .

6 - إن حصار قوى العدوان لأهلنا في العراق جاوز كل الحدود التي يمكن احتمالها ، لهذا فإنني أدعو هذا الملتقى الكريم للانتقال من مواقع الشجب والإدانة والمطالبة إلى مواقع الفعل، وبناءً عليه أقترح أن ينتقل هذا الملتقى في الحال لعقد دورة استثنائية في بغداد، تحدد فيها المواقف الحاسمة، وهذا أقل ما يمكن فعله في هذه الظروف المصيرية .

7 - يجب أن يساهم هذا الملتقى في حركة النهوض الشعبي العربي التي تشهدها الساحة العربية هذه الأيام لبناء مؤسسات المجتمع العربي الأهلية من أحزاب ومنتديات وتجمعات ثقافية وسياسية ومهنية ، ليكون هذا الملتقى حاضنة للحوار البناء والجدل الاجتماعي بين كافة قوى وتيارات الأمة الحية الإيجابية .

8 - تفعيل مؤسسات مقاطعة العدو الصهيوني، واستكمال أسس بناء مؤسسة قومية مركزية للتنسيق بين مؤسسات مقاومة التطبيع في الوطن العربي ورعاية نشاطاتها .

9 - نزع فتيل الفتن الطائفية والمذهبية والأثنية التي تحاول القوى المعادية اللعب عليها لتفجير المجتمع العربي من الداخل، وذلك بتوسيع دوائر الحوار لوضع تلك الانتماءات الطائفية والمذهبية والأثنية و الدينية في إطار وبوتقة الانتماء للأمة العربية الواحدة ، وذلك ليس فقط لاستعادة عافية المجتمع العربي ومقدرته على المقاومة والنهوض، وإنما أيضاً لإزالة شوائب عصور الانحطاط والتبعية والتشويه وإبراز أصالة هذه الأمة وحضارتها وعظمتها .

بيروت : 15 / 10 / 2000 **حبيب عيسى**

فهل تجدون في هذا الموقف جرماً ما...؟

الفصل الرابع

الأسباب البعيدة

(المفترضة)

أيها السادة،

78. لقد قمت بأمانة وصدق بإحصاء أنفاسي على مدى السنوات الثلاث الأخيرة، ونشرت أمام محكمتكم الموقرة مواقفي كلها.. وتجاوزت ذلك فحدثتكم حتى عن الأحلام والنوايا.. ورغم ذلك فإنني لست على يقين بعد بأن سبب اعتقالي يعود إلى أحد الأسباب التي وردت، أو بعضها، أو جميعها معاً.. وبما أنه لا يمكن أن أنسب للذي، أو للذين قرروا اعتقالي أن ذلك الاعتقال تمّ دون سبب جوهري، وبما أنه لا شك أن الكيل قد طفح من مواقفي عند البعض، أو كما قيل لي في التحذير الأخير الذي تلقيته قبل 48 ساعة من اعتقالي، بأن تنفيذ قرار الاعتقال متوقف على شعرة رفيعة، فإن البحث يجب أن لا ينحصر في لحظة أن طفح الكيل، وإنما لا بدّ من البحث في أعماق الكيل لكشف مكنونات هذا الكيل ومحتوياته...

79. لهذا دعوني وإياكم نطارد الأشباح على مدى السنوات الخمس والثلاثين الأخيرة من حياتي، راجياً أن لا تملوا من ذلك، خاصة أنني معزول في زنزانتي، وأنتم شغلي الشاغل الآن... بل أنتم الوحيدون الآن الذين أستطيع مخاطبتهم، وبالتالي فإنه من حقي عليكم أن أكون أنا أيضاً من بعض مشاغلكم، فهذا على الأقل يساعدني على الحلم واستمراره مغادراً على أجنحته هذه القضبان السوداء التي تنتصب كالسد بيني وبين الوطن، وبين الحياة والحرية...

80. لكن، وحتى لا تتحول هذه المرافعة إلى سيرة ذاتية، فإنني سأكتفي بالوقوف عند محطات خمسة كانت الأبرز من حيث احتكاكي بالسلطات، أو ما يمكن أن تكون تلك السلطات قد راكمته خلال تلك السنوات فطفح الكيل أخيراً، وأودعتني السجن...

81. المحطة الأولى: في عام 1976 كنت صحفياً في التلفزيون السوري عندما نُدبت منه إلى مؤسسة الوحدة للصحافة، ومنها إلى صحيفة الفداء في حماة، وقد شهدت تلك السنوات، وما تلاها، أحداثاً جسيمة، بدأت بمأساة تل الزعتر في بيروت وامتدت إلى جريمة كامب ديفيد مروراً بتطورات الحرب الأهلية في لبنان، أو كما سميتها في حينه الحرب الصهيونية على لبنان لامتصاص الفوران الثوري العربي بفتن طائفية ومذهبية مقيتة... وكنت ومازلت أعتبر الدم العربي عامة، والفلسطيني خاصة، حراماً أبداً متمثلاً قول جدنا العظيم محمد بن عبد الله (ص): "الحلال حلال أبداً، والحرام حرام أبداً".. وعلى صعيد قضية فلسطين، فإنني لم أعتبر يوماً أن قضية فلسطين هي قضية شعب فلسطين، أو جزء منه، وإنما قضية الأمة العربية جمعاء، وبالتالي فإنها قضيتي الشخصية، وأن لي حقوقاً شخصية في حيفا ويافا والقدس وبئر السبع، لن أتنازل عنها تحت أي ظرف، أو لأي سبب كان.. لذلك فإنني اعترضت على ما سُمي الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، لأنني كنت أعرف أنه مصطلح مضلل يخفي وراءه التنازل عن معظم فلسطين للصهاينة، بحجة أن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني هي إقامة دولة في أريحا وغزة إلى جانب دولة الصهاينة. وقد اعتبرت دائماً، ومازلت، أن قضية فلسطين هي قضية أرض محتلة، وأن الحل العادل الوحيد هو تحريرها من الغاصبين، وأن أرض فلسطين هي ملكية مشتركة للأجيال العربية المتعاقبة، لا يملك أحد من هذا الجيل، ولا هذا الجيل كله، ولا جماعة في منظمة إقليمية، ولا دولة، ولا مجموعة دول، ولا هيئة دولية أو إقليمية أن تساوم عليها، أو تقرر مصيرها، تفريطاً أو مقايضة أو مساومة، لأن مصيرها قرره التاريخ وحددته الجغرافيا... وأنا كقومي عربي صدقت تماماً، ومازلت أصدق، رغم المحن والخيبات والانكسارات، أنني أنتمي إلى أمة عظيمة أنتجت حضارات عظيمة، وبالتالي فإنني أقبض على هويتي وعلى انتمائي لأمتي العظيمة، وأنها محنة.. وستمضي، لأن هذه الأمة لا تستحق هذا الهوان الذي تعيشه، وأنها قادرة إذا استعادت إرادتها أن تغير الأحوال ليس في الوطن العربي وحسب، وإنما على مستوى النظام العالمي برمته، ذلك النظام الجائر الذي تفرضه القرصنة والجشع وقوانين المنفعة الأمريكية على العالم.. بهذا المعنى، فإنني أحسست في طفولتي أنني جزائري مع انطلاقة ثورة الشهداء المليون، ثم أحسست أنني من ظفار في الخليج مع ثورتها ضد الإنكليز، ثم أحسست أنني مصري مع العدوان على بور سعيد، ثم أحسست أنني من جنوب اليمن، وجبل أرتيريا، ووديان الصومال، وجنوب السودان،وأنني من برقة في ليبيا، ومن بنزرت في تونس، ومن مراكش في المغرب وصولاً إلى نواكشوط في موريتانيا.. وصولاً إلى جنوب العراق وشماله، لكنني مع ذلك كله، قبله وبعده، كنت ومازلت من فلسطين التي لم أدخلها يوماً، لكنها في قلبي ووجداني مقيمة أبداً، لن أفرط بها ولا بجزء منها تحت أي ظرف، وسيرثها أولادي من بعدي.. ولا يملك أحد في هذا العالم أن ينازعني أو ينازعهم، أو ينازع أولاد العرب أجمعين، حقهم فيها... إن أرض الوطن ليست نتفاً يملكها إقطاعي هنا، أو سمسار هناك، ليساوم عليها بيعاً أو مقايضة أو هبة أو تنازلاً، لأنها ملك للأجيال المتعاقبة للأمة...

82. المهم أنني كنت في جريدة الفداء بحماة، في ذلك الوقت، وربما تسربت هذه الأفكار أو بعضها إلى الصحيفة، ففوجئت بكتاب استدعاء عاجل لمقابلة المدير العام لمؤسسة الوحدة بدمشق، قابلني بانفعال شديد متسائلاً عن علاقاتي بالقضية الفلسطينية والفلسطينيين، ثم أشار إلى درج مكتبه، وقال: لقد وصلتني تقارير مطولة من أجهزة الأمن في حماة، ومن محافظ حماة،عن أنشطة ومواقف تقوم بها لصالح الفلسطينيين.. ثم، (وبلهجة فيها من التهديد والحرص في الوقت ذاته) إنك تجاوزت كل الحدود على ما يبدو، وأنا حريص عليك وعلى سلامتك... كل ما أذكره أنني أردت أن أنهي هذا اللقاء بهدوء.. فشكرته، واعتذرت منه عما سببته له من متاعب هو بغنى عنها.. ثم قلت له: إنني مندوب من هيئة الإذاعة والتلفزيون، وأرجو أن تطلب إنهاء ندبي وإعادتي إلى هيئة الإذاعة والتلفزيون بدمشق... أتذكر ذلك كله الآن في سجني لأتساءل: تُرى، هل تلك التقارير الذي حدثني عنها قد آن أوان الحساب عنها، وأنها أخذت حيزاً من الكيل الذي طفح أخيراً..؟

83. المهم أن موقفي من القضية الفلسطينية ليس خافياً على أحد، ولا يمكن حصره في فترة زمنية محددة من حياتي، بل يمتد معها، وسيبقى مرافقاً لها حتى تحرير فلسطين، أو انقضاء العمر، أيهما أولاً.. ففي أوائل التسعينيات من القرن المنصرم دُعيت لحضور المؤتمر الإسلامي لدعم الانتفاضة في فلسطين، عُقد المؤتمر في بيروت، وتقدمت بمداخلة عن الموقف من الانتفاضة في فلسطين، وهذا نصها بالحرف الواحد:

84. الانتفاضة

من قلب فلسطين إلى عقل الأمة

مداخلة المحامي حبيب عيسى

بيروت 14 – 16 / 12 / 1992

(1)

لعله من دواعي الثقة بالمستقبل أن يتداعى هذا الجمع لدعم انتفاضة الأهل في فلسطين ، وإن كنت أرى أن واقع العرب والشعوب المستضعفة في العالم أولى باستدعاء تلك الانتفاضة إلى ساحة الوطن العربي والعالم لدحر عدو شرس متعدد الأشكال موحد الأهداف تشمل أطماعه ثروات العالم بكليتها ، وهو لذلك يضع شعوب الأرض قاطبة على لائحة الاستعباد ، أو الإبادة إذا لزم الأمر ، وبالتالي فإن تلك الشعوب ترنو إلى الانتفاضة ، وتصبوا إلى ذلك اليوم الذي تثمر فيه تلك الدروس البالغة الدلالة التي يلقيها أطفال فلسطين العربية باقتدار وصبر واستمرارية وإعجاز قل نظيره في التاريخ البشري .

هكذا فإن الذين يتنادون لدعم الانتفاضة يجدون أنفسهم لو تبصروا واقعهم أنهم أولى بالدعم ليرتقوا إلى مستوى الانتفاضة ، أو إلى مستوى قريب منها فيتنكبون مسؤولياتهم التاريخية لتوسيع دائرة الانتفاضة لتشمل الوطن العربي بأكمله وأوطان الشعوب المقهورة في العالم ويحاصروا مراكز العدو وقواعده واحتكاراته ، ومصالحه ، فبذلك وبذلك فقط يتم فك الحصار عن الانتفاضة .

إن العدو الأمريكي الأوروبي الصهيوني المتعدد الجنسيات يعتمد اعتماداً رئيسياً على القاعدة العنصرية في فلسطين لكنه يعتمد على قواعد ومراكز عديدة تغطي ساحة الوطن العربي ، وتمتد إلى أوطان الشعوب المتاخمة ، بل أن القاعدة الصهيونية في فلسطين ليست إلا قاعدة إنذار مبكر لقوى الهيمنة الدولية ، في قلب الوطن العربي مهمتها الأساسية صيانة وتقديم قطع الغيار لتلك الكيانات السياسية التي تحتل أرض الوطن العربي وتزرع الاستبداد والتعسف في كل مكان . وتؤمن لقوى الهيمنة طرق النهب والاستغلال بالطريقة المناسبة من جهة ، وتسهر على شل مقدرة الأمة العربية من جهة أخرى لأن السيطرة على الوطن العربي تعني أن ما يليه شرقاً في آسيا ، وما يليه جنوباً في أفريقيا أصبح تحت السيطرة والتحكم .

لقد كان أولى بتلك الحجارة التي تدمي رؤوس العدو الصهيوني في فلسطين أن تحفز عقولنا وإرادتنا لإبداع أساليب وتحرير إمكانيات وتحريك أدوات قادرة على إحداث تهديد مباشر لقواعد ومراكز وقوى دول الهيمنة الاستعمارية المنتشرة في الوطن العربي ، ليس بهدف فك الحصار عن الانتفاضة وحسب ، ولكن لفك الحصار عن إرادتنا وتحرير أوطاننا وشعوبنا وإمكانياتنا ابتداءً من الوطن العربي وانتهاء بمقاومة أخطبوط الهيمنة في كل مكان من العالم . وحتى نستوعب هذا الدرس ، وحتى نحرر إرادتنا من الهيمنة الخارجية ، ومن عوامل التخريب الذاتية ، ونبدأ تنفيذ هذه المهمات فإننا وفي ظل الأوضاع السائدة ، لسنا قاصرين ، وعاجزين عن دعم الانتفاضة وحسب ، وإنما في أمس الحاجة لتلقي الدعم من عزيمة وإصرار وصلابة أطفال فلسطين الأبطال لعل الله يغير ما في نفوسنا فنصبح قادرين على تغيير واقع الذل والمهانة والاستبداد والتخريب والتغريب ، وليكتب التاريخ بعد ذلك أن أطفال فلسطين العربية الأماجد حفزوا أمتهم العربية ، والشعوب المقهورة في العالم ، وكانوا الحادي لهم طيلة سنوات يدقون أبواب الحرية ، أبواب التاريخ لتحريك ثورة تطيح بالنظام العبودي الربوي الذي هيمن على شعوب العالم قروناً عديدة ، ونفذ من المجازر والفظاعات الوحشية بحق الإنسانية أضعاف ما عرفته في عصورها البدائية الممتدة .

(2)

إن في هذا الإصرار على تأكيد هذا المدخل في الحديث عن الانتفاضة تأكيداً على إعادة صياغة مفردات الخطاب العربي التي تعرضت عن عمد وإصرار إلى تشويه بهدف اغتصاب العقول العربية ، لقد شوه الإعلام الدولي ، ومراكزه المحلية في إعلام ما يسمونه دولاً عربية ، علاقة

العربي بأرضه في فلسطين عن طريق وضع القضية خارج إطار الوطن ، فهي ليست قضيته ، وإنما هي قضية على الحدود ، قضية جوار ، ثم وفي خطوة أخرى هي قضية لها أصحابها الخصوصيون ، ثم أن المهمة هي تقديم الدعم والمساندة ، ثم أن هذا الدعم وتلك المساندة تجلب الأخطار وتنهك الاقتصاد ، وتقلل الأجور وصولاً إلى أن القضية عبء ثقيل لنرمها عن أكتافنا .

لقد آن الأوان وبعد كل هذا الذي جرى أن نعيد امتلاك عقولنا وقضيتنا أولاً ، لقد آن الأوان أن يختفي الحديث عن المنة والتضحيات ، والفواتير ، وقوائم الحساب التي قدمت لما يسمونه القضية الفلسطينية ، إن أحداً في الوطن العربي ، وفي العالم المقهور ليس دائناً لفلسطين العربية ولا بنقطة دم واحدة ، ولا بدرهم واحد ، بل أن القضية معكوسة تماماً نحن جميعاً مدينون لأطفال فلسطين ، إنهم يدافعون عن حرياتنا ، يقاتلون عدواً احتل أرض فلسطين لا من أجل فلسطين ولكن من أجل الهيمنة على ما يسمونه منطقة الشرق الأوسط بأسرها وبالتالي فإن كل شعوب وأمم تلك المنطقة الممتدة في أفريقيا وآسيا مدينة لتلك الأيدي الطاهرة التي تقاوم أولئك القراصنة الأشرار الذين تمتد أطماعهم في كل الاتجاهات .

فنحن أيها السادة لسنا في مجال دعم الانتفاضة وإنما في مجال تلقي الدعم منها ، لقد تحررت إرادتهم فتحررت أيديهم فواجهوا العدو ، نحن نرنو أن نصل إلى هذه المرحلة المتقدمة .

(3)

انطلاقاً مما تقدم ، فإن الحديث الجاد ، يقتضي أن نتداعى إلى كلمة سواء فيما بيننا ، وأن نبحث في الجوهري من المشكلات ، وأن نمتلك من الشجاعة ما يكفي لتصويب مسار توجهاتنا ، ومعالجة الإشكاليات التي تعيق تحرر الإرادة وبالتالي إمكانية الفعل الإيجابي ، وأن نكف عن التعامل مع الأوضاع التي راكمتها عصور التخلف والاستلاب والاستبداد على أنها مسلمات لابد من التعامل معها كما هي . وإنما على أنها إشكاليات يجب حلها . فقد آن الأوان أن نعالج هذا الفصام الحاد بين القول والفعل في الوطن العربي ، وآن الأوان كي نمتلك القدرة على استثمار الثقافة والوعي كسلوك وممارسة ، فقد اكتشفنا بعد سنين طويلة من تشكل الأحزاب السياسية والمنظمات السياسية وغير السياسية في الوطن العربي ، أن هناك طلاقاً بيّن بين الفكر والممارسة ، وأن الخطاب السياسي العربي بقي على السطح يغطي تشوهات حادة في أوقات الانتصارات الآنية ، لكن ما أن تبدأ النكسة حتى ينكشف أن كل حال على حاله ، وأن الفتن والعصبيات ، ومشاعر العداء والثأر على حالها تنتظر أي مؤثر خارجي وهو جاهز على أية حال – لتطل برأسها .

(4)

لقد آن الأوان ، واحتراماً لأطفال فلسطين الذين نجتمع على هامش بطولاتهم أن نفكر بجدية أكبر لتهيئة الظروف والإمكانيات وتحويل الكلام عن تلاحم المناضلين والمقاومين والمجاهدين إلى ميدان التحقق والفعل ، وهذا يقتضي الارتقاء الحقيقي إلى أعلى درجات الوعي والتبصر من جهة ومواجهة الإشكاليات الموروثة والمستحدثة بالحوار البناء ، والمواقف الحقيقية ، وليس بالمداراة والتأجيل ، وصولاً إلى حلول حقيقية توحد الرؤى أو على الأقل تؤدي إلى التعدد الذي يرص صفوف القوى المجاهدة الشريفة متلاصقة كتفاً إلى كتف ، وساعداً إلى ساعد ، في الخندق الممتد طويلاً على امتداد الوطن والعالم المقهور لمواجهة قوى العدوان والهيمنة والعنصرية الأوروبية والأمريكية .

فبهذا وبهذا فقط ، نرتقي إلى المستوى الذي يليق بانتفاضة الأهل في فلسطين ، خاصة وأن معظم الإشكاليات التي تعيق حركة التحرر وتعيق انطلاقتها تتعلق بمواقف موروثة ، وأفكار يسلم بها أصحابها دون تمحيص وتدقيق ، وهي قائمة بفضل الاستمرار وبفعل التثمير الخارجي وبفعل الكسل الذي أصاب كوادر حركة التحرير ، فلنضع حداً لمرحلة الجمود ، وتقديس الإشكاليات ، وليفتح الباب واسعاً للعودة إلى البحث والاجتهاد تطلعاً إلى أحد الأجرين على الأقل .

لقد أدى الانقطاع عن البحث والاجتهاد من جهة وتقطع أوصال الحوار ، من جهة أخرى إلى تحجر بعض المواقف والمغالاة المفسدة للرأي السديد في مواقف أخرى ، ولنلاحظ هنا أن نهج التفتيت والمزيد من التفتيت هو القاسم المشترك الذي عزف عليه أعداء أمتنا طويلاً وانساق إليه الكثيرون .

(5)

<u>الإشكالية الأولى : العروبة والإسلام :</u>

في واقع الأمر ليس للعروبة أية إشكالية مع الأديان السماوية ، فهي الحاضنة لتلك الأديان وهي أداة توصيلها للإنسانية جمعاء . ورغم كل ما أثير حول إشكالية العروبة والإسلام من ضجيج فنحن نرى ببساطة شديدة أن هذه الإشكالية مصنعة من الألف إلى الياء ، وأن القومية العربية هي الإطار السياسي النضالي للإسلام في الوطن العربي ، وأن الإسلام هو العامل الأساسي المكون للأمة .

وإذا كان الإسلام عقيدة دينية أضيفت إلى الشعوب والأمم الأخرى ، وأصبح الإسلام بذلك ديناً لشعوبها أو بعض تلك الشعوب فإن الإسلام هو الذي نقل العشائر والقبائل والشعوب العربية من مرحلة القبلية والشعوبية إلى مرحلة التكون القومي ، وبه أصبحنا أمة عربية مكتملة التكوين وبذلك أضحى أي عدوان على وحدة الأمة العربية عدواناً على الإسلام في حقيقة الأمر .

ونحن هنا لا نتحدث عن العرق العربي أو العنصر العربي وإنما نتحدث عن الأمة العربية بالمفهوم الحضاري الإنساني الشامل فالقبائل والعشائر والشعوب بمختلف أروماتها وتنوع مصادرها التي كانت تقطن هذه المنطقة بين المحيط والخليج ، والتي تقاربت فيما بينها بالتفاعل المشترك رفع عنها الإسلام كابوس الهيمنة الخارجية / الفارسية والبيزنطية / وحررها من العصبية القبلية فتوحدت أمة ، وإذا كان العرب قد حملوا الرسالة إلى حيث استطاعوا فإنهم بلغوا الرسالة وتركوا تلك الشعوب كما هي :

فارسية ، أو تركية ، أو أفغانية ، ورفعوا عنها التسلط ودعوها إلى الأخوة في دين الله .

وعندما ذهبت الفتنة بريح العرب فإنها ذهبت بريح المسلمين في الوقت ذاته وفي كل مكان .

ورغم الدور الهام والبارز الذي لعبته العروبة كحاضنة للإسلام والقومية العربية كمحصلة له فإننا نرفض أن نعطي العرب أي امتياز على الشعوب والأمم الأخرى فهذه عنصرية لن نعود إليها بعد أن حررنا منها ديننا الحنيف ، ولكننا في الوقت ذاته ومن الموقع ذاته نرفض إعطاء الآخرين أياً كانوا هذا الامتياز وللأسباب ذاتها .

وإذا كنا ندعم وحدة الشعوب الإيرانية ، ووحدة الشعوب التركية والأفغانية ، فإن من حقنا على إخواننا المسامين في العالم أن يدعموا وحدتنا العربية ، لأن في ذلك قوة للمسلمين في كل مكان بل أن في ذلك مصدراً أساسياً لقوتهم .

إن العدوان الأوروبي الأمريكي على شعوب وأمم الأرض قاطبة والذي صاغ ما يسمى النظام العالمي القديم الجديد لم يكن ليتحقق إلا ببسط السيطرة ووضع اليد غير المشروع على الوطن العربي أولاً ونزع تلك اليد الشريرة لن يكون إلا بتوحيد النهج النضالي العربي ودعم وتكاتف الشعوب الإسلامية حول مشروع توحيد الأمة العربية .

(6)

باختصار شديد إن مهام النضال القومي العربي هي ذاتها مهام نضال العرب المسلمين فكما أن مهمة المسلمين في إيران هي الحفاظ على وحدة الشعب الإيراني وتحقيق العدالة والمساهمة في بناء التقدم، وكذلك في كل ديار المسلمين فإن مهمة العرب المسلمين هي تحرير العرب وتوحيد أرضهم وبناء نهضتهم وتقدمهم . وبالتالي فإني لا أرى حاجة لواو العطف التي تفصل بين العروبيين والإسلاميين ، واسمحوا لي أن أكون حاسماً في هذه النقطة فالانتماء للإسلام هو انتماء إلى عقيدة دينية والانتماء إلى الأمة انتماء إلى تكوين اجتماعي تاريخي ، وبالتالي فإن الإسلام ليس صفة سياسية يطلقها البعض على جماعة بشرية ، أمة، أو قبيلة ، أو شعب ، أو جماعة سياسية ، وينفيها عن البعض الآخر .

(7)

إن العرب المسلمين في جبل عامل وجنوبي لبنان ، وصيدا وبيروت والشوف وطرابلس ودمشق والسويداء وجبال العلويين ، ووادي الإسماعليين وحلب والقاهرة وأسوان وفي كل ديار العرب من بغداد إلى الدار البيضاء الذين رفعوا رايات القومية العربية والجمهورية العربية المتحدة جهاداً وتنظيماً ومقاومة في الخمسينات لم يتنازلوا عن إسلامهم لصالح القومية العربية ، وإنما كان الإسلام بجوهره التوحيدي الجهادي يسكن ذواتهم ، وكانت جهودهم الإيجابية تلك ، ممارسة عملية لما يمليه عليهم الإسلام من مبادئ إنسانية سامية .

إن الوحدة العربية لا يضار منها إلا أولئك القراصنة ومصاصي الدماء الذين يهيمنون على عالم اليوم بشركاتهم متعددة الجنسيات ، وجواسيسهم متعددي الجنسيات .

إن هذه الوحدة بغض النظر عن النجاح والفشل والإحباط والأمل تبقى الرد العربي إذا شئتم ، والرد الإسلامي إذا شئتم على العدوان الاستعماري الصهيوني ، ونحن بدونها مجموعة من القبائل (لكنها لا تحمل السمات الإيجابية للقبائل السالفة من مروءة وشهامة ، وإنما كائنات متوحشة في مواجهة بعضها البعض مستكينة ذليلة للأعداء في الوقت ذاته) . وأن هذه الوحدة بكل ما يمثله الطريق إليها من جهاد ومقاومة وتحرير مهمة أساسية مطروحة أمام كل الشرفاء العرب مسلمين وغير مسلمين وعلى الشعوب الإسلامية الأخرى أن تتفهم هذه الحقيقة وأن تكون قوى مساندة لتحقيق ذلك ، وأن لا يكرر أحد المراهنة على الحلول الخاطئة .

وإذا كان بعض العرب المسلمين والمسلمين غير العرب يأخذون على بعض القوميين العرب أنهم غربوا واغتربوا ، وانفصلوا عن تراثهم وتاريخهم ودينهم وأنهم يقتتلون فيما بينهم فإن هذا حجة عليهم وليس على القومية العربية .

وإذا كان بعض القوميين العرب يأخذون على بعض العرب المسلمين ، وعلى بعض المسلمين غير العرب أنهم لا يولون الخصوصية العربية الأهمية التي تستحقها ولا يستوعبون مخططات التفتيت والتجزئة الإمبريالية التي تستهدف وطنهم ، وأنهم زادوا الطين بلة بتشرذمهم حول مذاهب متعددة متصارعة ، فإن هذا حجة عليهم وليس حجة على الإسلام .

إن القومية العربية بوضعها الراهن لا تفيد المسلمين في العالم ولا الشعوب المستضعفة شيئاً ، وأن العرب عالة على أنفسهم وعلى الشعوب المستضعفة الأخرى ، وأن التجزئة الراهنة تضع الثروات والإمكانيات العربية والمواقع العربية في خدمة الآلة الأمريكية الصهيونية الدولية التي لا تستهدف سحق الوطن العربي وحسب ، وإنما تستهدف طحن شعوب العالم قاطبة . وهذا يعني أن الانطواء الكفاحي الجهادي تحت راية توحيد الأمة العربية يعني في الوقت ذاته تحرير قاعدة هامة ومرتكز أساسي لتحرير الشعوب المستضعفة وحركات التحرر في كافة أرجاء الأرض .

(8)

<u>الإشكالية الثانية : المذهبية في الإسلام :</u>

لقد كان الاجتهاد في الإسلام عامل تطور وتقدم وتعامل حي مع الظروف البشرية المتغيرة تحمل بواسطته أجدادنا الأوائل مهام حمل الرسالة ، والإجابة على الأسئلة المستحدثة والإشكالات المتجددة ، بعد انقطاع الوحي ووفاة سيد المرسلين وخاتم النبيين ، لكن الفتنة وما تبعها وترتب عليها من ظلم وجور واستبداد واقتتال وتفرقة وفتك وخوف ، حتى أضحت الكلمة تساوي الحياة ذاتها ، وضعت حدوداً فاصلة بين أصحاب تلك المذاهب ، فتعمق الافتراء والاغتراب ، وتحول بعض حملة تلك المذاهب إلى جماعات خائفة أو مخيفة ، قاتلة أو مقتولة ، وأدى هذا بدوره إلى الثأر والثأر المضاد وتصاعد عدد الضحايا الذين يذهبون بالخطأ ولمجرد الشبهة .

ولست هنا بصدد البحث عن الحق والباطل في كل ما جرى فالحق بيّن والباطل كذلك . وعلى الحق أناس من المذاهب كافة ، ومع الباطل كذلك .

ولكن البحث هنا محصور بنتائج تلك الفتنة ، فقد سالت دماء غزيرة ، والدماء تخلق حدوداً من البغضاء من جهة وحدوداً من المغالاة وقطع طرق الوصل من جهة أخرى ، وقد ترتب على ذلك كله خطاب قطعي حاسم ، كل طرف ينسب إلى نفسه الإسلام ويحجز الجنة لصالحه بحيث لا مكان للآخرين بها .

لقد مر على الفتنة حوالي ألف وأربعمائة عام ، وأدت إلى الكوارث التي تعرفون وتعيشون فهل خطر ببال أحد منكم أن يضع حداً حاسماً لها .

إنني لا أدعو إلى التسوية بين الحق والباطل : فالحلال حلال أبداً والحرام حرام أبداً .

لكنني أدعو إلى وقفة حق يتداعى فيها الجميع إلى كلمة سواء يتبادلون المعارف ويدققون المواقف ويخرجون على الناس بخطاب إسلامي واضح لا لبس فيه ولا غموض ، فمن غير المعقول ولا المقبول أن يبقى الخطاب العدائي الذي صيغ في ظل المذابح والاقتتال والاضطهاد هو الخطاب السائد حتى الآن ثم أرجو أن تسمحوا لي ، وأن تحتملوا صراحتي ، إنني أفهم أن المسلم هو ابن المسلم بالفطرة إلى أن يرتد علناً ، لكنني لا أفهم إسلامياً أن يكون ابن مسلم من مذهب معين هو منسوب إلى ذلك المذهب حكماً بالنسب. ذلك أن المذهب مبني على اجتهاد صاحب أو أصحاب المذهب ، وبالتالي فإن الانتساب إليه يكون بالاختيار العقلي بعد الرشد والتدقيق والتمحيص ، فهل يمكن إسلامياً أن نعيد النظر في هذه المسألة ، خاصة وأن القبائل الجاهلية وعبدة الأصنام أنجبوا مع بدء الرسالة خيرة الصحابة والأئمة والمجاهدين في سبيل الله ، وهل يمكن أن نترك أمراً بهذه الأهمية يحسمه النسب وحسب ؟

وبغض النظر عن الجواب ، فإن الخطاب الإعدامي التكفيري الذي أنتجته الفتنة من كل فئة تجاه الفئات الأخرى آن له أن يعاد النظر فيه ، فمن غير المعقول ، ولا المقبول أن يكون للعرب المسلمين بكل مذاهبهم وفرقهم (التي لا أعرف عددها) من عدو إلا الصهيونية والإمبريالية والمتعاونين .

(9)

الإشكالية الثالثة : الدول المركبة على أرض الوطن العربي :

ولا أقول الدول العربية ، لأنها دول تحمل صفات صانعيها في الواقع ، وهي دول ترافق قرار تركيبها مع قرار تركيب الدولة الصهيونية في فلسطين ، وقد آن الأوان أن ندرك جميعاً أن تفكيك الدولة الصهيونية في فلسطين مرتبط بتفكيك تلك الدول الخادمة بين المحيط والخليج بنضال موحد الأهداف متعدد الساحات ، إن تلك الدول تحمل مهمتين تخريب المجتمع العربي من جهة والاستبداد بالشعب العربي من جهة أخرى ، وللذين لا يدركون أهمية تلك الدول بالنسبة لأعداء الأمة العربية أن يتعمقوا في دراسة الحرب العالمية الثالثة التي شنتها دولة الولايات المتحدة الأمريكية مع (الحلفاء) لإعادة تركيب دولة الأمير جابر الصباح على خليج الكويت وأن يستوعبوا درس الاستعمار الأمريكي الجديد للصومال ، وأن يمعنوا النظر بالمخططات الجاهزة للعدوان على الأمة العربية بدول جديدة محملة الآن في حاويات الأسطول السادس الأمريكي .

(10)

الإشكالية الرابعة : انشقاقات التيار القومي العربي :

لقد بدأ انحسار التيار القومي العربي عشية هزيمة 1967 وتعمق هذا الانحسار في السبعينيات والثمانينيات واحتشدت في الساحة العربية بدائل من كل لون و نوع ، وللذين يأخذون على التيار القومي العربي انحساره نقول : يكفي أنه بدون هذا الضرب المتلاحق للتيار القومي العربي ، وبدون هذا الانحسار الذي ساهمت فيه سلبيات تتعلق ببنيته وتكوينه ما كانت كامب ديفيد ممكنة ، وما كانت كرنفالات (السلام) غادية آتية .

لقد بدأت تشكيلات هذا التيار القومي وتكويناته تتمظهر وعلى عجل لتلحق بركب الجماهير العربية الغاضبة المجروحة أثر عمليات توريد ما يسمونه (الدول العربية) ، والدولة العبرية ، إلى هيئة الأمم المتحدة في الأربعينات وقد أدى هذا التيار بحدود الملكات التي امتلكها ، والتكوين الذي استطاعه دوره لكن المعركة لم تكن بسيطة بساطة تنظيمات ذلك التيار وبالتالي كان لابد من بدائل أكثر تعقيداً ومقدرةً لتواجه قوى معادية امتلكت من الإمكانيات والأساليب صفوة ما أنتجه العقل البشري عبر العصور.

وهذه الإشكالية في طريقها إلى الحل ذلك أن كوادر هذا التيار وقواه الشريفة تعترف بدون مكابرة وشجاعة عالية على نقد الذات ، أن أخطاء هائلة قد ارتكبت وأن الوطن من مشرقه إلى مغربه بكل تعدديـاته الثقافية والفكرية مفتوح لصياغة برنامج نهوض معاصر ، ورسم خط جديد في العقل وفي الواقع لميلاد جديد .

(11)

الإشكالية الخامسة : العنصرية والإقليمية والطائفية :

لقد أدى انحسار التيار القومي إلى بروز الظواهر المرضية التي كانت قد انحسرت بصعود التيار القومي العربي في الخمسينات والستينات ، وهذا طبيعي ، فعندما يضعف الانتماء للأمة أو يحاصر تبرز الانتماءات الضيقة وصولاً إلى الفردية ففي ظل المخاطر المحدقة بالأمة يحتمي الفرد بطائفته إن وجدت ثم بعرقيته ثم بإقليمه ، ثم بعشيرته ، ثم بأسرته ، ثم بنفسه ، وقد برهنت جروح الفتن التي فتحت في لبنان والعراق وسورية والصومال والسودان والجزائر ، وهي تفتح الآن في اليمن ، أن الاقتتال على هذه الطريقة لا يخدم عرقاً ولا إقليماً ولا طائفة ، إنه يخدم القوى الإمبريالية المعادية للأمة وحسب .

(12)

إن هذه الإشكاليات هي في صلب الحديث عن الانتفاضة ، والتصدي لحلها ، ومواجهتها بصدق ومباشرة هو في صلب أية محاولة جادة لدعم تلك الانتفاضة ومجاهديها الأبطال وحتى نفعل ذلك فإننا لا نملك إلا الدعاء لتبقي قبضات الأهل في فلسطين مشرعة تحفزنا صباح مساء حتى نفعل ما ينبغي فعله .

والسلام على من اتبع الهدى

بيروت جلسة : 15 / 12 / 1992

حبيب عيسى

85. ثم، وبعد اتفاقيات أوسلو بين الإقليمية الفلسطينية والعدو الصهيوني، رأيت أن أحدد بدقة الموقف القومي من قضية فلسطين، فجمعت كل ما قاله المفكر القومي المرحوم د. عصمت سيف الدولة عن قضية فلسطين،

وأصدرته في كتاب تحت عنوان "الطريق إلى أريحا"، وقد قدمت الكتاب بمقدمة أحدد فيه موقفي بكل وضوح، وهذا هو النص الحرفي للمقدمة:

86 . تنويه

بقلم حبيب عيسى

(1)

لا أقصد من هذه الكلمات أن أقدم لكتاب شيخنا وأستاذنا د . عصمت سيف الدولة ، فأنا أعرف أنه لا يحب التقديم ، والمقدمات فلقد كان دائماً يريد لأفكاره أن تقدم نفسها كما هي دفاعاً عن ... وهجوماً على ... وبحثاً دائماً عن الحقيقة والمعرفة العلمية ، وهو القائل : (لقد كففت عن تقديم كتبي منذ سنين ، أفضل أن يكون الكتاب قادراً على أن يلتقي بقارئه كما هو بدون تقديم وأرى المقدمات محاولات يريد منها المؤلفون أن يكونوا حاضرين لقاء كتبهم وقارئيها . وهم لا يحضرون صامتين بل منحازين إلى كتبهم لافتين القارئ إلى ما يعتقدون أنه يستحق انتباهاً ... ولست أضيق بالمقدمات وحدها بل أضيق بأسماء المؤلفين . ولست أشك لحظة في أنه عندما ترفع عن الكتب مقدماتها وأسماء مؤلفيها ستكون أقدر على أداء وظيفتها الثقافية . وإنا لنعرف هذا معرفة اليقين من واقع حياتنا الثقافية في الوطن العربي حيث حملت الأسماء (الكبيرة) كتباً تافهة إلى عقول الناس ، وحيث لم تلتق أفكار عبقرية بعقول الناس لأن أسماء الناشئة من أصحابها لم تكبر بعد ... فمن حقنا أن نترك لكل كتاب فرصة تتفق مع قيمته الحقيقية بدون إضافة من خارجه ، وأن نترك لكل قارئ فرصة اللقاء بكتابه بدون إغراء أو عداء ، فلا نضيف إلى ثقل الكتاب ثقل صاحبه ولا نغري القارئ أو نستفزه بما نضيف إلى الكتاب من مقدمات أو أسماء ...) .

إلى هنا وينتهي رأي د . عصمت سيف الدولة ، وكان يجب أن تنتهي معه رغبتي الجامحة في قول كلمة بموضوع هذا الكتاب ، فأقدمه للقارئ العربي ، بدون كلمة أو توضيح ، ولكن طبيعة مادة هذا الكتاب ، وموضوعه ، قد ألحّا عليّ بأن اجتهد(رغبة في أحد الأجرين على الأقل) ، فأوضح للقارئ العربي أن مادة هذا الكتاب قد انتشرت على مساحة ما يقارب الثلاثين عاماً بدءاً من عام 1965 ، وهي السنوات الأكثر حسماً ، وكثافة في الأحداث والرؤى والتطلعات والمواقف ، وكل ما أرجوه : أن لا تكون هذه الكلمات إغراءً ، ولا استفزازاً ، وإنما مجرد تنويه ، وتذكير .. فلعل الذكرى تنفع المؤمنين .

(2)

ثلاثون عاماً انقضت منذ أن أشهر د . عصمت سيف الدولة منهج " جدل الإنسان " ، ومنذ ذلك التاريخ ، وهو يدرس الظواهر والمشكلات من منظور " جدل الإنسان " ، كمشكلة تجد حلها الإنساني الصحيح انطلاقاً من الموقف القومي ، وتنفيذاً بالفعل والجهد القوميين ، وصولاً إلى غاية قومية وإنسانية نبيلة ، ممسكاً في ذلك كله بمنهجه الجدلي الإنساني راسماً الخط الفاصل بين الطريق القومي لتحرير فلسطين ، وبين الطريق الإقليمي للتفريط بفلسطين ، بين الطريق القومي إلى دولة العرب الديمقراطية الاشتراكية ، وبين الطريق الإقليمي إلى مستعمرة أخرى تضاف إلى المستعمرات التي تحتل أرض الوطن العربي طولاً وعرضاً تقوم على أساس مقايضة بعض فلسطين ببعضها الآخر ، بين الطريق القومي إلى وحدة الوطن والأمة ، وبين الطريق الإقليمي إلى الشرق أوسطية والتفتيت ، ورغم أن أحداثاً كثيرة تتابعت في هذه الفترة الزمنية الممتدة من منتصف الستينات إلى منتصف التسعينات ، رغم أن مواقف كثيرة تغيرت وتنوعت وتحولت ، ورغم أن عروض الأزياء السياسية قد تبدلت من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وبالعكس ، فإن الموقف القومي المنهجي عبر عن ثبات ومصداقية لم تزحزحه العواصف والانحناءات وصعوبة الرؤية قيد أنملة عن خطه البياني الصاعد رغم الانهيارات الصاعقة في الواقع . فالإنسان متطور أبداً ، والأمة متطورة أبداً ، والعدوان مهما امتلك من إمكانيات وأدوات ، زائل لا محالة ، وتقسيم الأمة إلى دول وكانتونات ومستوطنات ومستعمرات هو عدوان يكمن الحل في مقاومته وإزالته ومحو آثاره وليس بالرضوخ والاستكانة لأهدافه .

(3)

لقد نتج عن العدوان الصهيوني الاستيطاني الغاشم على القلب العربي في فلسطين لجوء عدد كبير من عرب فلسطين إلى ديار العرب الأخرى بعد المجازر التي ارتكبها الصهاينة في حيفا ويافا ودير ياسين وقبية والجليل وغيرها ... وكان لذلك أثر سلبي لا شك فيه ، تمثل في تشريد أعداد كبيرة من الأسر العربية في فلسطين عن بيوتها وأراضيها .. لكن هذا الانتشار العربي الفلسطيني في ديار العرب كان له أثر إيجابي بالغ ، تمثل في أن عرب فلسطين تحولوا إلى قضية مجسدة للعدوان الذي يستهدف الأمة بأسرها ، وتحولوا في ذروة الشعور بالمأساة في الخمسينات من هذا القرن إلى ما يشبه الصاعق في كتلة الديناميت الجماهيرية العربية الغاضبة . وكان على القوى المعادية أن تجد وسيلة " ما " لإخراج هذا الصاعق من قلب كتلة الديناميت فهو بدونها سينحصر مجال أثره في غزة وأريحا ، وربما الضفة الغربية ، وهي بدونه كتلة هامدة لا تخيف أحداً ، وقد تآمرت الإقليمية في الوطن العربي مع الإقليمية في فلسطين لتحقيق هذا الهدف ، وتحولت قضية فلسطين من قضية تمس الشعور القومي وتجرح الكرامة العربية إلى عبء ثقيل يجب التخلص منها وتحميل مشاكلها وهمومها إلى الفلسطينيين ، وأكملت الإقليمية الفلسطينية المهمة بتحويل منظمة تحرير فلسطين إلى منظمة التحرير الفلسطينية . وبدأ العد التنازلي من تحرير الأمة وتوحيدها إلى تحرير فلسطين ، إلى الدولة العلمانية في فلسطين ، إلى دولة بعض فلسطين ، إلى دولة غزة وأريحا .

(4)

إن ما قاله د . عصمت سيف الدولة على مدى الأعوام الثلاثين التي انصرمت بخصوص قضية العرب في فلسطين يجب أن يوضع الآن بحرفيته تحت أبصار الجيل العربي الجديد ، ذلك أن الصراع الآن يستهدف عقل هذا الجيل ، فالأعداء مسلحون بنظرية الصهيوني كيسنجر (البدء من الآن) وما يترتب عليها من تشويه للتاريخ ، وللتطور الإنساني ، وبالتالي فإن قضية فلسطين لا تبحث من حيث الحقوق وأصحابها ، وإنما من الوضع الراهن ، وتوصيفه ، وطبيعة المعاهدات والعقود التي يتم إبرامها انطلاقاً مما نحن فيه الآن . ومواجهة هذا التضليل لا تكون إلا بمنهجية علمية ثابتة تعالج مشكلات الأمة ، ومن ضمنها مشكلة فلسطين ، فالقضية هي أن تلك الأرض هي أرض الأمة العربية ، وإن هذا الجيل

من شعب فلسطين بل ومن الأمة العربية بأسرها لا يملك المساومة أو التفاوض أو التنازل أو إعطاء حق المنفعة أو الإيجار ، أو البيع لجزء من تلك الأرض فهي ملكية مشتركة للأجيال المتعاقبة من أمة العرب ، يترتب على ذلك أن القضية الآن ليست في شكل السلام مع دولة الصهيونية في فلسطين ولا في حدوده ولا في طبيعته ، وإنما في أساسه ، فالسلام له طريق واحد يمر عبر بوابة العدل والحق ، وللعدل والحق بوابة واحدة تمر عبر إزالة دولة الصهاينة في فلسطين وإعادة المرتزقة الذين تم استيرادهم إلى مواطنهم الأصلية في روسيا وبولندا وغيرها وعلى بقية اليهود العرب أن يعودوا إلى مواطنهم الأصلية في الوطن العربي ، ولهم حق المواطنة كغيرهم من العرب .

وهذا الحل القومي إضافة إلى ما يحققه من عدل للأمة العربية ، يعيد البيوت إلى أصحابها ، والأرض أيضاً فإنه مع ذلك وقبله وبعده يحقق لتلك الفئة من البشر الذين تم استيرادهم من بلاد الأرض لخدمة مصالح قراصنة العالم والشعوب واستخدامهم لحراسة مصالحهم على حساب أصحاب الثروات والحقوق .. والزج بهم في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، وتحويلهم من مواطنين في بلدانهم إلى مرتزقة معتدين على حقوق الغير وممتلكاتهم . يحقق لهم إنسانيتهم بإعادتهم إلى أوطانهم ومواطنيتهم .

إن الحل القومي هو حل إنساني لنا ولهم على السواء .

(5)

لقد انتهت مرحلة من مراحل الصراع العربي – الصهيوني ، هذا صحيح لكن مدى صحته يتوقف على القول أن مرحلة جديدة قد بدأت أيضاً .يريدونها شرق أوسط ويريدوننا شرق أوسطيين ، ونريدها وطناً عربياً ولا نجد لأنفسنا هوية إلا هوية الأمة العربية انتماءً ووجوداً ومستقبلاً ومصيراً . ورغم كل ما يقال ويشاع عن الهزائم والإحباطات التي لحقت بنا ، فإن الصراع لم يحسم بيننا ، لقد أعدوا ما استطاعوا وكسبوا جولة ، ولم نعد للمعركة عدتها ، ولم نستغل مواردنا وإمكانياتنا فتلقينا الهزائم التي يتحدثون عنها ، والحق أن الأمة العربية لم تدخل الصراع بعد ، لقد حالت الدول المنتشرة على طول الأرض العربية وعرضها طيلة نصف قرن بين الأمة العربية وبين مقارعة الصهاينة ، وطيلة نصف قرن وهي تطرح نفسها على أنها حامية الحمى ، وأنها هي التي ستحرر فلسطين ... إلى أن تبين أخيراً أن كل ما تستطيع أن تحققه بالإذعان أو بالعجز أو بالتآمر هو عقد المعاهدات والاتفاقيات مع دولة إسرائيل ، وهذا يفصح عن خطأ استراتيجي ارتكبته حركة التحرر العربية طيلة نصف القرن الأخير وهو أنها لم تدرك مدى العلاقة بين دول سايكس – بيكو ودولة وعد بلفور ، ومدى تشابه الوظائف ، لكن لابد من إدراك حقيقة ما جرى وما يجري ، فكما كانت الأمة العربية مغيبة عن ساحة الصراع الحقيقي مع الصهيونية ، فإنها غائبة الآن عن المعاهدات والاتفاقيات التي توقعها دول الشرق الأوسط مع دولة إسرائيل ، وأن أحداً من الذين يفاوضون ويوقعون في فلسطين أو من حولها لا يملك تمثيل الأمة العربية ، ولا أن يوقع باسمها ، وبالتالي فإن الحديث عن تصفية الأمة العربية ، والقضية العربية ، وقضية فلسطين تحديداً هو حديث سابق لأوانه ، وستبقى مشاريعهم عن الشرق أوسطية والشرق أوسطيين حبراً على ورق ، وستبقى دولة إسرائيل ودولة أريحا وكافة دولهم الأخرى من المحيط إلى الخليج ، ومشاريع دولهم الجديدة التي يلوحون بها لإعلانها في الشرق الأوسط الجديد ... ستبقى كل هذه وتلك مشاريع دول واقعية عدوانية على وطن الأمة العربية ، وعلى شعبها ، يتوقف مصيرها على نتيجة صراع مستمر لم يبدأ بدولة أريحا ولن ينتهي بمعاهدات التصالح بين كيانات ودول الشرق الأوسط .

(6)

إننا من موقع – حالة الحصار – نقول : ليتبادلوا ما شاءوا من الأنخاب والوثائق ومن الاعترافات المتبادلة ، وليسخروا أجهزتهم وجيوشهم ومخبريهم لخدمة مصالحهم المشتركة في احتلال أرض الأمة العربية ونهب ثرواتها ... لكن هذا كله لن يغير من الأمر شيئاً ، ولن يضيف إلى حقيقة الصراع شيئاً ، ولن ينتقص من تلك الحقيقة شيئاً ، وإنما سيسلط الضوء على ما كان يكتنف حقيقة الصراع من غموض في بعض المواقع والمواقف ...

إن أحداً من كل تلك الأطراف التي تتدافع الآن للتعاهد والتعاقد والبيع والشراء والإيجار والتطبيع مع دولة الصهيونية في فلسطين لا تملك أن تقدم لبعضها البعض الشرعية التي تبحث عنها ، ففاقد الشيء لا يعطيه . إنها بمجملها دول غير مشروعة ،وهي بالتالي تملك أن تتقاسم العدوان على الأمة العربية وأراضيها وثرواتها وأن تتبادل المواقع والمواقف وأن تنظم علاقاتها ببعضها البعض ، وأن تتعاون وتتنافس في ترتيبات خريطة الشرق الأوسط ، لكن أي طرف من تلك الأطراف لا يملك أن يمنح الآخر شرعية يفتقدها هو ، إنهم يتعاقدون ويتصرفون بمال مسروق ، وبأرض مسروقة وإمكانيات مسروقة ، والملاك الأصليون مازالوا على قيد الحياة رغم محاولات التصفية والتضليل وبالتالي فإن التصرف ، والتعاقد بني على باطل ، وما بني على باطل فهو باطل مهما تعددت البيوع والتصرفات ، لأنها تصرفات خارجة على قوانين التاريخ والعدل والجغرافيا ، وأن تلك العقود والمعاهدات لن تكون إلا وثائق إثبات على الجرم الذي ارتكب بحق الأمة العربية يتحدد من خلالها الجناة والمجرمون والمشاركون والمتدخلون والمتواطئون ... إنه يوم قد يأتي على أية حال رغم تقديرنا للصعوبات والمحن ، ومقدرة الجناة على ارتكاب جرائمهم ، ففي ربوع الوطن العربي دبيب ، وهمهمة ترهص بمخاض لولادة عربية قومية جديدة تحمل في دمها آثار المحن التي مرت وعناصر مقاومتها .

(7)

إن المحن التي مرت بالأمة العربية وملحمة نضالها المريرة ، لم تتأت من مواجهة القوى الدولية المعادية ومخططاتها المحكمة وحسب ، وإنما قبل ذلك من مواجهة التداخل ، والتخلخل والتغلغل الخفي ، والنخر من الداخل والاختلاط الشديد بين قوى المقاومة وقوى المساومة، بحيث تتوقف على عملية الفرز في المستقبل ... مستقبل الأمة العربية ومشروعها القومي .

لقد تراكمت تجارب مريرة في ذاكرة الأمة ، ونجح المشروع المعادي حيث تمكن من الانتقال بالأمة من محنة إلى محنة أخرى أشد وأقسى ، وفشل المشروع المقاوم حيث افتقد الرؤيا الشاملة والمستقبلية ، فمن حيث التركيز على الخروج من مأزق معين ، تم إغفال الخطوة التالية التي كانت تؤدي دائماً إلى مأزق أكثر إحكاماً وخطراً .

- هكذا في الوقت الذي كانت تدق فيه طبول النصر على الغزو العثماني والتحرر منه كانت طبول النصر تقرع في العواصم الأوروبية بإدخال الوطن العربي كمناطق نفوذ للهيمنة الأوروبية بدراية البعض وغفلة البعض الآخر .

- وفي الوقت الذي كان فيه العرب يقدمون الشهداء قوافل لمقاومة الغزو الأوروبي وطرد الجيوش الأوروبية من الوطن العربي ... كانوا يدخلون في نطاق المشروع التقسيمي للوطن العربي إلى دول " مستقلة " بدراية البعض وغفلة البعض الآخر .

- وفي الوقت الذي كان فيه العرب يحتفلون بخروج الجيوش الأوروبية من وطنهم كانوا يحتفلون باستقلال الدول التي صنعها الأوروبيون على أرض وطنهم ، لتحقق للأوروبيين من الهيمنة والتبعية على الوطن العربي وثرواته ما عجزت الجيوش الأوروبية عن تحقيقه بدراية البعض وغفلة البعض الآخر .
- وفي الوقت الذي كان فيه العرب يرفضون التقسيم في فلسطين كانوا يقبلون التقسيم في كل مكان من وطن العرب ويعتبرونه استقلالاً بدراية البعض وغفلة البعض الآخر .
- وفي الوقت الذي كان فيه العرب يواجهون المشروع الصهيوني كانوا يعتمدون على أجهزة ذات الدول التي تشكل مع المشروع الصهيوني (دول الشرق الأوسط) ..بدراية البعض وغفلة البعض الآخر .

في هذه المواقف المتتابعة كان العرب يقدمون التضحيات ويحصدون الريح ، والعامل المشترك في هذه المواقف جميعها هو افتقاد الاستراتيجية التي تضع النضال المرحلي في نطاق النضال الاستراتيجي .

لقد تم استخدام مصطلحات في غير مكانها : التكتيك ، السياسة خذ وطالب ، السياسة فن الممكن ، الواقعية ، القوى الدولية المهيمنة قادرة على كل شيء وكل شيء من فعلها والتفكير مجرد التفكير بمقاومتها تهور غير محمود العواقب .

ورغم أنه لكل تلك المصطلحات قوانين وشروط وضوابط ، فإنه في كل مرة تم استخدامها لتبرير الانحراف والردة والمساومة .

- هكذا فإن قتال العثمانيين لم يؤد إلى استقلال العرب وإنما إلى الوقوع تحت سلطة استعمار أخطر وأدهى هو الاستعمار الأوروبي .
- وهكذا أيضاً فإن قتال الجيوش الأوروبية لم يؤد إلى استقلال العرب وإنما إلى تفتيتهم إلى دول أشد خطراً على الأمة من الاستعمار المباشر .
- وهكذا فإن قيام الدول في (الشرق الأوسط) لم يؤد إلى الوحدة العربية وإنما اتجه بالأمة اتجاهاً معاكساً .
- وهكذا فإن كانتون(غزة – أريحا) ليس طريقاً لتحرير فلسطين وإنما طريق لترسيخ دولة إسرائيل في فلسطين وإدخالها كدولة مركزية في نادي دول (الشرق الأوسط) .

وهكذا ... فما من مرة تم غض النظر عن الرؤيا الشاملة للصراع الحقيقي الذي يستهدف الوطن العربي بأسره أرضاً وبشراً إلا وكانت النتائج كارثية على الأمة العربية ، وما من مرة كان البعض يتخيل أنه يحقق مكاسب جزئية إلا وكان في حقيقة الأمر يقدم للقوى المعادية مكاسب شاملة ، ولعل مقولة الشاعر العربي من مصر أمل دنقر (رجعت سينا وراحت مصر) تعبر عن هذه الحقيقة المرة خير تعبير .

إن ما يسمى (التكتيك) في علم السياسة هو سلوك مرحلي في إطار استراتيجية محددة وواضحة .

أما في الوطن العربي ، وعلى مدى عقود عديدة تم انتزاع مفهوم (التكتيك) من إطاره الاستراتيجي كفعل مرحلي على طريق استراتيجي طويل ، وتمت ممارسته (كفعل مقايض) حيث يتم مقايضة الاستراتيجية بالتكتيك والأمثلة في الواقع العربي كثيرة بل تكاد تكون الأمثلة الوحيدة المتوفرة في الواقع وآخرها ، مقايضة بعض فلسطين ببعضها الآخر ، ويعلن طرف فلسطيني جهاراً نهاراً أن الجزء الأكبر من فلسطين هو (دولة إسرائيل) ليتطابق هذا الموقف مع الموقف الصهيوني ذاته .

(8)

في عام 1978 حضر إلى دمشق د . عصمت سيف الدولة لسبب يتعلق باتحاد المحامين العرب ، وفي يوم من أيام تلك الزيارة حضر إلى دمشق الأخ (أبو طارق) هاني الحسن لاصطحابه إلى بيروت للقاء قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ... وعندما تحقق ذلك والتأم جمع قيادة المنظمة بكل المناضلين الذين كانوا ما زالوا أحياء حتى تاريخه حوله ، وكان أبو عمار قد أعد مأدبة الغداء ، توجه د . عصمت سيف الدولة بسؤال محدد للأخ أبو عمار يقول :

- قبل أن نمد أيدينا إلى طعامك يا أخ أبو عمار أريد أن أسمع منك جواباً محدداً لا لبس فيه : هل أنت مستعد تحت أي ظرف كان ولأي سبب كان للاعتراف بدولة إسرائيل ... ؟

ورفع أبو عمار يده إلى كوفيته محتجاً على السؤال (معاذ الله يا أبو محمد) .

وتابع د . عصمت : إذن ما هذا الذي يقوله كرايسكي على لسانك ؟

أبو عمار : لقد كذبته ... يا أبو فلان اذهب إلى الأرشيف واحضر التكذيب ...

وعندما عاد د . عصمت من رحلته سألته عن الحصيلة ، فمد يده إلى جيبه وأخرج قصاصة خبر ينفي فيها مسؤول بمنظمة التحرير كلام كرايسكي بأن رئيسها مستعد للاعتراف بدولة إسرائيل ، وقال لي ساخراً : لكنه سيفعلها ، وفعلها أبو عمار .

والقضية لم تكن أبداً قضية شخصية تتعلق بأبو عمار أو سواه وإنما كانت وما زالت تتعلق بنهج وطريق ، وقد افترق الطريق القومي عن الطريق الإقليمي منذ البداية ، وإن كان التداخل الذي حصل قد أدى إلى بعض التشويش أحياناً ، وكما كان الوضوح في المواقف مطلوباً ، فإن هذا الوضوح قد تحقق الآن .

وإذا كان الموقف الإقليمي قد دخل محطة غزة أريحا فإن على الموقف القومي أن يجسد ويجذر طريقه ، وينتقل من مرحلة التحليل والتفسير والاستنتاج إلى مرحلة الفعل والمواجهة ، وإذا كانت الإقليمية في فلسطين وفي كافة أرجاء الوطن العربي مجسدة الآن بمؤسسات وأجهزة وجيوش و ... فإن على الذين يرفعون راية الأمة والوطن في مواجهة الترتيبات الشرق أوسطية الراهنة أن يجسدوا حركتهم في مؤسسة تحمل راية الأمة ومشروعها وأهدافها . أما كيف يتم ذلك ؟ فهذا هو السؤال ... الامتحان !!

دمشق 1 / 6 / 1995

حبيب عيسى

فهل اعتبر البعض أن هذا الموقف القومي من قضية فلسطين لا يتناسب مع ما طُرح مؤخراً في سورية عن أن السلام خيار استراتيجي..؟ وبالتالي فإن هذا الموقف أخذ حيزاً في الكيل الذي طفح مؤخراً..؟!

87. المحطة الثانية: كانت في خريف عام 1977، عندما أعلن رئيس جمهورية مصر، أنور السادات، علناً أنه سيزور إسرائيل.. وبالصدفة كنت في القاهرة، لقد ذهلت، وذهِل الشعب في مصر بين المصدق والمكذب.. وعدت من

القاهرة إلى دمشق في اليوم ذاته الذي وصل فيه أنور السادات إلى دمشق.. وقد كان حدثاً صاعقاً بالنسبة لجيلي أن يعلن رئيس دولة (عربية) جهاراً نهاراً، أنه سيزور (إسرائيل).. كانت الأنباء تتسرب إلينا عن اتصالات سرية بين حكام (عرب) وحكام الصهاينة، وكنا نضعهم بيننا وبين أنفسنا في خانة الخونة، وعند مواجهتهم كانوا ينفون ذلك، ويقسمون الأيمان المغلظة، أنها دعايات مغرضة... الآن نحن أمام عصر جديد، حاكم يعلن جهاراً نهاراً، أنه ذاهب للقاء الصهاينة.. لقد دخلنا إذن عصر الجهر بالسوء على الملأ... المهم أن الحدث كان صاعقاً بالفعل، وأمام العجز والحزن والسخط أعددت كتاباً على وجه السرعة، وضعت له عنواناً تقريرياً "السقوط الأخير للإقليميين في الوطن العربي"، اعتبرت فيه أن الرئيس السادات لم يذهب إلى(إسرائيل) ممثلاً لجزء من الشعب العربي، وإنما ذهب ممثلاً للنظام الإقليمي السائد برمته، وأن مهمته هي أن يفتح باب التسوية مع الصهاينة ليدخلوه الواحد تلو الآخر، بعد أن يكسروا الحاجز النفسي والقومي للعرب. ودفعت الكتاب للنشر في بيروت، وقد فوجئت كما فوجئت دار النشر بأن الكتاب ممنوع من التداول في جميع أرجاء الوطن العربي، بما في ذلك دولة الجمهورية العربية السورية.. وأن أحدهم دعا لإحراق الكتاب علناً، فكتب مقالاً بعنوان "أحرقوا هذا الكتاب ".. وقد تمّ إحراق الكتاب فعلاً على أرض مطار عاصمة عربية من قِبل جهاز الرقابة، وتحتفظ دار النشر بنسخة نصف محروقة للذكرى... ثم، ثم علمت أن دار النشر أعادت تقديم الكتاب إلى مديرية الرقابة في وزارة الإعلام السورية بعد مرور حوالي عشرين عاماً على إصداره الأول، فأصدرت وزارة الإعلام السورية قراراً ثانياً بتأكيد قرارها الأول بمنع تداول الكتاب في سورية... فهل لهذا الكتاب دور في شغل حيز من الكيل الذي امتلأ فطفح أخيراً..؟ (لطفاً يمكن ضمّ الكتاب إلى ملف الدعوى)..

88. المحطة الثالثة: كانت بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد عام 1979 حيث قررت وزارة الإعلام في سورية إطلاق إذاعة من دمشق ضد كامب ديفيد، سُميت "صوت مصر العربية من دمشق"، وقد رأى السيد وزير الإعلام في ذلك الوقت بتكليفي بالإشراف عليها.. لن أطيل الحديث عن هذا الموضوع لأن موقفي بات واضحاً. المهم أنه بعد مصرع الرئيس أنور السادات، فقد ارتأيت أن تصعد الإذاعة من لهجة الخطاب والتحذير من الاسترخاء، ذلك أن المشكلة لم تكن في شخص السادات وإنما في النهج، وأن مخاطر كامب ديفيد على الأمة ستتفاقم ما لم تتصاعد عملية المقاومة لنهج التسوية داخل مصر وفي الوطن العربي عموماً.. وكان أن بعض رموز المعارضة في مصر، انجرفوا في تيار المهادنة مع الحاكم الجديد، رغم تمسكه المعلن بنهج كامب ديفيد.. وأكدت الإذاعة أن الفرصة الوحيدة التي يجب أن يعطيها الشعب العربي في مصر إلى الحاكم الجديد يجب أن تكون مشروطة بإلغاء كامب ديفيد، وإلا فإن نهج التسوية سيؤدي إلى مخاطر تتجاوز حدود مصر بتسويق نهج التسوية، وستذهب نضالات شعب مصر التي بذلها للتخلص من أنور السادات، سدى... وقد أزعج موقف الإذاعة الحاسم بعض القوى السياسية في مصر التي اعتبرت أن علاقتها ممتازة مع الحزب والدولة في سورية، وأن مشكلتها تنحصر بإزاحة حبيب عيسى عن الإذاعة. وبالفعل حضر إلى دمشق على وجه السرعة، السيدان خالد محي الدين ورفعت السعيد، وقد فوجئت بمدير الإذاعة السورية يستدعيني على عجل في ساعة متأخرة من أحد الأيام، يستفسر مني عن نهج إذاعة صوت مصر العربية، فقلت إن نهج الإذاعة كان، ولا يزال ضد نهج كامب ديفيد، وضد نهج التسوية مع الصهاينة تحت أي مسمى، ومن أي طرف كان، وأنه إذا كان لدى السلطات في سورية أفكار جديدة للتعامل مع الحاكم الجديد في مصر، فإنني أتقدم باستقالتي لأنني ببساطة لا أصلح على الإطلاق للاستمرار في موقعي.. فقال محتداً: عليك أن تعلم أن هذه الإذاعة ليست إذاعتك الخاصة، وإنما هي إذاعة تمثل خط الحزب والدولة في سورية، وأن للحزب والدولة في سورية علاقات مع قوى وأحزاب سياسية في مصر يجب مراعاتها.. قلت: أنا مدرك تماماً لذلك، ولهذا فأنا أقول أنني قبلت الإشراف على الإذاعة لمواجهة كامب ديفيد، وبالتالي فإن الموقف من هذه المعادلة، ومن النظام الذي يتمسك بها هو المعيار الوحيد للموقف من كافة القوى والشخصيات في مصر، وإذا كان لكم رأي آخر، فأنا أتقدم باستقالتي... قال أن المسألة تطورت لمستويات عليا، وأن السيد وزير الإعلام يدعوك غداً لحضور اجتماع برعايته مع كل من خالد محي الدين ورفعت السعيد.. فقلت له أنني أولاً أعتذر عن الاجتماع معهما، ومنعاً لأي إحراج فإنني سأتقدم غداً صباحاً بمذكرة إلى وزير الإعلام أشرح له فيها موقفي بالتفصيل، وسأطلب في الوقت ذاته إجازة لمدة عشرة أيام يتم خلالها دراسة الموقف، واتخاذ القرار المناسب، فالإذاعة أولاً وأخيراً إذاعتكم... وبالفعل تقدمت بإجازة لمدة عشرة أيام، وأعددت مذكرة من عشر صفحات شرحت فيها موقفي بالتفصيل مما يجري في مصر والوطن العربي بعد مصرع السادات، وأن مصرع السادات قد يؤدي إلى نتائج سلبية إذا استطاع الحاكم الجديد أن يسوق كامب ديفيد عربياً، ثم أعدت تأكيد موقفي من قضية الصراع العربي – الصهيوني، وأشرت إلى كتابي "السقوط الأخير للإقليميين في الوطن العربي"، وأنني أتبنى تماماً الموقف الذي جاء في الكتاب رغم أن وزارة الإعلام السورية منعت تدوله في سورية.. وقلت في نهايتها، هذا هو خطي وموقفي، فإذا كان لكم موقف آخر فإن عليكم أن تختاروا شخصاً آخر للإشراف على الإذاعة، ليس أنا بكل تأكيد... وقدمت هذه المذكرة للسيد وزير الإعلام عن طريق المدير العام لمديرية الإذاعة والتلفزيون السورية، ثم التزمت منزلي ، لا أعرف حقيقة ماذا جرى فيها، سوى أن خالد محي الدين ورفعت السعيد احتفلا بسيطرة جماعتهم المقيمين بدمشق على إذاعة صوت مصر العربية، والتخلص من حبيب عيسى، لكن فرحتهم لم تدم طويلاً، فبعد تسعة أيام، لا أعرف حقيقة ماذا جرى فيها، اتصل بي السيد مدير الإذاعة السورية، وقال: إن وزير الإعلام يطلب إليك أن

تعود للإشراف على إذاعة صوت مصر العربية.. قلت: بدون شروط.. قال: بدون شروط، لكن هل يصح أن تقول في مذكرتك لوزير الإعلام إن هذا نهجي وهذا خطي لن أحيد عنه، وإذا لم يعجبكم فاختاروا أحداً غيري.. قلت أن التصادق الذي ارتضيته نهجاً في حياتي يفرض علي ذلك... وبالفعل، عدت فأشرفت على إذاعة صوت مصر العربية حتى عام 1987 (لطفاً أرجو التكرم بتسطير كتاب إلى وزارة الإعلام لتزويد المحكمة بنسخة عن تلك المذكرة التي قدمتها إلى وزير الإعلام في حينه، ذلك أنني للأسف لم أحتفظ بصورة عنها، ولأنني أعتبر ضمّ هذه المذكرة إلى ملف الدعوى في غاية الأهمية).

89. المهم، أنه في عام 1987 وجه السيد عبد الله الأحمر، الأمين العام المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي كتاباً إلى وزارة الإعلام عن طريق رئاسة مجلس الوزراء يقول فيه: أن إذاعة صوت مصر العربية من دمشق لا تمثل الحزب والدولة في سورية، وأنه لولا أن يُذكر فيها أنها من دمشق، كان الناس اعتقدوا أنها تصدر من دولة أخرى، وأن المشرف عليها (الذي هو أنا) معادٍ للحزب والدولة.. وطلب عزلي (لطفاً تسطير كتاب إلى وزارة الإعلام لتزويد المحكمة بنسخة عن هذا الكتاب)، ثم وفي اجتماع لفرقة الأعلام لحزب البعث العربي الاشتراكي، وقف أحدهم، وقال بصريح العبارة أن حبيب معادٍ للحزب والدولة، وأنه يستخدم إذاعة صوت مصر العربية كإذاعة خاصة به وبنهجه... عند هذا الحد (أعترف لكم) كان يجب أن أهرب، وبالفعل تقدمت باستقالتي من إذاعة صوت مصر العربية، واخترت ركناً منسياً للعمل به، إلى أن استدعاني فجأة المدير العام لهيئة الإذاعة والتلفزيون، وكان قد مضت فترة وجيزة على استلامه منصبه، وكان لقاءً عاصفاً.. بدأ حديثه على الشكل التالي، وبعد أن رحب بي بودّ مبالغ فيه، وبترحيب شديد، قال معاتباً: نحن أصدقاء، فلماذا لم ألتقك منذ استلامي مهامي، هل لديك موقف مني... قلت: معاذ الله، فأنت صديق عزيز وأتمنى لك التوفيق بمهمتك الشاقة، لكنني لم أعتد أن أشغل وقت المسؤولين... قال: لقد كنت بالأمس أراجع جداول الموظفين في الهيئة، وقد فوجئت أنك لا تحصل على أي تعويضات أو مقابل عمل إضافي.. حبيب، كيف تعيش..؟ استجمعت كل ما أملك من إرادة كي أقول له: إنني أعيش بحالة جيدة، وإذا كان لديك من هو بحاجة لمساعدة فإنني على أتم الاستعداد... كان الجواب غير متوقع بالنسبة إليه، فانتقل مباشرة إلى الموضوع الذي استدعاني من أجله.. قال: أنت سمعتك كالذهب، وأنا أطلب إليك أن نتعاون معاً، هل لديك مانع؟ قلت: بالقطع لا مانع، لكن كيف؟ قال: يمكن أن تختار أي منصب تشاء في الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون، وإذا تركت لي الخيار فإن تسميتك الوظيفية هي مدير الأخبار والتعليقات السياسية، فما رأيك..؟ قلت له بلباقة واعتذار، أنني حقيقة لا أصلح الآن لهذا الموقع... قال: ألم تقل أنك على استعداد لنتعاون معاً؟ قلت: الموقف ليس موقفاً شخصياً منك.. أنا حقيقة الآن لا أصلح للتعبير عن خط الحزب والدولة في سورية.. قال: لماذا؟ ما هو حزبك السياسي؟ قلت: تستطيع أن تقول يا أبو قصي، أنه لا يوجد حزب سياسي في الواقع العربي يلبي طموحاتي السياسية، وبالتالي، فإنني حقيقة لست منتمياً لأي حزب سياسي.. قال: لكنني أعرف أنك قومي وناصري.. قلت: صحيح.. قال: كلنا قوميون ونحب جمال عبد الناصر.. قلت: أنا موقفي أكثر تحديداً بمعنى أنني مع الموقف القومي أياً كان مصدره، وضد الموقف اللاقومي أياً كان مصدره، وموقفي هذا لا يصلح أن يكون أسيراً لأي موقف آخر مهما كان مصدره، لذلك قلت أنني لا أنفع بشيء صدقني.. ولم يقتنع رغم ذلك فتابع إلحاحه قائلاً: أريد أن أسألك سؤالاً محدداً: هل أنت منسجم مع الخط السياسي في سورية أم لا..؟ فوقفت كي أنهي اللقاء، لكنه أصر على أن يسمع الجواب.. قلت له بالحرف الواحد: يا أخ أبو قصي، تستطيع أن تقول أنني منسجم مع بعض الخط السياسي في سورية، ولست منسجماً مع بعض الخط السياسي في سورية.. هل هذا واضح..؟! لن أحرجك أكثر من ذلك، سأتقدم باستقالتي.. وبالفعل تقدمت بكتاب استقالة من نصف سطر فقبلت الاستقالة في الحال، وانتسبت إلى نقابة المحامين...

90. لقد أوردت قصتي مع إذاعة صوت مصر العربية لسببين اثنين:

الأول: أنني أردت أن يتضح لمقام محكمتكم الموقرة أن مواقفي لم تكن في يوم من الأيام خافية على أحد... لأنني ببساطة لا أخفيها عن أحد، وإن المواقف والمبادئ التي أحملها تحكم سلوكي، وعندما يُفرَض علي أن أختار، أختار المبادئ مهما كان الثمن...

الثاني: حدث أنه قبل اعتقالي بأيام قليلة، وقعت بين يدي دراسة حول كتاب مذكرات لرفعت السعيد يتحدث فيها عن واقعة إذاعة صوت مصر العربية، ويضيف معلومات جديدة.. وكنت أعد نفسي للرد عليه، لكن واقعة الاعتقال عاجلتني، وقد يكون من المناسب أن يصله الرد عن طريق هذه المذكرة... يقول رفعت السعيد (على ما حفظته الذاكرة من تلك الدراسة) ما يلي: أن د. عصمت سيف الدولة كان يلحّ على رفعت السعيد، وحزبه حزب التجمع أن يصعّدوا مواقفهم من التواجد الصهيوني في مصر، وأن ينتقلوا إلى مقاومته، وأن يضربوه ويمارسوا أعمال المقاومة ضده.. وروى عدة حوادث عن مقترحات كان اقترحها الدكتور عصمت سيف الدولة لمقاومة الوجود الصهيوني في مصر وضربه... ويتباهى رفعت السعيد أنه وحزبه لم ينساقا وراء هذه الدعوات، ثم يعرج على موضوع إذاعة صوت مصر العربية من دمشق، فيصفني أنني من رجال عصمت سيف الدولة، ثم يروي كيف حضر إلى دمشق برفقة خالد محي الدين لأن علاقتهم طيبة بالدولة

والحزب في سورية، وأن مشكلتهم تكمن في تسلطي على إذاعة صوت مصر العربية، وأنهما قابلا السيد وزير الإعلام في ذلك الوقت المرحوم الأستاذ أحمد اسكندر أحمد، ولم يصلا معه إلى نتيجة، فاجتمعا برئيس الجمهورية في ذلك الوقت، وعرضا عليه المشكلة، وأن رئيس الجمهورية رفع سماعة الهاتف بحضورهما حيث اتصل بوزير الإعلام وطلب إليه عزلي..هذا كل ما علق بذهني من رواية رفعت السعيد.. وأنا حقيقة لن أجزم بصحتها، لأن الراوي مشكوك بمصداقيته أصلاً، لكن وبإجراء تقاطع بين ما أعرفه عن الموضوع وبين رواية رفعت السعيد يتضح أن طلب استدعائي في تلك الليلة كان نتيجة للهاتف الذي جاء من القصر الجمهوري لوزير الإعلام.. لكن رفعت السعيد الذي لا يعرف أن يكمل الحقائق، لم يشير في مذكراته، إلى أنني عدت إلى موقعي في الإذاعة بعد تسعة أيام، وأنه إذا كنت قد عُزلت بقرار من رئيس الجمهورية، فإن من الطبيعي أن تكون إعادتي إلى موقعي قد تمت بقرار من رئيس الجمهورية، وبعد اطلاعه على المذكرة التي كنت قد قدمتها إلى وزير الإعلام، هذه نقطة.. النقطة الأخرى التي أغفلها رفعت السعيد أنه قبل توجهه إلى دمشق قابل د. عصمت سيف الدولة، وشكا له من إذاعة صوت مصر العربية من دمشق، ومني شخصياً، وأعلمه أنه سيتوجه هو وخالد محي الدين إلى دمشق لأن العلاقة بينهما وبين المسؤولين السوريين ممتازة، فقال لهم عصمت سيف الدولة: هل هذا يعني أنكم ذاهبون إلى دمشق للشكوى على حبيب عيسى..؟ وهل هذا يليق بكم كحزب..؟ وعرض عليهما عصمت سيف الدولة أن يطلب إليّ ترك الإذاعة لأنه يعلم أنني قبلت الإشراف عليها على مضض.. لكنهما رفضا، وأصرّا على التوجه إلى دمشق، وقد فوجئت بعصمت سيف الدولة رحمه الله يطلب إلي بإلحاح شديد أن أحزم حقائبي كي أتوجه إلى الخليج حيث هناك عمل صحفي مغرٍ ينتظرني.. ورفضت ذلك.. ثم علمت أنه كان قلقاً على مصيري من الدسائس التي حملها رفعت السعيد وخالد محي الدين معهما، وقد أبدى د. عصمت سيف الدولة (رحمه الله) قلقاً شديداً على الأسرة والأولاد، وألحّ مرة أخرى بضرورة مغادرة البلاد.. لكنني رفضت ذلك...

المهم، وبعد هذه السنوات، يذكرنا رفعت السعيد بمواقفه، تُرى، ماذا تضمنت التقارير التي قدمها..؟ والتي مازال يتقدم بها..؟

91. أكتفي بالقول، أن ما نسبه رفعت السعيد إلى د. عصمت سيف الدولة وإلي شخصياً، يشرّف الدكتور عصمت سيف الدولة، ويشرّفني.. لقد كانت حياته رحمه الله مشرّفة، وهاهو بعد رحيله، فإن محاولات النيل منه تستند إلى مواقف مشرفة.. المشكلة كانت ومازالت بالرواة، فالراوي هنا يعتبر مقاومة الصهيونية ومؤسساتها والمواقف الصلبة من لعبة التسوية القذرة مع الصهاينة، بأنها مواقف ضارة ومتهورة، ويتباهى بموقفه المخالف.. يتباهى بالتخاذل، يتباهى بأنه مخبر، وبأن نشاطه فاض وتجاوز حدود مصر.. فهنيئاً له..!

92. من المفارقات العجيبة، أن الصحف السورية طالعتني بالأمس بخبر يقول أن خالد محي الدين ورفعت السعيد في دمشق مرة أخرى... تُرى، لماذا هذه المرة..؟ ثم طالعتني جريدة البعث بمقال على صفحتها الأولى بقلم رفعت السعيد يتحدث عن لقائه، وخالد محي الدين، برئيس سورية الشاب حيث قال أنه رأى شعاعاً من النور الأبيض يتجه إلى رأس الرئيس الشاب.. وقال خالد محي الدين ما يشبه ذلك..!

ماذا أقول..؟ سأعود إلى تلك الأيام من إذاعة صوت مصر العربية من دمشق، حيث كنت أكتب كلمة افتتاحية أختمها بعبارة "الخونة والعملاء، والمنافقون قبل الأعداء"، الآن أردد العبارة ذاتها بعد أن أعدل الترتيب فأضع المنافقين أولاً، مستذكراً القاعدة القرآنية الأصيلة: "المنافقون في الدرك الأسفل من النار".. تصوروا كم في قاموس البشر من الشرور والآثام والخطايا والجرائم.. النفاق هو الأخطر إطلاقاً ليس على المجتمع وحسب، وإنما على الحاكمين، المنافق لهم أولاً... (صدق الله العظيم)

أخلص من ذلك كله إلى القول أن تلك التجربة المريرة التي استمرت ثمانية عشر عاماً من العمل الصحفي، بما رافقها من أحداث وتقارير ومخبرين ومواقف حادة، قد تكون ملأت حيّزاً لا بأس به من الكيل الذي طفح أخيراً...!

93. المحطة الرابعة: أشير إليها باقتضاب شديد، رغم ما خلفته في النفس والعقل والعواطف من آثار وجروح، وأقصد بها مرحلة "عاصفة الصحراء"، أو مرحلة "تحرير" الكويت من العرب العراقيين وتسليمها للأمريكيين.. ففي تلك الأيام الحزينة من شهر كانون الثاني عام 1991، بدأت طائرات وبوارج التحالف الأمريكي بضرب أهلنا وشعبنا في العراق العربي بوحشية لم يشهد التاريخ البشري مثيلاً لها، حتى في عصور التوحش الإنساني الأولى، ليس لأنه كان أقل وحشية وحسب، ولكن لأنه أيضاً لم يمتلك أدوات التوحش الأمريكية التي عربدت دون هوادة تصفع وجوهنا في كل لحظة.. وما فاقم المأساة أن ما يسمى حكومات عربية لم تكتفِ بالصمت والفرجة والتمتع بالتقنية الأمريكية المتطورة في القتل، وإنما كانت الأراضي العربية والأجواء العربية والمياه الإقليمية العربية مفتوحة بفجور قلّ نظيره في التاريخ لتنطلق منها أدوات العدوان لتدمير العراق... كنت في تلك الأيام كما الشعب العربي في أغلبه من أدناه إلى أقصاه، نندب العجز وقلة الحيلة، ونتابع الفرجة على شواء أطفالنا في العراق الذين يُحرقون في الملاجئ.. كل ما استطعت أن أفعله في تلك الأيام الحزينة أنني اتخذت موقفين غاية في التواضع قياساً مع جسامة الحدث:

94. **الموقف الأول:** أنني وقعت بياناً مع المثقفين والكتاب في سورية يدين العدوان الأمريكي على العراق الشقيق...

95. **الموقف الثاني:** أنني بادرت مع نفر من الزملاء المحامين بإصدار بيان باسم المحامين العرب في سورية، يدين العدوان الأمريكي على العراق الشقيق.. وأنا لا أنكر أنني قمت بدور ناشط في حملة التوقيع على البيان الذي وقع عليه /52/ محامياً، ورغم تواضع الموقف والبيان فقد اعتُبر في حينه مؤشراً على عودة خجولة للنشاط المجتمعي في سورية، ذلك النشاط الذي تعرض مع بداية الثمانينيات وعلى مدى عقد من الزمن لحالة حصار، وتغييب شبه كامل بفعل العنف والعنف المضاد الذي دفع مجتمعنا ثمناً باهظاً له، مازال يئن تحت وطأته حتى هذه اللحظة، خوفاً وتهرباً وسلبية... المهم أن البيان تمّ نشره، واستنفرت الأجهزة الأمنية متحفزة للاعتقال، وكان لا بدّ أن يتطوع محام من الموقعين على البيان لتحمل المسؤولية كاملة، خاصةً وأن بين الموقعين على البيان من تقدم بهم العمر، ولا يتحملون المساءلة وظروف الاعتقال الأمني، فتطوعت لهذه المهمة، حيث تمّ استدعائي من قِبَل الأستاذ الرئيس محمد نذير قدورة رئيس فرع نقابة المحامين بدمشق في ذلك الوقت إلى مكتبه في القصر العدلي.. وبعد أن أغلق الباب سألني عن موضوع البيان، فأخبرته أنني مسؤول عن هذا الموضوع من الألف إلى الياء، وشكوت له عجزي لأنني لم أتمكن من النهوض بأكثر من ذلك، ثم توجهت للأستاذ الرئيس بسؤال حزين: أنا لا أستطيع النوم هذه الأيام، هل تستطيعه أنت..؟ كان يوماً كئيباً قصفت فيه طائرات الولاية المتحدة الأمريكية ملجأ العامرية في بغداد.. أكثر من /400/ طفل يشوون داخل الملجأ بوحشية ودماء باردة.. تتباهى بمقدرة الصواريخ الذكية على اختراق الملجأ عبر فتحات التهوية.. لم يكن لدى الأستاذ الرئيس جواب محدد.. فقط طلب إلي أن أحضر إلى نقابة المحامين في الساعة الواحدة والنصف للاجتماع إلى الأستاذ نقيب المحامين لأنهم يطلبونني هناك.. وفي الموعد المحدد، كان الأستاذ النقيب أحمد عيدو، والأستاذ معاوية الطباع أمين سر نقابة المحامين، والأستاذ الرئيس محمد نذير قدورة رئيس فرع نقابة المحامين بدمشق، بانتظاري حيث بادر الأستاذ النقيب بالسؤال عن البيان الذي أصدرناه.. فقررت أن أتقدم خطوة إلى الأمام حيث أرفقت بالبيان طلباً باسم الموقعين على البيان لعقد اجتماع طارئ للهيئة العامة للمحامين بفرع دمشق لاتخاذ الموقف الذي تقتضيه ظروف العدوان الأمريكي على العراق (لطفاً تسطير كتاب إلى نقابة المحامين لتزويد المحكمة بصورة عن البيان، وصورة عن الكتاب المرفق به، وضمهما إلى ملف الدعوى).. وقد بادر الأستاذ النقيب إلى تحويل اللقاء بصيغة ما إلى تحقيق حول إصدار البيان، ومشروعية إصداره، وأن المحامين في سورية تمثلهم نقابة المحامين، ولا يمثلهم حبيب عيسى.. فقلت إن هذا البيان من المحامين العرب في سورية، والموقعون عليه محامون وعرب وسوريون، ثم إنني طلبت باسم الموقعين على البيان عقد اجتماع طارئ وعاجل للهيئة العامة للمحامين بدمشق،لتدارس هذا الحدث الجلل، واتخاذ الموقف إما بإدانة الموقعين على البيان أو بإدانة العدوان الأمريكي على العراق.. وكان الجواب أن هذا الطلب يعرضني إلى مساءلة مسلكية، ومن ثم مساءلة عن علاقات خارجية، وبما أنني كنت قد حزمت أمري على مواجهة الموقف فإنني وقفت معلناً مسؤوليتي الكاملة عن البيان، ثم أعربت عن أسفي لأن معالجة هذا الموضوع الخطير تتم بهذه الطريقة.. فقد كنت أتوقع أن تكون نقابة المحامين بحالة استنفار لمواجهة المواقف، لا أن تتجه إلى الشكليات.. وكررت طلبي بعقد اجتماع طارئ وعاجل للهيئة العامة، وحاولت إنهاء الاجتماع عند هذا الحد ومغادرة القاعة، فتدخلوا لإعادتي.. واتخذ الحوار بعد ذلك منحى جدياً، وشرح الأستاذ النقيب موقف النقابة، وموقفها في المكتب الدائم لاتحاد المحامين العرب، فقط لو أن العراق انسحب من الكويت فإن سورية كانت ستقاتل إلى جانبه.. فقلت لهم سجلوا على لساني، حتى لو انسحب العراق من البصرة، حتى لو أعطاهم نصف بغداد سيضربون النصف الآخر.. القضية ليست الكويت، القضية أن العراق تجاوز في امتلاك القوة الخطوط الحمراء الأمريكية والصهيونية، ولذلك كان قرار ضربه، دخل الكويت أم لا... إن هذا الموقف كان في منتهى الأهمية لأنني بعد مرور سبع سنوات على هذا الحديث في عام 1998، عندما ضربت الولايات المتحدة الأمريكية العراق مرة أخرى، اتجهت إلى نقابة المحامين مع بضعة نفر من الزملاء المحامين، وقابلت الأستاذ معاوية الطباع أمين سر النقابة، وذكرته بذلك الموقف، قلت: إن العراق الآن ليس في أجواء البصرة، وليس في أجواء كركوك، ولا توجد كويت محتلة، نطالب بالتظاهر ضد العدوان الأمريكي على العراق.. لكن لم تتحرك النقابة، فتحركنا نحن نفر من المحامين إلى السفارة الأمريكية، واختلطنا بالشباب المتحمس وكان ما كان...

96. المهم، وبالعودة إلى عام 1991، فإنني تلقيت وعداً من الأستاذ النقيب أن النقابة ستدرس دعوة الهيئة العامة للمحامين بدمشق لاجتماع عاجل.. لكن هذا الاجتماع لم يُعقد... لقد استمر الحوار حوالي 4 ساعات، كان حواراً صعباً، فالأعصاب مشدودة، والأحداث ساخنة، وفي نهاية اللقاء، أسرّ بأذني أمين سر النقابة أن لا أغادر دمشق، وأن أبلغ النقابة بتحركاتي.. فقلت له: أرجو أن تتأكد أنني لو وضُعِت الآن في زنزانة لا أرى ولا أسمع ما يجري، فإن ذلك سيكون أفضل بالنسبة إلي من الوضع الذي أنا فيه... لقد كان لي بعد ذلك شرف المساهمة مع أخوة وأساتذة أفاضل بنشاط الجمعية السورية لرفع الحصار عن العراق، وقد شاركت مع وفد اللجنة بمؤتمر القوى الشعبية العربية السادس في بغداد في آذار عام 2001، وشرّفني وفد اللجنة بتكليفي بإعداد تقرير عن تلك الزيارة إلى بغداد، وهذا النص الحرفي للتقرير:

97 .

تقرير عن زيارة وفد اللجنة
إلى العراق في الفترة
18 / 24 / آذار / 2001

1 - **مقـــــدمة :**

تلقت اللجنة العربية السورية لرفع الحصار عن العراق دعوة من مؤتمر القوى الشعبية العربية لحضور الدورة السادسة للمؤتمر التي تعقد في بغداد في الفترة من 19 – 23 / آذار / 2001 ، وقد اجتمعت اللجنة ودرست الدعوة التي وجهت إلى كافة أعضاء اللجنة من رئيس مؤتمر القوى الشعبية العربية السيد سعد قاسم حمودة ، وقد وافقت اللجنة بالإجماع على تلبية الدعوة ، لكن وبسبب الظروف الخاصة لبعض أعضاء اللجنة فقد تم تشكيل وفد من الذين تمكنهم ظروفهم ، يمثل اللجنة في الاجتماع المذكور يتكون من السادة الأساتذة مع حفظ الألقاب :
منصور الأطرش – حسان مريود – أحمد عبد الكريم – حسن عبد العظيم – محمود جيوش – بشار موصلي – محمود يونس وحبيب عيسى .
وقد بذل السيد الدكتور محمد الأطرش رئيس اللجنة جهوداً مضنية ومشكورة للحصول على الموافقات اللازمة لتلبية هذه الدعوة وكذلك السيد أمين السر الأستاذ محمود جيوش مما استوجب الشكر والتقدير لجهودهما الكريمة من قبل أعضاء اللجنة كافة .
وفي صباح يوم 18 / 3 / 2001 انطلق الوفد إلى بغداد على متن بولمان كان قد أرسل من بغداد حيث ضم الوفد العربي السوري الذي يتكون من السادة الأساتذة أعضاء اللجنة المذكورين ، وكذلك وفداً من مجلس الشعب في سورية إضافة إلى وفد يمثل الجبهة الوطنية التقدمية وكذلك الوفد العربي الفلسطيني الذي يضم الأخوة الفلسطينيين المقيمين في سورية المدعوين إلى المؤتمر ، وكذلك الأستاذ عصام محايري عن الحزب القومي الاجتماعي .
وقد قامت سلطات الحدود السورية مشكورة بتسهيل إجراءات المغادرة ، وعند وصولنا إلى مركز الوليد على الجانب العراقي تم استقبال الوفد في قاعة الشرف ومن ثم استأنف الوفد رحلته إلى بغداد في حوالي الساعة الحادية عشرة من مساء اليوم ذاته وتوجهنا إلى فندق عشتار بغداد (الشيراتون سابقاً) حيث تم نقل الوفد السوري (خاصة) في اليوم التالي إلى فندق الرشيد وتم وضع سيارات خاصة بتصرف الوفد وقد كان الاستقبال والاهتمام بالوفد السوري مبالغاً فيه إلى درجة شعرنا فيها بالحرج من الوفود العربية الأخرى لهذا التمييز والحفاوة والكرم العربي الأصيل الذي تجاوز كل الحدود ، والذي استمر حتى اليوم الأخير من الزيارة حيث تم توفير وسائط نقل صغيرة أقلت الوفد في طريق العودة إلى دمشق .

2 - **مؤتمر القوى الشعبية العربية (الدورة السادسة) :**

في صباح يوم الاثنين 19 / 3 / 2001 انتقل وفد اللجنة إلى قصر المؤتمرات في بغداد حيث تم افتتاح الدورة السادسة بكلمة للسيد سعد قاسم حمودة رئيس المؤتمر ، ثم كلمة فلسطين ، ثم كلمة العراق ألقاها السيد طه ياسين رمضان نائب رئيس جمهورية العراق الشقيق ، وقد رحب السيد رئيس المؤتمر بمشاركة الوفد السوري لأول مرة في دمشق ، وتميزت الكلمات بمواقف جذرية من قضية فلسطين العربية التي يجب تحريرها من النهر إلى البحر وكذلك التأكيد على دعم الانتفاضة ورفع الحصار عن العراق وتحقيق شعار المؤتمر : (انتفاضة فلسطين وصمود العراق ملحمة العروبة الجهادية ضد الهيمنة الأمريكية والعدوان الصهيوني) .
وفي مساء اليوم ذاته استأنف المؤتمر عقد جلساته في فندق بابل ، وكذلك في الأيام 20 و 21 و 22 من شهر آذار حيث ركزت الكلمات على المواقف الثابتة للجماهير العربية من قضية الحصار على العراق ودعم الانتفاضة وقد ألقى السيد طارق عزيز نائب رئيس مجلس الوزراء محاضرة هامة مساء يوم 20 / 3 / 2001 وتبعها مداخلات حول مختلف القضايا التي تهم الأمة العربية ومساء يوم الخميس 22 / 3 / 2001 عقد المؤتمر جلسته الختامية في قصر المؤتمرات في بغداد حيث تم تلاوة البيان الختامي وألقيت كلمات رئيس المؤتمر وفلسطين والعراق حيث ألقى السيد طه ياسين رمضان مداخلة مطولة عن دور الجماهير العربية في دعم الانتفاضة ورفع الحصار عن العراق ، ثم قامت الوفود بتنظيم مظاهرة أمام بعثة الأمم المتحدة ودخل وفد من المؤتمر المقر وقدم لممثل الأمم المتحدة مقررات المؤتمر واحتجاجاً على الحصار على العراق الشقيق وقدم بعض أعضاء اللجنة مداخلات بهذا الخصوص ثم قامت الوفود بزيارة ضريح الشهيد وملجأ العامرية ومستشفيات الأطفال وقد تأثرت الوفود تأثراً بالغاً بما شاهدت وما يشكل دليلاً قاطعاً على همجية الإمبريالية الأمريكية وعدوانيتها على أمتنا ، وقد تميز دور وفد اللجنة العربية السورية لرفع الحصار عن العراق في المؤتمر بمشاركة فعالة حيث ترأس الأستاذ منصور الأطرش إحدى الجلسات كما شارك الأستاذ أحمد عبد الكريم و ألقى كلمة غير مكتوبة باسم اللجنة العربية السورية لرفع الحصار عن العراق قوبلت باستحسان الحضور وبالتصفيق .
ونشير هنا إلى أن عدد المشاركين في المؤتمر كان كبيراً ويمثل اغلب الحركات السياسية والشعبية في الوطن العربي والمهجر وقد تميز الوفد الفلسطيني والوفد المصري والوفد الأردني بكثافة عدد المشاركين .

3 - **لقاءات على هامش المؤتمر :**

إضافة للحفاوة والتكريم التي ميزت استقبال وفد اللجنة فقد جرت لقاءات هامة بين الوفد والمسؤولين في العراق الشقيق نشير هنا إلى لقاء رسمي بين الوفد السوري الذي يضم وفد اللجنة وبين الأستاذ منصور الأطرش هو رئيس الوفد وحضر اللقاء وفد مجلس الشعب وكذلك وفد الجبهة الوطنية التقدمية وقد ألقى السيد رمضان كلمة ترحيبية بوفد سورية معرباً عن أمله بتعزيز العلاقات السورية العراقية وألقى الأستاذ منصور الأطرش كلمة جوابية تضمنت المعاني السامية التي يحملها العرب في سورية والعراق وعن الأمل بتطوير العلاقات السورية العراقية وتنقيتها من الشوائب ثم رد السيد طه ياسين رمضان وقدم استعراضاً مهماً عن تطور العلاقات السورية العراقية .
كما أن وفد اللجنة التقى على هامش الزيارة عدة مرات مع الأستاذ طارق عزيز نائب رئيس مجلس الوزراء / ثلاث مرات / حيث دارت حوارات هامة بينه وبين الزملاء أعضاء اللجنة ، كما التقى الأستاذ منصور الأطرش لقاء ثنائياً مع كل من السيد طه ياسين رمضان نائب رئيس الجمهورية والسيد طارق عزيز نائب رئيس مجلس الوزراء حيث أكد الأستاذ الأطرش على الموقف القومي الذي يتطلب تحسين العلاقات العراقية السورية وسمع من المسؤولين العراقيين أن قراراً قد اتخذ على أعلى المستويات بالعراق بتذليل كل العقبات أمام تحسين هذه العلاقات .

4 - **الانطباعات :**

عاد وفد اللجنة من هذه الزيارة بانطباعات عديدة نوجزها في ثلاثة محاور :

الأول : أن العراق على أبواب الخروج من محنة الحصار وأن شعبنا العربي الصامد في العراق قد أعاد البنية التحتية وأن الزائر لبغداد لا يجد أي أثر للعدوان الأمريكي الغاشم فقد أعيد البناء في كافة المجالات مما يؤكد مقدرة شعبنا العربي من جهة ، ومن أن أمريكا ليست قدر العالم من جهة أخرى ، وأن مقاومتها ممكنة ، وقد لمس الوفد ذلك من الجسور التي أعيد بناؤها والمنشآت التي أعيدت كما كانت وأفضل من السابق .

الثاني : أن شعب العراق ورغم أن الدولة تؤمن اللوازم الضرورية مجاناً تقريباً للمواطنين إلا أن معاناة الشعب العراقي بسبب الحصار كبيرة مما يحرض اللجنة على مضاعفة جهودها لرفع الحصار الجائر عن العراق ، إن شعبنا في العراق يعاني معاناة أليمة من عدوان أمريكي غاشم تساهم فيه للأسف الشديد بعض القوى التي تسمى عربية والتي ارتهنت ارتهاناً كاملاً للقوى المعادية للأمة .

الثالث : أن المسؤولين في العراق الشقيق يبذلون جهوداً حقيقية وصادقة لتحسين العلاقات السورية العراقية على كافة الصعد وأنهم على استعداد لتجاوز كافة الخلافات السابقة وكذلك تلبية المطالب السورية لتحسين العلاقات السورية العراقية ، إن اللجنة العربية السورية لرفع الحصار عن العراق تبارك ذلك وتعتبره يندرج ضمن مجهوداتها لرفع الحصار عن العراق .

5 - <u>مطالب يقترحها الوفد على اللجنة :</u>

1 - تطالب اللجنة بفتح الحدود السورية العراقية أمام المواطنين العرب من الجانبين للتنقل بحرية بين سورية والعراق وبدون قيود وتعقيدات .

2 - أن تطالب اللجنة باستكمال الأوتوستراد العظيم الذي يربط بغداد مع مركز الوليد الحدودي واستكمال هذا الأوتوستراد بذات الشكل من الحدود السورية إلى دمشق .

3 - فتح كافة نقاط الحدود بين سورية والعراق أمام البضائع وبالاتجاهين .

4 - تفعيل دور الشركات المشتركة بين البلدين والمنطقة الحرة .

5 - تسيير رحلات منتظمة على كافة الخطوط البرية والحديدية وكذلك الجوية بين البلدين .

وفي الختام لابد أن نشير إلى أن وفد اللجنة لمس أن المسؤولين العراقيين جادون في الوقوف مع سورية في معركتها لتحرير الجولان ومواجهة العدوان الصهيوني وأن جيش العراق على أهبة الاستعداد لمواجهة أي عدوان صهيوني على سورية .

هذا باختصار شديد ما خطه القلم من مشاعر فياضة ربما لا يكون القلم خير وسيلة للتعبير عنها . . .

لقد عدنا من العراق ونحن أكثر تفاؤلاً بمستقبل هذه الأمة ومقدرة أبنائها على مواجهة المخططات المعادية ، وربما نكون قد اقتربنا من نهاية الليل بقدر ما اقتربت بغداد من دمشق . . .

دمشق : 22 / 4 / 2001

أعـد التقـرير

حـبيب عـيسى

وأقرته اللجنة بجلستها المنعقدة بمكتب الأستاذ محمود جيوش

مساء يوم الأحد 22 / 4 / 2001

فهل احتلّ هذا الموقف من العراق حيزاً من الكيل الذي طفح مؤخراً..؟!

98. المحطة الخامسة: كنت قد انتسبت إلى نقابة المحامين عام 1988، بعد استقالتي من وزارة الإعلام.. ومن تقاليد مهنة المحاماة أن يتقدم المحامي ببحث علمي قانوني لنقل اسمه من جدول المحامين المتمرنين إلى جدول المحامين الأساتذة، وكان قد حُدّد يوم من حزيران عام 1991 حتى أتقدم ببحث، حيث تجري مناقشته لنيل لقب أستاذ في المحاماة.. وقد اخترت عنواناً للبحث "الدولة، والدولة المشروعة في ضوء القانون الدولي"، بحثت فيه أركان الدولة ومشروعيتها وشرعيتها، وكان طبيعياً أن تكون (الدول) التي قامت استناداً إلى معاهدات استعمارية على أرض الوطن العربي، وعلى رؤوس أبناء الأمة العربية، نماذج هامة للدراسة.. وقد خلصت فيها أن تلك الدول القائمة في الوطن العربي حالياً هي (دول فعلية) من الناحية القانونية، وأنها تفتقد الشرعية والمشروعية.. وقد امتد البحث على حوالي ثلاثمائة صفحة، حيث أثار حجم البحث الكبير نسبياً وموضوعه ريبة مجلس فرع نقابة المحامين بدمشق.. وبالفعل بعد أسبوع واحد من تقديم /20/ نسخة من البحث إلى فرع النقابة كما يقضي العرف، استدعاني الأستاذ الرئيس محمد نذير قدورة، وكان على درجة عالية من الانفعال، وكان مكتبه يعجّ بالقضاة وأساتذة القانون والمحامين، وبادرني إلى القول بصوت متهدج: حبيب، لماذا تحرجني..؟ لماذا هذا البحث..؟ ماذا تقصد..؟ ودفع إلي ورقة وقلماً، وقال لي بلهجة آمرة: اكتب.. وحيث لم يكن واقع الحال يحتمل أي شكل من أشكال المناقشة، فقد كتبت ما أملاه علي، وهو الآتي:

السيد رئيس فرع نقابة المحامين بدمشق

تحية الحق والعروبة،

بما أنني تقدمت إليكم ببحث علمي قانوني تحت عنوان "الدولة، والدولة المشروعة في ضوء القانون الدولي"، فإنني أطلب بسحب هذا البحث، واستبداله ببحث عن: (وهنا قال الأستاذ الرئيس عبارة ليس من المناسب أن أخطها على الورق، فاستبدلتها على الفور بعبارة): "عن قانون الإيجار في سورية". ثم طلب إلي الأستاذ الرئيس أن أوقع، فوقعت، حيث تنفس الصعداء، واحتضنني بمودة وأبوة وتمتم: منذ يومين لم يتركوني أنام، فمسحت على جبينه معتذراً له عما سببته له من إزعاج وإحراج، دون كلمة واحدة إضافية.. فقد كان علي أن أفهم أن البحث تسرب إلى بعض الجهات التي أحرجت الأستاذ الرئيس الذي طلب رئيس الديوان في الحال وطلب إليه أن يعيد إلي في الحال النسخ العشرين، وحيث كانت حالة

الأستاذ الرئيس لا تسمح بالنقاش، فإن رئيس الديوان اصطحبني إلى خارج المكتب وأخبرني أن كافة نسخ البحث قد تمّ توزيعها.. فربت على كتفه، وقلت: ولا يهمك.. ومضيت...

99. المهم أنني حملت نسخة من هذا البحث، كما هو بالضبط، وكتبت له تقديماً وأعطيته عنواناً جديداً هو: "الدولة القومية، شرعية الأساس، مشروعية التأسيس"، وقدمته إلى مديرية الرقابة في وزارة الإعلام، تعبيراً عن حسن النية.. وبالفعل فقد حصلت على السماح بطباعته وتداوله بعد حذف صفحتين أو ثلاثة تتعلقان بموضوع معاهدة كامب ديفيد. وقد تمّ نشر الكتاب فعلاً، كما تمّ تداوله في سورية... (لطفاً تكليف محامي الدفاع لإبراز نسخة من هذا الكتاب وضمه إلى ملف الدعوى). لقد اعتبرت أن هذا البحث جاء في السياق الطبيعي لنصوص الدستور في دولة الجمهورية العربية السورية الذي ينصّ على أن الشعب العربي في سورية جزء من الشعب العربي، وهذا يحتّم على هذا الجزء أن يناضل ليتوحد مع كافة الأجزاء الأخرى، وأن يزيل معوقات هذا التوحيد، ومن ضمنها، بل في مقدمتها، (الدول الفعلية)، بما فيها دولة الصهاينة.. لقد أردت أن أزيل هذا التناقض الحاد في الذهن العربي، إذ لا يمكن أن تجتمع في ذات بشرية واحدة، الدعوة إلى الوحدة العربية، مع شرعية الدولة الإقليمية (الفعلية). فإما هذه، وإما تلك، ذلك أن الدعوة إلى الوحدة العربية تعني إزالة الدول الإقليمية، والعكس صحيح... فأي الموقفين نختار..؟

لقد آمنت دائماً، أن من حق الأمة العربية السعي بجميع السبل كي تقرر مصيرها بنفسها، وبالتالي فإنني وضعت حق الأمة بتقرير مصيرها في مواجهة مؤسسات التفتيت والصهينة التي تسعى علناً إلى حق تقرير المصير للأقليات والقبليات والطائفيات والمذهبيات والإثنيات والإقليميات، تدميراً للهوية القومية للأمة العربية، فمن هم المجرمون في الوطن العربي...؟

100. على أية حال، هذا بحث يطول، وساحته الوطن العربي، وربما العالم، فقط أردت أن أسأل: هل الذين أزعجهم هذا البحث، وطلبوا إلى الأستاذ رئيس فرع نقابة المحامين بدمشق أن يمنع مناقشته في فرع نقابة المحامين قد أضافوه إلى الكيل، وعندما يمتلئ ويطفح تحين ساعة الحساب..؟

أيها السادة،

101. قد يخطر لكم، أو لبعضكم، أنني أردت مما تقدم أن أتهرب من موضوع الدعوى، عن طريق هذه المتاهات التي أسردها، والتي لا تهمّ المحكمة... لكنني أعتمد على فطنة القاضي فيكم، كي تدركوا حقيقة هذه الدعوى، وجذورها وأبعادها، فاقتحمت الموضوع ليهرب أو يتهرب من يشاء... فبعد أن حرمني الاعتقال من شرف الدفاع عن المناضل رياض الترك، والأصدقاء الأعزاء الآخرين، وكنت قد أعددت ليكون دفاعاً عن الشعب ودفاعاً عن الوطن، فإن طموحي انحصر بالدفاع عن القضية التي آمنت بها، والتي كانت هي كل حياتي.. لذلك فإنني سعيت فعلاً إلى محاصرة مؤسسة الادعاء للإفصاح عن السبب الجوهري الكامن وراء اعتقالي.. فلدي من وسائل الإثبات والأدلة ما يكفي للتأكيد أن مؤسسة الادعاء بشقّيها الأمني والقضائي، قد ارتكبت خطأً جسيماً باعتقالي إذا كانت تبغي أمن الوطن والشعب.. أما إذا كانت تسعى من وراء هذا الاعتقال إلى مجرد عزلي، فإنها كانت تملك أن تفعل ذلك دون أن تورط هذه المحكمة فتحرجكم، وتدفعني للبحث وراء الأشباح...

102. بكل الأحوال، فإن ما تقدم كان ضرورياً، لا لتعرفوا كيف تحكمون، ولكن لتعرفوا على من تحكمون، ولماذا..؟ وهذا عندي أهم من أي حكم تنطقون به، ذلك أنني لم أتهرب يوماً من المبادئ والأهداف التي عشت من أجلها، ولم أتنكر لها في أحلك لحظات الخطر، ولو من منطق السلامة الشخصية، وكنت صادقاً مع من أختلف، بالضبط الصدق الذي أتعامل به مع من أتفق، لأنني رفعت دائماً ذلك الشعار العظيم: (الصديق من صدقك لا من صدّقك).. لكن المشكلة هي كيف يستطيع الذين يحملون على كواهلهم هذا المبدأ الثقيل أن يخترقوا حواجز المنافقين التي دمرت الكثير، وستأتي على ما تبقى من هذا الوطن..؟

بناءً على ما تقدّم، لا يمكن لأحد، كائناً من كان، أن ينسب إلي أنني تآمرت، أو أنني أخفيت أهدافي الحقيقية، فقد قلت دائماً ما أقصده، ومارست دائماً هذا القصد.. فالتزمت ما قلت مبنى ومعنى، بدون غموض أو مواربة، ولا حتى من باب التكتيك.. فقد اعتقدت دائماً أن الأمة في مثل الحالة التي تمر بها الآن لا تحتمل المواربة والرمزية، ولا أي شكل من أشكال النفاق والتكاذب، ولا بدّ للذين يتصدون للإنقاذ أن يتحولوا إلى رايات واضحة كل الوضوح لجميع أبناء الأمة كي تخرج من متاهات الغبن والدسائس والهمهمات والسرية... فعندما تخرج الأمة إلى النور في ظل مصداقية ووضوح لا لبس فيه، ستعرف كيف تنتصر.. فالأمة لن تنقذها الأفكار الغامضة، ولن تنقذها أساليب الاحتيال والتآمر، حتى ولو كانت لأهداف نبيلة...

فعندما تعصف القوى المعادية بالوجود، تستهدف هوية الأمة ذاتها، يصبح الاعتصام بالثوابت طوق النجاة، ويغدو إشهار ذلك على رؤوس الأشهاد هو المجداف الدافع إلى بر الأمان...

إنها مرحلة المخاض، التي تتلمس فيها الأمة طريقاً جديدة للخلاص من محنتها، لهذا فإنني أدعو إلى العلنية والوضوح في كل شيء، لأن الأعداء قد انتهجوا التآمر والدسائس والفتن والتخريب على كافة الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.. والمواجهة موضوعياً غير ممكنة، وهي غير متاحة فعلاً إلا للقوى الجماهيرية العريضة.. لا مخرج لهذه الأمة إلا بأن تشارك الجماهير العريضة بمعظمها في المعركة، وقد أثبتت التجربة أن أي نشاط محاصر معزول لا أمل له في النجاح... أقول هذا حتى أوضح لمحكمتكم الموقرة، أن هذا المبدأ من الثوابت التي لا أحيد عنها.. لهذا فإن مواقفي كانت واضحة خارج الزنزانة، وأنا أكثر تمسكاً بها الآن داخلها، وإذا كان الثمن حريتي الشخصية، أو حتى حياتي، فلا بأس، وليكن...!

103. لقد قلت بمحاضرة ارتجلتها مؤخراً في المنتدى الحضاري بدمشق، أعتقد أن تسجيلاً لها موجود لدى الأجهزة الأمنية، ما معناه: أن السلطة في ظل زهوها بأنها أحكمت سيطرتها على مؤسسات المجتمع، وبات طوع يديها، عليها أن تعلم أن انهيارها بات وشيكاً، لأن المجتمع هو الأساس، ذلك أن السلطة تستمد قوتها وضعفها من المجتمع.. وبقدر ما يكون المجتمع قوياً متماسكاً يمتلك مؤسسات حقيقية موضوعياً، قادرة وفاعلة، تكون السلطة كذلك قوية وقادرة، تستمد من المجتمع قوتها وشفافيتها وصلابتها وصلابة مؤسساتها في ظل تنافس الآراء والجدل الاجتماعي.. والعكس صحيح،عندما تنهار مؤسسات المجتمع، أحزابه ونواديه وجمعياته وصحافته، فإن هذا سيؤدي حتماً إلى سلطة ضعيفة تستقوي بالبطش، وإلى مجتمع ضعيف يتبادلان النفاق والفساد والتخريب والتكاذب... لهذا فقد دعوت هناك، وأدعو هنا إلى أن تستعيد مؤسسات المجتمع ومؤسسات الدولة كوادر فاعلة محصنة قادرة، وتمنح الدولة المجتمع الأمان بالتنسيق والقوننة والإدارة والتنظيم... ولهذا فإنني، ومن خلال اطلاعي على مؤسسة العدالة في سورية، فإنني أقول بصوت عالٍ، أن قضية الفساد والخراب الأخلاقي والوظيفي لا تُحلّ أبداً عن طريق القضاء والسجون، وإنما لا بدّ من إعادة بناء المرتكزات الحقيقية على الصعد كافة داخل المجتمع، ووضع منحى للحياة السوية ، وبعد ذلك، وفي سياقه، يأتي دور القضاء.. كما أن أمن الوطن والمجتمع يتأتى باستعادة المجتمع مؤسساته وفاعليته، ولا يتأتى من الاعتقالات والمخبرين والأجهزة الأمنية التي يجب أن تكون مهماتها تالية.. وفي حدود القانون...

وهكذا ترون أنني أحمل في داخلي خوفاً حقيقياً من المستقبل طالما أن القوى الحية والإيجابية في المجتمع لا تنتقل من المواقع الهامشية التي دُفِعت إليها.. إلى مواقع النشاط والتأسيس والتحصين والبناء والمراقبة والتنسيق، ذلك أن غياب مؤسسات المجتمع يجعل مستقبل الوطن مهدداً بالفوضى، ومهدد بسطوة قوى فاقدة للاتجاه يمكن أن تقع بسهولة فريسة لمخططات معادية غير خافية على أحد.. بناءً عليه، فقد اعتقدت، ومازلت، أن ما تقوم به القوى الحية لإحياء مؤسسات المجتمع الحزبية والثقافية والاجتماعية والبيئية والاقتصادية والإعلامية، هو في حقيقة الأمر الضمانة الوحيدة للدفاع عن الوطن وعن الهوية، وهو الذي يولّد القوة القادرة على هزيمة المخططات المعادية.. فهل يكفي هذا للرد على الذين يبررون تكبيل الحريات العامة بأنه ضروري لمواجهة العدو الخارجي..؟

104. في التاريخ العربي حكم ودروس وعِبَر لمن يريد أن يتعلم.. نكتفي بسرد هذه الرواية المعبرة، فقد تعرضت قبيلة عنترة بن شداد للغزو، وكادت أن تنهزم هزيمة نكراء. فيُقتل الرجال والولدان وتُسبى النساء، فاستنجد شيخ القبيلة بعنترة بن شداد وقال أن: كرّ عليهم يا عنترة... فأجاب عنترة ذلك الجواب التاريخي، قال: العبد لا يكر... فصرخ شيخ القبيلة مستغيثاً: كر.. فأنت حر... وهنا، وهنا فقط كر عنترة، وصاغ تلك الملحمة التاريخية للانتصار التي تتناقلها الأجيال العربية جيلاً بعد جيل...

فالحر يكر أيها السادة، والعبد يفرّ...

أيها السادة:

105. رغم تقديري الكبير لوقتكم ومشاغلكم، فإنني لا أعتذر عن الإطالة، لأن القضية التي بين أيديكم لا تمسّ شخصي، ولا الأخوة والأصدقاء الأعزاء اللذين يشاركونني زنزانتي والزنازين المجاورة، وإنما تمسّ مستقبل الوطن الذي نريده مختلفاً:

– هناك من يريده مختلفاً نكوصاً إلى الأسوأ...
– وهناك من يريده كما هو... والنتيجة أيضاً ستكون إلى الأسوأ...!
– وهناك من يريده مختلفاً باتجاه التطور والبناء والعطاء والإصلاح والمأسسة والقوننة والعدالة والمساواة.. كمجتمع قدوة، وكجزء حيوي من أمة عربية تتلمس طريقها إلى النهوض والانعتاق والحرية...

فأي الطرق الثلاث تريدوننا أن نختار...؟ نحن حسمنا أمرنا، واخترنا... فماذا تختارون أنتم...؟!!

البـــــاب الثـــانــي

الاعـــتـــقـــــال..!

الـــفـصـــل الأول

تمهيـــدي

106. إذا كان لا بدّ من العودة إلى ملف القضية، ومعالجة الموقف القانوني في الحدود التي ارتأتها مؤسسة الادعاء، فإنني أرى أنه من الهام والحيوي جداً أن نعرّج أولاً على إجراءات الاعتقال، أو (التوقيف) كما أرادت مؤسسة الادعاء أن تكيفه.. لأنني أعتقد أنه آن الأوان كي نجنب أبناءنا مثل هذه الممارسات التي لم تعد تطيقها حتى الشعوب الأكثر تخلفاً في العالم... وأنا هنا سأرويها بالتفصيل، وكذلك كل ما رافقها من إجراءات تعسفية، لأن مؤسسة الادعاء التي من المفترض أنها حريصة على أمن الدولة يجب أن يكون حرصها أشد على أمن الشعب، وعليها ألا تنسى أن الشعب هو الركن الأساسي للدولة، وعلى هذه المحكمة أن تختار بأن تكون (محكمة أمن الدولة)، أم (محكمة أمن السلطة)، لأن الفرق بينهما بيّن وواضح وصريح.. وإذا اختارت أن تكون محكمة لأمن الدولة فإن عليها واجب ملاحقة مرتكبي الإجراءات التعسفية بحق الشعب، بالعقوبات الرادعة، عوضاً عن أن تلاحقني لأنني قلت أن اعتقالات الأخوة الذين سبقوني إلى الزنازين، كانت اعتقالات تعسفية... إنني أكرر هنا، أن تلك الاعتقالات كانت تعسفية، بل إن بعضها كان أكثر من تعسفي، وبعضها الآخر كان أقرب إلى الاختطاف، خاصة اعتقال الدكتور كمال اللبواني حيث طُرق باب منزله في ساعة متأخرة، قريبة من منتصف الليل، وعندما فُتح الباب وجد شخصاً يتحدث بلهفة واستعجال يستنجد بالطبيب لإسعاف زوجته المغمى عليها، وهي في حالة الخطر، فلم يتردد الدكتور كمال بالتحرك بسرعة حيث حمل هذا الشخص الحقيبة الإسعافية للطبيب، وانطلق أمامه.. وعند الباب الخارجي كانت تقف سيارة (فان) زراعية خاصة، حتى لا تثير الاشتباه، وما كاد الدكتور كمال يصعد إلى السيارة التي تحركت بسرعة، حتى ظهر شخص آخر من كبينة السيارة، ووضع المسدس برأس الدكتور كمال، وقام بتهيئته للإطلاق، وهو مصوب إلى رأسه، ثم وضعوا عصابة سوداء على عينيه، وانطلقوا به إلى حيث لا يدري من بيته في الزبداني... بالله عليكم، كيف يمكن أن تكيفوا هذه الواقعة..؟ وهل يحتاج تكييفها إلى براعة قانونية..؟ وقبل ذلك، أليس لنا الحق أن نتساءل لماذا..؟ وهل السلطة مضطرة أن تنزلق بتصرفاتها إلى هذا الدرك..؟

107. الثلاثاء 2001/9/11 كنت قد تلقيت تحذيراً بأن الكيل قد طفح، وأن بيني وبين الاعتقال شعرة رفيعة جداً، وبالفعل حاولت أن أحافظ عليها، وتجنبت وسائل الإعلام قد الإمكان، وكنت أجيب فقط تجنباً للإحراج الشديد، ظناً مني أن تلك الشعرة قد تصمد لأسابيع قادمة... لكن الشعرة كانت قد قُطعت على ما يبدو.. هذا إذا كانت موجودة أصلاً...
ثم... ثم تفجرت الأحداث بعد ظهر ذلك اليوم، وشربت الشاي بعد ظهر ذلك اليوم المشرق على مشهد انهيار برجي الاتجار بالعالم والشعوب.. وبدأت التكهنات تتوارد أن عربياً ما، وراء هذا الحدث.. واختلطت المشاعر لدي، فخلال الحياة المديدة لجيلنا، ونحن نتابع بيوتنا تنهار، وأطفالنا يُقتلون ويُشردون بفعل مباشر من الإدارة الأمريكية، أو بالتفويض، بالأسلحة الأمريكية... وتساءلت: كيف يحصل هذا..؟ ومن من..؟ من أمة محتلة مخترقة محاصِرة، مستلبة الإرادة والإدارة..؟ كيف يمكن أن تنتج من يفعل ذلك، ولماذا..؟ وفي أي ظرف..؟ ومن أي موقع..؟

108. لا أريد أن أشغلكم بمشاعري فقد كانت فياضة إلى درجة كبيرة، ولا أريد أن أعالج هذا الموضوع جزئياً كي لا يُفهم خطأ... لكنني اختصاراً أقول، أنني وعلى مدى سنوات عمري أشعر بالإهانة من تلك الأساطيل الأمريكية التي تحاصر وطني العربي، ومن تلك القواعد الأمريكية على أرضنا المقدسة.. وقد تفاقم هذا الشعور في السنوات الأخيرة حيث عربدت تلك الأساطيل والقاذفات المنطلقة من تلك القواعد (بالصوت والصورة) تدمّر في الوطن العربي من غير حساب في العراق وفلسطين وسورية ولبنان والسودان وليبيا...

المهم أنني تابعت الأحداث إلى ما بعد منتصف الليل حيث آويت إلى فراشي مطمئناً، لأنه حتى لو كان قرار اعتقالي محتملاً فإنهم سينشغلون بما هو أهم الآن... ومرة أخرى كانت حساباتي خاطئة ومعكوسة تماماً...!!!

الـــفـصل الـــثــانـي

الاقــتـــحـــام

109. كأنني في حلم، تنبهت حواسي على جلبة في البيت، سمعت عصمت سيف الدولة، ولدي، يقول بلطف، تفضلوا إلى الصالون سأقوم بإيقاظه.. ثم سمعته يصرخ: إلى أين أنتم ذاهبون... لا يصحّ هذا... والضجيج يقترب من غرفة نومي.. إنهم يعرفون حتى موقع غرفة نومي في البيت.. تصوروا الدقة.. فنهضت من فراشي مسرعاً باتجاه الباب حتى لا يقتحم غريب غرفة نومي.. وبصعوبة أوقفته عند باب غرفة النوم.. كان شخصاً ضخم الجثة، يتبعه شخصان آخران.. قبض على يدي بقوة، فطلبت إليه التوجه إلى صالون البيت، وقلت له باسماً: لا حاجة لكل هذا.. لم يجب.. دخلنا الصالون، طلب إلي بلهجة آمرة وحازمة أن أسلمه هويتي، فأعطيته إياها.. كان البيت قد أصبح محتلاً تماماً، والأبواب محروسة... قال بحزم: البس ثيابك.. حاولت أن أكسب بعض الوقت كي أستوعب ما يجري، نظرت إلى ساعة الحائط، كانت الثالثة والنصف بعد منتصف الليل.. قلت لهم: تفضلوا، استريحوا، اشربوا القهوة إلى أن أرتدي ملابسي... لكنهم كانوا بعجلة من أمرهم، فهم ينفذون مهمة عسكرية معقدة.. كانت زوجتي وبعض أولادي قد لحقوا بي إلى صالون البيت مذعورين من هول ما يشاهدونه.. فأدركت أن علي أن أغادر بسرعة حتى أزيح هذا الكابوس عن صدورهم.. وبالفعل، ودون أي سؤال ارتديت ملابسي بسرعة حيث طلب القائد من عناصره أن يقتادوني، فقبض كل واحد من العناصر على يد ووضعوهما خلف ظهري، واقتادوني إلى خارج البيت.. وقبل أن ألقي النظرة الأخيرة على زوجتي وأولادي وأخي أبو رضوان الذي كان ضيفاً علي في تلك الليلة.. وعلى عتبة الباب، وقف ولدي عصمت سيف الدولة على الباب، وخاطب قائد القوة مستفسراً: من أنتم..؟ وبأي حق تأخذونه..؟ فابتسمت ابتسامة رضى بيني وبين نفسي لأن ولدي يتحدث بالحقوق والقانون.. ثم ألقيت على الجميع نظرة الوداع، وقلت لهم: انتبهوا إلى أنفسكم.. ثم، وحتى لا يتعرض ولدي عصمت سيف الدولة لأي إهانة طلبت إليه أن يبتعد عن الطريق.. فأنا لحسن الحظ أعرف من هم، وإن كنت لا أعرف إلى أي جهاز يتبعون.. وما أن غادر الموكب عتبة البيت حتى أغلق (القائد) باب البيت بقوة، ولاحظت وهم ينزلون بي درج البيت أن المسلحين أخذوا استحكامات عند زوايا الدرج ويشهرون مسدساتهم، وحتى مدخل البناء، حيث أوقفني قائد المجموعة وأصدر أوامره إلى أحد العناصر لوضع عصابة سوداء على عيني تمّ تثبيتها بإحكام، ولم أعد أرى شيئاً لكنني أحسست أن جلبة كبيرة تسير بمحاذاتي وأمامي وخلفي، ومازال العنصران يقبضان على يديّ بقوة ويضعانهما وراء ظهري.. وتمّ اقتيادي إلى حيث أمرني أحد العنصرين أن أرفع رجلي اليسار لأضعها داخل سيارة متوقفة، ثم دفعني إلى منتصف المقعد، وأحاط بي العنصران كل من طرف ووضعا يدي وراء ظهري بعد أن قبضا عليهما وثبتا العصابة السوداء..!!

110. ثم صعد القائد إلى المقعد الأمامي من السيارة، وتمّ ترتيب الأسلحة في خلفية السيارة، وأحسست أن هناك سيارة أخرى مرافقة تسير خلفنا.. ثم أعطى قائد المجموعة، بعد أن تأكد من نجاح العملية، الأمر إلى سائق السيارة للانطلاق.
كانت خواطري تتسارع مع تسارع السيارة التي تتجه إلى حيث لا أدري، وكان علي أن أستبدل حاسة البصر بحواس البصيرة كي أحدد اتجاه السيارة، وقد كانت تجربة مسلية فقد تمكنت فعلاً من تحديد اتجاه السيارة.. كنت أقيم في ضاحية دمر السكنية، وقدّرت أن السيارة اتجهت باتجاه قاسيون، ثم انحدرت وانعطفت شمالاً.. لم يكن يعنيني من هم هؤلاء، ذلك أنني كنت أتوقع الاعتقال في أية لحظة، وإن كنت أجهل الأسلوب والتوقيت، وأجهل ماذا ينتظرني... كان الصمت مطبقاً إلا من سؤال واحد جاء من الأمام حيث قائد المجموعة قال: أنت محامٍ، أليس كذلك.. أجبت بكلمة واحدة: نعم.. وانتهى الكلام تماماً مما أعطاني فرصة للتفكير في قضية طالما شغلتني قبل انشغالي بالقانون وبعده: ترى، لماذا تتخلى السلطة عن الميزة التي أعطاها إياها القانون، وهي أن من يمثلها له الحق في أن يرتدي زياً رسمياً بشارات معروفة، وبالتالي له الحق في حدود القانون، وضمن أصول ولوائح محددة في توقيف المواطنين، وإيداعهم مراكز التوقيف النظامية والمعروفة، وأن عليه أن يلتزم حدود وظيفته فلا يقتحم حرمة المنازل، وإنما ينفذ مذكرات التوقيف في أوقات محددة وبحضور مختار المحلة... وكنت أتساءل دائماً، إذا كان من المفهوم أن يحاول المجرمون انتحال صفة رجال الشرطة والأمن، وارتداء زيهم الرسمي وشاراتهم أحياناً،كي يرتكبوا جرائمهم، فما الذي يدفع رجال الأمن ليتخلوا عن زيهم

الرسمي وشاراتهم،وينتحلوا صفات وأساليب العصابة المسلحة..؟ ماذا كان يضير هذه المجموعة لو كان أفرادها يرتدون زياً حكومياً رسمياً، ويبرزون مذكرة التوقيف كي أعرف عن من صدرت، ومن هي الجهة التي أصدرتها.. ثم ماذا كان يضيرهم أن ينفذوا ذلك في وضح النهار وبحضور مختار المحلة، أن يستأذنوا، ويعرّفوا بأنفسهم.. حتى إذا كانت أجهزة الأمن تتخفى باللباس المدني للمراقبة والتجسس والملاحقة، لكن عندما يصل الحد إلى الاعتقال، فإن مبررات التخفي قد انقضت، وإذا كانوا يصرون على التخفي، ماذا يضيرهم أن يستعينوا بقسم الشرطة، فترافقهم دورية من قسم الشرطة بالزي الرسمي حتى لا يروع الآمنون... ترى، ما هو الأثر الذي تركه اعتقالي بهذه الطريقة على أولادي وأسرتي وجيراني، حيث لا يعرفون إلا أن مجموعة مسلحة حضرت قبل الفجر، اقتحمت منزلي، وقبضت علي، واختفت واختفيت معها... إنني أحلم أن نجنّب الأبناء مثل هذا الموقف، يجب ألا يتكرر هذا، يجب أن تعملوا أيها السادة من أجل أن لا يتكرر هذا في بيوتكم... ثم لماذا كل هذه المظاهر المسلحة التي رافقت اعتقالي..؟ هل كان القصد إرهابي أم إرهاب أسرتي..؟ إنهم بكل تأكيد يعرفون أنني أنتظرهم، ويعرفون أن لا حول لي ولا قوة لمقاومتهم، وأعرف انهم يراقبون المنزل منذ أسابيع، وأنهم أحياناً ينامون في حديقة البناء، أو في سياراتهم المواجهة لشقتي، وأنهم يراقبون من يدخل ومن يخرج، ويراقبون خطوط الهاتف الذي كنت أستعمله قاصداً في أغلب الأحيان كي يكون موقفي واضحاً لا لبس فيه حتى للأجهزة الأمنية... كانت تلك الخواطر تتدافع، وكأنها شريط سريع.. عندما أحسست أن السيارة دخلت من باب حديدي ثقيل...

111. عرفت ذلك من صرير عجلاته.. ثم هدأت السيارة تماماً، وقفت وأنا ما أزال معصب العينين، فاقتادني عنصران بذات الطريقة، ثم طلبا مني أن أنتبه لوجود درج يهبط إلى القبو... وضحكت بيني وبين نفسي لأن الذاكرة تحفظ من الروايات الكثيرة أن الزنازين في الأقبية حتماً... ثم وبعد عدة درجات أُعطي الأمر بفتح الباب، ومن ثم اقتادني العنصران إلى الداخل حيث تمّ رفع العصابة السوداء، وسلماني إلى عنصر جديد اقتادني بدوره إلى غرفة تتوسطها طاولة حديدية يجلس خلفها عنصر، وإلى جانبه عنصر آخر يجلس على سرير حديدي، وتوجد خلفهما خزانة خشبية بدرفتين، على الأولى صورة لرئيس الجمهورية السابق، وعلى الثانية صورة لرئيس الجمهورية الحالي.. إنني في قبضة رجال الأمن، لكن أي أمن منهم.. لم تتوفر لي أية دلائل للتحديد رغم محاولاتي أن تجول عيني في المكان علني أعثر على دليل مميز... نبهني الشخص الذي يجلس خلف الطاولة أن أفرغ جيوبي من كل شيء وأضعه على الطاولة.. ففعلت دون أن تصدر عني كلمة واحدة.. ثم طلب إلي أن أعطيه الحزام، ففعلت.. ثم بحركة أشار إلى زميله فنهض وفتشني جسدياً للتأكد أنني لا أخفي شيئاً... طلب إلي بعد ذلك أن أخلع خاتم الزواج ففعلت أيضاً... كل شيء كان يجري بهدوء وصمت.. ثم قال لزميله إلى الــ 16، فتبعته في ممر تصطف حوله من الجانبين أبواب سوداء قاتمة تحمل أرقاماً قرأت منها من 1 إلى 21 قبل أن أصل إلى باب الزنزانة /16/.. كان الباب مفتوحاً، دخلت إليها فقام بإغلاق الباب الحديدي الأسود الضيق، ووضع عليه القفل، وتأكد من الإغلاق، وتركني وحيداً...

جالت عينيّ في الظلمة فماذا رأيت..؟!

الــــفـصــل الـــثـالـــث

الـــزنـزانـــة (16)..!

112. أخيراً، هاأنذا في الزنزانة المنفردة.. لقد سمعت عنها حكايا، قرأت عنها كتباً، وتلقيت شهادات.. إنها بعرض متر واحد أو أقل قليلاً، طولها متران أو أقل قليلاً، فيها مصطبة بعرض 50سم وارتفاع 40سم تقريباً، مبلطة، عليها بطانية، داكنة سوداء.. من حسن الحظ لا تستطيع التدقيق بها بسبب العتمة.. بجانب المصطبة ممر ضيق، يحوي مرحاضاً تنبعث منه روائح كريهة، وصنبور ماء معطل.. وللزنزانة باب حديدي ضيق، في نصفه العلوي فتحة صغيرة بأبعاد 20×10سم، تركها السجان مفتوحة يتسلل منها نور خافت لأن الزنزانة مظلمة لا يوجد فيها أي مصدر للإنارة.. في الجهة المقابلة، وقرب السقف توجد فتحة مغطاة بشبك حديدي كثيف، يتسلل منها بعض الضوء.. وبما أنني كنت أتوقع الأسوأ، فقد أقنعت نفسي على الفور أن الزنزانة جميلة، يمكن التعايش معها... فخلعت حذائي، وصعدت إلى المصطبة أتمشى، حتى بدأت الخواطر تهاجمني، فأسترجع أحداث الساعة الأخيرة... كنت أريد أن أصرخ: أنا بخير، علّ هذا الصوت يصل إلى أسرتي، إنهم بالتأكيد يعانون من قلق شديد، فهدتني هذه المشاعر، جلست على المصطبة، واكتشفت صحناً من البلاستيك لا لون له، يحتوي على كسرة من الخبز اليابس.. فأخذت حذائي، وضعته تحت رأسي، وحدقت بالسقف، ثم حاولت التعرف على الكائنات البائسة الزاحفة التي انتعشت للترحيب بالزائر الجديد.. صراصير وحشرات، لا أستطيع التعرف عليها بسبب العتمة.. الروائح الكريهة تنبعث بشدة.. حاولت أن أتعامل مع حنفية الماء بلا فائدة... حدقت بالسقف، وبدأ شريط

الذكريات عندما بدأ صوت أذان الفجر يأتي من أكثر من اتجاه، وبسبب تعدد المصادر أدركت أنني ربما في منطقة ما وسط المدينة.. حاولت أن أستسلم للنوم، لكن النوم كان عصياً...!

113. العجيب في الأمر، أنني لم أكن قلقاً مما سيحدث لي، كان القلق يداهمني على وضع الأسرة، فقد تركتهم بلا مؤونة مادية.. تذكرت ذلك عندما سلمت حاجياتي.. كان كل ما أملكه 60 ل.س وأعتقد أنني لم أترك في البيت شيئاً، لكنني طردت هذا الهاجس بسرعة... سيتدبرون أمرهم... شعرت بالسكينة، كنت أعتقد أنه في مثل هذه الحالات يُخضع الإنسان نفسه لمحاكمة صارمة: ترى، لماذا أنا هنا..؟ ولماذا حصل ما حصل..؟ وهل كان من الممكن تجنب هذا الموقف الذي أنا فيه الآن..؟ وأين كان الخطأ..؟ هذه الأسئلة تتحول شيئاً فشيئاً إلى مصدر يتدفق منه القلق، وربما الإحباط.. لكن الذي أدخل السكينة إلى قلبي هو أنني كنت على يقينية شبه مطلقة على أن ما فعلته كان يجب أن أفعله، وما قلته كان يجب أن أقوله.. فقط أحسست أن الاعتقال ربما حرمني من إضافة مواقف كان يجب أن تُتخذ قبل اعتقالي، وحرمني من شرف الدفاع عن الأخوة الذين سبقوني... لهذا فإنني لم أنشغل بالغد، ولا بالتحقيق المُنتظر، ولا إلى أي مدى يمكن أن يصل، لأنه ليس لدي ما أخفيه، على العكس لدي ما أضيفه.. لهذا فإن خيالي ذهب بعيداً عن الزنزانة ورائحتها الكريهة وهمومها.. ورحلت مع خيالي بعيداً إلى الماضي..!

114. هاأنذا أخيراً في السجن، في المكان الذي حاولت أن أهرب منه، أو على الأصح، أن أتجنبه على مدى الأربعين عاماً المنصرمة من عمري.. كنت أخافه ربما، لكنني كنت أحس أحياناً أنه يسكنني، لذلك كنت على يقين بأنه لا سبيل للتحرر من الخوف منه إلا باقتحامه.. وهاأنذا أتحرر من الخوف، وبالتالي أخطو الخطوة الأولى باتجاه الحرية.. إذ لا حرية مع الخوف أبداً...

115. منذ أربعين عاماً قام حفنة من الانفصاليين بفصم عرى الجمهورية العربية المتحدة، كانت أياماً دقيقة وحيوية في الوقت ذاته.. كان الانفصاليون في تلك الأيام لا يعرفون كيف يحكمون دولة الانفصال، وكانت الجماهير الشعبية الغاضبة الحالمة لا تعرف كيف تعيد الجمهورية العربية المتحدة... كانت الحكومات الانفصالية تنهار الواحدة تلو الأخرى، والجماهير الشعبية كانت تتظاهر وتمارس الإضرابات، وتعبر عن مواقفها بكافة الوسائل، حتى خُيّل إلي أن تلك الأيام كانت هي الأيام الحقيقية للجمهورية العربية المتحدة، كانت هي الأيام الحقيقية للوحدة العربية، حيث يعبر الناس عن مواقفهم الوحدوية، ويبدعون أساليب نضالهم وأساليب مقاومة الانفصال، يبدعون شعاراتهم وهتافاتهم ليس بتوجيه من أجهزة الجمهورية العربية المتحدة أو تخطيطها، وإنما بمواجهة أجهزة دولة الانفصال.. فكان الموقف صافياً صادقاً معبراً لا غبار عليه...

116. في تلك الأيام، تعرضت لأول مرة في حياتي لمخاطر الاعتقال، كنت في الصف التاسع الإعدادي في بلدة مصياف عندما تطورت المظاهرات، واحتل الطلاب البلدة، وأنزلوا علم الانفصال ورفعوا علم الجمهورية العربية المتحدة، وفقدت السلطة السيطرة على البلدة، فاستنجد مدير المنطقة بقوة من الشرطة أُرسلت على عجل من مدينة حماة، وحصلت مواجهات عنيفة.. كنا نتوزع مجموعات صغيرة على الأسطحة، وفي الزوايا نطلق الحجارة على رجال الشرطة، فقد كانت الحجارة سلاحنا الوحيد.. وكان رجال الشرطة يدافعون عن أنفسهم بالملاحقة ومحاولة الاعتقال وبالهراوات، وأحياناً قليلة بإطلاق النار في الهواء... ووقعت مجموعتي في كمين حيث حاصرتنا دورية من رجال الشرطة وتمّ اعتقالنا، كنا ثلاثة من الطلاب... وبينما كانت الدورية تقتادنا إلى السرايا الحكومية حيث السجن، هاجمتها مجموعة أخرى من الطلاب، فكان على الشرطي الذي يمسك بيدي أن يداري نفسه من الحجارة، فأفلت من يده، وهكذا نجوت... في اليوم التالي، نظمنا مظاهرة كبيرة للإفراج عن زملائنا.. وبالفعل تمّ الإفراج عنهم بعد أن اجتمع بهم مدير المنطقة، وهو يرجو الرفق برجال الشرطة، فهم أخوة لكم! ونحن نقدر مشاعركم حق التقدير... كانت أياماً حافلة بالأحلام والانتكاسات...

117. هكذا تفاديت السجن منذ /40/ عاماً.. ثم توالت الأحداث والاحتمالات.. حيث كان احتمال السجن عند كل منعطف، فلم يمرّ عام تقريباً إلا وكان حافلاً باحتمال ما.. ومع تقدم العمر وعمق التجربة، فإنني تعاملت مع مسألة السجن بعد ذلك بأسلوب حرب العصابات، أي أقول كلمتي ثم أنسحب، لتمرّ فترة كمون مناسبة، ثم أعيد الكرّة، وهكذا...

118. لكن للمسألة وجه آخر وجوهري لا يتعلق بي، وإنما يتعلق بانحسار التيار القومي والعجز الذي أصابنا حقيقة، فأصبحنا في حالة من الحصار بعد تردي الواقع العربي، لم نعد معها قادرين على فعل أو ممارسة نشاط نستحق عليه السجن... لقد عاهدت نفسي أن يكون السجن ثمناً للقضية التي آمنت بها دائماً، ومازلت، وهي قضية الوحدة العربية، والسعي لتحقيقها.. وهذه القضية بالنسبة إلي ليست مجرد شعار أو طموح، وإنما هي مسألة الحياة ذاتها والوجود ذاته.. وبالتالي فإن كل ما هو إيجابي في الحياة العربية يؤدي إليها، وكل ما هو سلبي يودي بها... وبالتالي فإن الموقف منها كان

معيار الجدية الوحيد في أي برنامج للتنمية أو للتحرير أو للاستقلال أو للعدالة الاجتماعية... على أية حال هذا موضوع متشعب ودقيق.. ما يعنيني منه الآن، أنني، وعلى مدى عقود، وجدت نفسي محاصراً أحياناً، وحيداً أحياناً أخرى، ليس من أعداء يتربصون بالأمة وبالأهداف التي أؤمن بها وحسب، وإنما من العجز عن معالجة الواقع والفعل فيه، من أخوة أحسست أن السبل تاهت بهم، من واقع بدأ يتجه أكثر فأكثر إلى مزيد من التشظي والفرقة، من تيار قومي عربي انتهى إلى قطريات وإقليميات، وأحياناً إلى ما هو دون ذلك بكثير...

119. هذا هو المأزق الذي وجدت نفسي فيه، فلا أنا قادر على التخلي عن أفكاري وعقيدتي ومبادئي، حيث تتجذر يقينيتي بها مع كل يوم يمرّ، وفي الوقت ذاته غير قادر على تجسيدها في الواقع ممارسة ونضالاً فعالاً في الواقع... فلعل هذا العجز عن الفعل هو الذي أرجأ تجربة السجن.. فلقد كنت عاجزاً عن أن أفعل شيئاً أستحق عليه السجن... إذاً، لماذا يتمّ اعتقالي من أجل قضية أنا عاجز بالأساس عن تجسيدها..؟!

120. وحتى اعتقالي الآن، جاء حقيقة بلا سبب جوهري، فأنا لم أتمكن بعد من تجسيد قضيتي.. دعوني أجسدها، ثم اعتقلوني بعد ذلك... أما أن يتمّ اعتقالي لمجرد حلم لم أتمكن من تجسيده بعد.. فهذا ليس مخالفاً للقوانين فقط، وإنما يعتبر عملية غير مشروعة لملاحقة الأحلام...
على أية حال، لقد اعتقدت دائماً، وفي أحلك الظروف، أن هذه الأمة العربية جديرة بأن تنهض.. وقد اعتقدت أن مرحلة مخاض مريرة قد انقضت، وأننا في آخر الليل، وأن المولود القومي على وشك أن يصرخ في وجه العالم المحكوم بالظلم والقرصنة والعنصرية.. والمهم بالنسبة لي أن تنطلق هذه الصرخة سواء كنت في السجن، أو في ساحات الصراع من أجل الحرية، أو حتى في القبر... فأنا على ثقة أن تلك الساعة آتية لا ريب فيها...

121. طرق شديد على باب الزنزانة، ثم، يا 16، ووضع رغيفاً من الخبز على فتحة الباب، فاعتذرت.. أخذ الرغيف بلا اكتراث ومضى
حاولت أن أعود إلى أحلامي وهواجسي التي انقطعت، لكنني تذكرت أن الساعة ربما تكون بحدود الثامنة صباحاً.. سينطلق الأولاد إلى أعمالهم.. إنهم بكل تأكيد، كما أنا، لم يذوقوا طعم النوم.. وبدأ خيالي يمرّ على وجوههم فرداً فرداً... وكان من الطبيعي أن أبدأ من الأصغر سناً...!

122. رند، حفيدتي، لقد اختير اسمها من عود الطيب والبخور في اليمن وحضرموت وظفار، مازالت في أشهرها الأولى.. لم تتعرف علي بعد، لكن صورتها مرسومة في ذاكرتي جيداً.. أعرف أن ملامحك ستتغير، إحساسي أنك ستكونين شديدة الشبه بوالدتك الحبيبة على قلبي.. أنت لن تفتقدي جدك، لكنه سيفتقدك كثيراً.. تُرى، هل تحولت ابتسامتك اللطيفة إلى ضحكة عالية..؟!

123. شهد، حفيدتي، بالإضافة إلى الدلالة الأصيلة لهذا الاسم فقد استُمِدّ من مأساة ملجأ العامرية في بغداد إبان العدوان الأمريكي الغاشم، عندما زرت ذلك الملجأ في آذار الماضي سطرت في السجل مخاطباً رماد الأطفال: "إن أمة لا تثأر لكم لا تستحق الحياة"... شهد هذه ستفتقدني كثيراً كما سأفتقدها.. صحيح أنها في عامها الثالث، لكنها تعرف جدها جيداً.. لا شكّ أن نبأ اعتقالي قد وصل إليهم، وشهد قد تكون الآن برفقة والدتها وشقيقتها رند في طريقهم إلى دمشق.. تُرى، ماذا سيقولون لها..؟ هل سيقولون لها أن جدك في السجن..؟ ولماذا..؟ أم سيقولون لها أن جدك مسافر..؟ أرجو أن يختاروا الحل الثاني، فمازلت غضة يا صغيرتي على إدراك هذا الأمر، ذلك أنني لا أريد أن تسألي ما هو السجن؟ وما هو السجان؟ كل ما أحلم به يا شهد أن تعيشي، وجيلك في ظل ظروف أفضل...

124. خالد، ولدي، عندما سمعت صرخته الأولى من غرفة الولادة في المستشفى في ذلك اليوم الربيعي من نيسان عام 1986 قفزت إلى ذهني الأسماء، كان علي أن أختار له اسماً، ونحن الآباء لا نمنح أولادنا الأسماء حسب رغباتهم، وإنما تعبيراً عن حاجات دفينة في أعماقنا، أياماً حزينة كانت.. كان الصهاينة قد اقتحموا بيروت واستباحوها.. سفارة علنية للصهاينة في القاهرة، وسفارات سرية لهم في معظم الحواضر العربية.. والأمة فاقدة الاتجاه والتوجيه، تأكل من لحمها، وتنهش ضرعها، وتغييب مقصود للقضايا الأساسية والجوهرية بفتن هنا، واقتتال هناك، ودماء عزيزة في معارك لا مبرر لها.. والعدو يبدو على وشك أن ينجز الجزء الأكبر من مخططاته... كل ذلك كان يتزاحم في الذهن، وأنا أزرع ممر المستشفى بخطوات متكاسلة.. كنت بحاجة ماسة في تلك اللحظات إلى سيف عربي، كانت هذا الحاجة فوق كل شيء في هذه اللحظات، وقبلها.. كنت بحاجة إلى سيف لا يمتلك الشجاعة والمقدرة وحسب، وإنما يمتلك قبل هذا وبعده المعرفة والبصيرة النافذة، فيعرف أين يضرب، وكيف... كنت في أمسّ الحاجة للفارس الذي لم يفقد الاتجاه الصحيح، رغم المسافات الشاسعة لساحة المعركة من قلب الجزيرة العربية إلى التخوم والثغور في الشرق والشمال.. لقد كانت مسافات

شاسعة بحساب وسائل النقل والتنقل في تلك الأيام، ففي ضربة واحدة واجه قطبي النظام العالمي في ذلك الوقت، وأعدّ للنصر عدته بين الرافدين لتحرير الأرض والبشر في الشرق، وعاد عبر كاظمة إلى الأردن وفلسطين ودمشق ليحقق النصر على القطب الثاني هنا.. لم تكن الخريطة مشوهة كما هي الآن في كتابك للجغرافيا، يا خالد، لم تكن ملطخة بتلك البقع الشائهة التي تسمى دولاً ودويلات أكثر من الهم على القلب، كانت موزعة فقط بذلك الولاء القبلي للضعفاء يقدمونه للأقوياء أحياناً، ويتمردون عليهم عندما تحين الفرصة لذلك، لكن جدك خالد يا ولدي وفرسانه الشجعان أعادوا للأرض طبيعتها وجمالها، فرحل الطغاة.. كانت أياماً ملحمية يا ولدي، صحيح أننا لم نعشها لكننا ننتعش لذكراها.. أعرف يا ولدي أنك ستقول لي متهكماً على طريقتك الخبيثة، لماذا لم تصونوا البلاد والعباد..؟ لماذا لم تكونوا أوفياء لتلك الانتصارات؟ لماذا تسلموننا الوطن نتفاً وشظايا..؟ أين منها قبلية ما قبل خالد بن الوليد، لقد كانت هنالك قبلية، لكن كانت هناك شهامة ومروءة وأعراف عظيمة.. صحيح أن للقبلية سلبياتها، وممارساتها الخاطئة، وعجزها عن مواجهة القوى العظمى، لكنها كانت أحياناً تتحالف بمواجهة الخطر الخارجي، وتتجد بعضها بعضاً... الآن.. أين من ذلك هذا الواقع... ماذا أقول يا ولدي..؟ كيف سأشرح لك..؟ كل ما سأقوله لك يمكن أن تعتبره تبريراً لا جدوى منه يلجأ إليه المهزومون لتبرير هزائمهم... ما علينا.. نحن في الحاضر الآن يا ولدي.. انغمس في الواقع، وتزود بالمعرفة، اقرأ، اقرأ كثيراً يا خالد.. لتعرف بنفسك ما يجب أن تعرفه، ولتعمل ما يجب.. أعرف يا ولدي أنني تركتك في اللحظات الحرجة من عمرك.. أعترف أنني كنت دائماً مشغولاً عنك وعن إخوتك، لكن لعل في ذلك خيرأيا ولدي، فلعلّ هذا يمنحك المقدرة على المعرفة بجهودك الذاتية... لهذا فإنني آمل يا ولدي عندما تستيقظ وتعلم ما جرى ليلة البارحة أن تحزم أمرك، وتستغل كل دقيقة من وقتك في العلم والمعرفة وامتلاك القدرة... لقد أردتك سيفاً يا بني.. أنت بلا علم ولا معرفة ستكون خنجراً، أو لا شيء... هل عرفت الآن لماذا منحتك هذا الاسم؟ اسأل والدتك... ما كادت تفتح عينيها بعد أن أفاقت يوم ولادتك.. لم أتردد للحظة واحدة.. هنأتها بالسلامة، وقلت بحزم لا نقاش بعده: مبروك، جاء خالد... هكذا يا ولدي أريدك سيفاً.. أناجيك من هنا، من زنزانتي، لكنني أعرف.. أن ما أريده أنا ليس مهماً، الأهم ما تريده أنت، فهل هذه إرادتك يا ولدي...؟

125. عصمت سيف الدولة، ولدي، أعرف يا ولدي أن اسمك حكاية، لكنها حكاية جميلة، وقد آن الأوان أن أحكيها لك... فمع بداية القرن العشرين المنصرم، كان الشيخ عباس محمد قد انتقل من قرية الهمامية، أو بني همام في صعيد مصر إلى الجامع الأزهر.. وحلق مع العلم، وعلى أجنحة أحلامه إلى صعيد بر الشام في حلب وديار بكر، وعندما عاد إلى الصعيد إلى الهمامية ورُزق ولداً، فإنه منحه اسماً مركباً تركيباً شديداً استمده من هنا، من بر الشام (عصمت سيف الدولة).. عليك أن تدرك يا ولدي كم كان هذا الشيخ مهموماً، كوالدك الآن، حتى أطلق هذا الاسم على ولده في صعيد مصر... المهم يا ولدي أن الأقدار شاءت أن هذا الرجل، عصمت سيف الدولة اختار طريقه، فكان قائداً لكتيبة من كتائب الفدائيين على ضفة قناة السويس في منتصف القرن الماضي.. ويقول المؤرخون أن كتيبة عصمت سيف الدولة كانت الكتيبة الوحيدة بين كتائب الفدائيين التي كانت تحمل كتباً إلى جانب الأسلحة والمؤونة... ثم، ومن خلال المعرفة والتجربة غدا عصمت سيف الدولة مناضلاً قومياً، ثم فيلسوفاً ورجل قانون، لكن ليس هذا وحسب، الأهم أنه كان صاحب موقف في حياته... فقد بقي مع كل هذا مناضلاً أولاً وأخيراً، فاستحق أن يكون شيخ المناضلين العرب.. كان عالماً يا ولدي.. اقترن العلم بالسلوك في تلك الشخصية العظيمة، فاتخذها والدك قدوة... القصة طويلة يا ولدي، لكن تستطيع أن تمدّ يدك إلى المكتبة لتقرأه، فتعرف الكثير مما يجب أن تعرفه... المهم يا ولدي، أن عصمت سيف الدولة حضر إلى دمشق في خريف عام 1978، وأصرّ بعناده الصعيدي أنه يريد أن يسلم على أم العيال والبنات، فاعتذرت أنهم في مصياف، وهي بلدة بعيدة، وأنني أنتظر مولوداً لذلك فإن حضورهم إلينا صعب.. وذهابنا إليهم صعب بسبب مشاغلنا... لكنني فوجئت به ينتصب واقفاً، ويوجه لي سؤالاً جاداً، قال: لو رزقت ولداً ماذا سيكون اسمه..؟ أدركت أن وراء السؤال ما وراءه.. قلت بهدوء: سأترك الأمر لك... قال: بلهجته الصعيدية الآمرة الحازمة: اسمه عصمت سيف الدولة.. قلت: وهو كذلك.. قال وكأنه يلقي أمراً عسكرياً: هذا قرار، أجبت دون تردد: نعم.

126. في تلك الليلة الباردة من شباط عام 1979 سمعت صرختك الأولى، تلتها على الفور زغردة النسوة... فقد كنت الولد الأول بعد البنات الثلاث... وصاح الجميع: جاء إبراهيم.. وأمام فرحة الجميع لم يكن من الممكن أن أناقش في الموضوع.. وعندما ألقيت نظرتي الأولى عليك، وقبلتك قبلتي الأولى، همست في أذنك حتى لا يسمع أحد، مرحباً بعصمت سيف الدولة... لقد كان إبراهيم اسم والدي يا ولدي، وكنت ولده الوحيد، جئت أنا فرحل هو.. وكأن هذه الدنيا لا تتسع لكلينا... سمعت عنه حكايا مشرفة يا ولدي، كان كارهاً للظلم، فقد لاقى منه الكثير، لكنه لم يستسلم له، ولم يكن ينافق الظالمين، كان يقاومهم... ثم أن اسم إبراهيم بحد ذاته مدعاة للفخر.. ألم يكن جدنا إبراهيم الخليل حنيفاً مسلماً... لاحظ يا ولدي، وانتبه إلى ذلك جيداً، أنه لم يحطم أصنام الغير.. وإنما حطم أصنام قومه بالذات، ثم وضع قومه أمام محاكمة عقلية قل نظيرها في ذلك الزمن الغابر، عندما وضع الفأس بيد كبير الأصنام (الآلهة)، استعداداً للسؤال الصعب: من حطم آلهتنا يا إبراهيم.. فكان الجواب جاهزاً: اسألوا كبيرهم هذا..؟ ثم دعاهم أن يستنتجوا لماذا لا يجيب كبير الآلهة.. والأهم لماذا لم يدافع كبير الآلهة عن الآلهة الأصغر... لاحظ يا ولدي أن جدنا إبراهيم لم يكذب، لم ينفِ أنه حطم الآلهة،

فقط وجه السؤال باتجاه آخر... هل تفهمني يا ولدي... المهم، وبالعودة إلى موضوع الاسم، كان لا بدّ أن أبر بوعدي، وكانت مشكلة في التسجيل، فمن النادر في بلادنا أن يطلق اسم مركب من ثلاثة كلمات، لكن أمام إصراري كان لا بدّ أن يرضخ صديقي (أبو علي) مأمور النفوس في مصياف... أعرف يا ولدي أنك عانيت من هذا الاسم المركب الطويل كثيراً، وأعرف أن أساتذتك كذلك عانوا.. فلم تكن الفراغات المخصصة للاسم تكفي... لكنني أعرف يا ولدي كم أنت فخور باسمك الآن.. بعد أن عرفت، إلى حد ما، من هو عصمت سيف الدولة الأصل، أما إبراهيم فإنه في قلبي يا ولدي، لم نستطع أن ننجب ولداً ثالثاً، لأن لكل منكما أنت وأخوك خالد ظروفه... الآن قد أكتب عن إبراهيم جدك.. وعن إبراهيم جدك البعيد... سأكتب عن الرمز.. تحطيم الأصنام يا ولدي.. تحطيم الأصنام.. هل تفهمني يا عصمت سيف الدولة... آه يا ولدي كم في تاريخ أمتك من الأسماء ذات الدلالات العظيمة كنت أحب أن أطلقها على أولادي... الآن كم أنا سعيد وأنا أسمعها تتردد في بيتنا... إنهم أصدقاؤك، كلهم أولادي، هل تدرك هذا..؟ لا فرق بينك وبينهم، لعلي لم أبح لك بصراحة كم أنا معجب بأصدقائك، وكم أنا فخور بك لأنهم يحبونك، وفخور بهم لأنك تحبهم، كنت أتصنع الجدية معكم.. حتى لا تغتروا.. هل تفهمونني.. فقط أقول لكم من أجل المستقبل: كونوا أكثر جدية، فالأيام حبلى...

127. المهم، يا ولدي، أناشدك الآن من زنزانتي، وقد عايشت حدث الأمس، وكيف تمّ اعتقالي، والطريقة... كنت أتمنى أن لا ترى المشهد، أخاف على مشاعرك، أخاف أن لا تدرك المسألة بأبعادها... لا تحقد يا ولدي، فلتسمُ بأفكارك وسلوكك فوق الأحقاد، المهم يا ولدي أن تفكر، وجيلك كيف تجنبون أنفسكم، وأولادكم مثل هذا... هذا هو المهم، وهو أهم بما لا يُقاس بما جرى لي.. هل تفهمني يا عصمت سيف الدولة..؟ اسمعني يا ولدي، كن أكثر جدية بدراستك، فمن المهم أن تنهي دراستك الجامعية بأسرع ما يمكن.. اسعَ إلى توسيع مداركك بتوسيع معارفك، هذا هو المهم الآن، وما عدا ذلك يأتي في السياق، وأنا أثق بك يا بني... المهم أنك عرفت الآن يا ولدي كيف منحتك هذا الاسم المركب الطويل... لقد أحسست من الحماس والإصرار والحزم الذي أبداه جدك عصمت سيف الدولة لمنحك هذا الاسم أنه يريد أن يعيد إلى بر الشام الاسم الذي أبدعه الشيخ عباس محمد متأثراً ببر الشام... لقد حدثني بعد ذلك عن الصعيد، وعن بني همام وعن أهلنا هناك كيف يحتفظون بشجرات أنسابهم التي تمتد جذورها أحياناً إلى المغرب العربي غرباً، وإلى الخليج العربي شرقاً، وإلى بر الشام والرافدين شمالاً، إلى جنوب الوادي السوداني جنوباً... الصعيد يا ولدي كان ممتداً بالاتجاهات كلها، لم تكن هذه الخطوة المستقيمة أحياناً، والتي تتلوى كالأفاعي أحياناً أخرى، تشوه خريطة الوطن... جيلكم يا ولدي عليه أن يعيد للوطن لحمته ووحدته، لا تسألني يا ولدي لماذا لم نفعلها نحن.. لا تفتح الجروح الآن، لا تنشغلوا بنا... عوضاً عن ذلك، استخلصوا العِبَر من تجاربنا فقط وتجاوزوا.. إلى الممارسة، فالأفق مفتوح يا ولدي، فامتلكوا المعرفة والإرادة.. وستصلون.. حتماً ستصلون...

128. أتذكر كل هذا لأنك كنت دائماً تعاتبني لأنني أعاملك على أنك صغيري المدلل.. وتنتفض.. أنا لم أعد صغيراً يا والدي.. طيب.. الآن، نحن فيها، أنت الرجل يا عصمت سيف الدولة، ليس رجل البيت وإنما أبعد من ذلك...!

129. عزة، ابنتي، مازلت يا ابنتي أستذكر تلك اللحظات من الأول من تموز عام 1977، عندما نقلوا والدتك إلى غرفة الولادة في المستشفى، وبدأت لحظات الانتظار الصعب.. كنت أقف على شرفة الغرفة عندما شاهدت الطبيب يغادر المستشفى مسرعاً... عدت إلى الغرفة، سألتني جدتك: ماذا حصل..؟ قلت: الطبيب غادر المستشفى... قالت مستغربة: كيف يفعل ذلك..؟ وبدأ القلق يساورها... قلت ضاحكاً: لقد رُزقت بنتاً، والطبيب هرب من مقابلتي لأن المولود ليس ذكراً... بعد قليل، دخلت الممرضة، قالت باستحياء: مبروك، جاءتك بنت، لكنها مثل القمر... مددت يدي، احتضنتك، قربتك من قلبي، منحتك قبلتي الأولى، رحبت بك بفرح... وعندما جاءوا بوالدتك، قلت لها ممازحاً، بعد الحمد لله على السلامة، لا بأس، يمكنك أن تلدي بنتاً كما تشائين، لكنك ستأتين لي بالولد، طال الزمان أم قصر... وكان علي أن أمنحك اسماً، فاخترت من عمق تاريخنا فكان، عزة، لا ليتغزل بك الشعراء وحسب، وإنما قبل ذلك، ربما جرياً وراء العزة التي أحلم بها لوطنك وأمتك.. كم أنت عزيزة على قلبي يا عزة... كان يضايقني كثيراً إحساسك الخاطئ بأنك مظلومة، وأن هناك من هو أغلى على قلبي منك.. كنت أفهم المشكلة، لقد كنت ثالثة البنات ثم جاء الصبيان بعدك... كنت أواجه إحساسك هذا بالغضب، وليس بالمداراة، لأنه كان إحساساً زائفاً، لا أحتمل حتى مناقشته، يجب أن ينتهي.. الآن أعتقد أنك أدركت ذلك بكل وضوح... كنت تأخذين عليّ يا بنتي أنني لا أمنحكم الوقت الكافي، وأنني دائماً مشغول عنكم، هذا صحيح يا بنتي، وأنا أعترف الآن أنك كنت على حق.. لكن عذري يا بنتي أن ما كان يشغلني عنكم كان مهماً أيضاً في أغلب الأحيان... وأنت الآن كبرت وتعرفين أن ما كان يشغلني عنكم يا بنتي هو بالضبط ما يشغلني من أجلكم، أنت وأخوتك، وجيلكم كله، هل تفهمين ما أقصد..؟!

لقد أسعدني غاية السعادة أنك انتسبت إلى فرع الصحافة أخيراً، وأعرف يا بنتي أن لديك مواهب كامنة يجب أن تنميها وتوجهيها الوجهة الصحيحة، وتهتمي بالجوهري والأصيل في الحياة.. ما يعزّ عليّ هو أنني كنت أتمنى أن أكون إلى جانبك الآن، لأن لدي ما أقوله لك في موضوع الصحافة التي مارستها لفترة طويلة.. وقد كنت يا بنتي صحافياً (فاشلاً)

بالمعايير السائدة، لأنني كنت ذو مواقف حادة، والصحافة تتطلب بعض الحيادية في المواقف (هكذا يقولون).. لكن عذري يا بنتي، أن أعداء أمتك لم يتركوا لي فرصة للاسترخاء.. حتى أمارس الصحافة كهواية وحرفة.. سيحدثونك يا بنتي عن الموضوعية، وعن الحيادية كثيراً، وأن الصحافة للصحافة، كما أن الفن للفن.. لا تصدقيهم يا بنتي، لا توجد صحافة للصحافة، كما لا يوجد فن للفن... من المهم يا بنتي أن تمتلكي أدوات الصحافة من حيث التقنية واللغة والشكل وقواعد الفنون الصحفية.. لكن الأهم يا بنتي أن تكوني صاحبة قضية، أن تمتلكي رؤية شمولية للأمور.. أن لا تتوهي في متاهات التفاصيل.. إن الصحافة سلاح خطير يا بنتي، ونحن أحوج ما نكون هذه الأيام إلى الصحافة، الموقف.. اهتمي بالمضمون يا عزة، وهذا لن تجديه في مناهج الدراسة فقط، عليك التوسع بثقافتك إلى أبعد حدّ ممكن... كنت تسخرين مني عندما كنت ألحّ عليك بالقراءة.. الآن أعتقد أنك ستتحولين إلى (فارة) كتب، أليس كذلك..؟! فوجود أمتك وهويتها يتعرضان لتهديد شديد.. المخاطر حقيقية، أرجو يا بنتي أن تكوني في خندق الصحافة الوطنية القومية لمواجهة التضليل والتخريب والتغريب بكافة الأشكال والوسائل.

130. بكل الأحوال، أنا على ثقة بأنك ستكونين أنت، أنت التي أعرف... فقط أدعوك يا بنتي إلى امتلاك المعرفة قدر الإمكان، وهذا لا يتوفر إلا بالإرادة المعرفية عن طريق الكتب، وفي الواقع أيضاً، لكن الأهم من ذلك يا بنتي امتلاك منهج نقدي لذلك، ولهذا فقد دعوتك مراراً للتعمق في دراسة المناهج والنظريات الفلسفية، فبذلك، وبذلك فقط، تتحول القراءة إلى ثقافة ومعرفة.
هذا حديث قد يطول، لكن أرجو أن لا ينتج عن اعتقالي أي أثر سلبي على طموحك وتفكيرك.. على العكس، أرجو أن يدفعك هذا إلى الأمام.. إلى الأمام يا عزة.. يا حبيبتي.. يا بنتي..!

131. راوية، ابنتي، الهدوء والعنفوان معاً... عندما ألقيت عليك نظرتي الأولى، ومنحتك قبلتي الأولى في ذلك اليوم التموزي من عام 1976، ضممتك إلى صدري بقوة، ثم طلبت إليك أن تفتحي عينيك، فلم تخيبي أملي، فعلتها للحظات، ثم ذهبت في نوم عميق.. وبدأ ذهني على الفور يعمل على اختيار اسم مناسب لك، كنت مشغولاً في تلك الأيام بمتابعة رحلات أجدادك عبر الإسكندرية والجبل الأخضر وبرقة وتونس الخضراء والجزائر ومراكش وصولاً إلى الأندلس... كيف عندما كانوا أحراراً كروا منتصرين، وكيف عندما تحولوا إلى سلاطين، وبلاط،وجواري أضحوا عبيداً ففروا مهزومين.. وتابعت الكثير من الروايات والشعر والفلسفة والفخر والنحيب معاً، فقررت أن أمنحك اسم راوية... كنت لطيفة هادئة، ثم شيئاً فشيئاً غدوت لطيفة لكن شقية...

132. المهم، أنك كبرت يا بنتي، وكان من الصعب علي فراقك.. لكن كان يجب أن أكون واقعياً، فمهما أحببتكم أنا الماضي بالنسبة إليكم، وعليكم أن تولوا وجوهكم شطر المستقبل.. لا بدّ أن تكونوا عماداً لأسر جديدة، وتمنحوني أحفاداً أرى فيهم الأمل لتحقيق ما عجزت عن تحقيقه، وعندما يكون الانكسار حاداً، فإن الحلم لا يقف عند حدود الأبناء، بل يتجاوزهم إلى الأحفاد... سأعترف لك يا ابنتي، أنني فوجئت عندما استدرجني صلاح إلى حديقة دمشقية، ثم بدا لي للوهلة الأولى مرتبكاً، وأنه يريد أن يفتح موضوعاً، لكن لا يعرف كيف... وقد ورد على خاطري كل شيء يتعلق بعلاقاتنا الطيبة، لكن لم يخطر لي على بال أنه سيطلبك مني... كنت، وكما يعلم الجميع، وعلى مدى سنوات طويلة منذ تخرجه من كلية الطب بعد أن أنهى اختصاصه، كان ابن صديقي وأخي أبو رضوان، الذي كنت أمازحه قائلاً: لقد كبرت يا صديقي، أريد أن أصادق أولادك... كان صلاح كلما اقترب من فتاة مرشحة للزواج يطلبني كي أرافقه بزيارة أهلها.. كان مصراً أن يتزوج بمعرفتي.. وكنت كلما أحسست أن فتاة تناسبه، استدعيه لنزور أهلها معاً,, وقد كادت محاولاتي أن تنجح أكثر من مرة.. لكنه كان متردداً إلى حدّ أنه وضعني في مواقف محرجة أكثر من مرة. قلت له بعد آخر محاولة: عندما تحسم أمرك تدعوني إلى حفل زواجك، أما قبل ذلك فلا... أن يأتي إليّ بعد ذلك كله، ويطلب يد ابنتي، فهذا آخر ما كنت أتصوره... قال على استحياء: لو كانت البنت ليست ابنتك لكنت كلمتها مباشرة، أو طلبت إليك مرافقتي لزيارة أهلها.. الآن هي ابنتك... وبما أنك ارتضيتني صهراً لمعارفك وأصدقائك، فإنه يجب أن تقبلني صهراً لك.. ولهذا لم يكن أمامي إلا أن أحدثك أولاً... قلت، والمفاجأة عقدت لساني: لا أعرف ماذا أقول لك..؟ لا أعرف إذا كان ذلك ممكناً، ستكون مفاجأة بالنسبة لها...
المهم يا ابنتي، تذكرت ما يردده الأهل على مسامعنا.. الزواج قسمة ونصيب... لقد طلب مني صلاح حينها أن يكون ولداً لي، وهو فعلاً كذلك.. لقد قلت لك أكثر من مرة أنه بالضبط بذات موقعك بالنسبة لي... حتى أنني في لحظات كثيرة كنت لا أعرف إن كنت أتصرف كوالد لك، أم كوالد له... حتى أنت كنت تعاتبينني في بعض الأحيان: هل أنا ابنتك، أم هو ابنك..؟

اسمعيني يا ابنتي جيداً، إن صلاح وشهد ورند والقادمون (أريد حفيداً).. هم مستقبلك، ونحن أمك وأخوتك وأنا، نحن جذورك، نحن الماضي، وهذا لا يعني أن الماضي ليس مهماً، ولكن يعني يا ابنتي أن لا نخطئ في تحديد المواقع، فلكل

موقعه، ولكل دوره، دون اعتداء من هذا على ذاك، ودون تعدٍ من ذاك على هذا... فاعطِ أسرتك يا ابنتي كل ما تملكين، وأنت تملكين الكثير يا راوية، اهتمي بتربية أطفالك، التربية قبل التعليم يا ابنتي، هل تفهمين ما أقول..؟ أعرف أنك تفهمين جيداً، فأنت قريبة جداً من قلبي...

133. أعرف يا ابنتي أنك عاتبة عليّ كثيراً، لقد حدثك قلبك قبل أيام من اعتقالي أنني سأُعتقل.. وحدثني صلاح أنك تصرين على الحضور إلى دمشق، وتذكرين أنني اتصلت بك راجياً أن لا تحملي نفسك والأحفاد عناء السفر، ووعدتك أنني سأحضر إليك.. ولم يتح لي يا ابنتي أن أفي بوعدي، فقد امتنعت عن السفر إليك حتى لا يخطر ببال أحد أنني هربت... وكنت لا أريدك أن تحضري حتى لا يحدث الاعتقال بحضورك، أشفقت عليك من المشهد، رغم رغبتي الشديدة في أن أضمك إلى صدري مع شهد ورند وصلاح قبل اعتقالي، لكنني قاومت رغبتي.. أعرف أنك الآن وقد انتشر خبر اعتقالي، في طريقك إلى دمشق لتكوني بالقرب من والدتك وأخواتك.. لا مانع، لكن دعي الأمور تأخذ مسارها الطبيعي، فأنا بخير يا ابنتي... عودي إلى أسرتك لممارسة الحياة الطبيعية، ولا أريد لمسحة الحزن أن تستقر على وجهك، حتى لا تفسدي الحياة حولك، دعيني هنا أسمع صدى ضحكاتك الجميلة وزقزقة شهد ورند... هل تعدينني بذلك يا ابنتي..؟!

134. رؤى، ابنتي، أنت باكورة الأولاد.. ماذا أقول لك عن اللحظة الأولى في حياة الإنسان عندما يشعر أن جزءاً منه انفصل عنه، يتنفس ويصرخ هكذا لوحده... هل تعلمين، عندما أخبرني الطبيب أن ولادتك ستكون في الثلث الأخير من تموز عام 1975، توقعت أن تكون في 23 تموز ذكرى ثورة عمك جمال عبد الناصر، لكنك لم تنتظري، فقبل أيام من ذلك الموعد، يوم 14 تموز 1975 كان يوم ميلادك، وهو يوم عزيز على قلبي أيضاً يا ابنتي، ففي مثل ذلك اليوم من عام 1958 كانت الجمهورية العربية المتحدة قد قامت، وكانت الأحلام تدغدغ عقولنا.. أن حدودها ستمتد بين المحيط والخليج لتشمل أرض العرب كلها.. عندما استيقظنا في ذلك اليوم على نشيد الله أكبر من بغداد، لم نكن نحلم بجمهورية للعراق، كنا نحلم بصوت يقول: هنا الجمهورية العربية المتحدة من بغداد... لكن سرعان ما خبت الآمال، فذهبت الخيبات بالعراق، وبالجمهورية العربية المتحدة معاً، لكنه كان يوماً عظيماً على أية حال... فالوحدة العربية ممكنة، فقط إذا امتلكنا الإرادة لتحقيقها... وعندما احتضنتك، وتأملت في وجهك ملياً، ومنحتك قبلتي الأولى.. كانت قواميس الأسماء تتفاعل في ذهني، كيف أعثر على اسم يليق بك.. بدأت أبحث في أسماء العربيات عبر التاريخ.. لكنني فجأة قررت أن أمنحك اسماً للمستقبل وليس للتاريخ.. وهكذا كان رؤى، اسم يحمل أحلامي، الرؤى التي أحلم وأعيش من أجلها، لكن عدت أتأمل في وجهك.. تساءلت: أليس من الظلم أن أحمّلك كل هذا..؟ هكذا كنت تكبرين ويكبر الحلم معك، تكبر الرؤى رغم أن الواقع يتردى... فكنت الأمينة على اسمك، حنونة عليه رغم ما تحاولين أحياناً من ادعاء القسوة والآراء الحادة.. فأنت الطيب يا رؤى.. لقد حزّ في نفسي كثيراً يا ابنتي أنك كنت شاهدة على اعتقالي، كنت أتمنى أن يتمّ ذلك بهدوء دون ضجيج يقلقكم... لكن هكذا شاءوا، لا بأس يا ابنتي... وأرجو أن يكون تعاطف الأهل والجوار والأصدقاء من كل مكان قد محا من ذاكرتك ما حصل تلك الليلة، فأنا لا أريد للحقد أن يعرف طريقه إلى قلبك.. أريده أن يبقى نابضاً بالحب والحنان والعاطفة النبيلة... فلا تجزعي يا ابنتي، أنا بخير، وصدقيني لست نادماً على شيء.. وستثبت لك الأيام القادمة أنني على حق، وأن للانتماء العقائدي للوطن وللأمة ثمن يجب أن نسدده برضى وقبول... صدقيني يا ابنتي أن الأمم لا تتحرر وتتوحد وتتقدم وتنعم بالعدل والمساواة والحرية والكفاية والعدل بدون تضحيات... أنت تعلمين يا رؤى من خلال حوارات طويلة بيني وبينك، كانت تقنعك أحياناً ولا تقنعك أغلب الأحيان، أن مظاهر الفردية والتوحش المادي ومظاهر النذالة والفساد، التي يعاني منها مجتمعنا هي مجرد مظاهر طارئة أفرزتها ظروف طارئة، وأنها ليست من طبيعة هذه الأمة، وأنها محنة.. وستمضي يا ابنتي.. فجذر هذه الأمة.. جذورك أنت يا رؤى، تتعشق فيها المروءة بالشهامة، بالكرم، بالصدق.. وهذا ما سيمكث في الأرض، وأما الزبد فسيذهب جفاءً... صدقيني، أنني لا أنظّر عليك، فأنا أعرف أنك لا تحبين التنظير، لكنني أعبر لك عن حقيقة يجب أن لا تغيب عن ناظريك.. ظروف طارئة.. لقد حاولت يا ابنتي أن أنمّي فيكم روح الانتماء للوطن والأمة... هل تتذكرين يا ابنتي عندما عانيت أنت وأخوتك من تدني مشاعر الانتماء.. عندها كنت أنت قائدة المظاهرة في البيت.. اجتمعتم يومها أنت وأخوتك، وكان علي أن أجيب على السؤال الصعب: من نحن..؟ من نحن يا بابا..؟ ماذا يعني هذا الذي نسمعه..؟ عندها يا ابنتي قلت لكم من أنتم.. أعرف أن بعض المواقف كانت تفجعكم.. لكن يا ابنتي كنت أقول لك: كل هذا طارئ ومصطنع وإلى زوال.. فأنتم تنتمون إلى أمة عظيمة لها قيمها وجذورها، وأن أسرتكم تمتد من المحيط إلى الخليج... وكنت أنت يا رؤى تصدقين أحياناً، وتعاندين أخرى... الآن، لا أعرف ماذا يجري بعد اعتقالي، فأنا معزول عن كل شيء، لكنني أراهنك يا ابنتي أنك الآن على قناعة تامة أن أسرتك تمتد من المحيط إلى الخليج، وأن الانتماء الذي غرسته فيكم هو الانتماء الأصيل، وكل ما عداه يا ابنتي، إما أن ينسجم مع الانتماء للأمة وإلا فهو إلى زوال... هل تفهمين يا ابنتي ما أقول..؟ لقد أثقلت عليك، أعرف ذلك، علك تقولين بينك وبين نفسك هاهو يلاحقنا بتنظيراته حتى من هناك... لن أقول شيئاً، فقط أرجو عندما نلتقي أن أسمع أنا تنظيراتك...

135. رؤى، كل ما أرجوه يا ابنتي أن تكوني قد حسمت خياراتك وانتسبت إلى الجامعة، ولا تملي من إصراري فالمناهج الدراسية مهمة، لكن الثقافة أهم، فاهتمي لذلك يا ابنتي، وكل ماعدا ذلك سيأتي في السياق.. المهم أن نعمل إرادتنا في الواقع، فتتأصل الإرادة مع الممارسة.. فيتغير الواقع بالاتجاه الذي استهدفناه... رؤى، اقرأي يا ابنتي...!

136. راغدة (أم عصمت)، زوجتي، لا أعرف من أين أبدأ حديثي إليك..؟ لقد قلت لك يوماً، ربما لا يكون القلم خير وسيلة للتعبير عن مشاعري، ولعل القلم اليوم، وفي الحالة التي أنا فيها، أكثر عجزاً عن التعبير.. المشكلة الأخرى هي أنني حقيقة أكثر ما أكون حاجة كي أكتب إليك بمكنونات قلبي... أكثر من ربع قرن مضى على آخر رسالة كتبتها إليك.. الآن أستذكر تلك الرسائل المطولة التي كنت أخطها إليك.. كانت رسائل متعبة، فيها غزل، وأشياء أخرى... بالنسبة للغزل، قد تقولين كبرنا.. أقول لك ليس لأننا كبرنا، ولكن لأن ما بيننا لا يمكن البوح به على الملأ.. فأنا الآن بين يدي الحكومة، أو بين يدي من... لا أدري..! لهذا فأنا أحيلك إلى مجموعة رسائلي القديمة إليك، أيام زمان، فقد تجدين فيها ما يستحق أن يُقرأ.. ثم اتركي لخيالك العنان يصيغ تتمات لحكايا بدأت، وهي حتى الآن بلا نهايات... أما عن الأشياء الأخرى، ففي رسائلي القديمة شيء منها..ما يعنيني هنا أنني، ومنذ البداية، بداية الطريق، حذرتك من أن طريقي وعرة وشاقة وشائكة، وأنني أخشى عليك من عواقبها ومآسيها، لكن عندما انتقلنا من الرسائل المشتركة إلى الحياة المشتركة، فإنني حاولت بأكبر قدر من الصبر أن أجعلها أقل خشونة.. ولعل خوفي عليك وعلى الأولاد قد رفع من درجة الحذر، وربما حدّ من اندفاعي، وجعلني أقل شجاعة مما يجب في أغلب الأحيان... ما علينا، المهم أن ما حصل بالأمس لم يكن مفاجئاً بالنسبة إليك، فمن المفترض أنك تتوقعينه منذ زمن بعيد، وفي الأيام الأخيرة كنا ننتظره في كل لحظة.. والأهم الآن أن نستذكر معاً، أنه رغم التحذير فإنك قررت أن تكملي مشوار حياتك بجانبي، وبالتالي، فإنني أرجو أن تستذكري الحكمة التي عملنا بها طيلة سنوات مديدة، وهي أن علينا أن نمتلك إرادتنا في أقسى الظروف، وعلينا أن نصمد أمام المحن لننطلق لتحقيق الغايات العظيمة.. الآن فقط تتذكرين على الغالب أنني كنت ألحّ عليك كي نرحل إلى جبل بعيد معزول نبني فيه كوخاً لنقضي فيه أواخر أيامنا (ختيار وختيارة).. لا تزعلي (ختيار وصبية)... كنت أحلم أن أعتزل عالماً لم يعد يفهمني، ولا أفهمه... لذلك كنت أحلم فقط أن أكتب وصيتي، وأنتظر الأجل.. وكنت أنت تعارضين دائماً.. ورغم ذلك كنت لا شك تدركين أنني سأفعلها، وأنني فقط أنتظر بفارغ الصبر، أن يكبر الأولاد، ليكونوا قادرين على الحياة.. وكنت أستحثهم.. لكن ها قد قُطع الطريق الآن إلى ذلك الحلم، ولو إلى حين...

137. المهم، الآن.. عليك أن تتحملي المسؤولية كاملة، وأنا أعرف صعوبة الأوضاع التي تركتكم فيها، لكنها فرصة على أية حال لإبراز مواهبك في إدارة الأزمات.. فأنت التي كنت ترددين دائماً أنني فاشل في إدارة شؤون البيت، وفاشل في إدارة أعمالي الخاصة، وأنكم تحملتم مني ما لا يتحمله سواكم.. الحقيقة أنني أعترف دون مواربة أن في ذلك الكثير من الحق.. طيب يا سيدتي، الآن تستطيعين أن تتدبري الأمور كما تشائين.. قد تقولين، وماذا تركت لنا لنتدبره..؟ أقول، وأعترف لك الآن بأمانة أنني كنت في بعض الأحيان، خاصة في لحظات المحن، أتساءل: ترى، إذا اختفيت من حياتكم لسبب من الأسباب، ماذا سيكون مصيركم..؟ كيف ستتصرفون..؟ وكان السؤال يقلقني إلى حد بعيد.. لكنني كنت أهرب منه على الفور، ربما لأنني كنت أعتقد أنني عاجز عن تحمل مسؤولية تبعات الإجابة عليه.. الآن، لعل حالة الاختفاء الراهنة حتى هذه اللحظة على الأقل، تتيح لي أن أراقب من بعيد نتيجة غيابي، أو تغييبي بالقسر عنكم.. لا أعرف لماذا أشعر بالسكينة إلى أن الأحوال ستكون بخير، هل لثقتي المفرطة بك وبالأولاد..؟ ربما..؟ على أية حال، دعيني أحلم أن كل شيء على ما يرام.. ما يخفف عني فقط، أن محاولاتي المتكررة، تكرر أزماتي، لبيع البيت، قد فشلت، ولعلي عندما أتذكر الآن كيف فشلت في بيعه رغم كل التنازلات التي قدمتها في سعره، أستغرب ذلك... لكن هذا هو الشيء الوحيد الذي يعزيني الآن في زنزانتي.. تصوري لو أنني تركتكم بلا مأوى.. كيف كان يمكن أن يكون حالي الآن.. وكيف سأحتمل قلقي عليكم... الآن في هذا الوضع، الأمور أفضل... بالنسبة للديون المترتبة بذمتي، فأنا أقترح أن تتصرفي بالمكتب الذي كنت أحلم أن أجهزه، لوفاء بعض الديون حسب حاجة أصحابها، ولتسديد باقي ثمنه... قد تقولين: ألم تقل أنك تترك الإدارة لي..؟ لماذا تتدخل إذن..؟ أقول: تصرفي كما تشائين، بشرط وحيد هو أن يبقى رأسك ورأس الأولاد مرفوعاً، فالقضايا المادية ليست مهمة، ولم تكن مهمة بالنسبة لي في يوم من الأيام.. لا تهتمي لهذا الأمور.. حتى لو اضطررت أن تبيعي البيت... المهم أنتم.. كرامتكم، وكرامتي قبل كل شيء، وبعده... أعتقد أنك تدركين كل ذلك، ولا حاجة بي لتكراره... قد تقولين، هل يعقل أن يقتصر حديثك في هذه اللحظات على تلك المشكلات.. أنا الذي سأقول لك الآن: كبرنا يا رغدة، لكن إذا قُدّر لي أن أعود إليكم، فإنني ربما أعوض عن تقصيري تجاهك وتجاه الأولاد... سأفكر مثلاً بإحياء حفلة عرس صغيرة تعويضاً عن الطريقة الصامتة التي تزوجنا بها... ربما لن أستطيع أن أجعل يديك ثقيلتين بالذهب والجواهر التي لا أعرف أسماءها، لكنني قد أرتب لك بنفسي باقة من الزهور... على كل حال، أعترف أن ما دفعني لهذا الحديث إليك، وصية لم أعمل بها، وأنا الآن أشعر بثقل عدم الوفاء بالعهد الذي قطعته لصاحبها.. وأيضاً أنني أخفيتها عنك طيلة سنوات.. لا شك تذكرين عندما سافرت إلى مصر عام 1993.. لقد قضيت يوماً طويلاً وحافلاً مع د. عصمت سيف الدولة على الساحل الشمالي، حيث أصرّ بعد غداء ذلك اليوم، أن نتمشى على ساحل البحر، وأن يحدثني

باستفاضة عن أوضاعي المادية، معلناً انزعاجه الشديد من سوء إدارتي للأمور المالية.. ثم عرج على موضوع اعتقاله عام 1972، قال لي أنه بعد أن أودع الزنزانة المنفردة، كهذه التي أنا فيها الآن، تذكر شيئاً واحداً ضاعف من آلامه وقلقه، وهو أنه لم يترك في البيت سوى 7 جنيه، فكيف ستتدبر أم محمد هذا الأمر..؟ قال لي: كان هذا الموضوع يعادل أضعاف المأساة الناتجة عن الاعتقال، وما ترتب عليه... ثم قال: عندما علمت بعد ذلك أن الأمور تسير سيراً حسناً، وأن الأولاد بخير، ارتحت تماماً وتحولت إلى كتابة الشعر والمسرحية والرسم والنحت والكتابة، وأن الحياة في المعتقل باتت معقولة... ثم أوقفني ووضع يده على كتفي، وقال بلهجته الصعيدية الآمرة المعروفة: هل تعدني يا أبو عصمت أنك، وفور عودتك، ستجعل شغلك الشاغل لفترة زمنية محددة، أن تؤمن البيت بحيث لو تمّ اعتقالك تكون مطمئناً على أحوالهم..؟ قلت: أعدك بذلك.. وكرر طلب الوعد مرة أخرى، وأعدت التأكيد... وعدت فعلاً وبنيّتي حقيقةً أن أنفذ.. لكن دعيني أعترف أنني لم أعرف كيف أنفذ.. فقد وجدت نفسي أمام معادلة محددة، وأحداث متلاحقة، وكنت أعتقد أن هناك فرصة فيما بعد للتنفيذ، لكن الاعتقال كان أسبق هذه المرة... أتذكر ذلك الآن، لأنه في هذه اللحظات لا ينغّص عليّ إلا قلقي على أوضاعكم، وإذا حدث واطمأننت على الأوضاع في البيت، والأولاد، فإنني سأكون بخير، ولا مشكلة.. فما ألاقيه أقل سوءاً مما توقعت بكثير... فلم يخطر على بالي في يوم ما أن تمرّ مواقفي دون ثمن يجب أن يُسدد في لحظة ما، بل لعله تأخر.. وإذا كان هذا أوانه فمرحباً به، وأرجو أن يكون إيمانك بذلك في ذروته، وأتذكر ذلك ثانياً لأنني لم أترك لك ما يغطي مصروف هذا الشهر... على أية حال، سأحاول أن أطرد القلق حول هذا الموضوع، لكنني أعترف أنني كلما دفعته عني يعود، فأدفعه مرة أخرى لأن إحساسي أن أموركم بخير... هل تذكرين تلك اللحظة التي أفقنا فيها على الضجيج، ثم نهضت من السرير كي أدفع قائد القوة عن اقتحام غرفة النوم.. تبادلنا جملة واحدة، قلت لي: لا أستطيع أن أحتمل أن يأخذوك.. قلت لك بحزم: ستستطيعين يا أم عصمت.. أكررها لكِ الآن: ستستطيعين يا أم عصمت .. أليس كذلك..؟

138. دعينا الآن نخرج من هذا الموضوع الصغير.. تذكرين أنني كنت دائماً أعتبره صغيراً.. وهو كذلك... دعينا ننتقل إلى الحديث الأهم، وهو الاعتقال.. أسبابه ودواعيه... اسمعيني جيداً.. أياً كانت الأسباب والدوافع فأنا على يقين الآن أكثر من أي وقت مضى، أنني أنتمي إلى أمة عظيمة معتدى عليها، وأن علينا جميعاً أن ندفع هذا العدوان متعدد الأشكال، متنوع القوى والدوافع، وأن من حقنا كعرب أن نقرر مصيرنا بأيدينا هذه المرة... وأن كل ما قمت به، وما فعلته هو في سبيل تحقيق هذا الهدف... وصدقيني أن هذا في المحصلة النهائية هو بالضبط دفاع عن مستقبل أولادنا، وبالتالي لا يمكن الفصل بين الخاص والعام، والأمور كما كنا نقول دائماً، لا تتجزأ.. وبالتالي فإنني على هذا الصعيد، لا أشعر بأي نوع من القلق أو التردد.. بل لعلني أشعر أن هذه الأمة التي تمر بمرحلة مخاض حقيقي هذه المرة ستعرف، بعزيمة أبنائها، كيف تتجاوز محنة استقرت أكثر مما ينبغي.. فأجيالنا القادمة تستحق حياة مختلفة بما لا يُقاس بما نحن فيه.. هل أنت معي في ذلك..؟ إذا كان جوابك بالإيجاب، وهو كذلك كما أعتقد، فإن علينا أن نتحمل مسؤولياتنا، وأن نكون جاهزين لتقديم التضحيات، كل حسب مقدرته...

139. ماذا أقول أيضاً، لعلي لم أقل شيئاً بعد... لكن لا أعلم كيف كان وقع خبر اعتقالي على حماتي، وعمي أبي مازن، وأشقائك وشقيقاتك.. فأنت وحدك تعلمين منزلتهم الحقيقية في قلبي.. وجّهي النصيحة لشقيقاتك أن يرسلن أزواجهن (العدايل) إلى السجن لإعادة تأهيلهم.. فأنا بانتظارهم... أما عمي أبو مازن فقد اشتقت حقيقة لمناكفته، لذلك أرجو أن يكون قد خفف من قوميته السورية قليلاً لأنني أسعى إلى مصالحة وطنية شاملة.. لم يتح لي أن أخبره أننا في الطريق إلى بغداد وكان يرافقنا الأستاذ عصام المحايري، والطريق طويل، أتذكر الآن أنني قلت للأستاذ عصام أننا نحن القوميين العرب خسرنا أنطون سعادة أكثر من غيرنا.. فانتبه إلي باستغراب، وطلب مني أن أعيد العبارة، فأعدتها وأكملت: لأن انطون سعادة لم يؤسس الحزب القومي السوري بمواجهة القومية العربية، وإنما أسسه بمواجهة خريطة سايكس بيكو، وكان عقائدياً في رفضه تلك الخريطة، وعندما بدأت تتعزز فكرة القومية العربية بدأ يضم منها إلى سورية ما يستطيع، فضم الكويت بعد العراق، وكان يمكن لو بقي حياً، وشاهد المدّ القومي في الخمسينات أن نقنعه بضم قرطاج وتونس، والطريق إليها.. ومن يدري، كان يمكن أن يقتنع بضم الجزيرة العربية واليمن... لكنه قُتل... فلم تعرفوا بعده كيف تتقدمون إلى الأمام، ولا كيف تتراجعون إلى الخلف. هزّ الأستاذ عصام المحايري رأسه مبتسماً... أتذكر هذه الحادثة الآن كي أرويها لعمي أبي مازن، وأطرح عليه أن نتحالف، نحن القوميين العرب والسوريين على التخلص من دول سايكس بيكو في سورية الطبيعية التي تضمّ الآن كما أعلم دول: سورية ولبنان وفلسطين والأردن والعراق والكويت، ونحرر الإسكندرون وعربستان حتى جبال بختياري.. وبالمناسبة كانت تلك الجبال هي الحدود التي ارتضاها الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب.. ثم وعندما نصل إلى تلك الحدود دعونا نختلف من يريد أن يكمل المشوار، ومن يريد أن يقف عند تلك الحدود... أما قبل ذلك فإنني لا أرى أي مبرر للصراع بين القوميين العرب والقوميين السوريين.. ما رأي عمي أبي مازن بهذا الاقتراح.. لإنهاء حالة العداء، والانتقال إلى التحالف المرحلي، والحوار الدائم..؟

140. أم عصمت.. هاأنا أتابعك بمناكفاتي حتى من هنا في الزنزانة.. على أية حال، هذا كل ما يمكن أن يُقال الآن، والمسكوت عنه كبير كبير، لذا دعيني أضمه في قلبي، وأحنو عليه في مقصورتي الرطبة التي يسمونها الزنزانة /16/.. فأنا بأشد الحاجة إليه ليمنحني دفئاً وسكينة وهدوءاً..!
ستأتي لحظة ما، أخط لك منه على الورق ما يمكن أن تحفظه الذاكرة، لكن صدقيني أن الأجمل من ذلك أن تتركي لخيالك أنت أن يكمل المشوار الذي بدأته أنا. فقد قررنا منذ زمن أن نتوحد في الرؤى.. وفي أشياء أخرى كثيرة، وعلى الأفق تلتقي عيوننا دائماً...!

141. أمي.. ما يحزّ في نفسي حقيقةً أنني كنت، على مدى الشهرين المنصرمين، أحاول أن أسافر إليك خشية أن يحصل ما حصل دون أن أودعك.. لكن هذا هو قدري.. على أية حال، لا أعرف كيف تلقيتِ الخبر... فقط أنا على ثقة تامة أنك بإيمانك العميق قادرة على الصمود والصبر.. ما يعنيني الآن أن تدركي تماماً أنني على حق.. فلعلي ورثت منك بعض العناد، لأن شريط الذكريات يمرّ أمامي الآن عن تلك الليالي الباردة التي أعقبت رحيل والدي.. كان حنانك يشعّ في كياني دفئاً وحيوية.. كنت يا أمي، وكأنك في سباق مع الزمن، تودين لو يكبر هذا الطفل بيوم واحد، بسنة واحدة، لأن الظروف لا ترحم، ولأننا سنفترق، فكيف سيواجه الأيام وحده... أكاد لا أنسى تلك الليالي التي كنت توقظينني فيها مع الفجر كي تقرئي لي، وكي أقرأ أنا... أكاد أرى الآن، وبالألوان، تلك الحقائب من القماش الأبيض المطرز بخيوط زاهية الألوان.. كنت تتقنين صناعتها لي... أكاد لا أنسى لحظة بللتني دموعك بعد سنوات عندما افترقنا.. لقد رحلت أنت بعيداً، ورحلت أنا بعيداً بالاتجاه الآخر... بعد سنوات، عندما التقينا ثانيةً، كان قد أصبح لي أخوة أعزاء على قلبي: غادة، ووفاء، وحسن، ومحمد، وراغدة... إنني أكاد الآن أنفرد بكل واحد منهم ليطمئنوا، وليطمئن الرجل الطيب والدهم.. فأنا بخير، سأعود إليهم وإليك يا أمي...
ما يهمني الآن أن تكوني قوية يا أمي كما عهدتك.. فأنت متمرسة في مواجهة المحن.. زوديني بالدعاء دائماً...

142. عائلتي، العصبات ، والأرحام.. لدي رغبة حقيقية أن ألتقي بكم واحداً واحداً.. لقد اكتشفت في هذه الزنزانة كم أن الأيام فرقت بيننا وباعدت.. لعلي أشعر بالتقصير أحياناً، وبالذنب أحياناً أخرى... المهم ليس لدي تجاهكم جميعاً إلا هذا الحب الذي ربما لم أستطع أن أعبر عنه جيداً في أكثر الأحيان بسبب قسوة الظروف... الآن، أدرك أن نبأ اعتقالي وقع على كل واحد منكم بطريقة مختلفة، ربما البعض تعاطف مع موقفي، والبعض الآخر تمنى لو كنت تفاديت ذلك كله، والبعض الثالث كان ضد موقفي تماماً...
بكل الأحوال، فإنني أقدر لكل موقفه ودوافعه، لكنني أعتقد أن هناك خيطاً رفيعاً يمكن أن يربط بين هذه المواقف كلها، أو أن هناك قاسماً مشتركاً بين هذه المواقف، وهو أنها تنطلق على اختلافها من مصدر واحد هو الخوف على مصيري.. إذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك على ما أعتقد، فإنني أشعر بالامتنان للجميع، وسأبقى وفياً لهذا الانتماء لعائلتي والذي أضعه في سياق الانتماء للوطن والأمة... على أية حال، إذا قُدّر لي أن أخرج من هنا، فإن أشياء كثيرة بيننا يجب أن تعبر عن نفسها، أو نعبر عنها...!

143. أصدقائي وأخوتي على امتداد الوطن العربي والأمة العربية، لا أعرف لماذا اخترت أن أختم هذه الفقرة بكم.. ربما كان يجب أن أبدأ بكم.. لكن للزنازين نواميسها الخاصة والصارمة.. وللأحلام قوتها على تحدي العتمة والرطوبة، وللخيال المقدرة على اختراق الجدران السميكة المنتصبة بينك وبين العالم.. لهذا فإن تتويج هذا الحديث بكم، جاء في السياق الطبيعي، لأنكم جميعاً في الوطن العربي، وفي المهاجر، اختياري.. لقد اخترتكم واحداً واحداً، وكذلك أنتم.. عندما أقف الآن في هذه اللحظات أمام وجوهكم، أستذكر كم كانت الظروف قاسية.. لم نلتق يوماً إلا للبحث والحوار، بأعصاب مشدودة، كيف نواجه آلة عدو الأمة وماكينته القوية والمحكمة..؟ كيف يمكن أن نخرج مما نحن فيه، كان العجز يدفعنا أحياناً للقسوة على بعضنا البعض، إذا عجزنا عن ضرب عدونا، فلنضرب بعضنا بعضاً... لقد عشنا ظروفاً ملحمية بالغة القسوة، عميقة المأساة.. الحصار محكم من حولنا، لا نعرف من أين يمكن أن تأتي الضربة... لقد زرعوا أرض الأمة ألغاماً من كل نوع، من كل لون.. لكننا رغم ذلك لم نيأس، قبضنا على مبادئنا كالقابض على الجمر... صحيح أننا لم ننعم بالصبح بعد، لكنه بات قريباً قريباً... أنتم أيها الأخوة الأحبة أسرتي الحقيقية.. بكم، ومن خلالكم أرى المستقبل.. إن هذه الروابط التي صمدت بيننا على طول أرض الأمة وعرضها، رغم ما تخللها من مشاعر وانفعالات واضطرابات أحياناً، لهي جديرة بأن تتوج بجهد تاريخي حضاري ملحمي منقذ للأمة والوطن...

144. لقد كنت دائماً مأخوذاً بذلك التنظيم العظيم الذي أبدعه جدنا العربي العظيم محمد بن عبد الله (ص) منذ أكثر من 1400 سنة، عندما واجهته مشكلة التعصب القبلي والعائلي في تلك الأيام، فأنشأ ذلك النظام الفذّ للأسر، حيث تتشكل الأسرة من خمسة أفراد على الغالب، من قبائل وبطون وعشائر مختلفة، وحيث أفراد الأسرة الواحدة يشكلون الخلية الأساسية، وتكاتف الأسر يشكل عماد الثورة... كنت مع بداية الاندفاع والشباب أطمح إلى نظام شبيه مطور، نعبر فيه عن

الانتماء الأصيل للأمة.. أعترف الآن أنه ربما كان هناك دافع ذاتي يتعلق باليتم وحالة الوحدة التي رافقت حياتي.. فأردت أن أختار أسرتي اختياراً، واخترت ذلك النهج الذي يسمونه في السيكولوجيا والسلوك: سلوكاً تعويضياً.. وسعيت كي أصمم أسرة أختارها وتختارني... لهذا فإنني حقيقة كنت، ومازلت، أبحث عن أسرة حقيقية أكون عضواً فيها، ولهذا فقد توطدت علاقات حميمة بيني وبين أخوة ورفاق درب في كل مكان من الوطن العربي، وكان هذا الطموح مشروعاً في فترات المدّ القومي، ثم بدأ يبتعد كحلم مع اتساع دائرة الانحسار، لكننا نحن النفر من المعاندين على طول الأرض العربية وعرضها لم نتخلَّ عن المشروع لحظة واحدة... وكلما كان الحلم يبدو أبعد، كلما ازداد عنادنا وصبرنا للقبض على المشروع.. ومع شيوع أن المشروع القومي قد تمّ سحقه تماماً، كنا نتداعى لنعلن أنه طوق النجاة الوحيد لنا وللأمة بأسرها، وربما للإنسانية أيضاً... وبين لحظة الامتداد ولحظة الانحسار، وجدنا في الساحة العربية من يعاند الصهينة والتفتت والتبعية... صحيح أن الكثيرين قد تنكروا للراية المنكسة، والبعض الآخر اعتبر أن زمنها قد ولّى، لكن الكثيرين مازالوا أوفياء للمبادئ، يصلبون مواقفهم، ويستنتجون من كل ما يجري على أرض الوطن العربي والعالم ما يؤكد أن هذه الأمة أمام طريق واحد للخروج من محنتها كي تنهض وتتحرر من نير الهيمنة والتبعية، وتعيش بما تملك وكما تستحق، وهو طريق الوحدة وبناء الدولة القومية الديمقراطية الواحدة لتحقيق العدالة الاجتماعية، ومعالجة أمراض الفاقة وأمراض التخمة.. وللمتخمين نقول أن أمراض التخمة على المدى البعيد أخطر بما لا يُقاس من أمراض الفاقة.. فليتداعى الجميع إلى الكلمة السواء، يهتدون من خلالها إلى سواء السبيل.. لهذا فإن للدعوة من أجل الانتقال من مرحلة الأفراد إلى مرحلة الجماعة ما يبررها... صحيح أن الظروف صعبة، والأرض غير مهيأة، والأعداء عتاة ظلمة، والمجتمع العربي غدا مجتمعات مهمشة مسحوقة مستلبة الإرادة، وأساطيل الأعداء وقواعدهم تحاصر وتخترق... إذا كان كل هذا صحيحاً فإنه مدعاة للمواجهة والمقاومة، وليس للتعلل والسلبية..!

145. أكاد أجزم الآن، أنكم جميعاً أسرتي الحقيقية، وأن أسرتي الصغيرة باتت جزءاً من أسركم، ويقيني أنكم تحيطونني الآن بمشاعركم النبيلة.. وهذا ما يدعوني حقيقة للتأثر البالغ.. لكنني أدعوكم إلى ما هو أكثر على صعيد مشروعنا المشترك.. تكاد وجوهكم لا تغادر مخيلتي، أستمد من إشعاعاتها النور الذي أواجه به هذه الظلمة التي تلف زنزانتي.. وأقول لكم: ليس مهماً أن أخرج أنا من هذه الزنزانة.. المهم أن ننهض جميعاً مما نحن فيه إلى ما يجب أن يكون..

146. ثم.. ثم كان يجب أن أهبط على أرض الواقع بعد هذه الرحلة الطويلة مع الأحلام.. حاولت أن أنهض.. كان اليباس قد سرى في جسدي، وقفت بصعوبة على المصطبة، ثم بدأت الحركة عليها بالتدريج إلى أن استعدت مقدرتي على التحرك.. إلى أن سمعت طرقاً على الباب، وصوت آمر: مدّ يدك يا 16.

147. اقتربت من باب الزنزانة، مددت نظري من الفتحة الصغيرة في الباب، فإذا بشاب نحيل يرتدي قميصاً أسود.. بادرته ببشاشة: صباح الخير... لم يرد التحية.. تصنع التجهم والعبوس... تابعت، فقلت له: هل لي أن أطلب منك إصلاح الحنفية في الزنزانة، فالرائحة كريهة لا تُطاق.. لم يجب أيضاً.. فأدركت أنه ممنوع من الكلام... لكنه ذهب، وعاد مع آخر، حاول أن يستبدل حنفية الماء، وعندما لم يتمكن ضرب الحنفية برجله مطلقاً شتيمة لا أستطيع أن أخطها على الورق. بعد أن سقط، قلب الحنفية على الأرض.. ثم غادرا الزنزانة، وأقفل الباب.. وعندما أعاد فتح المياه في الزنازين، اندفع الماء بقوة فاستمتعت بذلك، وأعدت حذائي إلى تحت رأسي وحاولت أن أغفو للحظات في ظل هدير المياه، والرذاذ الذي يتطاير... وزالت الرائحة الكريهة نسبياً... وبعد قليل، أطلّ عليّ من الفتحة ذاتها، وأعطاني كماشة، قال: أغلق الحنفية.. قلت: لا يمكن ذلك لأن قلب الحنفية قد سقط منها.. فقال بلهجة غاضبة: "عمه، شو جاي من ورا الطرش.. عمرك ما شفت حنفية"، وفتح باب الزنزانة بغضب، وحاول إغلاق الحنفية دون جدوى.. فابتسمت له ملاطفاً، وأمسكت بقلب الحنفية وقلت له: كما ترى، لا يمكن إغلاق الحنفية.. فأمر مساعده أن يغلق المياه عن الزنازين، وأعاد محاولة تغيير الحنفية إلى أن نجح بذلك.. وغادر الزنزانة.. فشعرت بحاجة حقيقية للنوم...

الفصل الرابع

التحقيق

148. استعدت بسرعة الخواطر التي وردت لي.. شعرت بالرضى، أغمضت عيني عليها لتواسيني في وحدتي هذه.. وما كدت أفعل، حتى جاء أحدهم، قال: يا 16، جهز نفسك.. نهضت، أعدت حذائي من تحت رأسي إلى قدمي، وقفت وراء الباب كما أمر سيادته.. بعد قليل، جاء آخر، فتح الباب، وطلب إليّ أن أتبعه في ممر ضيق بين الزنازين.. ثم انتهينا إلى غرفة فيها مقاعد وعدة كراسي، ومكتب يجلس وراءه شخص أشيب بنظارتين سميكتين.. نهض من وراء الطاولة، واستقبلني بودّ ظاهر، وطلب إلي الجلوس، ورحب بي قائلاً: "أهلاً يا أستاذ حبيب، هنا ستجيبنا على الأسئلة.. قلت بيني وبين نفسي: البداية طيبة، والمحقق كذلك، الطيب بادٍ عليه.. ثم إنه يناديني بلقب أستاذ.. ما هذا السعد كله... كنت مرهقاً، ورغم الشوق لاقتحام مرحلة التحقيق، والانتهاء منها، فقد كنت أتمنى أن يتأجل إلى الغد، علني أستعيد نفسي بعد الإرهاق الشديد لليلة السابقة حيث ذهبت أحلامي، وطاف خيالي بكل شيء، وكأن العمر كله مسجل على شريط الذاكرة، وكذلك الأحلام والتطلعات والمستقبل.. لقد فكرت بكل شيء إلا بالتحقيق... ترى، عن أي شيء سيسألون.. ثم.. ليسألوا.. سأجيب على كل شيء بسجيتي، حتى أنني سأطلب من المحامي في داخلي أن يصمت تماماً.. سأقول كل شيء دون حساب حتى للقانون.. لأنني أعرف أن كل ما قلته، وكل ما فعلته كان ضمن القانون... هذا الإحساس أمدني بالقوة، فتصرفت بكل عفوية، بدون أية تعقيدات.. دخل شاب أسمر عرفته، إنه كان من ضيوف منتدانا الدائمين، كان يحمل أوراقه، وربما جهاز تسجيله، لا تفوته كلمة، يكتب كل شيء، كان موضع ترحيب، وكنا نعرف مهنته... دخل وبيده أوراق، سلمت عليه بحرارة.. وسألته ممازحاً عن أحواله.. ثم قدم الأوراق إلى المحقق، ثم بدأت الأوراق تنهال على المحقق، أسئلة مكتوبة، سؤال مكتوب برأس الصفحة، وعلي أن أجيب عليه بخط يدي.. وبدأت أجيب...

149. لم أكن أعرف مصدر الأسئلة، من أين تأتي، وبعضها كان يصوغه المحقق ذاته.. كنت عندما أجيب باقتضاب شديد، يطلب إلي المحقق أن أتوسع قليلاً بالجواب.. كانت بعض الأسئلة مقتطعة اقتطاعاً تعسفياً من بيان أصدرته، وكلمة قلتها، أو من تقرير مخبر عن جلسة ما.. وبعد مرور حوالي الساعة على هذا الوضع، جاءت الأوامر بأن ننتقل إلى مكان آخر...

150. صعدنا عدة درجات، أصبحنا على وجه الأرض مرة أخرى، ثم وبعد قليل من الانتظار في غرفة الانتظار، دخلنا إلى غرفة مكتب يتضح من أثاثها والمكتب أنها تخصّ ضابطاً كبيراً كان يجلس خلف المكتب، وثلاثة أشخاص آخرون يتحلقون حوله، بيد كل واحد منهم كرّاس، منهمكين بالقراءة... دخلت، وبعد أن سمح لي بالجلوس، بدأت الأسئلة تنهال علي من كل واحد منهم.. فأدركت أنهم جميعاً ضباط تحقيق، وأن الجالس وراء المكتب كبيرهم، هكذا أصبحوا خمسة محققين دفعة واحدة.. حاولت أن أمدّ نظري من نافذة المكتب، فأدركت أنني في مكان قريب من صالة الفيحاء... ترى، أي فرع هذا..؟ حاولت أن أسترجع من الذاكرة ما أعرفه وأسمعه عن توزع فروع الأمن في دمشق، فخمنت أنه فرع تحقيق الأمن السياسي.. لا بأس، يبدو أن المحققين من الحقوقيين، أو أغلبهم كذلك.. أحدهم قال لي أنه محامٍ، كانوا يتعاملون بتهذيب، رغم المناكفات التي كان يحاول أن يبديها بعضهم، وهي مناكفات لطيفة على أية حال.. طلب إلي كبيرهم أن أجيب برجولة على الأسئلة، قلت: ليس لدي ما أخفيه.. ثم بدأت الأسئلة تنهال، وبدأت أكتشف أن الأسئلة والملف الموزع بين أيدي المحققين محصور بنشاط منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي.. وحقيقة لم يكن لدي ما أخفيه، لم أنفِ كلمة واحدة قلتها، كنت أضيف عليها وأشرح السياق الذي قيلت فيه.. كنت أحياناً أتعمد الغوص في بعض الإجابات لمناكفة ذلك المحقق الذي يبدو متحمساً أكثر من سواه... هكذا جرى التحقيق سلساً، واستمر حتى حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر، عندما وقعت على المحاضر... سألت: هل انتهى التحقيق..؟ قال لي المحقق المناكف: قد نستدعيك مساءً خلال هذه الليلة.. قلت: إذن أريد أن أسأل عن ما حدث في أمريكا.. وأطلقت على ما جرى أنه حرب عالمية، وسيكون له ما بعده... ثم، وبعد إنجاز المحاضر وطباعتها والتوقيع عليها، كان أغلب المحققين قد غادروا.. وبقي المحقق الأول الأشيب الطيب، فحاول أن يعتذر عن ما صدر من بعض المحققين، فقلت ممازحاً: يا رجل إنني أكاد لا أصدق أن تسير الأمور على هذا النحو...

151. لقد استمر التحقيق حوالي ست ساعات، أكثر أو أقل... بعد أن بصمت على المحاضر دون أن أقرأها، (سأقوم بتثبيت محضر الاستجواب أمام فرع تحقيق الأمن السياسي كاملاً في فصل أدلة الإثبات من هذا الكتاب)، تقدم شاب لطيف علمت فيما بعد أنه رئيس للديوان على الأغلب، استلمني.. صافحت كل من بقي في الغرفة شاكراً، وعدنا أدراجنا إلى القبو.. كانت أعصابي هادئة أكثر من أي وقت مضى، فقررت أن أستطلع المكان جيداً، وأعرف الاتجاهات.. عدنا إلى الممر تصطف حوله الأبواب السوداء للزنازين بأرقامها من 1 إلى 24، هذه المرة، عرفت طريقي إلى الزنزانة /16/.. وعندما كان مرافقي يحكم إغلاق الباب، ووضع الأقفال، كانت الذاكرة قد نقلتني إلى ربع قرن مضى، عندما اعتقدت أنني أمتلك موهبة الكتابة للمسرح.. فبدأت بكتابة مشروع مسرحية.. أنهيت المشهد الأول منها، وأعتقد أنني مازلت أحتفظ بتلك الأوراق الصفراء بين أوراقي، كان المشهد الأول في مسرحيتي هو ذاته المشهد الذي أنا فيه الآن.. كان الوطن العربي

كما صورته في ذلك الوقت مجموعة زنازين تصطف إلى جانب بعضها البعض، متقابلة أحياناً تفصل بينها وتحيط بها ممرات هي البحار والمحيطات والخلجان... ولم تتح لي الظروف في حينه أن أستكمل البناء المسرحي لفكرتي.. الآن تبدو لي الفكرة مجسدة بالضبط.. حتى مخطط الممر بين الزنازين هنا، حتى عددها متقارب مع تلك، حتى من ناحية المضمون، فهي زنازين انفرادية معزولة عن بعضها البعض، العلاقة البينية بينها معدومة، وممنوعة في الوقت ذاته.. وكل زنزانة مفتوحة لوحدها بفتحة واحدة على الممر الذي يؤدي إلى السجان.. فهو وحده الذي يتحكم بالأبواب والمسارب... أليس هذا بالضبط هو حال الدول (العربية)، أؤكد على وضع (العربية) بين قوسين، وويل لنزيل الزنزانة إذا ضُبط يرتكب جرم الهمس، أو حتى النقر على الحائط مع نزيل الزنزانة المجاورة... لقد أنعشتني هذه الفكرة، فأنا حقاً كان يمكن أن أكون قد امتلكت مواهب لم أختبرها... على أية حال، سيكون لدي الوقت لاختبار ذلك كله... عبرت، بعد هذه الخاطرة السريعة، إلى استرجاع ما جرى خلال التحقيق.. شعرت بالرضى، استذكرت أن أحد المحققين قال أنهم قد يستدعونني ثانية خلال الليل... ليكن.. سأكون قد ارتحت قليلاً.. يجب أن أنام، لأن ما سمعته من روايات عن ظروف التحقيق كانت مخيفة.. وتساءلت، إن هذا الحوار الذي جرى بيني وبين المحققين لو كان حواراً مفتوحاً بيني وبينهم، ولم يأخذ هذه الصفة القسرية، أما كان أجدى..؟ بالتأكيد، هم أيضاً لهم همومهم... وتساءلت بيني وبين نفسي، لماذا توضع إمكانيات الأمة بمواجهة بعضها البعض، عوضاً عن أن توضع في سياق واحد لخدمة المجتمع والأمة.. لماذا كل هذا الجهاز الأمني الطويل العريض، موجه لمراقبة المجتمع وحركات أبنائه وسكناتهم..؟ ولماذا المواطن في بلادنا ليس له همّ إلا كيف يتوقى رجال الأمن ويخادعهم..؟ ثم لماذا هذا الهدر في الطاقات..؟ هل يمكن لأحد أن يقدم إحصائية دقيقة عن كم نهدر من طاقات أبناء شعبنا وقدراته المادية على المراقبة والتجسس والحراسات والمرافقات..؟ هل كلف أحد نفسه أن يسأل لو أن هذه الطاقات وجهت للإنتاج والإبداع ومواجهة العدو الحقيقي للشعب والوطن، كم كانت ظروفنا ستكون أفضل..؟ هل فكر أحد بأن نظاماً قانونياً محكماً، وتنظيماً دقيقاً للمجتمع، وقواه الحية، ومؤسساته يمكن أن تغني عن كل ذلك..؟ لو نهض المجتمع إلى وضعه الطبيعي، وانكمش الأمن إلى وضعه الطبيعي ووظائفه الطبيعية لكان في الإمكان وضع حدّ للخوف والريبة بين المواطن ورجل الأمن.. بل ربما انقلبت هذه العلاقة إلى علاقة احترام وتقدير.. بدليل أن الشعب العربي من محيطه إلى خليجه تعاطف واحترم، وبكى أحياناً من شدة تأثره بشخوص الطاقم الأمني لرأفت الهجان... لماذا لا تكون مهمة رجال الأمن هي مهمة أمن الدولة، وليس أمن السلطة، وأن يترك أمن السلطة إلى البناء الاجتماعي المؤسسي المقونن.. فيكون الاعتبار للشخصية الاعتبارية التي يتبادل المواقع فيها الأشخاص الطبيعيون، وفق شروط الكفاءة والمقدرة... أسئلة كثيرة كانت تتوارد على خاطري، تنقطع بين الحين والآخر بدقّ المساجين على أبواب زنازينهم، يطلبون شيئاً.. فيأتي صوت السجان عالياً: "شو بدك..؟".. ثم وقفت على مصطبة زنزانتي وتفقدتها.. وبدأت أقطعها جيئة وذهاباً، ثم بدأت أدقق بالشارات المنقوشة على الجدران، بالأظافر ربما... أسماء من مروا هنا، خطوط تشير إلى عدد الأيام، والتواريخ.. المشكلة أن نظارتي لم تكن معي... ثم جلست على المصطبة أتابع حركة الصراصير والحشرات الصغيرة تتحرك في كل مكان، إضافة للبعوض والعناكب.. خطر لي أن أنزع البطانية عن المصطبة وأنفضها، لكن، وخيراً فعلت، تذكرت أن الكائنات الموجودة بين طياتها مستقرة الآن، لو حركتها فأين ستذهب..؟ الأفضل أن أتعامل معها بلطف، فلا أزعجها قدر الإمكان، علها تنام، وتتركني أنام... فخلعت حذائي، ووضعته تحت رأسي، ومددت جسدي بهدوء.. واستسلمت على ما يبدو لنوم عميق.. فالظروف كانت أفضل من الأمس، والرائحة الكريهة قد زالت، فتحت حنفية الماء قليلاً، وتركت الماء تتسلل منها ببطء...

152. في ساعة ما من الليل، أفقت من نومي، كنت قد أصبحت قطعة واحدة بلا مفاصل.. لكنني أقنعت نفسي أن النوم على الأرض الصلبة مفيد من الناحية الصحية، فلعل الاعوجاج الذي لحق بعظامي بفعل السنين أن يستوي.. ثم بدأت أجرب حركة مفاصلي واحداً واحداً، إلى أن تمكنت من النهوض، وبدأت بالحركة على المصطبة جيئة وذهاباً.. كان الظلام مطبقاً، إلا أن ضوءاً خافت يتسلل من فتحة الباب الصغيرة.. الفتحة الشبكية العلوية كانت مظلمة إيذاناً بأن الظلام قد حلّ... قرع الباب، ووضع رغيفاً من الخبز على الفتحة الصغيرة، ثم قال يا 16 مدّ يدك.. مددتها، ألقى بها بيضتين، أكلت واحدة منهما.. ثم غمرتني السعادة عندما عثرت في أرض الزنزانة على قطعة من الصابون.. وبدأت أمارس عملية تنظيف دقيقة لكل ما يمكن من الأطراف والوجه والرأس... ثم عدت إلى المصطبة مناشداً الكائنات الوديعة، أن تحافظ على هدوئها... فأنا لم أقصد إزعاجها... وكان ليلاً طويلاً استرجعت فيه شريط الذكريات ذاته الذي تابعته منذ فجر الأمس.. ولا أجد حاجة كي أعيده عليكم، رغم أنه قد حوى بعض الإضافات والتصحيحات، لكنني لن أضيف ولن أصحح.. سأتركه كما هو...

153. هكذا أمضيت تلك الليلة الثانية في الزنزانة /16/، لم يطلبني أحد لاستكمال التحقيق.. اكتفوا على ما يبدو بما قلت... بعد أذان الفجر، خلدت إلى النوم. ثم مع الصباح بدأت الحركة في الممر... يا 16 ارفع يدك.. يتأكد على ما يبدو أنني مازلت على قيد الحياة... نهضت، استعدت حركة مفاصلي من جديد، غسلت وجهي.. لدي ماء ولديّ صابونة... ثم، وبعد قليل جاء من يقول يا 16 جهز نفسك. كنت جاهزاً.. ترى، إلى أين هذه المرة..؟ فتح باب الزنزانة، وقال اتبعني..

تبعته، التقيت الشاب اللطيف رئيس الديوان، رحب بي، طلب إلي أن أستلم حاجياتي.. استلمتها.. وجدت إلى جانبي ذلك الشاب الذي لا أعرف اسمه، والذي التقيته في منتدى الحوار الوطني قبل أيام، وكان كلامه هادئاً وقوياً... تبادلنا التحية، أدركت أنه معتقل معي.. تمّ اقتيادنا عبر الممر، حيث صعدنا درجات القبو، وشاهدنا السماء، وتأكدت أننا في المكان الذي توقعته مقابل ساحة الفيحاء الرياضية... طلب إلينا أن نستقل سيارة جيب.. وبعد أن تحركنا طلب إلينا الانتظار، فانتظرنا.. تخوفت من ذلك.. لكننا تحركنا أخيراً صعدنا إلى سيارة الجيب بحراسة حارسين على الباب الخلفي للسيارة بأسلحتهما.. جلس جانب السائق قائد المجموعة، ثم تحركت سيارة صغيرة فيها ضابط، علمت فيما بعد أنه مدير سجن عدرا الأمني.. وعندما تحركت السيارة تحركنا، نحن نتابعها.. وانطلق الموكب... كنت أتابع كل شيء هذه المرة.. عرفت أننا نتجه إلى محكمة أمن الدولة...

154. عندما دخلنا محكمة أمن الدولة سخرت من المفارقات العجيبة.. فبالأمس كنت هنا للدفاع عن الأخوة والأصدقاء... الآن، من سيدافع عن الجميع..؟!

هكذا دخلت محكمة أمن الدولة كمعتقل.. في بهو المحكمة، استكملنا تعارفنا.. كان الشاب المعتقل معي هو المهندس فواز تللو، وقد أعلمني أنه اعتُقل في ذات الوقت الذي اعتُقلت فيه، وأن التحقيق معه كان يسيراً أيضاً، وبدون عنف أيضاً... وطلبت إليه أن نكرر أقوالنا أمام الأمن حتى يتمّ ترحيلنا إلى سجن عدرا.. فقد كنت بشوق كي ألتقي بالأعزاء هناك... هم لا يعلمون أنني اعتُقلت، وبالتالي قد تكون الظنون قد ذهبت بهم بعيداً إلى حيث تصوروا أنني أهملتهم، أو تخليت عنهم، وقررت بيني وبين نفسي أن أوافق على استجوابي لدى المحكمة بحضور الأستاذ الرئيس وليد التش، رئيس فرع نقابة المحامين بدمشق، وأنني لن أطلب محامياً آخر.. فقد أردت إضافة لرغبتي في تسريع الإجراءات كي أُنقل إلى سجن عدرا، أردت أن أعبر عن تقديري لشخص الأستاذ الرئيس محمد وليد التش من جهة، وفي ذات الوقت أردت أن يكون الشاهد على أقوالي وعلى الاستجواب لدى محكمة أمن الدولة محامياً بعثياً ، ليعرف إخواننا في حزب البعث العربي الاشتراكي كيف تجري الأمور حقيقة... ومن المصادفات العجيبة، أنني كنت قد وجهت الدعوة لفرع نقابة المحامين بدمشق لحضور الندوة التي أقامها منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي عن موضوع النقابات وتطويرها، وقد حضر بالفعل الأستاذ الرئيس محمد وليد التش هذه الندوة، وتقدم بمداخلة هامة في تلك الندوة...

155. وبالفعل، وكما توقعت حضر الرئيس محمد وليد التش، وبرفقته زميل آخر لم يحضرني اسمه... حاول أن يقترب للسلام، لكن، وبناءً على تعليمات النائب العام، منعته عناصر الأمن من الاقتراب.. قال لهم: أنا رئيس فرع نقابة المحامين.. قالوا: ممنوع... رفعت له يدي من بعيد، وقلت بيني وبين نفسي هذه واحدة... لقد كان موقفاً.. كان الضيق واضحاً على وجهه، وقد خشيت فعلاً أن يتطور الموقف، فعدت إلى مقعدي راجياً أن ينتهي عند هذا الحدّ... ثم.. ثم بدأ الاستجواب، نودي على المهندس فواز تللو الذي دخل للاستجواب لدى القاضي حبيب نجمة، ثم نودي عليّ فدخلت للاستجواب لدى النائب العام علاء الدين منصور، بحضور الأستاذ الرئيس محمد وليد التش...

156. كنت قد قدّرت أن مهمة النائب العام صعبة، إن لم تكن مستحيلة.. سألني عن أقوالي لدى فرع تحقيق الأمن السياسي، فوافقت عليها، وطلبت إليه أن لا يزعج نفسه بتلاوتها.. ثم بدأ بتوجيه الأسئلة، كان بعضها مكرراً، وكانت مستمدة جميعها من أنشطة منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي.. واستمر الاستجواب حوالي ساعتين أو أقل بقليل.. (سأقوم بتثبيت محضر الاستجواب في فصل أدلة الإثبات)... المهم أنني لم أنفِ كلمة قلتها، ولم يكن هناك جرم ولا من يحزنون، وأشفقت على النائب العام فعلاً الذي لم يجد بعد الاستجواب إلا كلمة واحدة قالها باستحياء، رغم مظهر الصرامة الذي أراد أن يبدو عليه دائماً.. قال: لو أن لهجتك كانت أقل حدة... وضحكت بيني وبين نفسي كما لم أضحك من قبل... فالجرم: هو اللهجة الحادة.. حاولت أن أعثر على مستند قانوني لهذا الجرم، لم أجد، تجنبت النقاش، لا فائدة، فقرار التوقيف سيصدر على أية حال.. فقط قلت له: يمكنك أن تسأل الأستاذ الرئيس حضر في منتدانا، ولاحظ لهجتي.. هل كانت حادة..؟ فأجاب الأستاذ الرئيس: أرجو أن تأخذ الإجراءات طريقها الصحيح... وكان كمن يدرك أنها لن تأخذ هذا المنحى... فأنهيت الحديث لأنني لا أريد أن أحرج أحداً أكثر من ذلك.. اعتذرت من الأستاذ الرئيس عن الموقف الذي حصل.. وطلبت منه أن يقرضني 1000 ل.س لأنني بلا نقود.. وبحركة ذكية، سأل إن كان النائب العام يوافق على ذلك، فتكرم بإعطاء الموافقة.. ثم ودعته، وغادر بينما انتقلت إلى الانتظار حيث كان المهندس فواز تللو...

157. كان من المفترض أن ننتقل على الفور إلى سجن عدرا.. لكن على ما يبدو كان هناك اضطراب في الموقف.. وطال الانتظار.. السيد النقيب قائد المجموعة، ومدير سجن الأمن في السجن المركزي بعدرا، يجري اتصالات... ثم جاءت التعليمات بالتحرك.. فتحرك الموكب.. وتحقق ما كنت أخشاه.. لم نتجه إلى سجن عدرا، اتجه الموكب إلى فرع تحقيق الأمن السياسي من جديد، لكن هذه المرة دخلناه نهاراً، كل شيء واضح... كان من الواضح أن النقيب وعناصره يتصرفون بتهذيب شديد.. وكانت مهمتهم على ما يبدو تقتصر على إعادة تسليمنا.. وبالفعل هبطنا الدرجات إلى القبو،

وأعيدت الإجراءات السابقة، سلمنا حاجياتنا.. لكن من الواضح أن التعليمات كانت بعدم إعادتنا إلى الزنازين الانفرادية.. فتمّ إدخالنا إلى زنزانة كُتب على بابها الأسود /ج2/.. وعرفنا فيما بعد أن هذا يعني أنها الزنزانة الجماعية رقم 2.. كان من الواضح أن الوضع هنا أقل سوءاً... أبعاد الزنزانة 2.5 × 2.5 م، يُقتطع منها مرحاض له باب خاص وبجانبه مغسلة عليها حنفية ماء... قلت: يا فواز.. هذا (سويت)، ثم تمّ تسليمنا بطانيات قمنا بفرشها على الأرض.. أُغلق الباب، ووُضعت عليه الأقفال...

الــــفصل الـــخامـــس

الـــزنزانــة ج2

158. هكذا دخلنا عالم الزنزانة ج2.. وكانت الأسئلة تتدافع، تُرى لماذا تمّت إعادتنا إلى هنا..؟ طالما استلمنا حاجياتنا صباحاً، وحضر مدير سجن عدرا لاستلامنا، فمعنى هذا أن القرار كان في الصباح هو تحويلنا إلى المحكمة، ومن هناك إلى السجن.. فماذا حصل حتى تغير القرار وتمت إعادتنا إلى فرع تحقيق الأمن السياسي..؟ هل سيعاد التحقيق.. هل، وهل...؟ الأسئلة هنا كانت في غاية الصعوبة، لأنك لا تملك أية معطيات.. والسجان، لا نعرف ماذا يدور في رأسه، ولا نعرف ماذا يريد.. ولعله هو لا يعرف ماذا يريد... لماذا تراجع، وقرر إعادتنا إلى هنا..؟ ماذا ينتظرنا..؟ الاسترسال وراء هذا الموضوع لن يؤدي إلا إلى القلق، والمزيد من القلق.. فانتبهت إلى شريكي في الزنزانة... قلت: يا فواز، علينا أن ننسى.. دعنا نعتبر أنفسنا أننا هنا مجرد وديعة.. ألا تعتقد أن هناك ما يجب أن نفعله معاً..؟ تعال نتعارف يا أخي...

159. قدّم لي نفسه بطريقة لائقة وباقتضاب، وأخبرني أنه يستغرب لماذا تمّ اعتقاله، ذلك أن نشاطه كان محدوداً بالهيئة المنظمة لمنتدى الحوار الوطني في منزل النائب رياض سيف، وأنه خارج كافة التنظيمات السياسية، وأنه كان قريباً من السلفيين، لكنه يختلف مع الكثير من ممارساتهم، وأنه فقط يتفق مع تمسكهم بأصول الدين... وأنه مهندس، ووكيل شركات كمبيوتر... كل ما في الأمر أنه أحس أخيراً أن هناك فرصة للانفراج الديمقراطي في البلاد، ولذلك نشط في مجال المنتدى.. وأنه قلق بشأن زوجته وأطفاله، ويرجو أن لا تطول فترة الاعتقال.. وقد بدا لي إنساناً ودوداً صادقاً، يقدم نفسه وأفكاره على السجية ببساطة وعمق...

160. لذلك عندما جاء دوري، بادرت إلى القول أنني أعتقد بوجود فرصة حقيقية لنكون أصدقاء، خاصة أننا سنكون وجهاً لوجه لمدة لا نعلم مداها... ثم بدأت أسرد له باختصار المحطات الأساسية في حياتي.. وقلت له ممازحاً أنني أنتظر السجن منذ /40/ عاماً، وقدمت له الرؤى التي أنظر من خلالها للأحداث، وأنني تعرضت في أواخر عام 1963 تحديداً لتهديد حقيقي بالاعتقال عندما اكتشفت أن أحد زملائي في المدرسة الثانوية كان مخبراً، فكتب تقريراً يتهمني بمعاداة النظام، لكن ما أنقذني غباء المخبر ذاته الذي اتهمني أنني أنتمي إلى (الأخوان المسلمين)، وبما أن هذا مستحيل ليس لسبب إرادي من قِبَلي، ولكن بسبب الصفة المذهبية لذلك التنظيم، وكانت فرصة، باعتباره من السلفيين، أن أشرح له رؤيتي بالتقسيمات المذهبية في الإسلام، وكيف تحولت من مذاهب للفقه ومنابر للاجتهاد إلى جاهلية سياسية لإنتاج الفتن والاقتتال، جرت على البلاد، وعلى الإسلام عموماً، الكثير من الخراب والتخريب، ومازالت.. وأنني شخصياً لست مقتنعاً بأن تلك الحدود بين المذاهب، حدود مقدسة، بل على العكس، إنها حدود مشوهة للعقيدة وللدين وللانتماء الديني والوطني، وأنه لا بدّ من فتح باب الاجتهاد، والدعوة إلى الكلمة السواء بين الجميع، وبعيداً عن أي تعصب مذهبي، فلا كهانة في الإسلام، بل أن الإسلام في جوهره لا يحتمل حتى وجود رجال دين، بالمعنى الذي يتصرفون به هذه الأيام، إفتاء لمصلحة الاستبداد، ولمصلحة الأعداء أحياناً أخرى، والشواهد كثيرة... لذلك فإن على العرب المسلمين، وهم قلب الإسلام، أن يستعيدوا دورهم كقاعدة لتنظيف هذا الدين مما لحق به من بدع وتشويه هو بريء منه.. وهذا لا يمكن أن يحصل إلا بمعالجة القضايا وفق ظروفها، ووفق حاجات الأمة والعقيدة معاً... ثم عرجت على المسألة الراهنة، وكيف أن الخطر كامن بانقطاع الحوار الحقيقي والصادق بين الجميع.. وتساءلت عن دور وزارة الأوقاف في بلادنا، لماذا لا تقوم بتنظيم حوارات مفتوحة حول القضايا الجوهرية، وتتم المصارحة بين المذاهب الإسلامية، فتوضع الأوراق، جميع الأوراق، فوق الطاولة، وتُطرح كافة المسائل للحوار والجدل.. وأن يكون هذا الحوار مفتوحاً، وعلى الملأ، فيختار الناس ما يناسبهم من جميع المذاهب، ويرفضون ما لا يناسبهم من جميع المذاهب أيضاً.. وتُحال قضايا الخلاف إلى هيئات متخصصة فقهية لوضع حلول شافية لها.. كما تُحال الحوادث التاريخية إلى المختبرات العلمية في كليّتي التاريخ والشريعة لتدقيق

النصوص، وذلك للخروج من الفتنة، وعزل الفتاوى التكفيرية، والفتاوى التكفيرية المضادة، وفهم تلك الفتاوى ضمن ظروفها السياسية الخاصة التي أنتجتها، وبالتالي فإن تلك الظروف قد انقضت الآن.. وعرجت بشكل خاص لمناقشة الفتوى المنسوبة للشيخ ابن تيمية، والمتعلقة بالمذاهب الإسلامية غير السنية، فقلت له أنني أولاً أشك في نسبة هذه الفتوى للشيخ ابن تيمية، لأنها تتناقض تناقضاً بيناً مع فقهه المقاوم للظلم، والداعي للتوحد والحرية، فهو القائل: "إن الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ويهزم الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة".. فهل يمكن لرجل يقول هذا القول أن تُنسب إليه مثل تلك الفتوى التي تتسم من حيث بنيانها بتناقض صريح مع الشريعة الإسلامية التي لا يمكن بالارتكاز إلى مبادئها العظيمة التي تضع الإنسان في مرتبة سامية أهلته لأن يكون خليفة الله على الأرض.. لا يمكن بالاستناد إلى هذه المبادئ الإفتاء بالقتل الجماعي، وقتل الأطفال وسبي النساء.. ذلك أن العقوبة في الإسلام، كما بحثت عن جذورها في الفقه تتوجب بحدود الفعل والفاعل، لا أكثر من ذلك ولا أقل. ثم لنفترض صحة نسبتها للشيخ ابن تميمة، فإن ذلك لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً، ذلك أنه لا عصمة لإنسان في الإسلام، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنها كانت لمعالجة ظرف سياسي معين، كانت الفتنة فيه سيدة الموقف، وكان الحوار مقطوعاً تماماً بين المذاهب، وكانت الخناجر والسيوف والسموم هي أدوات التعامل بينهم، وكان ثمن الموقف المضاد هنا، وثمن الموقف المضاد هناك، دق الأعناق.. وكان الغرباء عن العرب الذين اجتاحوا الديار العربية، من الشرق خاصة، قد دخلوا الإسلام، وهذه كانت من غرائب الأمور في التاريخ، حيث كان الغزاة عادة يفرضون عقائدهم على الذين هُزموا، وباتوا تحت سلطة الغزاة... هنا، وهذه هي المفارقة، دخل الغزاة في دين الذين هزموهم، وباتوا تحت السيطرة، لكن هذا الدخول إلى الإسلام لم يكن من باب الإسلام الواحد المنيع، وإنما كان حسب الظروف دخولاً مذهبياً إلى هذا المذهب، أو ذاك.. وهذا لم يكن ذنبهم على أية حال، لأن الفتنة بدأت هنا، ومن هنا صدرناها للأقوام الأخرى التي دخلت الإسلام.. المهم أن أولئك الغزاة ألصقوا بتلك المذاهب أعرافهم القبلية التي تحولت إلى بدع في تلك المذاهب، وبالتالي فإنهم وجدوا أنفسهم، ومن اللحظة الأولى، طرفاً في الصراع المذهبي، وهكذا كانوا يقاتلون ويقتلون وفق هذا المبدأ، ووفقه أيضاً كانوا يتناصرون.. ودواعي فتوى الشيخ ابن تيميمة أن الغزاة من آسيا الوسطى وهم الآن يشكلون جناحاً مهماً من المسلمين في العالم عندما جاءوا إلى بلاد الشام، دخلوا الإسلام من خلال التشيع، وبالتالي فإن الشيخ ابن تيمية، وبعد الفظائع التي ارتكبوها في ديار العرب فإنه أفتى ضد المذاهب التي لم تشترك في مقاومتهم.. هنا، ووفق الحال في تلك الأيام، فإن هذا المطلب كان صعب التحقيق، لأن ظروف الفتنة وضعت الانتماء المذهبي فوق كل انتماء آخر، بدليل أنه بعد سنوات قليلة، عندما جاء الغزاة من الشمال، وهم أيضاً من آسيا الوسطى لكنهم دخلوا الإسلام من باب المذهب السني.. فإنهم لا قوا الترحيب هنا... هنا، دعني أعرب عن وجهة نظري، فالحقيقة أنني أجد نفسي متعاطفاً مع المبدأ الذي انطلق منه الشيخ ابن تيمية، وهو أن مقاومة الغزاة واجب شرعي، بغضّ النظر عن انتمائهم الديني والمذهبي... فأنا مع المبدأ، وضد الفتوى... ثم قلت له ممازحاً أن موقف الشيخ ابن تيمية كان موقفاً قومياً من حيث المبدأ، وهو موقف صحيح بشرط أن يعمم على الجميع، دون تفريق أو تمييز... وفتوى الشيخ ابن تيمية إذا صحت نسبتها إليه، فإنها أولاً لا يمكن الأخذ بها بناءً على الحادثة التي أدت إليها، وإنما لا بدّ من تعميمها على الجميع، وفي هذه الحالة فإن الفتنة أدت فيما أدت إليه إلى أن كافة المذاهب الإسلامية دون استثناء ناصرت على التوالي غزاة من مذاهب معينة بينما قاومتها أخرى، فهل يقبل الجميع هذا التعميم..؟ هذا من حيث المبدأ، أما من حيث المضمون فإن ما جاء في الفتوى لا يصلح شرعاً أن يُطبق على أية جماعة من البشر استناداً إلى التربية الإسلامية.. ثم تابعت شرح وجهة نظري، وصولاً إلى اللحظة الراهنة، حيث قلت: اسمعني جيداً يا فواز، أنت تسعى لتحقيق الديمقراطية، أليس كذلك..؟ قال: بكل تأكيد.. قلت: تأكد تماماً أنه لا يمكن أن نصل إلى الديمقراطية بأي حال من الأحوال إلا إذا تخلصنا تماماً من مدارس الفتن والتكفير والإلغاء، ومن كل ما يترتب على ذلك من سلوك وأفكار.. لأن الديمقراطية نظام حكم لمجتمع يتساوى فيه الجميع، وعندما يكون المجتمع كذلك فإنه سينتج نظماً على شاكلته تتبادل فيه الجماعات الشكوى، وتتبادل فيه الظلم، وتتبادل فيه المظالم... هل تفهمني يا فواز..؟ قال: بكل تأكيد.. قلت: لهذا لا بدّ من الفرز بين الناس وفق مواقفهم، واختياراتهم الواعية، ووفق علنية المعرفة، وعلنية الأفكار... صدقني أن الناس تتناحر أحياناً على أوهام، تتناحر لأنها لا تعرف بعضها بعضاً، تتناحر لأنها لا تتصادق، تتناحر لأنها تتبادل التسلط والذل.. لهذا فإنني أقول لك أن جيلنا دفع ثمناً غالياً لأنه لم يحسم هذه المسائل الرئيسية، وجيلكم الآن يرث هذه المأساة.. فكونوا يا فواز أكثر حزماً وعزماً وعلماً ووعياً... وهذا يقتضي أن لا تتعاملوا مع التقسيمات بين المذاهب كحدود مقدسة، بل لا تتعاملوا معها كحدود أصلاً... لا بدّ من اختراقها لينهض المجتمع... وصدقني أن أي حديث عن ديمقراطية أو مجتمع مدني أو حوار لا يعالج هذه المسائل من الجذور، ويحدد منها موقفاً قومياً هو مجرد لغو لا طائل وراءه... ونحن كجيل، بعد أكثر من 1400 سنة على الرسالة، لا يعقل بعلمنا ووعينا أن نسلم بالتقسيمات التي أنتجتها الفتنة، أو وظفتها الفتنة، ولا يمكن إذا أردنا أن نبني وطناً، ونلحق بالعصر الذي يجري مسرعاً، أن نلغي عقولنا ونبقى نردد: قال فلان، وأفتى علان.. ونحن كجيل عربي مسلم يجب أن نتعمق في أصول الفقه، ونصيغ مذهبنا المعاصر في الإسلام بما يتفق تماماً ويتأسس تماماً على كتاب الله وسنة رسوله المسندة، وما عدا ذلك اجتهادات، اجتهدوا، ولنا أن نجتهد في هذا العصر وفق المصالح المرسلة للأمة... بذلك، وبذلك فقط نعيد للأمة العربية دورها كحامل جدير بحمل تلك الرسالة العظيمة من جهة، ثم لنعيد للرسالة ذاتها ألقها فنخرجها من حالة الطقوس والشكليات والبدع والتزييف، لنعيد إليها ألقها التوحيدي، وهو الجوهر الأساس... مقتدين بالسيرة العطرة لجدنا

العربي العظيم محمد بن عبد الله (ص) بصفاته العطرة كلها.. كرسول، ومبشر، ونذير، ومخطط استراتيجي، وباني حضارة، ومحطم للأصنام، ومحرر للعقول، ومحطم للقيود، وواضع للأسس العظيمة للمساواة وللدولة وللقضاء وللتشريع وللجيوش... في هذا السياق، وفي هذا السياق فقط، تأتي الصلاة والصوم والزكاة والحج، ولا تُختصر القضية بتلك الطقوس...
هكذا، هيأ الأمة، كحامل تاريخي للرسالة، وهكذا أدت الرسالة دورها في التشكيل القومي للأمة العربية...

161. عند هذه النقطة، ارتفع أذان المغرب.. كان فواز يستمع بانتباه شديد لما أقول.. قال لي: هل تصلي المغرب معي..؟ قلت له: سأفعل، لكن دعني أتفق معك على قضية.. هناك خمسة مذاهب رئيسية في الإسلام.. قال: بل أربعة.. قلت: يا فواز، إنهم خمسة، وحسب الترتيب الزمني هم كما يلي: الجعفري، المالكي، الشافعي، الحنفي، الحنبلي، نسبةً إلى الإمام جعفر الصادق، والإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أبي حنيفة النعمان، والإمام ابن حنبل.. وبدراسة متأنية لتلك المذاهب ستجد أن فقه هؤلاء الأئمة ينصب في الغالب على العبادات، وأحياناً المعاملات.. المهم، أنهم لم ينغمسوا بالفتنة والاقتتال الذي جرى بين المسلمين، وبالتالي فإنني أجزم أن لا علاقة لهم بالتقسيمات المذهبية القائمة الآن...
أما يا أخي، عدم اعتبارك للمذهب الجعفري كمذهب إسلامي، فإن ذلك في غير محله.. ودعني أسرد لك هذه الحكاية: عندما قامت الجمهورية العربية المتحدة بين سورية ومصر عام 1958، قال الرئيس شكري القوتلي للرئيس جمال عبد النصر، رحمهما الله، أنه يسلمه شعباً مختلف العقائد والمذاهب، وشرح له ذلك بالتفصيل.. فما كان من الرئيس جمال عبد الناصر إلا أن استدعى الشيخ العلامة محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر في ذلك الوقت، وطلب منه تفسيراً، فقدم الشيخ للرئيس تفسيراً وتقييماً للمذاهب الإسلامية في سورية.. فسأل الرئيس: وما هي المذاهب التي تعتمدون تدريسها في الجامع الأزهر..؟ فأجاب الشيخ: إنها المذاهب الأربعة.. فسأل الرئيس: والمذهب الجعفري يا شيخ محمود..؟ فأجاب الشيخ: هناك إهمال في هذا الشأن يا ريس.. (والحقيقة لم يكن إهمالاً، وإنما كان من آثار الحقبة العثمانية)، فقال الرئيس: لماذا لا تتداركون ذلك..؟.. وهكذا كان.. فقد أصدر الشيخ محمود شلتوت فتواه الشهيرة باعتماد المذهب الجعفري في الجامع الأزهر.. هذا على صعيد مؤسسة الأزهر.. أما على صعيد دولة الجمهورية العربية المتحدة فقد قررت الحكومة تخصيص /50/ منحة دراسية سنوياً على نفقة الدولة تُمنح لطلاب من الإقليم الشمالي ينتمون إلى مختلف المذاهب... ثم تابعت فقلت: تصور يا فواز، لو أن العربية المتحدة استمرت، واستمر هذا الحوار الشرعي الحضاري بين المذاهب.. أما كان كل شيء قد تغير الآن...

162. هنا أدركت أنني أرهقت زميلي في الزنزانة.. فحاولت أن أضع خاتمة للحديث، قلت: أما بالنسبة للصلاة، فأنا حقيقة أريد أن أصلي موحداً لا مفرقاً، وبالتالي لن أصلي على أحد المذاهب حتى لا يعاتبني الباقون، فهم سواسية بالنسبة لي.. قال: والحل..؟ قلت: عندما سنجتمع في سجن عدرا مع بقية المعتقلين، فنتفق على مذهب في الصلاة يجمع كل ما في المذاهب الخمسة معاً، أو نصلي الأوقات الخمسة كل وقت على مذهب من المذاهب الخمسة.. أو نجتهد فنبدع مذهباً جديداً يأخذ من كل المذاهب، ويضيف عليها... فهل توافق على ذلك..؟ قال: موافق.. قلت: اتفقنا.. وأخليت له بطانيتي لأنها كانت باتجاه القبلة...

163. هكذا قضيت مع العزيز فواز تللو ثمانية أيام على تلك الحالة.. تحدثنا في كل شيء.. كان إنساناً رائعاً، كان يحرص خلالها أن يصلي على بطانيتي، وأن يوقظني قبل أذان الفجر كي أُخلي له المكان، لأنه كان يريد أن يكسبني ثواباً.. كان يتلو بصوت عالٍ ما يحفظ من القرآن الكريم، ثم من الأدعية، وغالباً ما كنت أدعوه لذلك عندما يشتد القلق.. كان يستجيب فيقرأ حتى يلاحظ أنني خلدت للسكينة ونمت.. وكنت أطلب إليه ذلك عندما ألاحظ انه افتكر زوجته وأولاده، وامتلأت عيناه بالدموع...
هكذا كانت حياتنا في الزنزانة /ج2/.. تحدثنا في كل شيء، اقتربنا كثيراً من بعضنا البعض.. كان في الزنزانة لمبة كهرباء بدون مفتاح، إذا تركناها مضاءة تجلب الناموس، وإذا تحايلنا بأن نصل إليها كي نطفئها بأن نحركها من مكانها، كانت الصراصير تهاجمنا... اتفقت مع فواز أن لا نطلب شيئاً، ولا نسأل عن أي شيء.. القلق كان يتصاعد، فنحن لا نعرف لماذا أعادونا إلى فرع التحقيق..؟ لم يطلبنا أحد..؟! لم يسألنا أحد..؟! ما الأمر..؟ بعد مرور أربعة أيام على وجودنا في الزنزانة حضر رئيس الديوان، سألنا إن كنا نطلب شيئاً، قلت: لا شيء على الإطلاق.. فوجئنا به يطلب إدخال سريرين عسكريين إلى الزنزانة.. بات الوضع أفضل بكثير.. باب الزنزانة كان يُفتح أربع مرات يومياً، ثلاث مرات لإدخال الطعام، والرابعة كي نخرج إلى ساحة مغلقة من الجهات الأربع لكنها مفتوحة من السماء، فنتعرض للشمس بين 15 و 30 دقيقة يومياً...
كان الانتظار من جهة، والمجهول من جهة أخرى هو الهاجس المقلق.. عندما تمرّ الساعة الثالثة بعد الظهر، نقطع الأمل.. وننتظر اليوم الذي يليه إلى أن كان مساء يوم الخميس 2001/9/20.

الفصل السادس
السجن المركزي

164. كان الأمل بنقلنا إلى سجن عدرا المركزي قد انقطع بعد ظهر ذلك اليوم: الخميس 2001/9/20، وعلينا أن ننتظر إلى ما بعد يوم السبت على أقرب تقدير.. لكن، وحوالي الساعة التاسعة ليلاً من ذلك اليوم، فُتح باب الزنزانة فجأةً، ودخل رئيس الديوان، وقال: جهزوا أنفسكم.. ستُنقلون إلى السجن المركزي بعدرا... وبالفعل جهزنا أنفسنا، واستلمنا حاجياتنا.. ثم استأذنت بأن أصافح الجميع، وكان وداعاً مؤثراً، صامتاً، لكنه كان معبراً... وصعدنا درجات القبو برفقة عناصر حراسة، ثم استقللنا السيارة، وانطلقت بنا إلى سجن عدرا.. كان الهواء منعشاً، رغم أنني كالعادة في منتصف المقعد يحيط بي حارسان.. واحد من كل جهة... وبدأت الخواطر تتوارد.. الآن ستكون الظروف أفضل بكل تأكيد.. سألتقي بعد قليل الأعزاء: رياض الترك، وعارف دليلة، وكمال اللبواني، وحبيب صالح، ووليد البني، وحسن سعدون، كما سنجد طريقة للاطمئنان على الأعزاء رياض سيف ومأمون الحمصي.. وفواز وأنا.. هكذا أصبح عددنا عشرة...

165. تجاوزنا الباب المركزي للسجن، وانعطفت السيارة إلى باب جانبي خاص بالسجن السياسي داخل السجن المركزي.. توجهنا إلى غرفة مدير السجن السياسي، النقيب سامر البارودي.. حقيقة، كان في منتهى التهذيب.. قال: أنتم ضيوف عندنا.. سمعنا منه كلاماً جميلاً، ثم فوجئت بالتعليمات.. سأفترق عن فواز.. سأكون أنا في مهجع، وفواز في مهجع آخر... لكن لم نهتم لذلك، فقد اعتقدنا أن هذا إجراء مؤقت، وسنلتقي قريباً.. شكرت النقيب سامر على استقباله، وودعت فواز على أمل اللقاء.. وبرفقة المساعد أبو شادي توجهنا إلى المهجع بعد أن قال له النقيب: معاملة أخوية... هكذا، وبعد أن تجاوزنا ممراً عريضاً، وفي الطابق الأول، فوق الأرضي، وصلت إلى باب المهجع رقم /6/ حيث التقاني بالترحيب الشديد د. عارف دليلة، د. كمال اللبواني، ود. وليد البني... تعانقنا، كان التأثر واضحاً على الجميع.. طلبوا إليّ أن أستحم أو أتعشى.. قلت لا: دعوني أملّي عيوني منكم... جلسنا، طلبت فقط كأساً من الشاي...

166. هكذا بدأ اللقاء.. وبدأنا نتبادل الخواطر، ونحاول تقييم الموقف... علمت منهم أنهم لم يلتقوا الأستاذ رياض الترك، كما لا يعرفون شيئاً عن الأستاذين رياض سيف ومأمون الحمصي.. أما الأستاذين حبيب صالح وحسن سعدون فهما في ذات المهجع الذي بات يضم معهما رياض الترك وفواز تللو... علمت أيضاً أنه لا زيارات، ولا اتصال مع أحد، ولا راديو... اعتقدنا أن هذه الإجراءات قد تكون مؤقتة.. شرحت لهم موقفي من محكمة أمن الدولة، وأعربت عن اعتقادي بأننا أمام اعتقال سياسي، وكل ما عدا ذلك مجرد شكليات.. استمرت السهرة الجميلة حتى ساعة متأخرة من الليل، كان فيها من المناجاة وتبادل الهموم والأحلام للوطن.. أكثر من أي شيء آخر...

167. عندما خلدنا إلى النوم.. عادت إليّ الخواطر، عاندني النوم رغم الإرهاق الشديد.. استعدت مخطط تواجدنا نحن العشرة.. استعرضت وجوه المعتقلين واحداً واحداً... إنها حالة جديدة في بلادنا.. المعتقلون العشرة مختلفون في كل شيء تقريباً، فمن الناحية السياسية: ليبراليون واشتراكيون وقوميون وسلفيون.. ومن الناحية المهنية: محامون وأطباء ومدرسون ومهندسون واقتصاديون وأعمال حرة وعضوا مجلس شعب أحدهم صناعي والآخر أعمال حرة.. لكنهم جميعاً يتفقون على شيء واحد: الديمقراطية والحريات العامة والتعددية السياسية، ثم كل واحد منهم يريد ذلك لغاية تختلف عن الآخر.. ثم إنها تجربة بالغة الثراء، فقد اعتادت السجون أن تضم كوادر حزب معين، أو تيار معين، يدخلون جماعة، وغالباً يختلفون ويخرجون فرادى... الآن القضية معكوسة في قضيتنا، ندخل أفراداً نكاد لا نعرف بعضنا البعض، ونتحول شيئاً فشيئاً إلى جماعة تتفق على هدف وتختلف على أهداف.. تتعاون لتحقيق الهدف، وتحترم الاختلاف على الأهداف...

168. لقد أثبتت التجارب المرة أنه بدون حريات عامة، وبدون ديمقراطية، وتعددية، لن يستطيع أحد في هذا الوطن أن يحقق أهدافه أياً كانت هذه الأهداف، بل لا يستطيع أن يكون مواطناً... ولعلي أضيف أنه حتى السلطة بأجهزتها وحزبها، فإنها بدون هذا الجو الديمقراطي لن تستطيع أن تحقق أهدافها.. إذا كان لها أهداف غير السلطة... فالتفرد، لو تدري، ليس لمصلحتها هي أيضاً.. ففي ظل الديمقراطية والحرية سيكون الاستلاب سيد الموقف بالنسبة للجميع...

169. هكذا، كان لا بدّ أن ألقي نظرة على الأسرة والأصدقاء... سرحت مع أحلامي، ثم أسلمت نفسي للنوم في تلك الليلة الحافلة...

ثم تتالت الأيام برتابة بعد ذلك، وتبخرت الأحلام بأن ألتقي ببقية الأخوة المعتقلين حيث تمّ عزلنا تماماً في هذا المهجع، لا نخرج من بوابته قط.. حتى لم يُسمح لنا أن نتعرض للشمس.. كما لا زيارات، لا محامين، لا قرار اتهام، لا قرار ظن، لا محكمة، لا صحف، لا راديو.. فقط الصحف المحلية.

لكن، رغم ذلك، كانت دعواتي للصمود والهدوء تلقى استجابة في أغلب الأحيان، ذلك أن القلق مبرَّر من الجميع.. الانسجام هنا كان ممتازاً، حاولت أن أنظم المهمات داخل المهجع، فالعمل قسمة... نتابع من الشبك الحديدي المرتفع تواتر الليل والنهار.. يبدع كل على طريقته محاولة لإسعاد الآخرين.. ننظم منتديات فيما بين بعضنا البعض، نتابع إبداعات د. كمال اللبواني في الرسم أحياناً، وكذلك براعة د. وليد البني في استخراج المواقف الطريفة من الصحف، ود. عارف دليلة بحركته الدائمة... لن أسهب.. سأترك الحديث عن هذا المهجع لمن يكتب مذكراته... فقط أقول: أن العزلة والغموض سيدا الموقف..! لكن رغم ذلك.. فإنني أشعر أحياناً أن أعصابي هنا أقل توتراً مما كانت عليه... أشعر بالرضى.. لست نادماً على شيء.. أستذكر القاعدة الفقهية العظيمة: (دفع الضرر الأكبر بالضرر الأصغر).. لكن هل دُفع الضرر الأكبر فعلاً..؟ هذا السؤال الذي يكاد لا يغادر.. فالإحساس مستقر أن الوطن بخطر شديد...!!

أيها السادة،

170. عند هذا الحد سأضع حداً لهذه السلسلة من الأحداث التي تعقبتها حتى أنشرها بين أيديكم... هكذا وضعت نفسي بقدر ما أستطيع من الوضوح بين صفحات هذه المرافعة طالباً إليكم أن تدخلوا حتى إلى أحلامي، حتى علاقتي بأسرتي، بالأهل، بالأصدقاء.. لم أخفِ شيئاً عنكم... كما أنني على مدى عمري كنت واضحاً للجميع.. لقد أردت من ذلك أن أدير هذه المعركة مع مؤسسة الادعاء ومن هم وراءها بشرف... هذا ما عندي، فهاتوا ما عندكم.. وليبدأ الحساب.. فهل فعلها أحد قبلي..؟ هل سبق لأحد أن وضع حتى أحلامه بين يدي قضائه، وقال لهم: حاسبوني عليها كوقائع إن أردتم.. قال لهم: طالما أنكم لم تجدوا جرماً في الوقائع، فابحثوا عنه في الأحلام.. علكم تعثرون على ضالتكم...

171. قد تقولون أنني أستغل هذه المرافعة لتوجيه رسائل عديدة إلى أطراف عديدة، وإلى من يهمهم أمري، ويهمني أمرهم.. أقول إنني لن أنفي ذلك، ولن أؤكده.. لكن حتى لو ثبت هذا فهو ليس جرماً على أية حال، فمن حقي أن أحاول قهر عزلتي، وأن أفك الحصار بالطرق الممكنة.. ولن يكون مثلي في ذلك إلا كمثل الفارس العربي أبي فراس الحمداني الذي حمّل قاتليه رسالة تكشف لابنته الجريمة التي ارتكبها حاملو الرسالة بحقه: "ابنتي لا تجزعي..."، لا ليهرب من جريمة، ولكن ليكشف الجناة الذين يرتكبون الجرائم...

أيها السادة،

172. رغم كل ما ظهر من تهافت أركان هذه الدعوى، فإنني قد أواجه بسؤال من قِبل حضراتكم: لماذا لم أعالج موضوع الدعوى من الناحية القانونية، وأكفّ عن الاستعراضات السياسية، والأجواء المحيطة بالقضية..؟ هل تريدون ذلك فعلاً..؟

إذن لكم ما تريدون، وسأبدأ بالمعالجة القانونية وفق المخطط التالي:

أولاً: في دستورية هذه المحكمة.

ثانياً: في حقوقي كمحامٍ، وبطلان إجراءات الاعتقال.

ثالثاً: في قرار الاتهام.

رابعاً: في وقائع الدعوى، وأدلة الإثبات، ومناقشتها، ونفيها.

خامساً: في القانون.

سادساً: في النتيجة.

البـــــــــاب الثالث

محكـــــــــمة . . . !

الفصل الأول

تمهيدي

السيد الرئيس

السادة أعضاء الهيئة الموقرين

173 . لقد انقضى على كتابة الجزء السابق من هذه المرافعة ثلاثة أشهر ، كما انقضى على اعتقالي أشهر خمسة ، بذلت خلالها محاولات حثيثة للاطلاع شخصياً على ملف الدعوى . . لكن دون جدوى . . . فقد وجهت كتباً عديدة إلى محكمتكم الموقرة ، وإلى فرع تحقيق الأمن السياسي لتزويدي بصورة عن ملف الدعوة ، أو على الأقل قائمة مفردات بمحتوياته ، أو في الحد الأدنى لائحة الإدعاء ، أو في أدنى الحدود نسخة عن محضرَي استجوابي أمام فرع تحقيق الأمن السياسي ، وأمام النيابة العامة لمحكمتكم الموقرة ، لكنني لم أتلق جواباً ، ولا تبريراً لهذا التمنع ، فاستنجدت بالزملاء المحامين أرسل إليهم التوصيات بذلك ، لكنهم على ما يبدو لم يفشلوا في الاطلاع على الملف المذكور وحسب ، وإنما فشلوا حتى في إمكانية زيارتي ، والتشاور معي بخصوص الوضع القانوني لهذه القضية ، كما أن مؤسسة الادعاء المتمثلة بالنيابة العامة لدى محكمتكم الموقرة لم يصدر عنها (بعد خمسة أشهر من الاعتقال) قرار (اتهام) ، ولا حتى قرار (ظن) ، أو على الأقل لم أُبَلَّغ بذلك فقد تكون قد فعلت ذلك ، لكن مقامها لم يجد من الضروري أن أبلغ به . . . ! ! !

174 . أمام هذا الوضع الشاذ ، وجدت نفسي محاصراً في زنزانتي أمام خيارين ، إما الاستكانة لهذه الحالة ، وإما متابعة ما عزمت عليه من مخاطبة محكمتكم الموقرة عبر هذه المرافعة .. واعترف ابتداءً ، أنه إذا كانت الغاية من حالة الحصار هذه تتمثل بالحيلولة بيني وبين توضيح موقفي حيال هذه القضية المتعلقة بشخصي ، بعد أن حيل بيني ، وبين الدفاع عن أصدقاء وأخوة أعزاء ، فإنني قررت مواجهة هذه الحالة . . وبالحدود الممكنة ، رغم أنني كنت أتوق فعلاً أن يكون هذا الباب من المرافعة شاملاً ملف القضية للإحاطة بكافة الجوانب القانونية المتعلقة بها ، بعد أن كنت قد أرهقتكم في الفصول السابقة بالحديث عن الظروف المحيطة بها .. وبما أن هذه الإحاطة القانونية كانت تتطلب مناقشة الأدلة ، والإدعاء ، والتكييف القانوني ، وبما أن ذلك كله لم يتوفر لي ولا للزملاء المحامين ، فإنني سأعتمد مضطراً على ما احتفظت به هذه الذاكرة ، التي شاخت، من الاستجواب ، سواء أمام فرع التحقيق التابع للأمن السياسي ، أو أمام النيابة العامة لدى محكمتكم الموقرة ، فالضرورات تبيح المحظورات .

175 . فمن المحظورات في علم المرافعات القانونية أن تمسك قلماً لتخط الحرف الأول في أي دفاع كان ،قبل التدقيق والتمحيص والإحاطة بلائحة الإدعاء ، والتكييف القانوني ، ومن ثم الأدلة ، و (قرار الاتهام) ، أو (قرار الظن) لكن لاحيلة لي في ذلك كما أسلفت . . . فإذا أضفنا إلى ما تقدم ، عدم توافر النصوص القانونية ، والتشريعية ، والاجتهادات القضائية ، حتى الدستور الذي اتُّهمت بخرقه طلبته كي أعرف كيف يمكن أن يُخْرَق بالضبط .. لكن ورغم أن أسرتي قد أحضرته فقد تم حجزه من قِبَل إدارة السجن وألقي به في زنزانة منفردة على ما يبدو . . . ! ثم طلبت ، قانون تنظيم مهنة المحاماة على الأقل كي أعرف ما هي حقوقي كمحام ، وكيف انتُهكت . . . لكن مرة أخرى لا سبيل إلى ذلك . . . ورغم هذا كله سأمضي في هذه المغامرة إلى غايتها،ستنجدني ذاكرتي بما تبقى لها من مقدرة ، ولو كانت محدودة ، معتمداً على ما وفرته مكتبة السجن مشكورة ، رغم أنه كان قليلاً ، قليلاً . . .

176 . أردت مما تقدم أن أعتذر من هيئتكم الموقرة ، عن بعض القصور الذي قد يبدو في الإسناد القانوني للنصوص بحرفيتها ، فلعل المحكمة تأخذ هذه الظروف الخاصة الاستثنائية التي أحاطت بكتابة هذه المرافعة بعين الاعتبار.. فنحن لسنا أمام محكمة استثنائية وحسب على ما يبدو ، ولكننا بمواجهة ظروف كل ما فيها استثنائي للأسف الشديد . . . ثم أنني ربما أردت من وراء هذا التوضيح أن أبرر لنفسي العجز عن توثيق ، وإسناد هذا الباب من المرافعة الذي ، ربما ، كنت طامحاً من خلاله أن ألبي رغبة دفينة للخوض والبحث في قضايا مصيرية ، ومنظومات قانونية ، طالما انتظرت الفرصة السانحة كي أقول فيها رأياً ، أجهر به علني أساهم بجهد متواضع للحوار حولها ، وبالتالي معالجتها على أوسع نطاق ، والتحريض على إيجاد حلول لإشكاليات تنتظر من يجتهد فيها بكلمة حق . . .

يترتب ، على قلة الحيلة هذه ، أن فصول هذا الباب ستكون مختصرة ، والمعالجة ستكون في حدودها الدنيا ، والنص سيكون غائباً أكثر الأحيان ، لكن عذري أن هذه المرافعة ، على وضعها الراهن ، كانت الخيار بين الكلمة المتاحة ، والصمت القاتل ، فاخترت الكلمة . . .

177 . دعوني أخفف قليلاً من جمود ، وتجهم هذا النص ، فأحدثكم قليلاً عن التاريخ ، ولو كان الحديث سيتناول فترة مظلمة ومأساوية منه ... سأحدثكم عن محاكم التفتيش التي انطلقت من الأندلس لملاحقة العرب ، إثر الهزيمة التي ألحقوها بأنفسهم .. فبعد أن نكلوا بأنفسهم هناك كان عليهم أن يستعدوا للتنكيل القادم من الآخر . . يقول التاريخ أن (الدون ألفونسو ماتريك) كبير المفتشين لدى محاكم التفتيش،كان يأخذ بالشبهة في الحكم على أي عربي حتى لو أعلن اعتناقه للكثلكة .. فبينما كان البابا يحثّ رجال التفتيش ، والقضاة على إجبار العرب على اعتناق الكاثوليكية ، وتحويل المساجد إلى كنائس ، كان المفتشون وقضاة محاكم التفتيش يلاحقون هؤلاء الذين يستجيبون لتلك الدعوة يفتشون في ضمائر الذين أعلنوا اعتناقهم الكاثوليكية ، عن بقايا عادات عربية .. فإذا أوثق رجل ذبيحة قبل ذبحها ، أو إذا رفض أن يأكل من لحم ذبحته امرأة ، أو إذا ضُبط صائماً ، أو إذا أنشد أغاني عربية ، أو إذا أقام حفلات للرقص والموسيقى العربية، فإن أي نشاط مما تقدم كاف كدليل قاطع على الإدانة والتجريم والنفاذ ، حرقاً أو إعداماً أو سجناً أو تعذيباً أو نفياً . . .ورغم كل هذا فإن محاكم التفتيش تلك لم تطمئن إلى النتائج ، فصدر قرار النفي الشهير بتاريخ 22 / 9 / 1609 ، الذي اعتبر أن كل الذين اعتنقوا الكاثوليكية من العرب دون استثناء ، هم أعداء الله والدين والوطن ، وأن لهم اتصال بأعداء إسبانيا ، وأن اعتناقهم للكثلكة ليس صحيحاً بل ومشكوك فيه ، ولهذا يجب طردهم . . وأنه يجب أن يغادروا إسبانيا نساءً ورجالاً وأطفالاً ، في ظروف ثلاثة أيام ، وجزاء من يتخلف الموت.. وصرح لهم ، أن يأخذ كل واحد منهم ما يستطيع حمله من متاع فوق ظهره ، وتوعد قرار النفي كل إسباني يخفي عربياً اعتنق الكاثوليكية بالأشغال الشاقة مدة ست سنوات ، ثم أُرْسلت الأوامر إلى صقلية ونابولي وميلانو، لإعداد السفن للترحيل . .

178 . نشير هنا إلى أن تلك الإجراءات كانت خاصة بأولئك الذين أعلنوا جهاراً نهاراً ، تخليهم عن عروبتهم وعن إسلامهم ، وباتوا يمارسون طقوس الكثلكة بحذافيرها، وتخلوا عن لغتهم العربية ، وتخلوا حتى عن أسمائهم ، وأسماء عائلاتهم ، واتخذوا لأنفسهم أسماءً جديدة لا تمت إليهم ، ولا يمتون إليها بصلة.. ورغم ذلك فإن محاكم التفتيش قد اكتشفت في ضمائرهم بقايا من عروبة يستحقون عليها كل هذه العقوبات ، بدءاً بالحرق والإعدام ، وانتهاءً بغرف التعذيب والزنازين ، وأخيراً النفي الجماعي . . بينما العرب الآخرون كانوا قد ولوا الأدبار ، أو قتلوا قبل ذلك . . .

179 . لقد انتفخ القضاة والمفتشون لدى محاكم التفتيش نشوةً وفخراً بما صنعت أيديهم ، ونالوا إعجاب السادة هناك فانتشرت محاكم التفتيش في فرنسا وإيطاليا وألمانيا وفي مملكة الأرجوان وبلاد البرتغال ، ووسعت من اختصاصاتها فشملت ملاحقة أتباع مذهب (مارتن لوثر) ، ومن ثم المفكرين الأحرار .. وطالت محارقهم وغرف التعذيب، العلماء والمفكرين والفلاسفة أمثال ، العالم الفلكي(جوردا نوبرونو) والعلامة الفلكي (دولت) والمفكر والفيلسوف (فيانيني) والعالم (دميان دي كيز) والمفكرة الحرة السيدة (هابيتا) والكونت الفيلسوف (جوماني بيكود) والعالم (جاليليو) الذي تجرأ وقال بدوران الأرض، وإلى آخرهم . . . !

180 . وإذا كان هؤلاء جميعاً من العرب، ومن غير العرب،من العلماء والمفكرين والفلاسفة والمواطنين الأحرار قد دخلوا التاريخ من أبواب علومهم ، وأفكارهم وفلسفاتهم ، ونزوعهم الإنساني إلى الحرية، فإن قضاة محاكم التفتيش والمفتشين من أمثال:(توركويماد) و(ديزا) و(سيزنيروس) و(نلوير نسيو) و(مازيكي) و(تاليو) و(لوايزا) ، قد دخلوا التاريخ أيضاً لكن من أبواب أخرى ، سأترك لكم أمر تسميتها . . .

181 . فقط أريد أن أقول من وراء ذلك ، أن جيلاً كاملاً من المتنورين في أوربا ذاتها ، استخلص العبر من ذلك ، واعتبر أن تلك المحاكم نقطة سوداء في تاريخ بلدانهم .. وأريد أن أقول ثانياً ، أن التاريخ الإيجابي للبشرية غالباً ما يصنعه سجناء الضمير والرأي.. أما ما يقترفه السجانون من جرائم ضد حقوق البشر في الحرية ، فإنه يدخل في سجل الأحداث الآنية الطارئة التي تحاول الأجيال اللاحقة أن تتخلص حتى من ذكراها .. وأريد أن أقول ثالثاً ، أن الإنسانية تستطيع أن تتجاوز المآسي والمظالم والمحارق والمذابح ، ولعلي شعرت بالانتعاش هنا في زنزانتي من مقال للكاتب الإسباني (ميشيل ديل كاستيلو) الحائز على جائزة (دينودو) الأدبية عام 1981 يقول فيه : (أنا مسلم) ، ويضيف : (لست أمريكياً ، ولم أكن ذات يوم أمريكياً ، ولن أصبح ذات يوم أمريكياً .. أنا أوروبي من الجنوب ، نصفي أندلسي ، أي نصفي مسلم وأعرف جيداً ما تدين به قارتنا العجوز للإسلام الأسباني ، ولا سيما العودة إلى العقل اليوناني) ، وإذا كان هذا ما يقوله (ميشيل ديل كاستيلو) المتحدر من أب فرنسي وأم أندلسية، بعد أكثر من خمسمائة عام على مذابح محاكم

التفتيش وغرف التعذيب ، فإن علينا أن نتوقع الكثير من أحفاد أولئك الأندلسيين . . . فهل يكفي هذا جواباً على السؤال ، أيهما يمكث في الأرض . . .؟!

182 . هذا من الماضي فماذا في الحاضر . .؟
إن العالم اليوم يزهو مفتخراً بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صدر بتاريخ 10 / 12 / 1948 ، لكن الإنسانية مازالت تتلمس طريقها لوضعه موضع التنفيذ والإلزام والالتزام ، وحتى الآن لا تعرف كيف نفعل ذلك ... ؟
تنص المادة الأولى من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان : (يولد جميع الناس أحراراً) ، ولهذا فإنني أود مخاطبة الجيل الجديد من أبناء أمتنا عبر محكمتكم الموقرة ، فأقول : إن حقوق الإنسان من خصائصنا ، ومن أخص خصوصياتنا ، وأن جدنا الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب كان قد قالها بأوضح ما تكون منذ حوالي 1400 سنة عندما شكى إليه عربي قبطي من مصر مظلمة ، لدى الوالي عمرو بن العاص فكتب إلى الوالي محذراً : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً !) .

183 . هكذا ، عندما توفرت الإرادة مع العدل مع الحزم ، نعمت دولة الخلافة الراشدية الثانية بالأمن والاطمئنان ، لأن للمظلوم من ينصفه ، وللظالم من يردعه . . . وعلى العكس من ذلك ، عندما جوبه المظلومون بتهديدات الظالمين ووعيدهم ، فلم يعثر المظلومون على من ينصفهم ، ولم يواجه الظالمون بمن يردعهم ..عمت الفوضى عاصمة دولة الخلافة الراشدية الثالثة فانتهت بالمأساة المعروفة.. ولعله من المفيد أن نستذكر أن حاكم المدينة الأمني في ذلك الوقت مروان بن الحكم خرج إلى الناس يتهددهم ويتوعدهم ويغلق سبل الحوار والتفاهم ، ثم عندما وقعت الواقعة ترك المدينة والخليفة الراشدي الثالث لمصيره المأساوي بينما حاول جدنا الآخر علي بن أبي طالب أن يفتديه بولديه الحسن والحسين رغم أنه كان ينصح بالحوار والإصلاح ورد الظلم عن الناس دون أن يستمع إليه أحد . . .ثم ، وبعد أن وقعت المأساة ،لم يتأخر هو الآخر في أن يدفع حياته في ملحمة مأساوية أخرى لأن الفساد كان قد هيأ أسباب الفتنة والخراب ، فانتقلنا من الخلافة الراشدة إلى حكم العائلات التي توالت في توليد البلاء .. فضاعت العاصمة ، وبات ينقلها كل سلطان إلى حيث يريد ، وضاعت حواضر العرب مرة أخرى ، وباتت هذه الأرض الطهور نهباً للغزاة من جديد، فتعاقبوا يحصدون هذه الأجيال العربية جيلاً بعد جيل ، وحتى أيامنا الراهنة . . . !

184. أريد من ذلك كله أن أقول بأوضح ما يمكن لهذا القلم أن يعبر عنه ، أن الحرية وحقوق الإنسان والعدالة والمساواة، هي من أخص خصوصيات النهضة والمجد الذي تحقق في تاريخنا، وأن الظلم والتعسف والفساد، هو من أخص خصوصيات الانحطاط والتخلف الذي تحقق في تاريخنا أيضاً ....
فبأي الخاصتين تحكمون ...؟!

185. وهكذا أيضاً فإن الحديث عن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي من المفترض أن يكون ملزماً للدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة ، يكتسب أهمية خاصة في واقعنا العربي .. خاصة، وأن دول الهيمنة التي سيطرت على النظام العالمي بعد الحرب العالمية الثانية تعاملت معه بشكل ذرائعي زائف ومشبوه، مما يحتم علينا نحن العرب أن نتعامل مع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بأصالة وحرص، تتناسب مع الأصالة الإيجابية التي ننشدها لأنفسنا وللإنسانية جمعاء، لمواجهة أشكال العدوان بكافة صورها على الإنسانية والإنسان في كل مكان من هذا الكوكب، وخاصة في وطننا... وإذا كانت عمليات العدوان على الشعوب تغلّف بالشرعية الدولية، والقانون الدولي، وحقوق الإنسان، ومحاربة الإرهاب، وحرية الثقافة، وبالعولمة، وإلى آخر تلك المصطلحات التي يحاولون إفراغها من مضامينها الحقيقية، واستخدامها لتحقيق مضامين معاكسة ... فإن مواجهة ذلك كله، لا تكون بأية حال من الأحوال بالتنصل من حقوق الإنسان والشرعية الدولية، وحرية الثقافة الإنسانية، وإنما على العكس من ذلك تماماً، علينا الآن أن نعرف كيف نتمسك بحقوق الإنسان حقيقة، وكيف نحقق الشرعية الدولية موضوعياً، وكيف تزدهر الثقافة الإنسانية حركة وإبداعاً .... ثم علينا أن نعرف كيف ننهض بواقعنا لنساهم في نهوض عالمي لبناء نظام عالمي جديد فعلاً، مناقض لنظام المعايير المزدوجة، والاستغلال والسلب والنهب .. فهذه الأمة – رغم حالة الانكسار الراهنة – مرشحة لأن تكون مرة أخرى، الحامل الحقيقي للنهضة والتنوير ، كما حملت للعالم حضارات وثقافات ورسالات غير منكورة من أحد، بل تدين بها أكثر من ثلاثة أرباع البشرية في مغربها ومشارقها .....

186 . من هنا أرى أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان هو بعض من نتاج حضارتنا، وإذا كانت قوى الهيمنة الدولية تخترقه بلا رادع، فإن من واجبنا احترامه والتمسك بنصوصه ونواميسه، بدون انتقاص .. فهل يكفي هذا للرد على ذلك النفر الذي ينعق هذه الأيام صبح مساء، بأن كل حديث عن الحرية والعدالة والمساواة وحقوق الإنسان والديمقراطية، هو حديث مستورد وحرام، يتنافى مع خصوصياتنا التي لا يتناسب معها إلا الحديث عن الاستبداد والقهر والظلم والفتن .. ألا

فليصمت أولئك الناعقون الذين يستوردون كل شيء من ربطات العنق إلى رباطات الأحذية ..فحرية للشعب هي التي تطلق طاقاته فيحقق الكفاية ويستغني عن الاستيراد، وينتقل للتصدير، والتبادل على صعيد الثقافات، والسلع والحاجات، ويحصّن نفسه في مواجهة عوامل الاختراق، وسموم التغريب، ومعاول التخريب .... هل يكفي هذا لنطالب بالحرية والديمقراطية ...؟ ... هل يكفي هذا لنقول أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، إذا كان ملزماً للدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة، فإنه بالنسبة لنا حاجة وضرورة قبل ذلك وبعده ..لذلك من المفترض أن يكون هذا الإعلان محوراً للقرارات والإجراءات التي تصدر عن محكمتكم حتى ولو كانت استثنائية، بل على الأخص لأنها استثنائية ..لذا أرجو من الزملاء المحامين أن يرفقوا مع هذه المذكرة، النص الكامل للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وأن يضعوا خطوطاً حمراء إشارةً للفقرات الهامة والأساسية .. فقد آن الأوان لهذا الشعب أن يحدد خطوطه الحمراء، ليدرك الجميع أن للشعب خطوطه الحمراء الواجبة الاحترام، وأنه ليس لأحد غيره، أياً كان، ومهما تكن صفته وموقعه، أن يقيّد الشعب بسلاسل من الخطوط الحمراء .... فماذا يقول الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ..؟ المادة (19) منه تنصّ على أن لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء بدون أي تدخل .. والمادة (20) تنص على أن لكل شخص الحق في حرية الاشتراك في الجمعيات، ولا يجوز إرغام أحد على الانضمام إلى جمعية ما .. والمادة (21) منه تنص على أن لكل فرد الحق في الاشتراك في إدارة الشؤون العامة لبلاده، وأن إرادة الشعب هي مصدر سلطة الحكومة، ويعبر عن هذه الإرادة بانتخابات نزيهة .. وإذا عدنا إلى المادة (2) منه نجد نصاً صريحاً على أن لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في الإعلان دون أي تمييز .. والمادة (5) تنص على أنه لا يعرَّض أي إنسان للتعذيب، ولا للعقوبات، أو المعاملات القاسية أو الوحشية، أو الحاطة بالكرامة .. والمادة (7) منه تنص على أن كل الناس سواسية أمام القانون، ولهم الحق في التمتع بحماية متكافئة منه دون أي تفرقة .. والمادة (8) تحّمل المحاكم الوطنية مسؤولية إنصاف المواطن الذي تتعرض حقوقه الأساسية للاعتداء .. والمادة (9) تمنع القبض على أي إنسان أو حجزه، أو نفيه تعسفياً .. والمادة (10) تعطي كل إنسان الحق على قدم المساواة التامة في أن تُنْظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة، نظراً عادلاً علنياً للفصل في حقوقه والتزاماته .. والمادة (11) منه تعتبر أن كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئاً إلى أن تثبت إدانته قانوناً بمحاكمة علنية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع عنه .. والمادة (12) تمنع أن يتعرض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة، أو أسرته، أو مسكنه، أو مراسلاته ....

هل لي أن أسأل بعد ذلك ، مع أي من خصائصنا تتعارض مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، وماهي الخصائص والخصوصيات التي يجب أن نحصنها، وندافع عنها ..؟ ثم، نعود إلى محكمتكم الموقرة، فنسأل : هل تم التزام هذه الحدود ؟ وهل تلتزمها الأجهزة الأمنية الأخرى ..؟!

187 . لا أعرف حقيقة، إذا كان يكفي للجواب على ذلك، أن أقول لكم ما تعرفونه من أنني، وبعد خمسة أشهر من اعتقالي أضطر لكتابة هذه المرافعة إلى مقام محكمتكم الموقرة من الذاكرة، فليس لدي (قرار اتهام) استند إليه، وليس لدي (قرار ظن) أناقشه، وليس لدي لائحة إدعاء أعرف منها بماذا يُدّعى علي ....حتى أنني لا أعرف ما هي الأدلة التي يتضمنها ملف الدعوى، وغير متاح لي أن اتصل بالزملاء المحامين، كما أن المراجع القانونية غير متاحة .. هل يكفي للتدليل على مدى التعسف الذي يحاصرني أن أقول : أنني قررت متابعة كتابة هذا الباب من مرافعتي ، وكأنني ألاحق الأشباح ، كما لاحقتهم في البابين الأول والثاني من هذه المرافعة بحثاً عن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء اعتقالي ....؟!

188. لكن، ورغم ذلك كله، أقول لكم بكل الاحترام والتصادق، أن صدري لم يضق بكم، فأرجو أن لا تضيق صدوركم عن تلمّس ما تتضمنه هذه المرافعة من دعوة للحرية والإنصاف، والعدالة والمساواة، وما تختزنه من أنين وحرص وتحذير .... ثم سأترك لخيالاتكم أن تتجول في الاتجاهات كافة تفسيراً وتمحيصاً في البحث عن النوايا والمقاصد، لأنني أعرف أنكم لن تجدوا إلا تلك الدعوة الصادقة للحوار، وللكلمة السواء لتهيئة أسباب النهضة .... ثم ستجدون أنني في نهاية المطاف مستعد لمواجهة كل ما تصل إليه قناعاتكم، أو حتى القناعات التي قد تُفْرَض عليكم، بنفس راضية سمحة .. وصدقوني أن منطوق الحكم الذي سيصدر عن محكمتكم الموقرة ليس غايتي من هذه المرافعة، وإنما أنا الذي أبحث هذه المرة في ضمائركم وقناعاتكم عن كلمة حق تساهم في بناء الوطن ، وبناء الإنسان ، وبناء المجتمع القادر على الانطلاق والتطور، فهذا أهم لدي من أي اعتبار آخر، حتى أنه مقدم لدي على موقف عادل يحررني من هذه القضبان التي تحيط بي .... لذلك فإنني أحدثكم وعيني على الوطن ..هذا لا يعني أنها غافلة عن واقع السجن الذي أعيشه، لكن أيام السجن ستمضي، وقد تحمل بعض الذكريات الجميلة .. والقضاء لن يخطئ طريقه على أية حال سواء كنا في قصور مشيدة أو في سجون موصدة أو في أكواخ متهاوية ....لكن الضمائر والقناعات والمواقف والكلمة الحرة الصادقة ..هذه ، أيها السادة تبقى ، وتمكث في الأرض ، ليس لكلينا فقط ، وإنما قد تنتفع بها الأجيال القادمة ...من أمة لا تستحق كل هذا الذي يجري بها ، ولها ...ولا يستحق بطن وطنها أن يُستَباح بهذه النذالة، ولا تستحق أن يسكنها كل هذا الفساد، ولا تستحق سماؤها، وبحارها أن تُلوّث بكل أولئك الأعداء ، وبكل هؤلاء الذين يلعقون أحذيتهم ...!!!

الفصل الثانـــي

في دستوريــة المحكـمة

189. غني عن القول، ابتداءً، أن مناقشة دستورية هذه المحكمة، وموقفنا من عدمية أو بطلان قراراتها وإجراءاتها، لا يتعلق بأي حال من الأحوال بذوات الشخوص الطبيعية الكريمة لهيئتكم الموقرة ، ذلك أن ما سنقوله في هذا الفصل يتعلق بمشروعية هذه المحكمة موضوعياً، ككيان اعتباري، بغض النظر عن هيئتها ، هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى فإنني كنت أرغب حقيقة أن تكون بين يدي الآن تلك الدراسة الهامة التي كتبها الفقيه المرحوم نصرت منلا حيدر رئيس المحكمة الدستورية العليا، عن دستورية هذه المحكمة .. تلك الدراسة التي نشرت في مجلة المحامون في حينه، وكنت قد التقيت الفقيه الأستاذ نصرت منلا حيدر بعد نشر تلك الدراسة، ودار بيننا حوار، ذو مغزى، حيث أعربت عن إعجابي بتلك الدراسة، ثم تساءلت ممازحاً : أنتم من الذين يُشْكى إليهم مثل هذا الأمر بحكم منصبكم، فإذا بنا نجدكم تشكون ....!! ضحك، رحمه الله، كما لم يفعل من قبل، وقال : اطمئن، ستتم المعالجة، لكن القضاء كان أسبق .....على أية حال قد تكون مناسبة الآن أن أذكره، رحمه الله، لأنه لم يكن فقيهاً وحسب، وإنما احتفظ بملامحه في زمن صعب، وهذا هو الأهم.. أما المهم الآن فإنني أرجو من الزملاء المحامين أن يرفقوا مع هذه المرافعة ، تلك الدراسة الهامة، لوضعها بين يدي هيئتكم الموقرة ، علكم تستفيدون منها ....!

190. ثم ، لابد عند البحث عن دستورية هذه المحكمة، أن نعرج على الظروف التاريخية لنشأتها . ففي ظل ظروف عاصفة، شديدة الاضطراب، أعقبت فصل الإقليم الشمالي عن الجمهورية العربية المتحدة، صدر المرسوم التشريعي رقم / 51 / تاريخ 22 / 12 / 1962، والذي تضمن فيما تضمنه إعلان قانون حالة الطوارئ، وحصر الاختصاص بالقضاء العسكري . وفي الثامن من آذار عام 1963 صدر عن مجلس قيادة الثورة الأمر العسكري رقم (2) القاضي بإعلان حالة الطوارئ في جميع أنحاء الجمهورية العربية السورية اعتباراً من تاريخه .ثم صدر المرسوم التشريعي رقم / 6 / تاريخ 7 / 1 / 1965 القاضي بإحداث المحكمة العسكرية الاستثنائية ، وقد منحت الاختصاصات التي كانت ممنوحة للقضاء العسكري بموجب قانون الطوارئ ، ثم صدر المرسوم التشريعي رقم / 47 / تاريخ 28 / 3 / 1968 بإحداث محكمة أمن الدولة العليا، وإلغاء المحكمة العسكرية الاستثنائية، ونقل جميع الدعاوى التي هي قيد النظر لدى المحكمة العسكرية الاستثنائية الملغاة بحالتها الحاضرة إلى محكمة أمن الدولة العليا المحدثة .

191 . إن التدقيق في تلك الظروف التي أُحْدِثت فيها هذه المحكمة، يوضح مدى الاضطراب والتناقض الذي مرت به البلاد .. ثم، ورغم أن مجلس قيادة الثورة الذي أعلن حالة الطوارئ قد أُلغي، ومجلس الرئاسة الذي أحدث محكمة أمن الدولة العليا قد أُلغي أيضاً، فإن حالة الطوارئ قد استمرت، ومحكمة أمن الدولة العليا كذلك، رغم إعلان دستور دائم للبلاد نافذ منذ عام 1973، بات المرجع الأساسي للقوانين والأنظمة والمراسيم .فالدستور، بمجرد نفاذه، يلغي كافة القوانين والمؤسسات والتشريعات التي تتعارض مع أحكامه، وتنتهي على الفور صلاحيتها .. فالدستور هو الأب الشرعي الوحيد لكافة القوانين والأنظمة والتشريعات في البلاد، وهو المقياس الوحيد.. ما يتطابق معه مشرع، وما يتعارض مع أحكامه معدوم .... وعندما تختل هذه القاعدة الدستورية بأي شكل من الأشكال، فإن هذا يعني أن خللاً خطيراً قد انتاب المنظومة القانونية في البلاد، وأن الشرعية الدستورية باتت مهددة تهديداً شديداً بالخطر الجسيم .

192 . وهكذا ، فإنه مع نفاذ الدستور الدائم عام 1973 كان يُفترض على الفور إلغاء محكمة أمن الدولة العليا، ونقل اختصاصاتها إلى القضاء المختص، أو تعديل المرسوم التشريعي رقم / 47 / تاريخ 28 / 3 / 1968 بما ينسجم ولا يتعارض مع مواد الدستور الدائم، أو إحداث محكمة جديدة باسم جديد، وفقاً لأحكام الدستور الدائم، إذا كان هناك ضرورة لذلك، ذلك أن الدستور الدائم قد نص صراحة على أن لكل مواطن الحق في أن يُحاكم أمام قضاء عادل ، وأن يكون له حق الطعن في الأحكام التي تُصدر ....!

ومحكمة أمن الدولة العليا باتت تتناقض مع هذا النص الصريح في الدستور اعتباراً من نفاذه عام 1973، ليس فيما يتعلق بالأحكام النهائية التي تصدر عنها وحسب ، وإنما أيضاً منذ اللحظة الأولى حيث تعتبر قرارات النيابة العامة لدى محكمة أمن الدولة العليا (بالاتهام) أو (بالظن) قطعية غير قابلة لأي طريق من طرق الطعن.. كما أن المادة (8) من المرسوم التشريعي رقم / 47 / تاريخ 28 / 3 / 1968 المتعلق بإحداث محكمة أمن الدولة العليا قد

نصت صراحة أنه : " لا يجوز الطعن بالأحكام الصادرة عن محكمة أمن الدولة العليا "، فهل يجب أن يخضع الدستور للمرسوم / 47 / تاريخ 28 / 3 / 1968، أم أن المرسوم المذكور يجب أن يُلغى أو يُعدل بما يتناسب مع الدستور الدائم ......؟!

193 . لعله ، يخطر لكم، أنني أثير هذه المسألة كرد فعل لتوجيه الاتهام لي بأنني أخرق الدستور، فأردت أن أقول : "أن مجرد وجود محكمة أمن الدولة العليا هو خرق للدستور " ، حقيقة لم يخطر هذا لي من قريب أو بعيد، بل اعترف أن هذه المسألة كانت تشغلني قبل اعتقالي، حيث تابعت التشريعات الحديثة بقدر ما أتيح لي، علني أعثر على نص قانوني في تشريعات الدول الحديثة يضع الإدعاء والاتهام في يد واحدة، ثم يعتبر القرارات الصادرة عنها قطعية .. فالنائب العام لدى محكمة أمن الدولة العليا، هو ممثل الحق العام في الإدعاء، وهو قاضي التحقيق، وهو قاضي الإحالة، وهو محكمة النقض، في الوقت ذاته، حتى أن حالة التندر الشعبية التي يعبر فيها أجدادنا عن الاستنكار للجمع بين الادعاء والقضاء، عندما قالوا : فيك الخصام، وأنت الخصم والحكم، تصح تماماً في النائب العام لدى محكمة أمن الدولة العليا ... لهذا فإنني، وبموجب وكالتي للزملاء المحامين ، فإنني أفوضهم لوضع هذه الفقرة من مرافعتي بتصرف المحكمة الدستورية العليا، وإنني أفوضهم بتحريك الدعوى أمامها، وباسمي الشخصي، للبت في دستورية محكمة أمن الدولة العليا .

194 . لقد استقر الفقه القانوني على تحديد أركان الدولة بأنها : 1 – الوطن ، 2 – الشعب ، 3 – السلطة .. وهذا يعني أن السلطة ليست هي الدولة، وإنما السلطة هي مجرد ركن من أركان الدولة، وهي الركن الثالث .. بمعنى أن ركني الوطن والشعب سابقين على السلطة، بل أن الفقه القانوني أجمع على أن الشعب هو الركن الأساسي للدولة، فالشعب هو مصدر كل السلطات ، وليس العكس . يترتب على ذلك أن محكمة أمن الدولة، إذا أرادت حقاً أن تُعْنى بأمن الدولة، فإن عليها أن تُعْنى أولاً، وقبل كل شيء آخر بأمن الشعب، وأمن كل مواطن فيه، وأن تمنع كل تجاوز على حقوقه الأساسية، من أي مصدر كان .

هذا كله ، وقضايا فقهية ملحة ، تجعل من إعادة النظر في المرسوم / 47 / تاريخ 28 / 3 / 1968 القاضي بإحداث محكمة أمن الدولة العليا، قضية هامة وعاجلة لابد من البت فيها في أسرع وقت ممكن ...!

الفصل الثالث

الحقوق والإجراءات

195 . سأحاول في هذا الفصل أن أتجنب الحديث عن الحقوق التي من المفترض أن أتمتع بها كمواطن أولاً، وكمحام ثانياً، لأنني أشرت إلى ذلك في فقرات سابقة من جهة، ولأنها قضية عامة يجب بحثها في إطارها العام الشامل .. كما أنني لن أقف طويلاً عند ما استقرّ عليه القضاء من اعتبار أن الاعتداء على المحامي كالاعتداء على القاضي، وسأكتفي فقط بقرار الهيئة العامة لمحكمة النقض الذي أكد الالتزام بقانون المحاماة حيث جاء فيه : " لما كان قانون مزاولة مهنة المحاماة قد نصّ على معاقبة المعتدي على المحامي أثناء ممارسة مهنة المحاماة، وبسببها، بالعقوبة التي يعاقب بها فيما لو كان الاعتداء على قاض " – نقض سوري – هيئة عامة 14 تاريخ 27 / 4 / 1981 .

ولن أقف طويلاً عند الاجتهاد الآخر الذي أكد الالتزام بنصوص القانون : " لا يجوز في غير حالة الجرم المشهود تحريك الدعوى العامة بحق المحامي قبل إبلاغ مجلس فرع نقابة المحامين التابع له ...." – عسكرية أساس 177 قرار 1356 تاريخ 31 / 12 / 1975 .

ولن أقف طويلاً عند إعمال المادة (357) عقوبات، التي تنصّ على أن " كل موظف أوقف أو حبس شخصاً في غير الحالات التي ينص عليها القانون، يُعاقَب بالأشغال الشاقة المؤقتة " ، أو المادة (360) منه التي تنص على " 1 –كل موظف يدخل بصفته كونه موظفاً منزل أحد الناس أو ملحقات المنزل في غير الحالات التي ينص عنها عليها القانون، ودون مراعاة الأحوال التي يفرضها، يُعاقَب بالحبس من ثلاث أشهر إلى ثلاث سنوات . 2 – ولا تنقص العقوبة عن ستة أشهر إذا رافق العمل تحري المكان أو أي عمل تحكمي آخر أتاه الفاعل .... " . سأترك هذا كله للزملاء المحامين للتدقيق في الحقوق التي انتُهكت، والإجراءات المخالفة للقوانين التي ارتُكِبَت على العكس من ذلك كله.. سأتحدث في هذا الفصل، لا عن الحقوق، وإنما عن الالتزامات والواجبات التي يفرضها شرف الانتماء لمهنة المحاماة على المحامي .. وبالتالي سأترك لكم تقدير فيما إذا كان ما قمت به هو بعض من الواجب الذي تلزمني به مهنة اخترتها دفاعاً عن الحق والعروبة ..أم كان جريمة يعاقب عليها القانون ...؟!

196 . مرة أخرى لن أعود إلى قانون مزاولة مهنة المحاماة، ولا إلى الالتزامات القومية والوطنية التي على المحامي أن يلتزمها مع لحظة شرف الانتماء إلى نقابة المحامين، وإنما سأعود بكم إلى تلك السنوات المضيئة من تاريخنا في النصف الثاني من خمسينات القرن المنصرم، عندما بدأ الحلم يدغدغ عقولنا بغدٍ عربي تنويري ناهض، عندها تنادى المحامون العرب لعقد مؤتمرهم العام الثاني في القاهرة عام 1956 فخاطبهم جمال عبد الناصر قائلاً : " ما أحسبكم عقدتم هذا المؤتمر لتناقشوا مسائل المحاماة وحدها ..... فإن المحامين لا بد أن يكون هدفهم الأكبر من مؤتمرهم العظيم أن يهيئوا سبباً جديداً من أسباب النهضة العربية، وأن يضيفوا دعامة جديدة من دعامات الوحدة العربية " .. كان ذلك بالضبط بتاريخ 8 آذار 1956، كان رحمه الله يعد السبل، ويهيئ الأسباب لتحرير السويس، فأدرك أن تهيئة الأسباب للنهوض العربي والوحدة العربية، هو في القلب من ذلك كله ... فكيف رأى المحامون العرب حينها تلك الأسباب ؟ لقد أوصى المحامون العرب في مؤتمرهم ذاك : " يوصي المؤتمر بصيانة حقوق المواطنين العرب التي نصت عليها الدساتير، وشرعة إعلان حقوق الإنسان من كل ما ينتقص منها، أو يحد من استعمالها، ويوصي بتطبيقها نصاً وروحاً " ... هكذا رأى المحامون العرب في ذلك الوقت أن تلك الأسباب، للنهضة وللوحدة، لن تحقق إلا " بصيانة حقوق المواطنين العرب " فمن الذي يصون حقوق المواطنين العرب، ومن الذي ينتهكها ..؟!

ثم جاء المؤتمر العام الرابع للمحامين العرب ، فعقِد في بغداد بتاريخ 26 / 11 / 1958 ليؤكد : " يوصي المؤتمر الحكومات العربية بتنظيم رقابة قضائية على دستورية القوانين، وذلك أمر ضروري لكفالة احترام الدستور، والمحافظة على الأسس اللازمة للحقوق والحريات العامة " ....

ثم جاء المؤتمر العام الخامس للمحامين العرب في بيروت ليطور مساهمته في تحقيق سبل النهضة العربية بتاريخ 1 / 9 / 1959 ، فأضاف نقلة نوعية في مقرراته التي جاء فيها : "يستنكر المؤتمر المحاكمات الاستثنائية، وجميع أساليب التعذيب التي تتبع في التحقيق مع المتهمين، كما يستنكر منع المتهمين من الدفاع عن أنفسهم من قِبَل محامين مختارين، وأنه يرى أن هذه الأساليب تسيء إلى سمعة الأمة العربية وكرامتها، وتجعل حرية أبنائها وحياتهم عرضة لأهواء شخصية تتنافى مع حقوق الإنسان وحرياته وموجبات القانون.. لذلك فالمؤتمر إذ يؤيد مقررات المؤتمر الثاني – المشار إليها – يوصي الحكومات العربية بمنع اللجوء إلى المحاكم الاستثنائية في محاكمات المواطنين العرب بمختلف التهم الموجهة إليهم، كما يؤيد تحريم التعذيب ومعاقبة فاعليه .."

هل لاحظتم دقة هذا النص ..؟ وهل يستذكر الجيل الجديد من المحامين العرب ذلك ...؟!

ثم ، ثم جاء المؤتمر السادس للمحامين العرب في القاهرة بتاريخ 1 شباط1961 لينتقل بأسباب النهضة وسبل الوحدة العربية خطوة إجرائية أكثر تقدماً .. فجاءت توصياته متضمنة فقرات ثلاث هامة هي :

33 – يرى المؤتمر أن رقابة القضاء على دستورية القوانين أمر ضروري لضمان الحقوق والحريات العامة، ولذلك فإن المؤتمر يوصي الدول العربية بأن تضمن دساتيرها نصوصاً، خاصة بإنشاء محاكم عليا دستورية تتوافر لها ضمانات كاملة، وتكون مهمتها الأساسية مراقبة دستورية القوانين بطريق الدعوى الأصلية بناءً على طلب ذوي الشأن، كما يقضي بأن تنظم الأحكام الخاصة بتكوين المحكمة العليا وضماناتها وإجراءاتها بما يؤكد استقلالها الكامل وصفتها الدستورية .

34 – يطالب المؤتمر تأييداً للمبادئ الأساسية للإنسان والحقوق الأصلية لوجوده بوجوب التشديد بتطبيق حقوق الإنسان على المواطن العربي كاملة في كل بلد عربي، وضمان حريته الأساسية ضماناً كاملاً .

35 – يوصي المؤتمر للوصول إلى ضمانات عملية فعالة لهذه المبادئ بإنشاء محكمة عدل عربية باتفاق الدول العربية، وتكليف الأمانة العامة لاتحاد المحامين العرب بالعمل على إعداد مشروع هذه المحكمة واختصاصاتها وسلطاتها لدراسته في المؤتمر القادم ...

لكن ...! لكن ، ماذا ....؟!!

لكن، في المؤتمر القادم، كانت قد وقعت جريمة فصل الإقليم الشمالي عن الجمهورية العربية المتحدة، ذلك أن العربية المتحدة لم تعرف كيف تهيئ للنهضة أسبابها، وللوحدة العربية دعاماتها، والتي كان المحامون العرب قد حدودها في مؤتمرهم الثاني عام 1956 : (صيانة حقوق الإنسان الأساسية)، لأننا نفترض أن العربية المتحدة كانت تدرك أن الأعداء يتربصون دائماً، قبل الوحدة وخلالها وبعدها ....المشكلة إذن لم تكن في الأعداء ... وإنما كانت في أسباب النهضة، ودعامات الوحدة من أول الحريات العامة إلى حقوق الإنسان الأصلية والأساسية، ذلك أن المجتمع تنطلق طاقاته بالإبداع بقدر ما يمتلك من الحرية والقوننة والعدالة، وبالتالي فإن مقدرته على صيانة نفسه، والدفاع عن سبل نهضته تتناسب طرداً مع حريته.. هكذا فإن تقييد الحريات العامة أدى إلى عطالة القوى الحية في المجتمع، وعجزها عن الدفاع عن الجمهورية العربية المتحدة، بينما سقطت القوى الأمنية التي ادعت أنها تقيد الحريات العامة من أجل الدفاع عن العربية المتحدة من الضربة الأولى ...

هكذا انكسر الحلم ليس على صعيد المحامين العرب وحسب، وإنما على صعيد الأمة كلها ، التي كان عليها اعتباراً من تلك اللحظة أن تستعد لتلقي الضربات المتلاحقة مرة أخرى .... ولم تتأخر تلك الضربات كثيراً ، ولم تكن ضربة الخامس من حزيران عام 1967 إلا حلقة من سلسلة محكمة الحلقات تتوالى على أمة مكبلة بالأصفاد .. مكبلة

بالأصفاد .. نعم ، ولذلك ، ولذلك فقط هي تضرب ... هل أقول لكم من يكبلها ومن يهدد أمن الدولة ، باعتباركم محكمة أمن دولة ، أم أترك ذلك لفطنتكم ....؟!

197 . رغم أنني حرصت على حصر الحديث عن المحامين العرب في السنوات الخمس الأخيرة من عقد الخمسينات من القرن المنصرم ، فإنني أكاد أراكم وقد ضقتم ذرعاً بي ، لكن كان لابد من ذلك ، كي أشير باختصار شديد إلى أن المحامي العربي بمجرد انتسابه إلى هذه المهنة، ملزم بواجبات لا مناص منها تجاه وطنه وأمته ، فهو في فترة الحلم والأمل المفتوح يبادر لتهيئة سبل النهضة ، وفي مراحل الانكسار يدافع عن الوجود والهوية ، وفي الظروف كافة يتحمل مسؤوليات لا يملك أن يتهرب منها في الدفاع عن الحقوق الأساسية والأصلية للإنسان ثم للمجتمع في إطار منظومة قانونية عادلة ومحكمة .. وإذا كانت تلك الحقوق تقسم إلى حقوق خاصة وحقوق عامة، فإن الدفاع عن الحقوق الخاصة لا يُغْني عن الدفاع عن الحقوق العامة ، والعكس صحيح أيضاً .. فانتهاك الحقوق العامة يؤدي إلى انتهاك الحقوق الخاصة للجميع ، كما أنه في انتهاك الحقوق الخاصة انهيار الحقوق العامة لمجموع الوطن والأمة ....

وهكذا لا بد من اتساق خط الحقوق والقانون والعدالة ، من الخاص إلى العام ، ومن العام إلى الخاص، دون طغيان من أحدهما على الآخر .. بهذا ، وبهذا فقط يتحقق العدل الاجتماعي ، وبالتالي الأمن الوطني، وينفتح الحلم القومي مرة أخرى ، فتتهيأ أسباب النهضة ، ودعامات الوحدة العربية ....

هكذا ، أريد أن أقول لكم باختصار شديد، أن سعي المحامي العربي للدفاع عن حقوق الإنسان العربي الأساسية والأصلية ، وصيانة الحريات العامة في المجتمع إنما هو السعي الوحيد الذي يحقق أمن المجتمع، وبالتالي أمن الدولة فتتمكن من الدفاع عن حقوقها وأراضيها..... فبهذا ، وبهذا فقط تتمكن من تحرير المحتل من أراضيها، وتقاوم أخطار الهيمنة الخارجية ، وتصون المجتمع من الخلل الداخلي ..... هذا هو أمن الدولة الذي استمدت محكمتكم اسمها منه .. وباحترام هذا ، وهذا فقط ، تكون محكمة لأمن الدولة بالفعل ......!

الفصل الرابع

قرار الاتهام...!

198 . كنت قد وضعت عنوان هذا الفصل منذ ثلاثة أشهر ، حيث أنني توقعت أن يصدر عن النيابة العامة لدى محكمتكم الموقرة (قرار اتهام) ، أو (قرار ظن) ، لنتمكن من مناقشته ، لكن هذا القرار لم يصدر حتى هذه اللحظة أو لم أبلّغ به على الأقل ، لذلك فقد ركزت جهودي على الاطلاع على لائحة الإدعاء .. وعندما فشلت مرة أخرى ، التجأت إلى الذاكرة حيث كان النائب العام قد واجهني عند الاستجواب منذ خمسة أشهر ، بأنه ينسب إلي كذا وكذا .. وحقيقة فإن الذاكرة لم تعد تحتفظ بالكثير ، لهذا ، وبما أن هذه المرافعة يجب أن تُنْجَز ، ولم تعد تحتمل التأخير ، فإنني سأحاول حصر ما نُسِبَ إلي من (جرائم) عن طريق تحديد اختصاص محكمة أمن الدولة العليا ، فطالما أنني قد أحِلْتُ إليها فإن (الجرائم) التي من المفترض أن أكون قد اقترفتها ، حسب إدعاء النيابة، لا بد أن تكون داخلة في اختصاص محكمة أمن الدولة العليا .

199. حدد المرسوم التشريعي رقم / 47 / تاريخ 28 / 3 / 1968 القاضي بإحداث محكمة أمن الدولة العليا ، بمادته الخامسة ، اختصاص هذه المحكمة بالنظر في الجرائم المنصوص عليها في المادة الثالثة من المرسوم التشريعي رقم / 6 / الصادر بتاريخ 7 / 1 / 1965 . وبالعودة إلى تلك المادة المشار إليها نجدها تنص على مايلي :

(مادة 3) تختص المحكمة العسكرية الاستثنائية بالنظر في الجرائم التالية :

آ – الأفعال التي تعتبر مخالفة لتطبيق النظام الاشتراكي في الدولة سواء أوقعت بالفعل ، أم بالقول ، أم بالكتابة ، أم بأية وسيلة من وسائل التعبير والنشر

ب – الجرائم الواقعة خلافاً لأحكام المراسيم التشريعية :1 و2 تاريخ 2 / 1 / 1965، ورقم / 5 / تاريخ 4 / 1 / 1965 ، وجميع المراسيم التشريعية التي صدرت ، أو ستصدر، ولها علاقة بالتحول الاشتراكي .

جـــ – الجرائم الواقعة على أمن الدولة الداخلي ، والمعاقب عليها بالمواد من 291 إلى 311 من قانون العقوبات ، والجرائم الواقعة على أمن الدولة الخارجي المعاقب عليها بالمواد من 263 إلى 274 من قانون العقوبات .

د – مخالفة أوامر الحاكم العرفي .

هـ – مناهضة تحقيق الوحدة بين الأقطار العربية ، أو مناهضة أي هدف من أهداف الثورة أو عرقلتها ، سواء أكان ذلك عن طريق القيام بالتظاهرات، أم بالتجمعات، أم بأعمال الشغب ، أم بالتحريض عليها ، أم بنشر الأخبار الكاذبة بقصد البلبلة وزعزعة ثقة الجماهير بأهداف الثورة .

و – قبض المال ، أو أي عطاء آخر ، أو الحصول على أي وعد أو أية صفقة أخرى من دولة أجنبية أو هيئة أو أفراد سوريين أو غير سوريين، أو أي اتصال بجهة أجنبية بقصد القيام بأي تصرف قولي أو فعلي معاد لأهداف ثورة 8 / 3 / 1963 .

ز – الهجوم أو الاعتداء على الأماكن المخصصة للعبادة أو لممارسة الطقوس الدينية ، أو على مراكز القيادة والمؤسسات العسكرية ، والدوائر والمؤسسات الحكومية الأخرى، والمؤسسات العامة والخاصة بما فيها المعامل والمصانع والمحلات التجارية ودور السكن ، أو إثارة النعرات أو الفتن الدينية أو الطائفية أو العنصرية، وكذلك استغلال هياج الجماهير والمظاهرات للإحراق والنهب والسلب .

ح– احتكار التجار والباعة للمواد الغذائية أو رفع أسعارها بصورة فاحشة.

ط– إخراج الأموال النقدية ووسائل الدفع الأخرى من الجمهورية العربية السورية خلافاً للأنظمة النافذة .

هذه هي المادة الثالثة من المرسوم التشريعي رقم / 6 / الصادر بتاريخ 7 / 1 / 1965 ، والتي حددت اختصاص المحكمة العسكرية الاستثنائية ، تلك الاختصاصات التي نُقِلت إلى محكمة أمن الدولة العليا بعد إلغاء المحكمة العسكرية الاستثنائية .

وأنا هنا ، لن أناقش هذه المادة ، ولا منطوقها ، ولا تاريخها ، وظروف إصدارها ، فقط سأقول أن هذه المادة تعرضت لتعديلات كثيرة ، وأن بعض تلك الاختصاصات قد انتزعت من محكمة أمن الدولة العليا .. وما يعنيننا الآن أن الجرائم المنسوبة إليّ من المحتمل أن تكون مسندة إلى الفقرتين (جـ و هـ) ، لأن كافة الأسئلة التي وجهت إلي أثناء الاستجواب أمام فرع تحقيق الأمن السياسي ومن ثم أمام النيابة العامة لدى محكمتكم تتعلق بهاتين الفقرتين ، وبجرائم ليست من اختصاص محكمة أمن الدولة العليا ... وبالتالي لا يمكن أن تكون لائحة الإدعاء قد نسبت إلي جرماً لم أُسأل عنه .

200 . فلنحاصر الاحتمالات ، علنا نصل إلى صياغة تقريبية للائحة الإدعاء ..

أولاً – الفقرة / جـ / من المادة المذكورة تتضمن الجرائم المعاقب عليها بالمواد من (291 إلى 311) عقوبات ، ومن (263 إلى 374) عقوبات ...

نستبعد على الفور الجرائم المعاقب عليها بالمواد من (263 إلى 274) عقوبات عامة، لأنها تتعلق بالتعامل مع العدو والتجسس ، واقتطاع أراضي لصالح دولة أجنبية.. وهذا، بحمد الله ، ليس منسوباً إلي .

ونستبعد الجرائم المعاقب عليها بالمواد (269 و 297) عقوبات، لأنها تتعلق باغتصاب سلطة سياسية أو عسكرية ، وهذا أيضاً لم يُنْسَب إلينا ، ولا نمتلك أدواته ...

ونستبعد الجرائم المعاقب عليها بالمواد من (304 إلى 306) المتعلقة بالإرهاب ، وهذا أيضاً لا أعتقد أنه نُسِبَ إلي ....

ونستبعد الجرائم المعاقب عليها بالمواد من (309 إلى 311) والمتعلقة بالنيل من مكانة الدولة المالية ، وهذا لاعلاقة لي به ....

يتبقى إذن الجرائم المحتمل نسبتها إلي من هذه الفقرة :

1 – الجرائم المعاقب عليها بالمواد من : (291 إلى 295) المتعلقة بالاعتداء على الدستور .

2 – الجرائم المعاقب عليها بالمواد من : (298 إلى 303) المتعلقة بالفتنة .

3 – الجرائم المعاقب عليها بالمواد من (307 إلى 308) المتعلقة بتهديد الوحدة الوطنية .

أقول ذلك ، رغم أن الحزن يعتصرني حقيقة .. فأنا الذي رهنت حياتي لمواجهة أولئك المجرمين الذين يخرقون الدستور ، ويهددون الوحدة الوطنية ، ويروّجون للفتنة، تتجرأ مؤسسة الإدعاء أن تدّعي علي بذلك ، وكل ما بين يديها ، وبدي سواها ، يشير إلى عكس ذلك تماماً ... هل وصل اللامعقول إلى هذا الحد ...؟!

دعونا نعتصم بالصبر ، والهدوء لمواجهة كل هذا العبث ، ونعود إلى الفقرة / هـ / من المادة الثالثة العتيدة تلك ، والتي تتضمن :

" مناهضة تحقيق الوحدة العربية بين الأقطار العربية ، أو مناهضة أي هدف من أهداف الثورة أو عرقلتها ، سواء كان ذلك عن طريق القيام بالتظاهرات أم بالتجمعات ، أم بأعمال الشغب ، أم بالتحريض عليها ، أم بنشر الأخبار الكاذبة بقصد البلبلة وزعزعة ثقة الجماهير بأهداف الثورة ......"

لم يجرؤ أحد على الإدعاء بأنه يمكن أن ينسب إلي مناهضة الوحدة بين الأقطار العربية، لذلك أنا سأوجه السؤال : من يناهض تحقيق الوحدة بين الأقطار العربية .....؟ الجماهير العربية ، أم سلطات الأقطار العربية ؟ .. على أية حال ، كل ما تحفظه الذاكرة من طبيعة الأسئلة، أنه ربما يكون قد نُسِبَ إلي " جرائم التحريض ونشر أخبار كاذبة بقصد البلبلة

وزعزعة ثقة الجماهير بأهداف الثورة " .. ولا أعرف حقيقة إن كانت مؤسسة الإدعاء قد استندت إلى هذه الفقرة في الإدعاء أم استندت إلى مواد أخرى في قانون العقوبات ليست واقعة ضمن اختصاصها .....ومن يدري ...؟ ..... على أية حال سنناقش ذلك بغض النظر عن الإسناد المحتمل ....

201 . هكذا نكون قد عالجنا كل ما يتعلق باختصاص محكمة أمن الدولة العليا ، لكن لا أعتقد أن مؤسسة الإدعاء قد وقفت عند هذا الحد .. فمن طبيعة الأسئلة التي وجهت إلي أثناء الاستجواب يمكن لمؤسسة الإدعاء أن تكون قد توسعت فأضافت إلى الإدعاء جرائم أخرى ليست من اختصاص محكمة أمن الدولة العليا .. وما الذي يمنعها من ذلك طالما أنه لا رادع لقراراتها ، ولا رقابة عليها ...!

قد تكون مؤسسة الإدعاء قد نسبت إلى الجرائم المتعلقة بتشكيل جمعية بدون ترخيص .

كما قد تكون نسبت إلي الاشتراك في جرم الذم لرئيس الدولة استناداً إلى تعاطفي مع الزميل المحامي الأستاذ رياض الترك الذي نُسِبَ إليه مثل ذلك على ما أذكر ...

على أية حال ، سنواصل مطاردة الأشباح حتى نصل إلى موقع قريب من الحق والحقيقة .. فلن أسمح بأن يصدر حكم بغفلة مني .... !!

202 . هكذا نكون قد صغنا بأقرب قدر من الدقة الممكنة، لائحة الإدعاء بحق أنفسنا ، طالما أن المحكمة لم تسلمنا تلك اللائحة ، وبالتالي ، بات من الممكن أن نناقش ، وأن نقدم دفوعنا ... وبهذا نكون قد تخطينا عقبة عدم تمكيننا من الإطلاع على لائحة الإدعاء ، فنحن نصوغها بحق أنفسنا ثم نواجهها ...

فإذا كانت النيابة العامة لدى محكمتكم تقوم بدور الخصم والحكم في الوقت ذاته .

فإننا نحن أيضاً ندعي على أنفسنا ، وعنها نقدم دفوعنا ....!

فهل هذه هي العدالة التي تنشدون ....؟!!

الفصل الخامس

الوقائع ، الأدلة ، النفي

203 . كنت قد قررت في المخطط الأساسي لهذه المرافعة أن يكون هذا الفصل أكثر الفصول حيوية ، بما سيتضمنه من أدلة وجدال وتمحيص وتناقض صارخ بين الأدلة التي يقدمها الإدعاء ، وبين الإدعاء ذاته ، حتى ولكأن الأدلة هي في واقع الأمر أدلة دفاع تدين الإدعاء قبل أي طرف آخر ... ولم يكن يخطر لي ، أنني سأحْرَم ، وكذلك الزملاء المحامون، من الإطلاع على ملف الدعوى ، وبالتالي نشر الأدلة كافة التي استند عليها الإدعاء في هذا الفصل .. لكننا لن نستسلم ، وسنحاول مرة أخرى التغلب على هذه العقبة ، لأن الأدلة كما هو واضح من طبيعة الأسئلة تندرج تحت بنود رئيسية أربع ، وهي :

- ❑ **البند الأول** : يتعلق بالبيانات والكلمات التي ألقيتها في منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي ، أو البيانات التي أصدرتها باسمه في مناسبات مختلفة .. والمشكلة هنا محلولة تماماً ، فقد تعمدت أن أنشر في الفصول السابقة من هذه المرافعة، كامل تلك البيانات والكلمات بنصوصها الحرفية.. وبالتالي، يمكن لمحكمتكم الموقرة أن تعود إليها.. ومن طبيعة الأسئلة التي وجهت إلي سواء أمام فرع تحقيق الأمن السياسي، أو أمام النيابة العامة لمحكمتكم الموقرة، فإن تلك الكلمات والبيانات هي الأساس الذي بنت عليه مؤسسة الإدعاء هذه الدعوى .. وأنا بدوري أعتبر أن تلك الكلمات والبيانات هي الأساس في الدفاع ، وفي دحض كل ما تضمنته لائحة الإدعاء ....
- ❑ **البند الثاني** : ويتعلق بالتصريحات والمقابلات التي أجرتها معي وسائل الإعلام ، وهذه أيضاً تضمنتها الفصول السابقة من هذه المرافعة .. وما لم نتمكن من نشره سنحاول استحضاره من الذاكرة .. المهم ، أنني أرجو من مقام محكمتكم الموقرة أنه إذا استندت مؤسسة الإدعاء على أي مقابلة جرت معي ، أن تلزم مؤسسة الإدعاء أن تقدم لملف الدعوى تلك المقابلة كاملة ، وأن لا تنتزع عبارة من هنا أو كلمة من هناك لتبني عليها ... وفي حال توافر هذه الشروط، فإنني أيضاً أرجو اعتبار تلك المقابلات والتصريحات جزءاً من الدفوع تدحض ما تدعيه النيابة .
- ❑ **البند الثالث** : ويتعلق بمحضري الاستجواب اللذين تم تنظيمهما باستجوابي، الأول أمام فرع تحقيق الأمن السياسي ، والثاني أمام النائب العام لدى محكمتكم الموقرة.. وهذان المحضران في منتهى الأهمية ، وكم كنت أتمنى أن أثبتهما في هذا الفصل لأنهما كانا سيقدمان إضاءة هامة على جوهر هذه القضية ، وكيف تم تلفيق هذه الدعوى من الألف إلى الياء ، لكن هذا للأسف غير متاح ، وما تحفظه الذاكرة ليس بالشيء الكثير ، ولا يمكن الركون إليه بدقة ، فالنص بحرفيته هنا في غاية الأهمية ....

❑ **البند الرابع** : تقارير المخبرين ، وربما أجهزة التنصت والمراقبة ، وهذه ليست أدلة من الناحية القانونية ، وإن كنت أجزم بأن ليس فيها ما يتجاوز ما هو منسوب إلي في البيانات والكلمات العلنية التي ألقيتها أو صدرتها ، ذلك أنني كنت قد عاهدت نفسي أن أجهر بما أضمر تماماً ....فالجهر بما أعتقده حق، هو سنة ما حدت عنها ، ولن أحيد .... أما أن يكون هذا الذي أعتقده هو الحق أم لا، فهذه قضية أخرى .... المهم أن أجتهد باتجاه الحق، سواء أدركته أو أخطأته ... لكن المشكلة كامنة في أمانة النقل لدى المخبرين ، لهذا كله فإنني أرجو إهمال ما قد يحتويه ملف الدعوى من تلك التقارير الاستخبارية ، إلا في حالة واحدة : أن تعرض علي أولاً فأشير إلى الصحيح منها ، وإلى المنحول..

204 . استناداً إلى ذلك، نستطيع أن نبدأ مناقشة الإدعاء كما افترضناه والأدلة كما توقعناها ، كل هذا بالوسائل المتاحة ، وهي قليلة على أية حال ، فلنبدأ :

205 . لقد نسبت إلي مؤسسة الإدعاء خرق الدستور ، فكيف يُخْرَق الدستور في بلادنا ..؟

لقد حددت المواد من (291 إلى 295) حصراً جرائم الاعتداء على الدستور والعقوبة المترتبة على كل منها ، فلنعدد هذه الجرائم كما وردت في قانون العقوبات :

مادة / 291 / : 1 – يعاقب على الاعتداء الذي يستهدف تغيير دستور الدولة بطرق غير مشروعة بالاعتقال المؤقت خمس سنوات على الأقل .

2 – وتكون العقوبة الاعتقال المؤبد إذا لجأ الفاعل إلى العنف .

مادة / 292 / : 1 – من حاول أن يسلخ عن سيادة الدولة جزءاً من الأراضي السورية عوقب بالاعتقال المؤقت .

2 – وتكون العقوبة الاعتقال المؤبد إذا لجأ الفاعل إلى العنف

مادة / 293 / : 1 – كل فعل يُقْتَرَف بقصد إثارة عصيان مسلح ضد السلطات القائمة بموجب الدستور، يعاقَب عليه بالاعتقال المؤقت .

2 – إذا نشب العصيان عوقب المحرض بالاعتقال المؤبد، وسائر العصاة بالاعتقال المؤقت خمس سنوات على الأقل .

مادة / 294 / : الاعتداء الذي يقصد منه منع السلطات القائمة من ممارسة وظائفها المستمدة من الدستور، يعاقَب عليه بالاعتقال المؤقت .

مادة / 295 / : يعاقب على المؤامرة التي تستهدف ارتكاب إحدى الجرائم المذكورة أعلاه بالإقامة الجبرية .

206 . هذه، بالحصر ، هي الجرائم التي تشكل اعتداء على الدستور في قانون العقوبات فأين هو الجرم الذي يمكن أن يُنْسَب إلي .....؟

الجريمة المعاقب عليها بالمادة / 295 / وهي جريمة المؤامرة لا يمكن أن تُنْسَب إلي .

جريمة منع السلطات من ممارسة وظائفها المعاقب عليها بالمادة / 294 / لا يمكن أن تُنْسَب إلي بأي حال من الأحوال .

جريمة إثارة العصيان المسلح المعاقب عليها بالمادة / 293 / لا يمكن أن تنسب إلي ، رغم أن الذاكرة تحمل شبهة بأن مؤسسة الإدعاء قد واجهتني بسؤال عن هذا الموضوع ... فهل يمكن أن تكون قد فعلت ذلك ......؟!!

إن مؤسسة الإدعاء في حال توجيهها لي مثل هذا الاتهام تكون قد وقعت في خطأ مهني جسيم ، لأن أي حديث عن جريمة لا يتوفر ركنها المادي المتمثل بالفعل والنتيجة الجرمية العلاقة السببية بينهما، هو مجرد لغو إذا كنا حسني النية ...لا يمكن أن تُنْسَب إلي حتى ، كلمة ، مجرد كلمة واحدة في هذا الموضوع ... أرجو على أية حال أن لا تكون مؤسسة الإدعاء قد فعلتها...!!

جريمة سلخ جزء من الأراضي السورية المعاقب عليها بالمادة /292 / أعتقد أنه لا يمكن أن يُنْسَب إلي مثل ذلك ... فليس أنا ...

تبقى جريمة الاعتداء الذي يستهدف تغيير دستور الدولة بطريق غير مشروعة المعاقب عليها بالمادة / 291 / عقوبات عامة .

207 . هنا ، أعتقد ، للأسف الشديد ، أن مؤسسة الإدعاء قد فعلتها ووقعت بالخطأ المهني الجسيم فعلاً . ذلك أنها استندت إلى عبارة انتزعتها من سياقها العام من كلمة ألقيتها في منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي، ناقشتُ فيها الموضوع المثار حول إلغاء المادة / 8 / من الدستور (لطفاً الكلمة منشورة بالكامل في الباب الأول من هذه المرافعة).. لقد جاءت تلك العبارة في السياق التالي ، فمن خلال مناقشة موضوعية هادئة للأفكار التي تطرحها جماعات الإصلاح في سورية ، وللأفكار التي تطرحها السلطة للتطوير والتحديث ، حاولت أن أسعى إلى تقريب وجهات النظر بين الموقفين

فرضت ، لما تقوله جماعات الإصلاح ، ولما تقوله السلطة ، وحاولت أن أبحث في الخطابين عن لغة مشتركة بين الطرفين .. وقد جاءت تلك العبارة عن الدستور في سياق العرض لما تطرحه جماعات الإصلاح في سورية ، فهل يتصور أحد في أي زمان أو مكان أن يعتبر ذلك اعتداء على الدستور ...؟ وأن هذا يندرج تحت بند الطرق غير المشروعة لتغيير الدستور.. هل تستطيع مقام النيابة أن تدلنا على الطرق المشروعة لتغيير الدستور ...؟!!

ورغم ذلك ، سأكرر موقفي ، لقد قلت أن هناك تقارباً بين مختلف الآراء المطروحة للإصلاح والتغيير والتطوير والتحديث موضوعياً رغم ما يبدو من تعارض ظاهري ، وأن الحوار الوطني ممكن ، بل لعله حسب وجهة نظري الممكن الوحيد للذين يعرفون كيف يستخدمون عقولهم .. هكذا طرحت ، وفي هذا السياق ، قضية المادة / 8 / من الدستور ، كقضية للحوار يطرحها البعض في بلادنا ، وقلت أن هذه القضية خاضعة للحوار .. وأعطيت رأياً بكل التصادق والود لإخواننا في حزب البعث العربي الاشتراكي، بأن النص في الدساتير على أن حزباً (ما) قائد للدولة والمجتمع ، لا تجعل منه قائداً للدولة والمجتمع ، ونحن نرغب أن يمارس حزب البعث العربي الاشتراكي دوره السياسي القومي ، وان تكون السلطة في سورية بعضاً من اهتماماته، لا أن يكون هو جزءاً من أجهزتها ... فهل يمكن أن تشكل الدعوة لفتح باب حوار حول مادة من مواد الدستور ، خرقاً للدستور ...؟ ... أو اعتداء عليه ...؟ أو طريقاً غير مشروع لتغيير مادة منه ؟ أكاد لا أصدق أن النيابة العامة قد فعلت ذلك ...! لنعد إلى نص المادة / 291 / : " يعاقب على الاعتداء الذي يستهدف تغيير الدستور بطرق غير مشروعة " هذا يعني أنه يجب أن يتوفر عنصران الأول : هو الاعتداء ، والثاني هو الطرق غير المشروعة ... فإذا لم يكن هناك اعتداء ، ولم تكن هناك طرق غير مشروعة، فكيف يمكن الحديث عن جرم ... ؟!

إنني أشعر بشديد الأسف مرة أخرى ، لأن مؤسسة الإدعاء قد خلطت هذا الخلط غير البريء بين الاعتداء الذي يستهدف تغيير الدستور بطرق غير مشروعة وبين الدعوة للحوار من أجل تغيير مادة في الدستور ، أو إلغائها ، أو حتى الحوار من أجل تغيير الدستور برمته ... ما يضنيني في هذا كله ، أنه لا يمكن أن ينسب الغباء في القانون لمؤسسة الإدعاء في قضية واضحة إلى هذا الحد .... فالدستور أيها السادة ليس نصاً إلهياً إنه نص وضعي ، يضعه البشر، ويعدله البشر ، ويغيره البشر ، ويلغيه البشر .. والحوار حول صلاحيته أو صلاحية بعض مواده ليس مجرد حق ، إنه واجب مفتوح ومستمر استمرار الحياة ذاتها ...والدستور في سورية أيها السادة، مطروح للنقاش والحوار الدائم بموجب حق لكل مواطن مصان بموجب الدستور ذاته ، وقد تم التصدي ليس للحوار حول الدستور وحسب ، وإنما لتغيير مواد في الدستور أو تعديلها بالفعل .. والمجتمع الحي ، كل مجتمع حي ، هو في حالة حوار مفتوح ودائم حول مختلف القوانين ، القوانين الوضعية بما في ذلك الدستور ، وإذا كان الدستور قد أعطى المواطنين حق طلب تعديله أو تغييره ، فهل تملك مؤسسة الإدعاء لدى محكمتكم أن تحجب هذا الحق عن أي مواطن ؟

لقد قيد الدستور هذا الحق في الطلب بتغيير الدستور لفترة زمنية محددة حددها الدستور ذاته بثمانية عشر شهراً من تاريخ نفاذه .. فقد نصت المادة / 106 / منه (على ما أذكر) على أنه لا يجوز المطالبة بتعديل الدستور قبل مرور / 18 / شهراً إعتباراً من نفاذه .

وإذا كان الدستور قد غدا نافذاً في عام 1973 ، فإن هذا يعني أن للمواطنين الحق بمناقشة ، وطلب تعديل ، وإلغاء مواد ، بل وتغيير الدستور كله منذ حوالي / 27 / سنة على الأقل ....

فأين الجرم ، أيها السادة .... بمجرد رأي ...يتحدث فيه البعض ، ويناقشه البعض الآخر في منتدى يحضر حلقات النقاش فيه فئات مختلفة، بما في ذلك أعضاء قياديون من حزب البعث الاشتراكي ، ومسؤولون أمنيون من مختلف فروع أجهزة الأمن التي لا أعرف كيف أحصيها ، ويحضره مواطنون ومهتمون بالهموم العامة ، يتحاورون، ويناقشون جميعاً هذه المسألة الهامة حول المستقبل والتغيير والتطور بمنتهى الموضوعية والحوار الهادئ ، بلا عنف ، بلا تهجم ، بلا اعتداء من أي طرف على طرف آخر ..هل هذا هو الجرم الذي ينسبه إلينا مقام النيابة العامة ؟! هل الدعوة للتصادم وتصفية الحسابات ، وفرض الرأي الواحد ، والموقف الواحد ، وعلى الآخرين أن يغلقوا أفواههم ، ويستخدمون ألسنتهم لأي شيء إلا الرأي والحوار والكلام ..هل هذا هو الحل أيها السادة ..؟! وهل تتكرم علينا مؤسسة الإدعاء بأن تتحفنا بالطرق غير المشروعة التي استهدفنا بها تغيير الدستور ......؟!! أو العنف الذي لجأنا إليه .....؟!!

أعتقد أن تهافت هذا الإدعاء بات واضحاً لمقام محكمتكم الموقرة، فلننتقل إلى مسألة أخرى ....

208 . لنبحث الآن في احتمال أن تكون مؤسسة الإدعاء قد نسبت إليّ جرائم الفتنة المعاقب عليها بالمواد من (298 إلى 303) عقوبات ، كذلك جرائم تهديد الوحدة الوطنية المعاقب عليها بالمادتين 307 و 308 عقوبات ، فما هي هذه الجرائم أولاً :

مادة / 298 / : يعاقب بالأشغال الشاقة مؤبداً على الاعتداء الذي يستهدف إما إثارة الحرب الأهلية ، أو الاقتتال الطائفي بتسليح السوريين أو بحملهم على التسليح بعضهم ضد البعض الآخر، وإما بالحض على التقتيل والنهب في محلة أو محلات ، ويقضى بالإعدام إذا تم الاعتداء .

مادة / 299 / : يعاقب بالأشغال الشاقة مؤبداً من رأس عصابات مسلحة أو تولى فيها وظيفة أو قيادة أياً كان نوعها ، إما بقصد اجتياح مدينة أو محلة أو بعض أملاك الدولة ، أو أملاك جماعة من الأهلين ، وإما بقصد مهاجمة أو مقاومة القوة العاملة ضد مرتكبي هذه الجنايات .

مادة / 300 / :1 – يُعاقب بالأشغال الشاقة المؤبدة المشتركون في عصابة مسلحة ألفت بقصد ارتكاب إحدى الجنايات المنصوص عليها في المادتين / 298 و 299 / عقوبات .

2 – غير أنه يعفى من العقوبة من لم يتولَّ منهم في العصابة وظيفة أو خدمة ، ولم يوقف في أماكن الفتنة، واستسلم بسلاحه دون مقاومة وقبل صدور أي حكم .

مادة / 301 / : تشدد بمقتضى المادة / 247 / عقوبة من أقدم على ارتكاب إحدى الجنايات المنصوص عليها في المادتين 299 و 300 .

آ – إذا كان يحمل سلاحاً ظاهراً .

ب – إذا كان يرتدي زياً أو يحمل شعاراً آخر مدنيين كانوا أو عسكريين .

جـ – إذا أقدم على أعمال التخريب أو تشويه في أبنية مخصصة لمصلحة عامة أو في سبيل المخابرات أو المواصلات أو النقل .

المادة / 302 / : من أقدم بقصد اقتراف أو تسهيل إحدى جنايات الفتنة المذكورة أو أية جناية أخرى ضد الدولة، على صنع أو اقتناء أو حيازة المواد المتفجرة أو الملتهبة والمنتجات السامة أو المحرقة أو الأجزاء الأخرى التي تستعمل في تركيبها أو صنعها، يُعاقب بالأشغال الشاقة المؤقتة فضلاً عن العقوبات الأشد التي يستحقها المتدخلون في تلك الجنايات إذا اقترفت أو شرع فيها أو بقيت ناقصة .

المادة / 303 / : يعاقب بالأشغال الشاقة المؤقتة على المؤامرة بقصد ارتكاب إحدى الجنايات المذكورة في المواد (298 إلى 302)

المادة / 307 / : 1– كل عمل وكل كتابة وكل خطاب يقصد منها أو ينتج عنها إثارة النعرات المذهبية أو العنصرية أو الحض على النزاع بين الطوائف ومختلف عناصر الأمة، يعاقب عليه بالحبس من ستة أشهر إلى سنتين، وبالغرامة من 100 إلى 200 ل.س، وكذلك بالمنع من ممارسة الحقوق المذكورة في الفقرتين 2 و 4 من المادة / 65 / .

2 – ويمكن للمحكمة أن تقضي بنشر الحكم .

المادة / 308 / 1 – يتعرض للعقوبات نفسها كل شخص ينتمي إلى جمعية أنشئت للغاية المشار إليها في المادة السابقة .

2 – ولا ينقص الحبس عن سنة واحدة والغرامة عن 100 ل.س، إذا كان الشخص المذكور يتولى وظيفة عامة في الجمعية .

3 – كل ذلك فضلاً عن الحكم بحل الجمعية ومصادرة أملاكها عملاً بالمادتين 109 و 69 .

209 . أيها السادة ، إنني إذ اعتذر عن تسطير هذه المواد بحرفيتها رغم يقيني بأنها محفوظة عن ظهر قلب من قبلكم ، فإنني أشير إلى أن القصد من ذلك كان وضعها جنباً إلى جنب مع الأدلة التي ساقتها مؤسسة الإدعاء، وهي عبارة عن مجرد آراء ذات طبيعة سياسية أو ثقافية مطروحة لحوار مفتوح في المنتدى ، لتتبينوا مدى الجرأة التي تحلت بها مؤسسة الإدعاء في أن تنسب لشخصي أنني أسعى للفتنة أو لتهديد الوحدة الوطنية وإثارة النعرات المذهبية والطائفية ....فهل يعقل أن ينسب لمن يعبر عن الآراء والمواقف التي تسوقها مؤسسة الإدعاء ذاتها مثل هذا ...؟ ثم أنه كان لابد من ذكر تلك المواد بحرفيتها لأنني لا أعلم على أي منها استندت مؤسسة الإدعاء ، وقد تكون استندت إلى مواد أخرى ، من يدري ....؟!

وحقيقة الأمر ، أنه عندما وجه إلي النائب العام مثل تلك الأسئلة عن الفتنة الطائفية ، والعصيان المسلح ، لم أصدق ما أسمع .. وأجد نفسي حقيقة في موقف الرافض حتى لمجرد الخوض في هذه المتاهات التي قضيت جل عمري لمواجهتها.. وأكتفي بما ساقته النيابة من أقوالي لتكتشفوا مدى التهافت ، والقصد غير البريء من مجرد زج اسمي في مسائل من هذه النوع .. لقد قلت للنائب العام أنني أفعل كل ما أفعل حفاظاً على الوحدة الوطنية ، واتقاء للفتنة ، ولتجنيب البلاد النزاعات المذهبية والطائفية ، وأنه ليس لمثلي يوجه مثل هذا الإدعاء ... وأكرر ذلك بحرفيته أمامكم ، ذلك أن الموقف هنا أسمى من أي اعتبار آخر ...!

210 . أما ما يمكن أن يكون قد نُسِبَ إلي من نشر أخبار كاذبة ، أو الإساءة إلى سمعة البلاد في الخارج ، فإنني لا أعرف كيف يمكن أن تكون مؤسسة الإدعاء قد كيفت هذا الإدعاء وكيف أسندته، لذلك لن أغامر بالإشارة إلى مواد معينة في قانون العقوبات داخلة في اختصاص محكمتكم أم خارجة عن اختصاصها ..... لكنني في الأحوال كلها نشرت في الباب الأول من هذه المرافعة الأحاديث الصحفية التي أدليت بها ، أما التصريحات الأخرى لوسائل الإعلام ، فإنني أطلب إلى المحكمة الموقرة تكليف مؤسسة الإدعاء بإبراز تسجيلات كاملة لتلك التصريحات حيث سيتبين منها أنه لا أساس لهذا

الإدعاء .. لقد اكتفيت بالأسف لما جرى من اعتقالات ، وإجراءات لا مبرر لها.. فمضمون تلك الأحاديث والتصريحات يدحض أي إدعاء ، ويفضح تهافته .

بهذا نكون قد حسمنا من لائحة الإدعاء ما يتعلق بما يمكن أن يكون قد نُسِبَ إلي من جرائم داخلة في اختصاص محكمة أمن الدولة العليا ، فلننتقل إلى ما يمكن أن تكون قد نسبته إلي من جرائم ليست داخلة في اختصاص المحكمة، والذاكرة لا تسعفنا إلا باحتمالين اثنين :

211 . قد يكون الاحتمال الأول متمثلاً في أن تنسب لي مؤسسة الإدعاء جرائم الاشتراك بتأسيس جمعية بدون ترخيص ، وتحمل مسؤولية قيادية فيها ..... وبما أنني أسهبت بشرح وتوضيح ظروف تأسيس منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي ، ونشرت في الباب الأول من هذه المرافعة وثائق التأسيس ، فإنني هنا لا أجد ما أضيفه .. لذا أرجو العودة إليها ، فقط أريد أن أشير هنا إلى أن هذا المنتدى الذي اشتركت في تأسيسه، ما زال حتى هذه اللحظة يمارس نشاطه وفق البرنامج الذي اشتركت في وضعه.. وتحضر ندواته عناصر من أجهزة الأمن ، وأعضاء بارزين في حزب البعث العربي الاشتراكي (قادة الدولة والمجتمع وفق المادة / 8 / من الدستور)، ويشترك الجميع في حوار بنّاء يديره المنتدى ، وهو يمارس نشاطه علناً ، وقد أشرت إلى أن رئيس الجمهورية أشار إلى إيجابية نشاط هذا المنتدى ، لكن لمؤسسة الإدعاء على ما يبدو رأياً آخر ... إن القانون يقضي بإغلاق المنتدى ومنعه من ممارسة نشاطه إذا شكل خطراً (ما) على المجتمع ،ثم يلاحق المسؤولين عنه ... هنا نحن أمام حالة فريدة ، فالمنتدى يمارس نشاطه، وهذا يعني أنه لا يشكل خطراً ، وإلا لكانت السلطات أغلقته ، ثم لا يُعْتَقَل من المؤسسين إلا شخص واحد ، هو أنا ، فأين الحكمة ، وأين القانون من ذلك كله ...؟! هل يكفي هذا ...؟!.

212 . وأخيراً نشير إلى احتمال أن تكون مؤسسة الإدعاء قد نسبت إلي جرماً يتعلق بموقفي كمحام من قضية اعتقال الزميل المحامي الأستاذ رياض الترك .. فقد فوجئت بسؤال يتكرر لدى استجوابي أمام فرع تحقيق الأمن السياسي ثم أمام النائب العام لدى محكمتكم : هل صحيح أنك قلت أنك على استعداد لافتداء رياض الترك ..؟ فأجبت : نعم (نظراً لتاريخه وسنه) ، وهذا ما قلته صراحة في البيان الذي أصدرته بصفتي الناطق الرسمي باسم منتدى جمال الأتاسي لدى اعتقال الأستاذ الترك ..ثم ووجهت بسؤال آخر : هل توافق رياض الترك على ما قاله ...؟ فأجبت : أنني قدرت عالياً موقفه المتسامح ، ونحن في منتدى جمال الأتاسي نقف على مسافة من الآراء التي تقال ، فنحن نحاول أن نقف موقف الحكم لتقريب الآراء ، وإثارة الحوار البناء ... فنحن مع حق الجميع في التعبير عن آرائهم، بغض النظر عن موقفنا من تلك الآراء ... (لطفاً العودة إلى محضري الاستجواب لدى فرع تحقيق الأمن السياسي ولدى النيابة العامة).. ثم ، كنت قد راجعت النيابة العامة بخصوص اعتقال الأستاذ رياض الترك ، قبل اعتقالي ، وفهمت منها أنها تجنح إلى الإدعاء على الأستاذ الترك فتنسب إليه : جرم الذم لرئيس الجمهورية، فهل يمكن أن تكون النيابة العامة قد جنحت إلى تفسير موقفي من الأستاذ الترك على أنه اشتراك في الجرم المنسوب إليه ...؟!

أولاً ، أريد أن أوضح أن موقفي من اعتقال الأستاذ الترك هو موقف المحامي الذي كان يستعد للدفاع عن موكله ، وبالتالي فأنا أختار ما أراه مناسباً للدفاع عنه ، ولا مساءلة لي بذلك ، هذا من جهة .. ومن جهة أخرى فإن مؤسسة الإدعاء بشقيها الأمني ، والنيابة العامة، وقفت حائلاً بيني ، وبين ممارسة حقي المشروع في الدفاع عن الأستاذ رياض الترك ، حتى تم اعتقالي ، وهذا تعسف لن أقف عنده طويلاً .

هل رأت مؤسسة الإدعاء بعد ذلك ، أن موقفي قد تجاوز حدود المحامي وعلاقته بموكله ، إلى حد يمكن معه اعتبار المحامي اشترك في الجرم المنسوب لموكله ،قد يكون ... إذن دعونا ومن باب الاستطراد نلاحق أوهام مؤسسة الإدعاء وتهافت ما ذهبت إليه ليس بالنسبة إلي وحسب ، وإنما بالنسبة للأستاذ العزيز رياض الترك ...

213 . لقد كنت قبل اعتقالي ، بدأت بالإعداد لمذكرة أقدمها للنيابة العامة لدى محكمتكم الموقرة بالوكالة عن الأستاذ رياض الترك للمطالبة بإطلاق سراحه ، لأن الجرم المنسوب إليه لا أساس له في القانون للأسباب التالية :

1 – لقد قال الأستاذ رياض الترك في اتصال أجرته معه محطة الجزيرة الفضائية عبارة : (مات الديكتاتور) ، ولم يحدد من هو الديكتاتور الذي مات بالاسم ، والقاعدة القانونية الثابتة تقول أن الشك يفسر لصالح المتهم ، هذا أولاً .. وثانياً فإن مؤسسة الإدعاء قد تقول أن الحديث كان عن سورية ، وبالتالي فإن المقصود بالعبارة (رئيس الجمهورية السابق) فالعبارة إذن غير موجهة إلى رئيس الجمهورية ، وإنما إلى شخص متوفى كان رئيساً للجمهورية ، وحيث أنه إذا كان الذم ليس موجهاً إلى رئيس الدولة فإن الدعوى العامة لا تحرك إلا بشروط لا حاجة لبحثها هنا ، وبما أنه لاجرم بلا مادة قانونية فإن قانون العقوبات قد نص على جرم الذم الواقع على رئيس الدولة في المادة 376 عقوبات التي نصت على : الحبس من سنة إلى ثلاث سنوات إذا وقع الذم على رئيس الدولة .

– لكن ، ما هو تعريف الذم ...؟ لقد استقر الاجتهاد على تعريف الذم كما يلي : (الذم على ما عرفه القانون هو نسبة أمر إلى شخص ينال من شرفه أو كرامته، ويشترط فيه أن يكون الأمر المنسوب واقعة معينة ومحددة ..)

- نقض سوري جنحة 538 قرار 434 تاريخ 2 / 3 / 1979 .
فهل لفظة (ديكتاتور) تنال من الشرف أو الكرامة ...؟!

2 – إن مصطلح (ديكتاتور) أيها السادة هو مجرد مصطلح سياسي يُستخدم في التوصيف والتقييم ، يعبر عن رأي سياسي، ولا يدخل بأي حال من الأحوال تحت باب الذم.. فلفظ : (Dictator) (ديكتاتور) يعني (حاكم مطلق) ، قد يكون الأمر قد اختلط على مؤسسة الإدعاء فأعطت هذا المصطلح معاني لا يحتملها .. نريد أن نوضح فقط أن (Despotic) (ديسبوتك) يعني (استبدادي) ، وأما مصطلح : (Tyrant) (تيرانت) يعني (طاغية) ..... أما مصطلح ديكتاتور فإنه لا يعني إلا مجرد توصيف يعبر عن (حاكم مطلق)، لا أكثر من ذلك ولا أقل .. وهذا لا يحتمل أي تأويل بأنه يتضمن أي شكل من أشكال الذم أو القدح أو التحقير ... فإذا أضفنا إلى ذلك أن العبارة بالأصل ليست موجهة إلى رئيس الجمهورية أو رئيس الدولة كما ينص عليه قانون العقوبات ، فإن الجرم المنسوب إلى الأستاذ رياض الترك لا أساس له ، وإذا كان لا يوجد جرم أصلاً ، فإن ما يمكن أن ينسب إلي من الاشتراك فيه يصبح عدماً ..بل أقول أكثر من ذلك : أن مصطلح (ديكتاتور) هو مصطلح قانوني ، فقد جاء في الحقوق الرومانية أنه أحياناً أوجبت بعض الظروف الاستثنائية الخطيرة توحيد مقام الحكام الأعلين وهم القناصل في مقام واحد وشخص واحد ولمدة قصيرة مؤقتة فيذهب القناصل ويحل محلهم حاكم مطلق هو الديكتاتور AL- Dictator ويجمع في شخصه جميع السلطات.. وكان القناصل أنفسهم هم الذين يعينون في الأصل هذا الحاكم الفرد المطلق ، ماعدا الحروب الفينقيية التي جرت مع قرطاجة الفينيقية حيث جرى انتخاب الديكتاتور من قبل الشعب .

3 – لقد استقر الاجتهاد القضائي على توضيح هذه المسألة فلنتابع :

"إن القانون أحاط القيادة العامة بكثير من الرعاية والاحترام للمحافظة على مكانتها ، ورفعة شأنها وإبعادها، عن كل ما يحط من كرامتها.. ولم يقصد من ذلك حرمان الناس من حرية التعبير عن آرائهم أو الضغط على أفكارهم ما دامت واقفة عند حدود الآداب بألفاظ مهذبة لا تجرح الكرامة ولا تنال من السمعة ...وكان ما نسب إلى الطاعن من انتقاده القيادة .. ليس فيه مس بكرامة أحد ولا انتقاص لاحترامه أو حط لمكانته مما ينتفي معه الركن الأساسي لترتيب العقوبة على المدعى عليه الطاعن ...."

نقض سوري – جنحة 1870 قرار 1381 تاريخ 10 / 9 / 1962.

وهذا اجتهاد آخر : " إن الحكم بالإدانة الصادر بجريمة تحقير رئيس الدولة يجب أن يشمل ألفاظ التحقير، وهي الركن المادي للجريمة حتى تتمكن محكمة النقض من مراقبة صحة تطبيق القانون على الواقعة، ولا يكفي مجرد القول أنه شتم رئيس الجمهورية " .

نقض سوري – أحداث 417 قرار 186 تاريخ 15 / 5 / 1982

هل يكفي هذا لنفي مثل هذا الجرم المنسوب بدون وجه حق إلى الزميل الأستاذ رياض الترك .. إذا كان هذا يكفي ، وهو يكفي فعلاً ، فإن الحديث عن جرم الاشتراك في جرم لا وجود له، يغدو بلا معنى .....!

214 . أما ، أن ينسب إلي جرم (ما) لأنني قلت في بيان أصدرته بمناسبة اعتقال الأستاذ رياض الترك " أننا في منتدى جمال الأتاسي على استعداد لأن نفتديه " ، ثم كررت هذا الموقف في الاستجواب ، فإنني أكرره مرة ثالثة أمام محكمتكم الموقرة ، ويشرفني تحمل مسؤولية ما قلت من التزام .. فهذا الرجل إضافة لما قلته فيه في الباب الأول من هذه المرافعة، قضى ثمانية عشر عاماً في السجون بدون محاكمة .. ومن الطبيعي أن نقول أن ذلك كان تعسفاً بحقه ، ورغم ذلك ، فإنه عندما أتيح له أن يقول كلمة علناً على منبر منتدانا ، لم يطالب بالثأر ، ولم يطالب بالتعويض ، ولم يطالب حتى بالمحاسبة ، وإنما دعا إلى الحوار ، وإلى عقد وطني جديد ، وفتح صفحة جديدة .. ألا يستحق هذا الموقف النبيل أن يُحتَرم ، وأن يُقتدى صاحبه الذي قضى جل حياته في السجون يدافع عن مبادئ عامة ، بغض النظر عن نسبة الصح أو الخطأ فيها ...؟ أما كان من الممكن أن يقابل هذا كله بغير الاعتقال مرة أخرى ؟

215 . بهذا ، نكون قد فرغنا من ملاحقة الأشباح التي اختلقت هذا الإدعاء، والتي أفرغت كيدها في تصنيع هذه الدعوى التي تفتقد أي مستند قانوني ، أو حتى عقلاني .. وهذا يضعنا وجهاً لوجه أمام القانون فينتصب السؤال الهام عن العلاقة بين القانون والحق والعدل ، وكيف تنسق هذه العلاقة ....؟ ... الجواب على هذا السؤال هو الثمن الوحيد الذي أطلبه مقابل حريتي التي حرمت منها .. أعرف أن الجواب ليس بمقدور فرد ، ولا مجموعة أفراد ، إنه بحجم أمة يضحي بعض أفرادها بحرياتهم ، علها تنعم بالقانون والحق والعدل ، ومن ثم بالحرية في المستقبل الآتي من الزمان ...!

الفصل السادس

في القانون

216 . أيها السادة ، لن أثقل عليكم بعد هذا كله .. وحقيقة سأكون في غاية الامتنان إذا كنتم قد وصلتم معي إلى هذه النقطة ، فأنا أدرك كم كانت هذه المرافعة متعبة، وأدرك مدى التشابك والتداخل بين المواضيع التي تناولتها ، فقد حاولت – قدر ما أستطيع- أن أخاطب فيكم ضمير القاضي العادل والعارف ، لأنه في هذه الحالة يكون بعض من ضمير أمته ووجدانها وصوتها وسوطها أيضاً.. وما يعينني أولاً وأخيراً ، أن تكون هذه الرسالة قد وصلت ، ذلك أنني شعرت منذ اللحظة الأولى أن الدخول في متاهة التفاصيل ، بانتزاع كلمة من هنا أو عبارة من هناك ، كما حاولت مؤسسة الإدعاء أن تفعل ، سيشوه جوهر هذه القضية التي اعتُقِلت على حسابها .. وبالتالي لن أدخل في تفاصيل الوضع القانوني فهذا لن يغيب عن فطنتكم من جهة ، كما أنني لا أملك الحيثيات الدقيقة التي تشكل العصب الأساسي للمعالجة القانونية الجادة من جهة أخرى . فقط أريد أن أؤكد على عدة نقاط ، أعتقد أنها في غاية الأهمية ، انطلاقاً من إحساسي بالواجب والالتزام كمواطن وكمحام :

217 . أولاً : إن العشرات بل المئات من أبناء هذا الجزء العزيز من وطنكم العربي ، قد تنادوا صادقين لمواجهة ظروف تفرض عليهم أقصى درجات اليقظة والانتباه والحذر على الصعد الوطنية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقومية والسياسية ، بهدف الإصلاح والتطوير والتحديث والتنوير عن طريق الدعوة إلى الحوار والكلمة السواء، يحدوهم أمل كبير بان تتحول هذه الدعوة إلى تيار عام يفرز القوى الخيرة في هذا الجزء من وطننا العربي للتصدي لما لا بد منه ، في عالم متغير عاصف متحفز أحياناً متوحش أغلب الأحيان ، لعل أبناء هذه الأمة يولون وجوههم شطر المستقبل فينتزعون أنفسهم من الماضوية المقيدة ، ويسترجعون ذواتهم من التغريب والاستلاب، فيؤسسون على الجذر الإيجابي الممتد في تاريخهم ، ويجففون جذور الفتن والسلب والإثارة والثأر، بحيث لا تنبت في حاضرهم ومستقبلهم أبداً .... كما يمدون جسورهم إلى الإنسانية جمعاء على قاعدة التكافؤ والتأثر والتأثير والتعلم والتعليم ، ويقطعون دابر التبعية ويزيلون قواعد العدوان والهيمنة... هكذا أدركوا منذ اللحظة الأولى خطورة الأوضاع المحلية والإقليمية والدولية ، فساورهم ذلك الإحساس العارم بأنهم في سباق مع الزمن ، الذي يباعد بسرعة هائلة بين الذين تقدموا ، والذين تخلفوا ..

وبما أن أغلبهم اكتوى بنيران تجارب مريرة ، فإن الحذر والحرص كان على طول الخط ، لأنهم على دراية بأن المنافقين والمنتفعين من السلبيات والاستنقاع والتخلف على طول أرض وطنهم العربي وعرضها ، سلطات من مختلف الأنواع ، وجيوش ومخبرين ، وسماسرة ، ووكلاء متعددو الكفاءات لمتعددي الجنسيات، سيكونون بالمرصاد لكل من يعكر عليهم صفو استقرارهم وسطوتهم .. فإدراكاً لهذا كله وما يحيط به ، ولمواجهة كل قوى السلب والاستلاب هذه ، أصدروا البيانات وأسسوا المنتديات ، وجهروا بالحق ، أو بجزء منه على الأقل ، وحذروا الجميع بأن الأخطار تهدد الجميع في هذا الوطن العربي، حاكمين ومحكومين .. وبالتالي فإن الحوار ، والكلمة السواء ، هو الطريق الوحيد لإحياء المجتمع العربي الذي أنهكته وحاصرته قوى وأجهزة متعددة الأشكال أحياناً ، متعددة الجنسيات أحياناً أخرى ، فكيف نكيف نشاط هذا النفر الذي هب استجابة لما أعتقد أنه نداء تاريخي للنهوض ...؟

أكاد أقرّ معكم أن الأمر يتوقف على الزاوية التي يُنظر منها لهذا الحراك التاريخي ، على الموقع ... لكنني أكاد أجزم أن القضاء العادل والعارف الذي أناشده ، لا يمكن بأي حال من الأحوال ، أن يكيف هذا الحراك على أنه جرم ....! .

218 . ونحن العشرة الذين اعتُقِلنا على ذمة هذا الحراك ....، والذين تحدثت عنهم في الباب الأول من هذه المرافعة ، لم يمارسوا في هذا الحراك من نشاطات إلا ما مارسه المئات غيرهم ، وأحياناً الآلاف ، فقد أخذ أحد البيانات هذا الاسم (بيان الألف) ...فلماذا اعتقلوا ، هم ، بالذات ، دون غيرهم ، وما هي المعايير التي اعتمدت ، ومن الذي اعتمدها ، ولماذا .....؟! .

رهط من المثقفين يتنادون لتأسيس منتدى ، أنا مجرد واحد منهم ، فلماذا يتم اعتقالي ، بينما يثابر المنتدى الذي اشتركت في تأسيسه على نشاطاته بحضور المئات يناقشون ، ويحاورون وفق برنامج اشتركت أنا في وضعه ....! .

جماعة من المثقفين يشتركون بتأسيس منتدى آخر، يحضر نداوته المئات فلا يعتقل من المؤسسين إلا د . كمال اللبواني والأستاذين حسن سعدون وفواز تللو ...!

تنتشر دعوات إحياء المجتمع المدني ، وتصدر البيانات يوقع عليها المئات والألوف فلا يُعْتَقل سوى : د . عارف دليلة ، و د . وليد البني ..!

يتحدث العديد من أعضاء مجلس الشعب عن ضرورة الإصلاح ، وتحديث القوانين ، والديمقراطية ، فلا يُعْتَقل سوى الأستاذين مأمون الحمصي ، ورياض سيف ...!

يتداخل العشرات في الندوات ، والمنتديات ، يعبرون عن آرائهم ..فلا يُعْتَقل إلا الأستاذ حبيب صالح .....!

يحاضر العشرات في الندوات والمنتديات يعبرون عن الآراء والمواقف ، يحاضر الأستاذ رياض الترك يدعو الجميع إلى عقد وطني جديد، فيُعْتَقل دون سواه ....!
أود أن أؤكد أن تلك الأصوات كانت في الغالب هي الأكثر هدوءاً وتسامحاً، من أصوات أخرى كثيرة في هذا الحراك الواسع ...فما هي المعايير التي حددت ، والتي تم الاعتقال بالاستناد إليها ...؟

219 . قد تقولون ما علاقة هذا كله بالقانون ....؟ أقول لكم ! هذا في صميم القانون ، وفي توضيح موقفي أقول ، أن إثارة هذه القضية لا يستوحى منها (لا سمح الله) لماذا لم يعتقل سوى هؤلاء ...؟ وإنما على العكس من ذلك تماماً ، لماذا اعتقل هؤلاء بالأساس ....؟! وهل تم ذلك الاعتقال تصفية لحسابات وأحقاد دفينة ، أم تم هذا الاعتقال بشكل ذرائعي انتقائي أو عشوائي.. وفي الحالتين، فإن هذا بحد ذاته انتهاك فاضح للقانون .... وأنتم تدركون تماماً ما أقصد ...لأنكم تدركون أن الركن الأساسي لينهض القانون في مجتمع (ما) ، هو المساواة ، أمام القانون .... فعندما ينتفي عنصر المساواة .....ينتفي القانون أصلاً ....فلا يصح تحت أي عذر أن ينتهك ركن المساواة أمام القانون ....
هل أدركتم الآن ، أنني عندما توسعت في البحث عن الأسباب الكامنة وراء اعتقالي في الباب الأول من هذه المرافعة (طالما أن ملف الدعوى لا يتضمن ما يمكن الاستناد إليه في عملية الاعتقال هذه) ، لم أكن أخرج عن السياق الحقيقي والغامض لهذه الدعوى ..؟!

220 . ثانياً :ثم أنني أريد حقيقة أن أعبر لكم عن مشاعر يختلط فيها الأسف بالحزن ، لأنه قد انتهى من العالم كله ، حتى في أغلب الدول المتخلفة ، ذلك الانتهاك لحقوق الإنسان الأصلية والأساسية ، بأن يُعْتَقَل نفر من المواطنين لمجرد أنهم أدلوا بآراء ، أو عبروا عن مواقف ثقافية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية .. وإذا كان الركن المادي للجريمة حيث لا تقوم إلا به ، يتمثّل في (الفعل ، والنتيجة الجرمية ، والعلاقة السببية بينهما) ، فكيف يمكن أن يسوغ اعتقالنا دون أي شكل من أشكال الفعل الجرمي ، وبالتالي انتفاء النتيجة الجرمية ، والعلاقة السببية ....فعلى مدى أكثر من عام من أنشطة المنتديات ، والبيانات ، وكافة ظروف الحراك الاجتماعي المحكي عنها ، لم تحصل مشاجرة واحدة ، لم يوجه أحد لأحد مجرد كلمة نابية ...فمن يضار من مثل هذا الحوار البناء الراقي ...؟ ثم بالنسبة لي شخصياً، فإن كل ما أدليت به من بيانات وتصريحات كانت تتم بصفتي الناطق الرسمي باسم منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي الذي ما زال يمارس نشاطاته حتى الآن ...لقد حاولت أن أستعيد كل ما نُسِبَ إلي وإلى زملائي المعتقلين ،واستغربت استغراباً شديداً كيف يمكن أن ينسب إلينا جرائم لا وجود مادي ولا معنوي لها ...إنكم أيها السادة لو دققتم في ملفات هذه الدعاوى لن تجدوا أي أثر للجرائم ، إلا ، فقط ، في متن الأسئلة التي صاغتها مؤسسة الإدعاء وحسب .

221 . ثالثاً : ليس نحن الذين نقول ، السلطة هي التي تقول أن الوضاع في سورية قد استقرت اعتباراً من السبعينيات من القرن الماضي ، وأنها انتقلت إلى الشرعية الدستورية والمؤسسات ، وأن هناك دستوراً دائماً نافذاً في البلاد منذ عام 1973 .. لهذا فإن الدعوة المخلصة للبناء على هذا ...تقتضي أن يقال بأوضح ما يمكن أن الكثير من المراسيم الاستثنائية ، والقوانين الاستثنائية ، والمحاكم الاستثنائية ، لم تعد صالحة قانوناً ودستوراً ، في ظل الاستقرار والدستور الدائم ، وفي المقدمة من ذلك قانون الطوارئ ، ومرسوم إحداث محكمة أمن الدولة العليا .. وحتى إذا كانت الأوضاع في البلاد تقتضي قانوناً للطوارئ ، فإن ذلك المرسوم التشريعي رقم / 51 / تاريخ 22 / 12 /1962، ليس هو المرسوم المناسب والمنسجم مع الدستور ، حتى ولو كانت الظروف تستدعي تأسيس محكمة أمن عليا للدولة فليس المرسوم التشريعي رقم / 47 / تاريخ 28 / 3 / 1968 هو المرسوم الذي يمكن أن يكون ناظماً لمحكمة في ظل الدستور الدائم ...

222 . رابعاً وأخيراً ، أنتم أيها السادة ، أمام قضية بالغة الأهمية والحساسية ، لا تتعلق بشخوص المعتقلين على حسابها ، وإنما قبل ذلك كله وبعده ،تتعلق بمستقبل هذا الوطن ، ومستقبل الحريات العامة ، ومستقبل حقوق الإنسان الأصلية والأساسية ، ومستقبل الديمقراطية ، والتعددية .. وهي بذلك ربما تكون امتحاناً لكم ، أكثر مما هي امتحان بالنسبة إلينا ، فكان الله في عونكم ..

الفصل السابع

في النتيجة

223 . أيها السادة، أود أن أختتم هذه المرافعة بما ابتدأت فيه . فما دعوت إليه خارج هذه الزنزانة ، أدعو إليه من خلف قضبانها .. لقد دعوت للحوار ، للكلمة السواء ، لرفع كافة أشكال القيود عن إعادة الحياة لمؤسسات المجتمع السياسية والاجتماعية والثقافية ، وإعلان قانون للأحزاب ، وآخر للجمعيات الخاصة والمنتديات والجمعيات ذات النفع العام ، وأدعو إلى إنهاء حالة الطوارئ ، وانتخاب مجلس للشعب انتخاباً حراً يكلف بتعديل الدستور بما يتناسب مع دعوات الإصلاح والتجديد ، ثم يعرض على الشعب للتصويت عليه .. وندعو إلى إطلاق كامل سجناء الرأي ، وتحديد اختصاصات الأجهزة الأمنية ضمن اختصاصاتها التي تم تأسيسها من أجلها حصراً ، وأن تندرج نشاطاتها تحت سقف الدستور ، والقوانين الناظمة ، وأن يعلن يوم وطني في سورية لإلغاء الاعتقال السياسي نهائياً ، واحترام الحقوق الأساسية والأصلية للإنسان ، وانتخاب المؤسسات التشريعية والنقابية انتخاباً حراً نزيهاً لتستعيد مضامينها الحقيقية ، وإطلاق حرية الرأي والصحافة ، والفصل بين السلطات ، واستقلال كل من السلطتين : التشريعية ، والقضائية عن السلطة التنفيذية استقلالاً تاماً .

إنني ، ومن موقفي القومي أجد أن تحقيق ذلك كله هو السبيل الوحيد للاستقرار الإيجابي في البلاد ، وهو السبيل الوحيد لإعادة الحيوية إلى مجتمعنا لينهض كركن أساسي وقوي من أركان الدولة .. فتتقوى الدولة ويصان أمنها ، وتصبح أكثر مقدرة على مواجهة الأخطار الصهيونية التي لا تقف أطماعها عند احتلال الجولان الحبيب ، وبهذا يتمكن هذا الجزء من الشعب العربي أن يساهم مساهمة إيجابية في تهيئة أسباب النهضة للأمة العربية ، كما يساهم بذلك بتشييد دعامات قوية للوحدة العربية فتواجه قوى الهيمنة وتحرر المحتل من أراضيها ، وتستعيد المغتصب من ثرواتها ، وتطرد قواعد العدوان من أراضيها ، وتنفتح السبل لعدالة اجتماعية تشمل أبناء الأمة العربية بأسرها فتعيش بما تمتلك من إمكانيات وطاقات ، وتساهم في بناء نظام دولي عادل وانساني ، عوضاً أن تكون موضعاً للنهب من نظام الهيمنة والنهب الراهن ...وما لم نتمكن من النهوض هنا، لن نتمكن من المساهمة في مشروع النهضة القومي والإنساني الذي ننشده ..!!

224 . هكذا تجدون أيها السادة أنني لم أكتفِ بما قلته خارج هذه الزنزانة ، وإنما أضفت إليه ، فإذا كان في ذلك الذي قلته، وفي هذا الذي قلته هنا ، جريمة فإن الجريمة باتت مضاعفة ...

225 . على أية حال أشكر لكم رحابة الصدر ، والصبر على أحلام حبيسة ، كان يجب أن تقال لكم ، وعبركم إلى جميع من يهمهم الأمر .. واسمحوا لي أن أختتم هذه المرافعة بفقرة من رسالة عزيزة على قلبي تمكنّ ولدي عصمت سيف الدولة من تهريبها إليّ ، سأترك الرسالة له لينشرها فقط بعد أن (أقْبْض) لأنها تتضمن من المديح ما لا أحتمله ..

يقول عصمت سيف الدولة الشاب : (سأقول لك يا والدي ، لم أكن مرفوع الرأس قوياً ، كما أنا الآن ، بعد دخول ، أو بالأحرى اقتحام هؤلاء المسلحين لبيتنا الصامد لأنه يحمل اسمك ، لكي ينفذوا أمر اعتقالك ... لا تقلق يا والدي فنحن لا نحقد على أحد ، ولا نملك لمساعدتك ، وأنت في المعتقل ، إلا بقاءنا أقوياء مرفوعي الرأس ... لقد كان غيابك القسري عنا فرصة لكي نكتشف الكثير من الأمور .. لقد اكتشفت يا أبي ، أن لي أعماماً في جميع بلاد العرب من المحيط إلى الخليج ، وقد كانت مراهنتك في محلها تماماً ... لقد كنت دائماً معك يا أبي ، فكل ما فعلته ، وقلته يضيء لي ولجيلي ، ولخالد وجيله ، وشهد وجيلها ، مستقبلاً أفضل، تسود فيه مبادئ العدالة الاجتماعية ، ويصبح القانون فوق الجميع ، هذا القانون الذي أدرسه في كلية الحقوق يصعب علي أن أراه لا يُطَبّق ....)

إنه قرار حكم أيها السادة ، قرار حكم من الجيل العربي القادم ، سيكفيني زاداً في ما سيأتي من أيام ، أو أشهر ، أو سنين ، لمواجهة أي حكم يصدر بحقي ... فلا حرج، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وأنا أدرك أن ما بوسع أنفسكم ليس بالكثير ، احكموا بما تؤمرون ، والسلام على من اتبع الهدى ، ابتداءً ، وانتهاءً ....

ولا حول ولا قوة إلا بالله

سجن دمشق المركزي – القسم السياسي
الزنزانة رقم / 6 /
فجر الاثنين : 11 / 2 / 2002
المحامي

حبيب عيسى